الياس طنوس الحويك
اللبناني

تاريخ
نابليون الأول

المجلد الثالث

دار ومكتبة الهلال
بيروت

تاريخ
نابوليون الأول

تاريخ

نابوليون الأول

لمؤلفه

الياس طنوس الحويك

اللبناني

الجزء الثالث

منشورات

دار ومكتبة الهلال

ص.ب ٣٠٠٥ - ١٥

يُخلّدُ ذكرَ المرءِ في الناسِ فعلُهُ   ويُحييهِ فيهم فضلُهُ وصفاتُهُ

ومَن تنقضي أيامُهُ وهْوَ خاملٌ   فسيّانِ فيهم موتُهُ وحياتُهُ

وإن يَستفدْ منهُ الورى في حياتهِ   أقامَ لهُ صرحَ الخلودِ مماتُهُ

الياس طنوس الحويك

كلمة المؤلف

اصدرنا الجزئين الاول والثاني من تاريخ نابوليون الاول والآن نشرع في اصدار الجزء الثالث والاخير منه وهو يتضمن خاتمة حياة الامبراطور السياسية والحربية وما لقيه من المماكسات في اواخر حياته . واضفنا الى هذا الجزء فصولا شتى في مختلف المواضيع مما له علاقة بتاريخ ذلك الرجل العظيم وافردنا فصلا خاصاً للاحتفال بانقضاء مئة سنة على وفاته وكان اكبر احتفال واهمه في مدينة أجاكسيو مسقط رأسه وقد أتيح لنا أن نشهد هذا الاحتفال الذي دام ثلاثة أيام متوالية . فكتبنا خلاصة ما شاهدناه وسمعناه وفي التاريخ فصل خاص أيضا اودعناه ترجمة ما كان يفوه به نابوليون الكبير من كلام الحكمة وخلاصة اعتقاده في الدين والآداب والحكم وعلاقات البشر بعضهم ببعض من دون أن نعلق شيئا على ذلك .

وغاية ما نأمله هو أن يروق كتابنا هذا القراء الكرام وأن يروا فيه عبرة وذكرى فالعظمة والكمال لله وحده



الفصل الاول

سقوط نابوليون وتنازله عن الملك — استقدام البوربون

وداع فنتنبلو — الشخوص الى جزيرة البا

يارومية ويافينا ويابرلين ويامدريد ويانابولي ويااليشبونة ويا موسكو ياعواصم أوربا القديمة لقد انتقم لكن جميعا فباريس سقطت في نوبتها في قبضة الاجنبي ودخل الروسي والجرماني قصري اللوفر والتويلري وخيم القوزاق في ساحة الثورة واوشك البوربون ان يعودوا الى عاصمة فرنسا. وقد ظن البربر انهم أصابوا نصرا مبينا وخيل لاعداء الثورة انهم ادركوا ضالتهم المنشودة ولكن ساء ما توهموا وضل سهم فكرهم عن المرمى. فالهمجية وعدوة الثورة لم تقهرا ولن تقهرا المدنية والديمقراطية ولا يكون احتلالها لتلك المدينة دليلا ساطعا على انتصارهما. وهب أصبحت المحالفة صاحبة السلطة في باريس فسيظل الفرنسويون الى ما شاء الله أصحاب المجد الباذخ وسيستأنفون مع غزو اعدائهم لبلادهم التربية الحرة التي باشروها في فتوحهم وسيعلمونهم الفنون والعلوم والصناعة والآداب والشرائع وافكار البلاد المنصوب فيها عرش الروح الديمقراطي ومبادىء الحضارة. وسينهض الشعب الفرنسوي العظيم باعباء مهمته في نشر هذه المبادىء ومد لواء حمايته على غيره من الشعوب فيعود أولئك الاقوام الى مواطنهم وقد زاد تباهيهم بما اقتبسوه عن الفرنسويين على تباهيهم بما أصابوه من الانتصار في الحرب وهم لم يصيبوه الا بوفرة عددهم والصدفة والخيانة . . . .

وليربع البوربون وانصارهم على ظلعهم فانهم وان وفقوا الى استعادة الصولجان فالامة الفرنسوية تنظر اليهم بمقلة النفور وتزداد اعتصاما بالمبادىء الجديدة وتشتد رغبة في السعي وراء المصالح الناشئة عن الثورة وتعلق أهمية عظمى على ما نالته الديمقراطية من الفتوح في المجتمع الانساني.

وعليه أفضى ما بذله الملوك من العناء الى مناوأتهم: فمن الجهة الواحدة

نرى ان ذلك الرجل العظيم المنحــدر عن العرش لا ينحدر عن المنزلة الرفيعة التي يحتلها في التاريخ وان هو فقد تاجه فلا يفقد مجده ودهاءه وعظمته الادبية ومن الجهة الاخرى نجد ان ذلك الشعب العظيم سيظل في اثناء تسلط الاجنبي وخصوم الثورة عليه شديد الاستمساك بغرز مبادئه الثورية وشديد المحافظة على ماله من القوة على تمدن الشعوب ويظل سائدا العــالم الراقي . هــذه أعمال العناية . وقد قال المسيو بالانش في هذا الصدد « ان تحرير البشرية تحريرا تدريجيا وارتفاع الشعبية ارتفاعا مستطردا ومنح حرية العمل وتقديس حقوق الأهلية تقديسا منافيا لسواه وانشاء ارسطقراطية الفضــائل والمواهب والخــدم أي انشاء الديمقراطية الحقيقية النهائي هي الغايات التي رمت اليها أفكارها الثابتة من نشأة العالم وصارت تلاحق تحقيقها المتتابع في العصور المتعاقبة وان يدها غير المنظورة تعمل بطرق تدري وحدها منعطفاتها ومنافذها لتعزيز ذلك المبدأ وتوجه الى تلك الغــاية القوى المتمردة التي تصارع مصارعة عنيفة ما يأتي به المستقبل ولا يكون من مرد له وتملل النفس الآن بانها امنت عودة الماضي » .

واحتلت جيوش الاجانب عاصمة الامبراطورية الفرنسوية ولم يرض الحلفاء ببقاء نابوليون أو أحد أفراد أسرته على العرش ولــكن عاهل النمسا وحده افتكر بملك رومية ووكيلة الامبراطورية . اما الاسكندر فاتخــذ لهجة الاعتدال وكرم الاخلاق وجاهر بانه يحترم ارادة الشعب الفرنسوي ودعاه الى اختيار ما يلائمه من اشكال الحكومة وهي دعوة وهمية حملت بعض نفر من الحزب الملــكي يدعون أنهم يعبرون عن اماني الامة وكان أولئك الاشخاص يذهبون مذهب تاليران . فتألف وفد كان الـكونت فران المشهور في جملة اعضائه ومثل في حضرة عاهل روسيا : وقد زعم هــذا الوفد انه لسان حال فرنسا وانه لبى دعوة القيصر وكان الـكونت دي نسلرود يعلم افـكار مولاه خافيها وباديهـا فقال للوفد ان رغبته موافقة لفــكر سيده ، على انـ مجاهرة الاسكندر بمنح فرنسا نوع الحــكومة الملائمة لهــا وابداءه لتاليران ما قد يعترض عودة البوربون الى العرش لم يكونا سوى ستار ستر به حقيقة مقاصده كما صرح بذلك فيما بعد المسيو دي بوريان احد ممثلي الرواية التي ابتغى عاهل الروس تمثيلها : فلم يحتج الاسكندر الى تصريحات البرنس دي بنيفان ليعلم ان لويس الثامن عشر

كان المبدأ وان المخالفة لم تقاتل الا في سبيل هـذا المبدأ . الا أنه جعل لوضعه موضع الاعتبار غاية وقف عندها من زمان طويل كأنها نتيجة لتظاهرات الرأي العام وشاء ان يخبيء مطالبه الخاصـة ومطالب حلفائه وراء سلطة مجلس من مجالس الدولة يعتبر لسان حال الامة الرسمي . وقد سهل له تاليران الوصول الى أمنيته بعد ما جعله يسمع مناداة بعض أنصار البوربون بطلب ارجاع هـذه الاسرة الى عرش المملكة بتأكيـده له أنه يجعل المجلس يقرر كل ما يبتغي : كسقوط نابوليون واستقدام لويس الثامن عشر مثلا فان المجلس لم يكن في غابر الحين ينبذ شيئا من مطالب نابوليون وهـذا ما حمل الامة على ان تنظر اليه بعين الاحتقار . وقد حققت الحوادث ما أمله تاليران فقرر مجلس الشيوخ في ٢ ابريل سقوط نابوليون بونابرت وأسرته عن عرش فرنسا ثم انه وضع قرارا آخر دعا به زعيم البوربون الى لبس تاج آبائه . ولـكن لما كان أعضاء الاقلية في المجلس وهم الذين كانوا يعارضون نابوليون في بعض الاحيان وكان هو يتهكم عليهم ويسميهم فـكريين قد عضدوا الحزب الملـكي رجاء الحصول على دستور أشد ملاءمة للحرية العامة فقـد كان يوم كانت لهم فيه الـكلمة المسموعة في المجلس بعـد ما كانوا حتى ذلك الحين بمثابة صفر الى يسار الرقم . وسهل لهم تاليران وضع قرار دستوري احتفظ به رجاء ان يتخذه في المستقبل سلاحا يقاتل به لويس الثامن عشر

ولما كان تاليران بصفة كونه رئيسا لحـكومة وقتية يتولى بمؤازرة بورنفيل وجوكور ودلبرغ والاب منتسكيو السلطة في العاصمة بالنيابة عن الاجانب والبوربون كان نابوليون في فنتنبلو وقد احاط به الحرس الامناء الملتهبون رغبة في الانتقام من العار النـاشيء عن استسلام باريس وحف به ايضا اركان حربه ولم يكونوا يشعرون بالحماسـة والجزع اللذين كان يشعر بهما أولئك الحرس الاباسل وجاء الدوق دي فيسنس بين ٢ ابريل و٣ منه وقال له ان الملوك الذين ابقى عليهم مرات كثيرة مع مقـدرته على دك عروشهم بعد استرلتز وايانا ووغرام يأبون مفاوضته بشأن الصلح ويطلبون تنـازله عن العرش فهاج هائجه في ريق الامر لما سمع ذلك الـكلام وخطر له ان يلجأ مرة أخرى الى القتال لبت المسألة بتاً جازماً ولـكنه رأى ان كل شيء حوله يسوده الصمت والـكآبة فان

رفاقه القدماء في الجندية اصبحوا اصحاب مناصب عالية في امبراطورية متداعية ولم يبد أحد منهم ارتياحا حقيقيا الى معونته على ابقائهـا قائمة أو لم يقل منتسكيو : « جد بالنعمة على انسان فاول امر يخطر له هو التذرع بجميع الذرائع التي تمكنه من المحافظة عليها » وقد اختبر نابوليون هـذا الامر بذاته اختبار مؤلما بعثه على ان يخط السطور الآتية :

« حيث أن الدول المتحالفات اعلن أن العاهل نابوليون هو المانع الوحيد لتوطيد اركان السلم في اوربا فالعاهل نابوليون البار بقسمه يعلن أنه مستعد للانحدار عن العرش ومغادرة فرنسا حتى والحياة نفسها في سبيل الوطن غير المنفصل عن حقوق ابنه وحقوق وكيلة الامبراطورية والمحافظة على شرائع الامبراطورية

كتب في قصرنا بفنتنبلو في ٤ ابريل سنة ١٨١٤ نابوليون »

وفوض الى كولانكور حمل ذلك الصك الى باريس وصحبه ناي ومكدونال وأراد نابوليون أن يضم اليهم مرمون وان يكن استسلام باريس معزوا اليه . فهل كانت غاية العاهل أن يحول بهذا الفعل دون توغل ذلك الرجل في مجاهل الخيانة ومنعه إياه عن ارتـكاب خطأ آخر فوق الخطأ الاول يكون أثقل جرما وأخف عذرا

وتوجه المارشالان مع الدوق دي فيسنس الى العاصمة ولما علم الامبراطور ما كان من خيانة مرمون وانحيازه الى الحلفاء وزع على الجيش نشرة يذكر فيها تلك الخيانة ويسود فيها صحيفة مجلس الشيوخ .

ولم ينجح مندوبو نابوليون في مهمتهم فان الوثيقة التي عقدها مرمون مع البرنس دي شوارتزنبرغ وانحياز جيشه الى الاعداء تحت جنح الدجى جرأا الحلفاء على الاكثار من مطالبهم بتصلف والمجاهرة مع تاليران بان لويس الثامن عشر مبدأ يسعى الملوك المتحالفون لتأييده ولا يهملونه عند نيلهم النصر وعليه لم يرجع الدوق دي فيسنس الى فنتنبلو إلا بطلب جديد من الحلفاء مآله تنازل نابوليون عن العرش وحرمان ولي عهده وجميع أسرته حقوق الخلافة.

فنبذ نابوليون بحذق شديد ذلك الطلب العنيف المحقر وفكر بطريقة جديدة في استئناف القتال وعدد ما لديه من الوسائل في الشمال والجنوب والالب وايطاليا إلا أن حسبانه وآماله ومقاصده لبثت شخصية : فاذا أجابه أحد

على سؤال وجهه اليه لم يكن جوابه موافقا لاقتراحاته أو مشجعا اياه على مقاصده . فتوالت الاعتراضات عليه بكثرة ولم يحبسوا السنتهم عن التفوه بامكان نشوب حرب أهليـة فتردد العاهل وتجاذبت عوامل الشك فؤاده ولـكن ذكرى الحرب الاهلية أثرت فيه فما ابطأ ان صاح قائلا : « أما وقد قضي علي بألا أفـكر في الدفاع عن فرنسا أفلا الفى في ايطاليا معتزلا يليق بي فهل يبتغون لحاقي اليها ... هلموا بنا الى الالب . »

وعند سماع الحضور ذلك الـكلام اكفهرت وجوههم وخفقت افئدتهم فعلم نابوليون أنه لم يكن لديه أركان حرب لودي واركول ليندفعوا الى المسير وراءه ايان ذهب ولم يخف عليه ان الامراء الذين منحهم القاب الشرف المتوارثة في امبراطوريته تبرموا من طول تمرسهم بالحروب ولا سيما بعـد ماذاقوا لذة الأبهة والعظمة في البلاط . وقال البارون فان في هذا الصدد :« لو كان نابوليون المستاء من قواده قد برح ذلك البهو ودخل الغرفة المقيم فيها الضباط للقي شبيبة مستعدة لتلبية طلبه ولو اوغل قليلا في التقدم لحياه جنوده عند أسفل الدرج وطبقوا الفضاء باصوات التهليل والتكبير ولأقال حماسهم عثار نفسه الخائرة ولـكن نابوليون خضع لعادات ملـكه وظن أنه يسقط ولا محالة ان هو انطلق الى الروع ولم يصحبه القواد الذين خاضوا معه غمرات الهيجاء »

وقد جنى الامبراطور عار الارتجاع الملـكي الذي سقط فيه : فـكان يعوزه الآن القادة الصناديد الذين حلفوا له بحماسة في طولون على أن يصحبوه إلى مصر ولـكنه لم يجدهم في تلك الساعة على مقربة منه مع كونهم القادة انفسهم الذين كانوا معه في طولون . والسبب في ذلك هو أن الجمهورية لما رفعته الى المنزلة السامية أعطته في الحين عينه حاشية من الابطال المدربين وصيرت الامبراطورية أولئك الابطال سادة عظماء تعوزهم الارادة والقوة للحيلولة دون سقوطه . وكان هو أصل هذه الاعمال المتناقضة فان نابوليون كما قيل عنه «أصلح سرير البوربون » فلم يبق عليه والحالة هـذه إلا أن يتراجع امامهم وهم يدنون ويذعن لتقلبات الاقدار والحدثان وهذا ما صحت عزيمته على فعله فتناول القلم وبعد بضع دقائق ناول كولانـكور الصك الذي طلب منه الحلفاء توقيعه وهذا نصه :

« حيث ان الدول المتحالفات أعلن أن العاهل نابوليون هو المانع الوحيد لتوطيد اركان السلم في اوربا فالعاهل نابوليون البار بقسمه يعلن أنه هو واولاده يتنازلون عن عرشي فرنسا وايطاليا ولا يدخر أدنى تضحية حتى والحياة نفسها في سبيل مصلحة فرنسا . نابوليون »

فماذا يكون الآن مصير ذلك الذي ساد اوربا بعد ما نزع سلاحه من يده وخلع عن عرشه وماذا يكون حظ رجل نازل في مقام عال تستطيع ذراعه في كل حين أن تحرك العالم وفي أي مكان يحصر

وتردد الملوك المتحالفون في اختيار مكان يحصرونه فيه : أفي كورفو أم في كورسيكا أم في جزيرة البا واجمعت كلمتهم أخيرا على اختيار جزيرة البا وكتبوا وثيقة قرروا فيها ما يجب عمله بالاسرة الامبراطورية جمعاء ولكن نابوليون إغتاظ من ذلك الامر وانكر تلك المعاملة فقال : « ما الفائدة من ابرام هذه الوثيقة فهم لا يشاؤون أن يقرروا معي ما يتعلق بمصالح فرنسا . » ثم انه انفذ رسولا الى كولانكور يوعز اليه بأن يسترجع صك تنازله ولكن كان الامر قد قضي .

ووقعت الدول المتحالفات في ١١ ابريل الوثيقة التي انكرها نابوليون وفي الغد دخل الكونت درطوي مدينة باريس . وافتتح حكمه باذاعة نشرة وعد بها بالغاء القرعة العسكرية والحقوق المتحدة ولم يخف على البوربون ان نابوليون فقد ميل الشعب اليه بوضع ضرائب شتى باهظة وبتمديد أجل الحرب ولم يذهب عنهم أن ما أبداه القوم من تظاهرات الفرح والابتهاج في جنوب فرنسا ناشيء عن رجوع السلم والسكينة وعن آمالهم بتخفيف اعباء الضرائب اكثر مما كان ناشئا عن سرورهم بعودة الاسرة المالكة القديمة . فحدتهم سياستهم على الاستفادة من هفوات العاهل ولم يحجم اكبر كاتب في ذلك العصر عن تسديد سهام الطعن الى نابوليون مسهبا في الشكاوي التي سودت صحيفة العاهل في انظار الامة فقال : لا نريد قرعة عسكرية ولا حقوقا متحدة . واضافوا الى ذلك وعودهم بتعزيز المنشئات الحرة ومعاهدتهم الشعب على احترام مصالح فرنسا الجديدة المادية والادبية . ولم يسبق للثورة أن ظهرت بمثل ذلك المظهر من الشدة . وحين هوى الدهاء لاعراضه عن الاستناد اليها استنادا مطلقا بعد

ماضيرها مدة طويلة مجيدة وقوية كان اعداؤها وقد اخطأ من زعم انهم قهروها مضطرين ان يسكنوا روعها ويعللوها بالآمال ويقدموا لهـا الضمان ويعدوها بنيل الاماني .

وفي الليلة التي تلت دخول الـكنت درطوى مدينة باريس حدث في فنتنبلو حادث لم يكشف الزمان قناع الحقيقة عن محيا سره فقد رؤي في القصر اضطراب فائق العادة فـكان خدام نابوليون يهرولون الى غرفته وقد دخـل عليهم الذعر ودعي الاطباء وأوقظ برتران وكولانـكور وماره اصدقاء العاهل الصدوقون . وكان نابوليون المصر على نبذ توقيع وثيقة ١١ ابريل والمستفاد من أحاديثه انه يضمر مقاصد مجهولة مشؤومة ولا سيما منذ الحين الذي علم فيـه انهم يمنعون زوجته وابنه عن موافاته يشعر باوجاع معوية شـديدة بحيث انهم توهموا أنه تجرع سما . الا أن مبادرة أطبائه الى معالجته بالادوية اللازمة أدت الى تسكين اضطرابه تسكينا كان من ورائه شفاؤه التام . على أن الـكتبة الميالين الى الظن بأنه عالج الانتحار يزعمون أنه قال وقت ماشفي : « ان الله لايشاء هذا » ولـكن المقيدين بخدمته وفي جملتهم الذين صحبوه الى المنفى يقولون أن الآلام الحادة التي شعر بها نابوليون في تلك الليلة السرية لم تـكن سوى نتيجة طبيعية للصدمة الادبية التي اصابته في العشرة الايام الاخيرة وقد انـكروا كل الانـكار ما ذاع عن محاولته الانتحار . ويقال أن الدوق دي باصانو أدى مثل هـذه الشهادة .

وكيفما كان الامر لم يدعهم الامبراطور يشعرون بشيء ممـا قاساه في الليل فانه نهض من رقاده في الاجل المعين وكان أشـد اذعانا ممـا كان عليه في اليوم السابق وطلب الوثيقة التي أبى توقيعها فوقعها .

اما ماري لويز التي زارها في رمبويه عاهلا النمسا وروسيا والتي حظر عليها الذهاب الى فنتنبلو فانها انتظرت ارتحال زوجها لتشخص الى فينا مع ابنها الامير الحدث الذي كان جـده العاهل فرنسوى من اكبر العاملين على هـدم صرح مستقبله . وفقد نابوليون كل شيء : التمتع بالعظمة السياسية والسلوان العذب الذي يلقاه في العيشة البيتية . ولم تـكن جزيرة الباسوى سجن ضيق يحصرونه فيه الا أنه لم يلق له بدا من الاذعان للاقدار التي قيضت له المقام فيهـا . وجاء الـكولونل منطولون وأكـد له على غير جدوى ان الجنود والاهلين في شرق

فرنسا شـديدو الاخلاص له . وقد قصد بذلك الـكلام تشجيعه على مقارعة الخطوب بحد البتار فاجابه نابوليون : « لقد قضي الامر ولا يكون ما نقدم عليه سوى حرب اهلية وعليـه لاشيء يستطيع أن يجعلني اصرف حمامة النفس الى هذا الامر » . واطلق المارشال سولت آخر قنبلة في ١٠ ابريل في معركة طولوز وهو لايدري شيئاً مما هو جار في باريس وفنتنبلو وكان عمله هذا خاتمة للمجد المسطر في تاريخ الحرب الفرنسوية .

وفوضت الدول المتحالفات الى بعض المندوبين امر المضي بنابوليون الى جزيرة البا وضرب اليوم العشرون من شهر ابريل موعـدا للرحيل . وفي الليل السابق يوم الرحيل حذا كنستان خادم نابوليون الخاص والمملوك رستان حذو كبار رجال الامبراطورية وهجرا سيدها .

وانحدر العاهل الى ميدان « الحصان الابيض » في ٢٠ منه عند الظهر وقـد اصطف فيـه الحرس الامبراطوري ولم يبق عنده سوى بعض المخلصين وفي جملتهم الدوق دي باصانو والجنرال بليار . وخفقت قلوب الجنود عند دنوه واغرورقت عيونهم بالدموع فرفع العـاهل يده مشيرا انه يريد أن يتكلم فصمتوا جميعهم ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير وكل منهم يود أن يحفظ الـكلمات الاخيرة التي يبتغي ذلك الرجل العظيم توجيهها الى نخبة رجاله الشجعان فقال لهم مايأتي :

« ياقواد وياضباط وياجنود حرسي القدماء اودعكم : فانا سررت منكم مدة عشرين سنة ووجدتكم دائما على طريق الفخار .

« ان الدول المتحالفات جندوا علي اوربا جمعاء وقد خان قسم من الجيش واجباته وفرنسا نفسها شاءت تخير حظ آخر .

« يمكنني أن اباشر بكم وبالشجعان الباقين على ولائي حربا أهليـة تدوم ثلاث سنوات ولـكنه أمر وخيم التبعة على فرنسا وهـذا مخالف للغاية التي توخيت المسير اليها . أخلصوا الخدمة للملك الجديد الذي اختارته فرنسا لها ولا تولوا صفحكم وطننا العزيز السيء الطالع واحبوا هـذا الوطن العزيز حباً شديدا مستمرا .

« لاترثوا لحالي فانا اكون سعيداً حين اعلم انكم سعداء .

« لقد كان الموت مستطاعا لي ولا شيء اسهل علي من ذلك ولكنني لا انفك عن المسير على جادة الشرف . وقد بقي علي ان اكتب تاريخ مافعلناه .

« لاتتسنى لي معانقة جميعكم ولكنني اعانق قائدكم ... تعال يا جنرال ... (يعانق الجنرال بتي) جيئوني بالراية ... (يقبل الراية) ايتهـا الراية العزيزة فليكن لهـذه القبلة دوي في افئدة جميع الشجعان ... الوداع يا أولادي ... فلتصحبكم اماني داعا فاحفظوا ذكراي ! »

ولما سمع الجنود هذا الكلام عات اصواتهم بالنحيب وذرف الدموع جميع المحيطين بالعاهل ولم يقل تأثره عن تأثرهم فأسرع في الصعود الى المركبـة وكان الجنرال برتران قد سبقه اليها وأعطيت علامة الرحيل في الحال وفصل نابوليون عن فنتنبلو يصحبه المارشال الاكبر والجنرالان دروو وكمبرن وبعض اشخاص شاطروا أولئك الابطال المخلصين اخلاصهم . وكان في اثناء مروره على الطريق حتى آخر حـدود البروفانس يسمع الشعب يهتف قائلا : فليحي الامبراطور ! فأثر فيه ثبات الشعب هـذا وعزاه . وعلم أنه مع ما أتاه من الاعمال الجارة الى سقوطه لايستطيع البوربون أن يمحوا من فرنسا عبادة اسمه .

ولقي العاهل بين ليون وفالنس اوجيرو فلامه هذا على فراره من الموت كجندي على ان نابوليون الذي جهـل حتى ذلك الحين ما في كلام اوجيرو من معنى الاهانة القبيحة انحدر من المركبة ليعانقه ولما وصـل اليه نزع قبعته عن رأسه وابقى المرشال قبعته على رأسه في اثناء محادثته لنابوليون وحين وداعه اياه . وبعد ساعة من الزمان وجد العاهل بعض فصائل من فيلق اوجيرو على الطريق فحيوه بمثل التحية التي كانوا يحيونه بها وهو على العرش وصاح الجنود قائلين : ياصاحب الجلالة ان المارشال اوجيرو باع جيشك

واضطر العاهل الى تجنب المرور بافينيون لئلا يصيبه اذى من المتآمرين الذين بطشوا في السنة التالية بالمارشال برون .

ولما وصل الى مقربة من لوق في ٢٦ منه عند المساء بات عند عضو من أعضاء المجلس الاشتراعي فلقي عنده الاميرة بولين ووصل الى فريجوس في الغد . وبعد مامكث في هذه المدينة اربعاً وعشرين ساعة ركب البحر في الساعة الثامنة مساء شاخصا الى جزيرة البا .

الفصل الثانى

الوصول الى برتوفراجو ـ الاقامة في جزيرة البا ـ العودة الى فرنسا ـ النزول في كان ـ الزحف الى باريس بانتصار ـ ٢٠ مارس سنة ١٨١٥

مااعظم المقاربة بين ادوار حياة ذلك الجبار الفائقة سواها في التأثير في مايصحبها من التناقض ! ان فريجوس شاهدته يلقي عصاه فيها عند عودته من مصر محفوفا بمرمون ومورات وبرتيه وغـيرهم وهو آت لينتزع السلطة العليا من ايدي ممثلي فرنسا ويبني اساس امبراطورية واسعة قوية : وبعد خمس عشرة سنة جاء الى فريجوس وقد عراه من تلك السلطة الاجنبي المعجب به والخائف منه والمجالس الصامتة السلسة المقادة القائمة على انقاض المجالس الهائجة في عهد الجمهورية . ونزل هذه المرة ايضا في فريجوس وهو لايبتغي القبض بيديه على ازمة الاحكام في دولة عظيمة وترميم اكبر عرش في العالم ولـكنه أسقطه عن ذلك العرش ودفعه عن سكان بلاده مجلس الشيوخ عينه ولطالمـا قبض بيده على مباخر التملق والتزلف والمجلس الاشتراعي الذي جرعه في ثلاثة أشهر كؤوس المهانة وحله ولـكن رفاقه الاقدمين وانسباءه الادنين خانوه وخذلوه كمرمون ومورات وبرتيه وغيرهم ... فالله قد شاء هذا الامر والله لايصنع شيئا عبثا فلتكن قدرته ومشيئته !

ووصل نابوليون الى ميناء برتو فراجو في ٣ مايو سنة ١٨١٤ وهو اليوم الذي وصل فيه لويس الثامن عشر الى باريس . فبادر رجال الحـكومة في جزيرة البا الى استقبال عاهلهم على متن السفينة الحربية البريطانية التي قلته . وفي الغد صعد العاهل الى البر فأطلق اجلالا وتحية له مئة مدفع ومدفع وخف جميع السكان الى لقائه وفي مقدمتهم المجلس البلدي ورجال الدين .

وقال شاهد عياني: «وتأثر العاهل وحاشيته من ذلك المشهد الغريب عند رؤيتهم علامات الفرح البسيط بادية على وجوه الالبيين الفتيان ودلالات الحماسة ظاهرة على جباه أولئك العركيين البسطاء الذين كانوا من عهد بعيد يسرون بأن يرووا

للجنود الفرنسويين ما آثر خطيرة شتى وانتصارات مشهورة مقرونة باسم نابوليون . وفعلت شهرته بالنفوس فعل نسكباته بها . وكانت الاسئلة التي يلقيهـا العاهل بسكينة وابتسام ثغر على الاهلين حتى على أحقر واحد منهم تزيد في حماستهم . »

وعني العاهل بتنظيم شؤون الادارة في جزيرة الباكأنه ينوي أن يحكم فيها بطريقة جدية ومدة طويلة وكأن قوة دهائه لاتضيق عنها حدود مثل هذه المملـكة الصغيرة : فبحث عن اتاء الجزيرة وموارد الصناعة فيها وطاف في جميع انحائها ومهد فيها جميع السبل المؤدية الى تحسين أحوالها .

ووصل كمبرن في ٢٦ مايو مع ابطال الحرس القدماء الذين اختاروا مشاطرة العاهل منفاه وجاءت بعد ذلك الاميرة بولين والسيدة لاتيسيا لتقيا معه لأنهما لم تشاءا الانفصال عنه .

وانتظر نابوليون بفروغ صبر وصول الاخبار من فرنسا . وكما كان في غابر الحين وهو على ضفاف النيل يتصفح صحف اوربا بلهفة ليرى هل جاء الزمان الملائم لاجتياز البحر والعودة الى فرنسا لقلب هيئة حكومة الديركتوار بات الآن يتوق الى تدبر الصحف السيارة ومطالعة الرسائل الخاصة ليعلم كيف تتحمل الامة الفرنسوية نير الاجانب والبوربون وكيف يتصرف هؤلاء الاجانب والبوربون مع الامة الفرنسوية ولم يكترث لما تنشره الصحف في كل يوم من الانتقادات المرة الموجهة اليه وقال للجنرال برتران في ذات يوم وقد جاءه هذا بالجرائد الفرنسوية : « وهل يبالغون اليوم في تمزيق بردة عرضي » فاجابه المارشال الاكبر : « ليس فيها شيء اليوم عن جلالتك . » فضحك نابوليون وقال: « ستكون اذن نوبتي غدا فهي حمى الغب ولـكن ستنقضي نوبها . »

وكانت الحـكومة التي انشأتها المحالفة لفرنسا تبدي انها جديرة بأصل نشأتها فقد بقيت مواعيد الـكونت دي بروفنس عرقوبية وبنى لويس الثامن عشر منشوره على ارادته والحق الالهي وعاد النبلاء الى الظهور بمظهر الغطرسة والبذاءة ورجال الدين الى نبذ الهوادة . وصارت سحائب النعم تمطر من سماء العرش البوربوني على المهاجرين واصبحت صواعق نقمتها واحتقارها تنقض على ابطال الجيش القديم . فمنح كادودال لقب شرف وبولغ في الاطراء على مورو وأقيم تمثال لبيشغرو وجرع جنود فرنسا الامناء صاب الذل وعلقم الصغارة

وغسلين الغضاضة . وجميع الاعمال التي اتاها الشعب العظيم في عهدي الجمهورية والامبراطورية أُلغيت من تاريخه اولم تذكر فيه الا موصومة بوصمة العار والخزاية من جراء الاختلاس والفتنة الناجمة عنهما . وان ذلك الامير الذي عاش في الخمول بين ظهراني اعداء فرنسا حين كانت جنودها تجر اذيال النصر الباهر في فلوروش ولودي ومارنغو واسترلتز زعم انه كان صاحب الامر والنهي في فرنسا في عهد استرلتز ومارنغو فأرخ اعماله في السنة التاسعة عشرة من ملكه . على ان الصحافة القادرة على مناصبة هذه المبادىء الكاذبة ومقارمة هذه المزاعم الفاسدة وتسويد الاعمال المنكرة لم تكد الحكومة تعلن منحها الحرية حتى عادت فكمت فاها وقيدتها باداهم الاستبداد واعادت المراقبة غير مبالية بالمنشور الملكي .

ولما تنازل العاهل عن العرش رأى بعين البصيرة ماسيأتيه البوربون من الهفوات وامكان رجوعه الى العرش . وتذكر مفكرات جزيرة القديسة هيلانة ما كان في ذلك الحين يجول في ذهنه من الافكار وتفسر لنا حقيقة المقاصد الجريئة التي سيضعها نابوليون عن قريب موضع الاجراء . ودونكم الكلام عينه الذي فاه به نابوليون عند تكلمه عن الايام الاخيرة التي قضاها في فنتنبلو .

« لوقصد البوربون الى انشاء اسرة خامسة لما احتاج القوم الي هنا ولكان دوري قد تم تمثيله ولكن اذا اصروا على اعادة الاسرة الثالثة فلا البث ان اعود . ويمكن القول ان البوربون يستطيعون ان يتصرفوا على هواهم بتذكاري وسيرتي : ولو اكتفوا بان يكونوا حكاما لامة عظيمة واراد وا ذلك الامر لرأى في سوقة الناس طماعا وطاغية ومشاغبا وآفة .

فما اعظم مايحتاجون اليه من الفطنة ورباطة الجأش ليقدرني القوم حق قدري وينصفوني ولكنهم شاؤوا ان يعيدوا تمثيل دور السادة الاقطاعيين وفضلوا ان يكونوا زعماء حزب تمقته الامة جمعاء » .

واذا كان نابوليون قد جعل الناس يقولون عنه في سنة ١٨١٤ انه أصلح سرير البوربون فالبوربون في نوبتهم سيفتحون في وجهه الطريق المؤدي الى العرش وحالما عرف نابوليون موقف فرنسا ووقف على الحظ الذي يدخره له مؤتمر فينا عقد عروة عزمه على ما يجب عليه ان يفعله ولم يتردد في اجرائه طرفة

عين . وقد اكثر النــاس من الــكلام عن علاقاته بفرنسا وايطاليا وبأنصاره واحلافه واعضاده وارادوا ان يبنوا خروجه من جزيرة البا على دسيسة ولكن ثبت الآن ان الدسيسة المزعومة لم تخرج عن دائرة ذهنه وانه لم يستشر احدا في ما نواه وان جميع الناس في برتو فراجو كانوا يجهلون ذلك حتى الليلة التي سبقت مغادرته للجزيرة ما عدا دروو وبرتران

وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥ في الساعة الواحدة بعد الظهر أوعز نابوليون الى حرسه بالاستعداد للرحيل فنم أولئك الشجعان في الحال باسرار الحماســة الــكامنة في صدورهم وكانت والدة الامبراطور وشقيقته الواقفتان في نافذة القصر تزيدان في تحريك ساكنات الاقدام والاخلاص في افئدتهم . ولم يسمع في كل جهة غير هذه الــكلمات . « باريس أو الموت »

وأذيعت على ســكان جزيرة البا نشرة رسمية تنبئهم بان العاهل نابوليون مصمم على مفارقتهم وقال الجنرال لابي حاكم الجزيرة في تلك النشرة : ان عاهلنا الاعظم دعته العناية الى خوض غمار المجد وقد اضطر الى مزايلة جزيرتــكم وفوض الي قيادة الجند فيهــا واصار الى مجلس مؤلف من ستة أعضاء من الاهلين ادارة شؤونها والى اخلاصكم وبسالتكم الدفاع عن قلعتها .

وهذا ماقاله نابوليون : «انطلق من جزيرة البا وفؤادي يفيض ابتهاجا من تصرف اهليها واني أكل اليهم الدفاع عن هــذه البلاد التي اعلق عليها اهمية كبري . ولا يمكنني ان اعطيهم برهانا اعظم من ابقائي والدتي وشقيقتي تحت حمايتهم . ويستطيع اعضاء المجلس وجميع الاهلين في هذه الجزيرة ان يتكلوا على انعطافي وحمايتي الخاصة » . وفي الساعة الرابعــة مساء ركب متن السفينة (انكنستان) اربع مئة رجلا من الحرس القدماء وركب خمس سفن أخرى صغيرة مئتان من المشاة ومئة فارس بولوني وفرقة أخرى من الجنود . وفي الساعة الثامنة مساء صعد العاهل الى السفينة « انكنستان » ومعه الجنرالان برتران ودروو . وفي الحال اعطيت علامة الرحيل باطلاق مدفع واحد فرفعت القلوس فوق ذلك الاسيطيل

وكانت الريح في بدء الامر مؤاتية ولــكنها ما عتمت ان صارت معاكسة فقذفت الاسيطيل الى ناحية الشاطىء فارتأى البحارة العودة الى برتو فراجو

ولكن العاهل نبذ ذلك الرأي وانشأ في اثناء السفر النشرات التي ابتغى توزيعها على الامة والجيش فنسخ عنها الجنود نسخا متعددة ودخل خليج جوان في أول مارس في الساعة الثالثة ونزع عنه علامة جزيرة البا قبل صعوده الى البر واوعز الى جنوده بنزعها عنهم ووضع بدلا منها العلامة المثلثة الالوان فطبقت اصوات الجنود الفضاء قائلين : فليحي الامبراطور فلتحي فرنسا وصعدوا الى البر عند ساحة كان وكان العاهل اخر الصاعدين . وبينا اركان حربه يعنون بأمر اختيار الموقع الموافق لنزول الجيش الصغير على شاطىء البحر جعل هو يتنزه وحده على الطريق ويحدث الفلاحين ملقيا عليهم أسئلة شتى وفي الساعة الواحدة صباحا امر رجاله بمغادرة ذلك المخيم وسرى باقي الليل في مقدمتهم ناحيا غراس وحيث كان مقضيا عليه بالمسير ماشيا قسما من الطريق هوى الى الحضيض مرات كثيرة وحين ابصره احد جنوده ينهض باسم الثغر قال لرفاقه : «هنيئا لنا فلا ينبغي ان توثأ اليوم رجل جان دي ليبه (هـذا الاسم كانوا يطلقونه فيما بينهم على نابوليون) ويجب ان نسميه جان دي باريس »

ووصل العاهل الى دينيي في ٤ مارس وطبع فيها النشرات البديعة التي انشأها على متن « الانكنستان » وقد توقع منها تحريك ساكنات الحماسة والوطنية في افئدة الامة والجيش . وننشر هنا نشرتين من أهم تلك النشرات صادرتين عن خليج جوان في أوّل مارس وقد أودعهما نابوليون غاية ما تبلغ اليه فصاحته وبلاغته .

نشرة الى الشعب الفرنسوي

« أيها الفرنسويون ان خيانة الدوق دي كستليونه سلمت اعداءنا مدينة ليون بغير مدافعة فالجيش الملقاة اليه مقاليد قيادته كان قادرا بعدده وبسالته ووطنيته على مقاتلة الجيش النمساوي الواقف بازائه ومهاجمة ميسرة جيش العدو المهدد باريس .

« وقد جعلت جيش العدو في موقف اليائس انتصارا تنا في شمبوبير ومنميرايل وشانوتياري وفوشان ومورمان ومنطيرو وكران ورنس وارسس سور اوب

وسان ديزيه وعضدنا هيجان الفلاحين الاشداء في اللورين والشمبانياوالالزاس والفرنش كنته والبرغونة والمواقع التي اتخذناها عند ساقة جيش العدو بفصلنا إياه عن مراكز ذخائره ومؤنه وعدده ولم يكن الفرنسويون قبل ذلك الحين أشداء كما كانوا عليه حينئذ وكان يمكن ان يفقد نخبة جيش العدو على بكرة أبيه وأن يلقوا قبورهم في تلك البلدان الواسعة التي اكتسحوها بصورة همجية ولكن خيانة الدوق دي راغوزا سلمتهم العاصمة وضعضعت اركان الجيش فحينئذ غيروجه الحرب ما لم يكن منتظرا من تصرف ذينك القائدين خائني وطنهما وعاهلهما والمحسن اليهما . وقد أصبح موقفنا مؤلما بحيث أنه حينما انتهت المعركة الناشبة أمام باريس لم يكن لدينا ذخائر من جراء انفصالنا عن مستودعها

« اجل ان فؤادي تصدع عند حدوث هذه الامور الخطيرة الجديدة ولكن نفسي ظلت ثابتة وغير متزعزعة فلم اعتبر الا مصلحة وطني وآثرت الاعتزال مختارا على صخرة في وسط اللجة وقد كانت حياتي ولا تزال مفيدة لكم ولم ارض بان السواد الاعظم من الوطنيين الذين شاؤوا مرافقتي يشاطروني نصيبي وقد ارتأيت ان وجودهم في فرنسا مفيد لهم . ولم آخذ معي غير العدد النزر من الشجعان الذين رأيتهم ضروريين لحراستي

« وقد وقع اختياركم علي فرفعتموني الى العرش وكل ماصنع بدونكم لا يعتبر شرعيا : فمنذ خمس وعشرين سنة اصبحت لفرنسا مصالح جديدة وانظمة محدثة ومجد طارف لا تصان الا على يد حكومة وطنية واسرة ناشئة في مثل هذه الاحوال الحديثة . فالملك الذي يتولى الحكم عليكم ويجلس على عرشي بقوة الجنود الذين اكتسحوا ارضنا وعاثوا فيها مفسدين يسعى على غير طائل للاستناد الى مبادىء الامتيازات الاقطاعية ولا يمكنه أن يضمن الا كرامة العدد اليسير من اعداء الشعب الذ شجبه من خمس وعشرين سنة في جميع المجالس الوطنية وحقوقه فانتم تفقدون بثة واحتكم في الداخل واحترام الناس لكم فى الخارج .

« ايها الفرنسويون سمعت وأنا في المنفى شكاويكم وأمانيكم فأنتم تطلبون الحكومة التي اخترعتموها وهي دون سواها حكومة شرعية . ولقد شكوتم من سباتي الطويل وانثنيتم عليّ بالملام زاعمين اني ضحيت بمصالح الوطن العظيمة في سبيل راحتي .

« لقد اجتزت البحار في وسط المهالك على اختلاف انواعها ووصلت اليكم ابتغاء استعادة حقوقي التي هي حقوقكم . وكل مافعله الافراد أو كتبوه أو قالوه من سقوط باريس سأطوي عنه كشحي وهو أمر لا يؤثر البتة في ذكرى ما أحفظه لهم من الخدم الجليلة التي أدوها فليس من حوادث من طبيعتها ان تكون فوق الانظمة البشرية .

« أيها الفرنسويون ليس من أمة مهما استصغر أمرها الا ويحق لها التملص من عار الخضوع لملك أقامه عليها عدو انتصر عليها انتصاراً وقتيا . ولما دخل شارل السابع مدينة باريس وقلب عرش هنري الخامس الوقتي اعترف بأنه مدين بنيله العرش لبسالة شجعانه وليس للامير وكيل المملكة البريطانية وافتخر بان يكون لكم ولابطال الجيش الفضل عليّ بكل شيء . »

نشرة الى الجيش

« أيها الجنود لم نقهر . فقد خرج من صفوفنا رجلان خانا انتصاراتنا وبلادها وعاهلهما والمحسن اليهما .

« أو هل تظنون أن الذين ابصرناهم مدة خمس وعشرين سنة يجوبون انحاء اوربا ليحرشوا الناس علينا ويقضون حياتهم في مقاتلتنا في صفوف الجيوش الاجنبية لاعنين فرنسا الجميلة يزعمون أنهم يتسلطون على اعلامنا ويقيدوها وهم الذين لم يكونوا يطيقون النظر اليها وهل نطيق إن نراهم يجنون ثمار اعمالنا المجيدة ويستولون على مفاخرنا وأموالنا ويسمون بمجدنا وأحسابنا واذا دام ملكهم فقدنا كل شيء حتى تذكار تلك الايام الخالدة .

« ولشد مايفعلون لافساد حقيقتها ويعالجون الغض من كرامة مايعجب به العالم . واذا بقي ثمة من يدافع عن أعراضنا فيكون بين اولئك الاعداء انفسهم الذين قاتلناهم في ساحة الهيجاء .

« أيها الجنود لقد سمعت اصواتكم وأنا في المنفى فأتيت مذللا جميع المصاعب وغير مكترث للمهالك .

« ان قائدكم الذي اختارته الامة للجلوس على العرش وكنتم انتم من أقوى العوامل لشهرته عاد اليكم فهلموا الى موافاته .

« انزعوا هذه الرايات التي رذلتها الامة وكانت في اثناء خمس وعشرين سنة علامة لتألب اعداء فرنسا وانشروا الراية المثلثة الالوان التي حملتموها في أيامنا العظيمة .

« يمكننا أن ننسى انا كنا سادة الامم ولكن لايحسن بنا أن نطيق أن نرى أحدا يتدخل في شؤوننا . فمن يستطيع هذا الامر استعيدوا تلك الاعلام التي نشرتموها في ألم واسترلتز وايانا وايلو وفردلاند وطوديلا وا كمهل واسلنغ ووغرام وهمولنسك والمسكوفا ولتزن وورتخن ومنميرايل . وهل تظنون أن اولئك الفرنسويين البذيئين القليلي المدديقدرون أن يحتملوا رؤيتها فسيرجعون من حيث اتوا وهناك سيملكون اذا شاؤوا كما يزعمون أنهم ملكوا من تسع عشرة سنة .

« ان أموالكم ومناصبكم ومجدكم وأموال أولادكم ومناصبهم ومجدهم ليس لها من أعداء أشد عداوة من الملك الذي أقامه الاجانب عليكم فهم أعداء مجدنا لانهم قضوا على رواية الاعمال الخطيرة الكثيرة التي عظمت اسم الشعب الفرنسوي وقد قاتلهم للتخلص من نيرهم

« لقد تجرع كؤوس المهانة قدماء الجنود في جيش السامبر والموز والرين وايطاليا ومصر والغرب والجيش العظيم وقد امتهنت ندوبهم المكرمة واعتبرت انتصاراتهم جرائم ويعتبر هؤلاء الابطال متمردين ان هم كانوا كما يزعم اعداء الامة ملوكا شرعيين بين جيوش الاجانب . وستكون المعالي والمكافأة والعطف للذين عضدوهم لمناصبتنا ومناهضة الوطن .

« أيها الجنود تعالوا والتفوا تحت الوية زعيمكم فحياته لاتتألف إلا من حياتكم وحقوقه ليست سوى حقوق الشعب وحقوقكم ومصلحته وشرفه ومجده ليست سوى مصلحتكم وشرفكم ومجدكم . وسيسير النصر امامكم مسرعا وسيطير النسر بألوانه الوطنية من قبة الى قبة حتى يبلغ ابراج كنيسة نوتردام : وحينئذ يمكنكم أن تفاخروا بابراز ندوبكم وحينئذ تستطيعون ان تفتخروا بافعالكم وتكونوا مخلصي الوطن .

« ووقت ماتبلغون الشيخوخة ومحيط بكم وطنيوكم الذين يحترمونكم يسمعونكم بكل تجلة تروون ماكان من مآثركم الجليلة وتستطيعون أن تقولوا باعجاب : « وانا كنت أيضا من جملة رجال ذلك الجيش الكبير » الذي دخل مرتين فينا وروميه وبرلين ومدريد وموسكو وانقذ باريس من الوصمة التي لطختها بها الخيانة ووجود العدو .

« فسعدا لهؤلاء الجنود القساور فخر الوطن ! وسحقا خالدا للفرنسويين المجرمين من أي درجة كانوا وهم الذين قاتلوا خمسا وعشرين سنة مع الاجنبي لتمزيق بردة الوطن . »

وبشرت هذه اللهجة فرنسا الجديدة بعودة ممثلها الجيد وأعلنت أن الديمقراطية وجدت لسان حالها وبطلها فالامة والجيش خفا بحماسة شديدة الى ملاقاة المنفي العظيم .

ووصل نابوليون الى غاب في ٥ مارس فاستقبل في تلك المدينة بمثل التظاهرات الابتهاجية التي ابداها له القوم على الطريق . وبعدما جاهر بعضهم بمناوأة الثورة واستقبلوا بفرح عظيم ملك لويس الثامن عشر القصير المدة عاد الدوفينيون الشديدو الاعتصام بالثورة وحيوا بجذل ماوراءه من مزيد الداهية المخلص الذي قدم لنجدة المساواة ولطالما بذل المجهود في سبيل الدفاع عنها وجاء البوربون الآن يهددون كيانها .

وبرح نابوليون حاضرة الالب الاعلى مصحوبا بهتاف الشعب بجملته وعند مروره بسان بونه اقترح عليه الاهلون أن يقرعوا الاجراس ويهبوا هبة واحدة لتعزيز حاميته لزعمهم أنها ضعيفة لاتستطيع ايصاله الى باريس وخصوصا لان الحاميات الكثيرة منتشرة على الطريق فقال : « لاتفعلوا هذا الامر فعواطفكم تشعرني باني لم انخدع وهي تضمن لي عواطف جنودي فالذين القائم على الطريق سينضمون الي وكلما زاد عددهم ضمن لي النجاح فأقيموا ناعمي البال في منازلكم »

وتم انابوليون على تلك الصورة اختبار ميل الشعب فكان لاسمه ولدهائه وقع شديد عنده . وبقي عليه معرفة عواطف الجيش وكان يزعم أنه منقاد بجملته اليه . ودنا العاهل من غرينوبل وهو يتوقع مقاومة من الحكومة ومن قائد

الجند فانتهى الى الجنرال مرشان امر بارسال فصيلة من الجنود على طريق لامور للتصدي لنابوليون فأرسل الفصيلة الخامسة من المشاة لتلك الغـاية والتقت طلائع جنود العاهل بهذه الفصيلة على مقربة من لافريت ولم تستطع ان تقنعها بفتح الطريق والانتظام تحت راية الجيش القديم . ووقف ضابط من ضباط الجنرال مرشان وأمر جنوده بالامتثال للاوامر العسكرية. ولما انتهى الى نابوليون ذلك الامر اسرع الى حيث كانت طلائعه وترجل ووقف أمام الفصيلة المذكورة وهو يخشى من أن يكون ثباتهـا مثالا سيئا لسائر العساكر . وكان الحرس يسيرون وراءه وسلاحهم منكس وهم يشيرون بذلك الى أنهم لا يبتغون الالتجاء الى العنف في تصرفهم فصاح نابوليون بأولئك الجنود قائلا : « ما بالـكم يا أصحاب أفلا تعرفونني ؟ أنا امبراطوركم واذا كان بينكم من تحدثه النفس بقتل قائده وامبراطوره فهاءنذا أمامه . » قال هذا الـكلام وكشف عن صدره فأراد الضابط ان يغتنم الفرصة ويأمر رجاله باطلاق النار ولـكن غطى صوته صياح هائل طبق الفضاء فان الفلاحين الذين كانوا قد غشوا المرتفعات وملأوا الطرق صاحوا بملء افواههم : فليحي الامبراطور ! وشاطرهم الجنود ذلك الصياح وفي لمحة طرف انضم جنود الفصيلة الخامسة الى أبطال جزيرة البا وتصافحوا وتعانقوا وشد الرماة البولونيون وراء ذلك الضابط حتى ماوراء فيزيل ولـكنه تمـكن من النجاة منهم بسرعة جواده . واستأنف العاهل مسيره الى غرينوبل يحف به جمهور غفير كان يزداد عدده كلما تقدم . وذكر نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة أنه شاهد في واد من أودية الدوفينه جنديا ضخم الجثة يخرج من بين الجمع المحدق به وهو يبكي من فرط الفرح ويحمل بين ذراعيه شيخا له من العمر تسعون سنة وكان هذا الجندي من حامية جزيرة البا ففقد وأولوا فقده على صور شتى ولـكنه لم يتوار وقتيا منفصلا عن رفاقه إلا ليأتي بأبيه ويقدمه للامبراطور

ولما وصل نابوليون الى فيزيل رأى حماسة الشعب الدوفيني تزداد شيئا فشيئا وسمعهم يصيحون من كل جهة : « هنا منشأ الثورة وهنا طلب آباؤنا قبل غـيرهم التمتع بامتيازات الاحرار وهنا أيضا ستنبعث الحرية الفرنسوية وتسترد فرنسا شرفها واستقلالها »



نابوليون الثانى ملك رومية

على أن العاهل وهو مار أمام قصر الدوفين الذي التأمت فيه الجمعية الوطنية الاولى في سنة ١٧٨٨ لم يسمه الا مشاطرة الجمهور تظاهراته فصاح في نوبته وقد أثر فيه ما أورده الدوفينيون من الحوادث الماضية والموقف المحفوف بالخطر الذي صارت اليه الديمقراطية في شخص ممثلها : « نعم من هـذا المـكان خرجت الثورة الفرنسوية . »

وكأنه كان يناجي نفسه قائلا : وفي هذا المـكان أيضا ستصيب الثورة الفرنسوية انتصارا جديدا على طريقة الحـكم القديمة فيضمن النجاح هنا مشروعي المبني على الجرأة والاقدام .

وبينا العاهل غائص في لجة التأملات في تلك الامور والشعب الدوفيني ثمل بخمرة الفرح شق ذلك الجمهور ضابط من الفصيلة السابعة وأخبر نابوليون ان فصيلته قادمة على جناح السرعة وفي مقدمتها كولونلها لتحية بطل فرنسا . فنابوليون ولم تـكن السكينة تبرح محياه كما كان شأنه في جميع الحوادث الخطيرة في حياته أظهر على جبينه تأثيراً شديداً من ذلك الحادث الذي أوشك أن يفتح في وجهه طريق التويلري بدون مشقة . وفي الحال أشرقت طلعته بهجـة وأملا وزال عنها بغتة ماعلاها من الغضون الناجمـة عن الاعياء البدني والوهن الذهني . وبعد ما أباح لذلك الضابط بكل مايشعر به من الشكر للفصيلة السابقة ولزعيمها وخز مطيته بالمهماز واندفع الى الامام كانه ناظر قوس نصر كاروسل . وما أبطأت الفصيلة السابقة أن ضمت صوتها الى أصوات الجماهير التي تصحبها والـكولونل سائر أمامها كالسهم المرشوق وكان كبير الجسم جميل الصورة وقد جعله طبعه الحاد وقلبه الرقيق وحركاته الدالة على الشجاعة صاحب الامر والنهي على عقول رجاله ضباطا وجنودا . وخرج من غرينوبل في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم السابع من مارس ولما ابتعد قليلا عن المدينة أمر بالـكف عن دق الطبول وبالوقوف ثم أنه شق صندوقا أخرج منه الراية الامبراطورية ونشرها أمام رجاله وصاح بصوت جهوري : « هذه الراية المجيدة التي ظللتنا في أيامنا المشهورة وذلك الذي سار بنا مرات متوالية الى النصر يدنو منا لينتقم لنا ممن جروا علينا الذل والنكبات . فقد أزف الحين للانتظام تحت رايته فهي مابرحت راية لنا . فليتبعني من يحبني ! فليحيي الامبراطور . »

والجنود الذين لم يتمكنوا إلا بشق النفس من حبس عواطفهم وقت ما كان كولونلهم يتكلم طبقوا الفضاء بصياحهم « فليحي الامبراطور ! » وكرروا ذلك الهتاف بتحمس ما وراءه من مزيد . وسار وراء الجنود جمهور غفير من الناس على اختلاف نحلهم واعمارهم وجنسهم وطبقاتهم وهم يتلهبون شوقا لتحية الرجل العظيم المتجسمة فيه مبادىء المساواة والمجـد الوطني . واشتدت رغبة الفريقين في الالتقاء وما لبثا ان اندغم احدهما بالآخر واختلط هتافهما وانضم اولئك الرفاق بعد مافرقت بينهم حوادث سنة ١٨١٤ وتعانقوا وهم يصيحون : « ليحيي الحرس ! لتحيي الفصيلة السابعة ! ليحيي الامبراطور ! » ومزج سكان مدينة غرينوبل الخافون للقاء أعظم الغزاة الفاتحين حماستهم بحماسة سكان الجبال المنحدرين من عقابه للحاق بذلك الرجل العظيم . وتمكن لابدويار النبيل الشجاع كولونل الفصيلة السابعة من الوصول الى نابوليون شاقا الجمهور الغفير فوقع على عنقه وضمه نابوليون بشدة الى صدره وقال له بلهفة عظيمة : « ياحضرة الـكولونل انك ترجعني الى العرش » .

ووصل العـاهل الى غرينوبل وقت دخول الليل فعـلم الأهلون والحامية بقدومه حين سماعهم الجلبة الشديدة والهتاف العظيم ولم يتمكن الظلام من اخفاء ذلك الامر عنهم وأمر قائد الحامية باقفال الابواب وأخذ مفاتيحها فغافله بعض الاهلين والجنود ونزلوا عن الاسوار وانضموا الى موكب العاهل . فسمعت في الحال قعقعة السلاح في المـدينة فظنوا أن المدفعيين استعدوا لاطلاق القنابل وعمد الجمهور الى الاختباء وراء البيوت المجاورة الا أن نابوليون لم يقو الخوف على الدخول عليه فظل واقفا على الجسر قبالة البطاريات . فأثرت هيئته الساكـنة تأثيرا سريعا في عقول الجمع فصاح أحد الوطنيين قائلا : « ان العاهل يبذل نفسه ونحن نسعى لمداراة انفسنا » . ولمـا قال هذا الـكلام اندفع الى المـكان الواقف فيه نابوليون وحينئذ تلا الجميع تلوه واحاطوا بعاهلهم .

واراد نابوليون أن يعلم حقيقة الحركة التي اجروها على الاسوار فدعا اليه لابدويار وامره بان يخاطب المدفعيين . فصعد الـكولونل على يفاع من الارض وصاح بصوت كالرعد القاصف : « أيها الجنود لقـد أرجعنا اليكم البطل الذي سرتم وراءه في معارك كثيرة فيجب عليكم أن تستقبلوه وتكرروا معنا الهتاف

الذي كان علامة لاجتماع قاهري اوربا وهو : ليحيي الامبراطور ! » فالمدفعيون الذين لم يبقوا في مراكزهم الا اذعانا للنظام العسكري طبقوا الفضاء بالصياح : « فليحي الامبراطور ! » وانضم اليهم جميع المحدقين بهم من الجنود والاهلين وشاطروهم الهتاف الذي بدأ به الكولونل لابدويار

وتبرم نابوليون في اثناء ذلك التحمس من داخل المدينة وخارجها من رؤيته الابواب باقية مقفلة فكان الذين في الداخل يمدون من خصاص الابواب ايديهم لتحية الذين في الخارج من دون أن يفتحوا الابواب فعيل مصطبر سكان ضواحي المدينة وارياضها وجاؤوا باساطين ضخمة من الخشب وحطموا بها باب بون ودخلوا بالعاهل المدينة وكان الاهلون فيها يصيحون بملء افواههم مهللين ومكبرين له .

وقال لاس كاس : « لم يوقد العاهل سمير معركة استهدف فيها لنبال العطب بمقدار استهدافه لها وقت دخول غرينوبل فانقض عليه الجنود وهم يبدون الغضب والحنق وخيف حينا من الزمان أن يمزقوه تمزيقا ولم يكن ذلك العمل سوى ثورة الحب والفرح حملوه بجواده »

وأعيد طبع نشرات خليج جوان في غرينوبل وأذيعت منها نسخ كثيرة وأقام العاهل يومين في المدينة عرض في خلالها الجنود والحرس الوطني واستقبل اصحاب الخطط واعضاء الندوات العلمية وخدمة الدين .

وكان نابوليون في اثناء عرضه الجيش لابسا قبعته الصغيرة ورداءه الرمادي المشهور فدنا من مدفعيي الفصيلة الرابعة وقال لهم :

« بدأت بينكم خدمتي الجندية فاحبكم جميعكم كرفاقي القدماء وقد سرت معكم الى ساحة الهيجاء ولا ازال راضيا عنكم واؤمل باننا لانحتاج الى المدافع »

وبرح نابوليون غرينوبل في ٩ مارس ووصل في الغد الى ليون في الوقت عينه الذي غادر فيه فرنسا الكنت دي بروفنس بعد بذله مقدارا كبيرا من الجهد لحمل الجنود على المدافعة عن البوربون ولم يخفره سوى متطوع واحد من متطوعي الملكية وقد انعم نابوليون على هذا المتطوع بنشان جوقة الشرف مكافأة له على أمانته واخلاصه .

واقتنع نابوليون كل الاقتناع بان الاستقبال الحافل الذي استقبله به سكان

المدن والقرى يعزى الى المبادىء الديمقراطية التي يعمل هو باسمها والى الرأي العام الذي يعتبره كلمة الثورة وروحها على انه مع الاحتفاظ بتخفيفه في المستقبل من حدة الحركة الديمقراطية لم يلق مندوحة عن منح الاحرار شيئا من التساهل لزعمه انهم هم والجنود المتحمسون ساروا به بانتصار باهر الى باريس واصدر في ١٣ مارس عدة اوامر الغى بها كل ماصدر ضد الثورة في عهد الحكومة الملكية الوقتية وامر بأن توضع موضع الاجراء القوانين التي وضعتها الجمعية الدستورية لالغاء القاب الشرف القديمة ورتبة الفرسان . واصدر امرا آخر بحل مجلس الشيوخ ومجلس النواب وامر باجتماع لجان الانتخاب في باريس ليؤلفوا مجلسا يعنى بامر تنقيح القوانين الدستورية الامبراطورية .

وسار العاهل على طريق برغونة فلقي ثمة على حبل انتظاره شعبا لا يقل حبه له وحماسته عن حب وحماسة شعب الدوفينه وكان البوربون قد هدروا دمه في اثناء اجتيازه فرنسا ومسيره نحو العاصمة بين هتاف الجماهير وتظاهراتهم واستصرخ مؤتمر فينا اوربا جمعاء لحمل السلاح ومقاتلته . وقامت الصحافة في باريس وفي البلدان الاجنبية وعضدت البوربون بنشر المقالات الضافية الفائضة بحنق الملكية والارسطقراطية القديمة معتبرة الرجل العظيم زعيم عصابة من السفاحين العيارين يستحق أن ينزل به وبعصابته شديد العقاب . على أن المقالات الافترائية والاهانات البذيئة لم تحل دون اقتراب نابوليون شيئا فشيئا من باريس . ورقد في ١٣ مارس في ما كون وفي ذلك الحين جاهر المارشال ناي في لون ليسوليذيه بانحيازه اليه وقد نشر لذلك نشرة تبتدىء بهذه الكلمات : « ان مسألة البوربون انقضى امرها » . وتوجه الى شالون في ١٤ منه فأثنى على اهلها لما اظهروه من البسالة في مقاتلتهم العدو في الحرب الاخيرة ورغب في توجيه مثل هذا الثناء الى سكان سان جان دي لون على ما أظهروه من الشجاعة في الحرب المذكورة ولكن هذه المدينة لم تكن على طريقه فاكتفى بارسال نشان جوقة الشرف الى حاكمها الهمام وقال في ذلك الحين للفلاحين والعملة المؤلف منهم معظم موكبه : « انشأت لاجلكم ايها الشجعان نشان جوقة الشرف وليس للمهاجرين المتناولين الرواتب من اعدائنا . »

وانتهى نابوليون في ١٥ منه الى أوطان بين هتاف الشعب المزداد عدده حوله وفي ذلك اليوم التأمت في باريس الندوتان المنشأتان بموجب المنشور الملكي ولبتا دعوة الملك للنظر في أمر قدوم العاهل . وكان لويس الثامن عشر وامراء عترته كالمزلزل بهم حينما اقترب ذلك المنفي العظيم وكانوا قد هدروا دمه على غير جدوى . فكتموا وقتيا أميالهم المعاكسة للثورة وجاؤوا وجددوا ايمانهم للمحافظة على منطوق المنشور الآنف الذكر . ولم تستطع التظاهرات الرسمية أن تستميل اليهم ثقة الملكيين الدستوريين بعد ماخابت امانيهم من جراء ماشاهدوه من ارتجاع الحكومة ولم تر الامة في هذه التظاهرات سوى دليل على الخوف وهذا ما جعلها تنظر اليهم بعين السخرية .

وظل العاهل مغذا في السير نحو باريس وهو غير مبال بالتدابير الحربية المتخذة لمعاكسته وغير مكترث للاوامر العنيفة الصادرة ضده مع رغبته في التصدي له في زحفه المؤدي الى الانتصار ودخل أكسير في ١٩ منه وقد قدمت الفصيلة الرابعة عشرة من المشاة اليها من أرليان لملاقاته . وكانت هذه الفصيلة قد قاتلت قتال الابطال في اسبانيا من دون أن تصيب ماتستوجبه من المكافأة. فوزع العاهل نياشين على الضباط والجنود الذين يفضلون غيرهم في استحقاقها . وجاء المارشال ناي الى أكسير لموافاة العاهل وقد جاء أشجع الشجعان لاكمال عمل لابدويار فسر به نابوليون كثيراً .

وكانت الحكومة الملكية قد صارت الى حالة اليأس والضيق فطلبت من الندوتين أن تخلصاها بسن قوانين تلائم ذلك الزمان واضطرت العظماء الى التحاقر ومداراة الجنود في مقارهم ارادة استمالتهم اليها ولكن ذهبت مساعيهم على غير طائل ولم يجدها تذللهم نفعا فالندوتان لم يكن لهما سلطة على الامة والامراء لم تكن كلمتهم مسموعة عند الجنود وهؤلاء لم يلبوا طلبهم بل نبذوه نبذا محقرا ولم يتصد شيء من الاشياء لنابوليون .

وفصل عن اكسير في ١٩ مارس فوصل الى فنتنبلو في ٢٠ منه في الساعة الرابعة صباحا وغادر لويس الثامن عشر العاصمة في الليلة عينها منطلقا بسرعة الى حدود بلجيكا . واذا كان مسير نابوليون من خليج جوان الى باريس قد تم بانتصار متواصل فان انسحاب الملك من باريس الى غاند كان شبيها بالهرب .وقد

انخدع البوربون في معرفة أسباب سقوط نابليون فانهم توهموا واعلنوا أن ذلك الذي كان يتصرف بالعروش والممالك على هواه ختم بالختم الالهي انقلاب السلطة الامبراطورية ليضع حدا في فرنسا لسيادة العصيان والكفر ولم يفتأوا عن القول ان ذلك كان روح العصر والفلسفة الحديثة والثورة وأن العناية تريد تقليم أظفارها وقد ضربتها بشخص نابوليون . فالعناية التي تحول انظارها عن الماضي وتوجهها الى المستقبل والتي تحرك الثورات لتجديد الشعوب وليس لارجاع الملوك والتي لم تحرم حمايتها ذلك الرجل العظيم بعد مامنت عليه بكثير من النعم إلا لتعاقبه على تقربه من أفكار وأشخاص الهيئة الاجتماعية القديمة ستظهر مقاصدها بصورة جلية وتزيل الغرور عن أولئك الملوك الذين لم يدركوا غور مقاصدها الواسعة . وقد مكنت العاهل بعدما سمحت بسقوطه من النهوض بغتة والمجيء لاستعادة الصولجان وليس لاعادة أسرته الى الملك وتوطيد اركانها على العرش بل لاظهاره للعالم طراً قوة الثورة السامية وضعف طريقة الحكم القديمة

وقد ظهرت الآن هذه الشهادة فان الحق الالهي الذي جاء به البوربون على يد الاجنبي غادر فرنسا فارا معهم وعادت السيادة الشعبية بانتصار الى التويلري مع نابوليون .



الفصل الثالث

المائة يوما

وشاهدت فنتنبلو العاهل ينحدر عن عرشه في ٢٠ ابريل سنة ١٨١٤ وقد هجره رفاقه القدماء وافترق عن حرسه واقتيد أسيرا الى جزيرة البا وعادت فنتنبلو في ٢٠ مارس سنة ١٨١٥ فشاهدت نابوليون محفوفا بحرسه وبفرقته المقدسة ومكبرا له من الشعب والجيش ومستعدا للسير الى عاصمته ليقبض بيده على السلطة العليا وقد القت اليه الامة عقاليدها للمرة الثانية .

ووصل العاهل الى ابواب باريس في آخر النهار فكانت الراية المثلثة الالوان تخفق فوق التويلري من الساعة الثانية بعد الظهر وقد رفعها اكسلمان الشجاع فوق القصر .

وازدحم الشعب والجيش حول نابوليون متسابقين اليه كما فعل القوم في غرينوبل وكل منهم يود لو يشاهد البطل عن كثب . ولما دخل التويلري في الساعة التاسعة مساء استقبله جمهور من الضباط وتهافتوا عليه تهافتا فقال لهم : « انكم تخنقونني يا حضرة السادة . » وجاء المسيو دي منتاليفه عند أسفل الدرج الكبير للقاء العاهل واستقبله بين ذراعيه وهذا الرجل خدم العاهل بصدق واخلاص ودراية وحنكة في أوان مجده وفي عهد سقوطه . وحملوا العاهل على الاكف الى غرفته حيث كانت الملكة هرتنس تنتظره ومعها كثيرون من عظماء رجال الامبراطورية القدماء .

وخيمت الفرقة المقدسة في ساحة كاروسل وتولت خدمة القصر مع الحرس الوطني .

وفي الغد عرض العاهل جميع العساكر الذين في العاصمة فخطب فيهم قائلا : « أيها الجنود قدمت الى فرنسا بتسع مئة رجل وأنا متكل على محبة الشعب وتذكار الجنود القدماء فلم يخب أملي . أيها الجنود اقبلوا خالص شكري . ان الفخر الذي جنيناه من أعمالنا مرجعه الى الامة واليكم وفخري محصور بمعرفتي اياكم وتقديري اياكم حق قدركم .

« أيها الجنود ان عرش البوربون غير شرعي فقد نصبته ايدي الاجانب بعد ماهدمته الامة ووافقت على هدمه المجالس الوطنية . فليس فيه ضمان إلا لمصالح فريق يسير من اصحاب الدعوى والعجرفة المماكسة مطالبهم لحقوقنا. أيها الجنود إن في العرش الامبراطوري وحده ضمان حقوق الشعب ولاسيما أول المصالح وهي مصلحة مجدنا .

« أيها الجنود سنزحف لنطرد من ارضنا اولئك الامراء الموالين للاجانب ولا تكتفي الامة بتمنيها لنا الظفر بل تعضد أعمالنا فانا والشعب الفرنسوي نعول عليكم . ونحن لانبتغي التدخل في شؤون الامم الاجنبية ولكن الويل لمن يتدخل في شؤوننا ! »

وكان لهذا الخطاب وقع على افئدة الجنود مماثل للوقع الذي كان لكلام نابوليون على جميع الافئدة فطبقوا الفضاء هاتفين: فليحيى الامبراطور! واتفق ان قدمت في ذلك الحين فرقة جزيرة البا بقيادة كمبرن ولم تكن قد تمكنت من الوصول الى باريس مع العاهل . ولما وقعت عليهم عين نابوليون صاح قائلا : « هؤلاء ضباط الفرقة التي صحبتني في الضراء فجميعهم اصدقائي واعزائي وكلما وقعت عيني عليهم تمثلت فرق الجيش المختلفة فبين هؤلاء الشجعان الست مئة أشخاص من جميع الفيالق . وجميعهم يذكرونني بالايام العظيمة التي لايزال ذكرها عزيزا لدي وجميعهم موسومون بندوب شريفة أصابتهم في المعارك المشهورة فحبي لهم صدى حبي لكم جميعكم يا جنود الجيش الفرنسوي وهم ارجعوا اليكم راية النسر فلتكن لكم علامة للاجتماع . واذا ما أعطيت الحرس إياها فأكون كأني قد أعطيت الجيش كله هذه الراية .

ان الخيانة والاحوال السيئة القت عليها غشاء محزنا ولكنها بفضل الأمة الفرنسوية وبهمتكم عادت الى الظهور بمظهر المجد . فأقسموا على أن تحملوها دائما في المكان الذي تدعو مصلحة الوطن الى رفعها فيه . وليعجز عن النظر اليها الخونة ومن تحدثهم النفس بغزو بلادنا .

فصاح الجنود بصوت واحد : « إنا نقسم على ذلك » وبينا هم يمرون أمام العاهل عزفت الموسيقى بلحن الثورة : « فلنسهر على سلام الامبراطورية : »
وكأن نابوليون عاد الى عهد القنصلية فقد جملته النكبات والبوربون يصالح



نابوليون فى حديقة سان كلود ومعه اولاد مورات

الديمقراطية ولم تكن تنال الحظوة عنده في عهد الامبراطورية . ولكي يجعل تلك المصالحة علنية ومشهورة اسند وزارة الداخلية الى كارنو ونصب بنيامين كنستان رئيسا لمجلس شورى الدولة . وقد اعترف بفعله هذا بسيادة الرأي العام واذعن للاميال الحرة التي مثلها ذانك الرجلان الوطنيان بكل مجاليها . وفاتح الامبراطور بنيامين كنستان بحرية فكر في أمر السياسة الجديدة التي وطن النفس على السير عليها . فانه وان لم يعترف بانتحاله المبادىء الدستورية وان لم يجاهر بأنه مستعد لعضد ذكرى الديمقراطية التي ساعدته مساعدة قوية على اعادة العرش اليه اعلن انه يخضع لمطالب الامة حتى واميالها وانه ينتهج الطريق الذي يميل الافكار الى الجري عليه واليكم شيئا من الكلام المشهور الذي فاه به في تلك الاحوال ونقله الينا ذلك الكاتب الكبير الموجه اليه ذلك الكلام : « ان الامة استراحت من اثنتي عشرة سنة من الاضطرابات السياسية ومن سنة من الزمان من الحرب وهذه الراحة المزدوجة جعلتها محتاجة الى العمل . فهي تريد او تظن انها تريد ان تصيب ندوة ومجالس وهي لم تكن تطلب دائما هذا الامر : وقد عفرت وجهها عند قدمي حين قبضت بيدي على ازمة الاحكام ولابد من تذكرك هذا وانت قد عالجت معاكستي . وكأني بميل الناس الى الدستور والمباحثات والخطب قد عاد . . . ولكن هذا الامر لا تطلبه الا الاقلية فلا تنخدعن بذلك . فالشعب وان شئت فقل الجمهور لا يبتغي غيري . أو لم تبصر هذا الجمهور يزدحم ورائي وينحدر من قمم الجبال وهو يناديني ويبحث عني ويحييني في أثناء عودتي من كان الى هنا لم أفتح البلاد ولكن توليت تدبير شؤونها . فلست كما يقولون عاهل الجنود فقط ولكنني ايضا عاهل الفلاحين والشعب وفرنسا ... ومع كل ما حدث في الماضي ترى الشعب يعود الي : فبيننا عواطف وداد متبادلة ... فيكفي أن أعطي علامة أو أن أغضي الطرف فيثور الناس على النبلاء في جميع الانحاء ويفتكون بهم فتكا ذريعا . فلقد اكثروا من العمل من ستة أشهر ... ولكنني لا أشاء أن اكون ملكا للفتنة واذا كان من سبيل للحكم بواسطة دستور كان ذلك من حسن الحظ ... لقد سعيت وراء نيل السيادة على العالم وكنت محتاجا لاصابة متوخاي الى قوة غير محدودة . وقد

وحدها ... فانظروا ماترونه ميسوراً لكم وأمدوني بافكاركم . هل تبتغون حرية الانتخابات وعلانية المناقشات والحرية والقاء المسؤولية على الوزراء فانا ابتغي هذا كله ... وانا مقتنع كل الاقتناع بان خنق حرية الصحافة والمطبوعات يعد ضربا من الحماقة ... انا رجل الشعب فاذا ابتغى الشعب الحرية في الحقيقة فانا مدين له بذلك وقد اعترفت بسيادته ولابد من الاصاخة الى ارادته حتى واميالة. ولم اشأ قط ارهاقه لاطفاء غليل مسرتي بل كان لي ثمة مقاصد عظيمة . والآن نفذ القضاء فلست فاتحا ولا يمكنني ان اكون فاتحا وصرت اعلم ماهو ممكن وما هو غير ممكن . ولم يبق لدي سوى مهمة واحدة وهي اقالة عثار فرنسا وانشاء في فيها حكومة توافقها ... فالعمل الذي باشرته من خمس عشرة سنة نقض ولا يمكن اعادة بنائه . وقد اقتضت الحال التضحية بمليونين من البشر وقضاء عشرين سنة في سبيل ذلك . وعلاوة على ذلك صار من وكدي توثيق عرى السلم ولا يمكنني ان ادركه بغير الانتصارات الباهرة . ولا اشاء أن اجملكم تملاون نفوسكم بالآمال الفارغة أو أن اجعل الناس يقولون أن ابواب المفاوضات مفتوحة وهي ليست مفتوحة . وأرى بعين الفكر ان لدينا عراكا شديدا وحربا ضروسا فيجب على الامة والحالة هذه أن تعضدني لاتمكن من القيام بها وهي تطلب الحرية مكافأة لها على عملها وستصيب هذه الحرية ... فالموقف جديد . وجل ما أعناه ان تنار بصيرتي فقد شخت والمرء لا يظل في الخامسة والاربعين على ما كان عليه في الثلاثين من العمر . وانا تلائمني الراحة التي يذوق طعمها الملك الدستوري ... وهي ستكون ولا جرم اكثر ملائمة لابني»

وكان في جواب العاهل لارباب المناصب الذين بادروا الى تقديم تهانئهم له آثار المبادىء الحرة التي اعترف بيمنها وسيادتها في ذلك العهد ورضي بان تكون له نصيراً . فقال لوزرائه :هذا هو شعاري : « كل شيء للامة ولفرنسا.» ولم يكتف بالقول بل اصدر مرسوما عاليا بتاريخ ٢٤ مارس ألغى فيه قانون المراقبة على المطبوعات فانكرعليه ذلك الامر المقربون منه فقال لهم : «ياحضرة السادة هذا الامر يتعلق بكم اما انا فلا أخشى شيئا ولست ابالي ان هم نشروا ضدي من الانتقادات اكثر مما نشروه منذ سنة من الزمان . »

وسعى دوق انغوليم وقرينته الدوقة لاثارة الاهلين في الانحاء الجنوبية

ودعوتهم الى الدفاع عن المبدأ الملكي وبذلت دوقة انغوليم من الهمة والاقدام والثبات في بوردو ماجعل العاهل يقول عنها : « انها الرجل الوحيد في الاسرة . » بيد أن مساعيها لم تذلل المصاعب القائمة في وجهها فاضطرها الجنرال كلوزل الى مغادرة بوردو بلا قتال والالتجاء مرة ثانية الى البلاد الاجنبية

وسقط دوق انغوليم في يد الجنرال جيلي في لابالود وسيق أسيرا الى بون سانت اسبري فأصبح تحت رحمة العاهل وأقام أنصار البوربون ينتظرون بقلق عظيم مايقرره نابوليون بحق ذلك الامير . وقد زاد قلقهم ذكر الامر الملكي القاضي بهدر دم نابوليون . وأوقف العاهل الجنرال غروشي المندوب فوق العادة في الانحاء الجنوبية على مقاصده برسالة منح فيها ذلك الامير الحرية بالمضي الى البلاد الاجنبية لينفسح له المجال باثارة الحرب على نابوليون وعلى فرنسا .

على انه حدث في ذلك الحين حادث مهم جدا ماوراء جبال الالب فان مورات بعد ما هدده مؤتمر فينا سعى لاستثارة ايطاليا على النمسا واتهم الملوك بنكران الجميل نحوه كأن نكرانهم الجميل لم يكن عقابا الهيا له على نكرانه الجميل الفظيع بحق نابوليون وبحق فرنسا : ولما قلب مورات ظهر المجن لاولئك الملوك ظنوا أن العاهل لم يخرج من جزيرة البا إلا بعد مصالحته ختنه واتفاقه معه على ذلك العمل .

وكان ذلك كافيا لسد حكومة النمسا اذنيها عن سماع مقترحات نابوليون السلمية : فلم يتردد الوزراء النمساويون في الموافقة على منطوق المعاهدة المبرمة في ٢٥ مارس سنة ١٨١٥ وقد اصبح الحلفاء بموجبها أكثر عددا مما كانوا عليه من قبل واتفقوا على مداومة القتال ريثما يتسنى لهم ثل عرش نابوليون بعد ماتمه بطريقة غريبة . وجعل ذلك العمل نابوليون يقول وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « ان ملك نابولي استهدف مرتين لنبال التهور وكان في كلتا المرتين سببا لمصائبنا : ففي سنة ١٨١٤ جاهر بمناوأة فرنسا وفي سنة ١٨١٥ جاهر بمناوأة النمسا . »

ومهما كان ضعيفا الامل الذي علل العاهل النفس به بفصل النمسا عن المحالفة وحمل الدول الاخرى على طرح السلاح فانه جدد المساعي الرسمية التي عالجها غير مرة ان في عهد قنصليته وأن في عهد امبراطوريته ليدعو اعداءه الى المسالمة

ولالقائه في كل حال اعباء مسؤولية الحرب على عواتقهم فكتب في هذا الصدد رسائل الى جميع الملوك .

ولم يكتف الملوك المتحالفون بعدم مجاوبتهم إياه على رسائله بل أبوا أن يستقبلوا المفوضين الفرنسويين فرأى نابوليون أنه لم يكن له منتدح عن الاسراع في إعداد معدات الحرب بصورة جدية .

وكان نفور الشعب الفرنسوي من البوربون مغروسا في القلوب وكان اعجابه بنابوليون شديدا وعاما ومع ذلك كان السلم الضالة التي ينشدها كل فرد من افراد الامة الفرنسوية . على ان هذا الشعب وان يكن مصمما على بذل مايجب عليه أن يبذله صيانة لكرامته ومحافظة على شرفه واستقلاله لم يمل بوجه من الوجوه الى العودة الى خوض غمار الحرب وامل أن يرى عرى المحالفة تنحل بخطب النمسا موالاة فرنسا وقد اشار نابوليون الى هذا الامر بصورة علنية قائلا ان ماري لويز وملك رومية سيشهدان الجمعية التي ستنعقد للنظر في الحوادث الجارية . إلا أن نتيجة العلاقات السياسية بين الحكومة الفرنسوية والحكومات الاوربية الاخرى ولاسيما الحكومة النمسوية وما كان من زيادة نفورهن من فرنسا ازالت عن اذهان الوطنيين الفرنسويين الحقيقيين استار الغرور فعلموا أنهم مدفوعون بحكم الضرورة الى محاربة الدول اللواتي تعمدن الخفض من مقام فرنسا مع ميلهم كل الميل الى التمتع بملاذ السلم وفوائد الحرية في عهد ذلك الداهية الذي أولى بلاده مجداً أثيلا رأوا بعين البصيرة أن السلم لايمكن بقاؤها مرفوعة الاعلام . وخافوا أن تصبح حريتهم معرضة للزوال .

واصدر نابوليون في ٢٢ ابريل ملحقا لقوانين الامبراطورية فانه بدلا من أن ينتظر نتيجة أعمال الجمعية الدستورية الجديدة التي اصدر امرا في ١٣ مارس بالتئامها عمد بذاته الى تنقيح الدستور وفقاً لما وعد به الامة . ولكي يتجنب جدالا مزعجا في ذلك الشأن قلل عدد الناخبين الكثيرين المفوض اليهم امر النظر في الانظمة الآنفة الذكر واقتصر على استشارة الامة كما استنزلت عن آرائها لما أرادوا تقرير القنصلية مدى الحياة والامبراطورية عن النظام الآتي الذي استودع جميع مجالس البلدية في فرنسا .

المادة الاولى : ان الانظمة الامبراطورية ولا سيما المادة الاضافية رقم ٢٣ فريمار من السنة الثامنة وقرارات مجلس الشيوخ رقم ١٤ و١٦ ترميدور من السنة العاشرة والقرار المؤرخ في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة يدخل عليها التغيير الآتي

أما الانظمة الاخرى فتبقى على ما كانت عليه .

المادة الثانية : تسند السلطة الاجرائية الى العاهل والندوتين

المادة الثالثة : تكون العضوية متوارثة في الندوة الاولى المسماة ندوة الاعيان.

المادة الرابعة : يسمي العاهل أعضاء هذه الندوة ويكونون غير قابلي العزل هم وأولادهم الذكور اكبرا عن أكبر رأسا ولا يكون عدد الاعيان محدودا الخ .

ولا حاجة الى نشر المواد الاخري من هـذا النظام على أن تعزيز شأن الديمقراطيـة في فرنسا وهي التي أرجعت نابوليون الى العرش بصورة عجيبة جعل نابوليون ينشيء في فرنسا ارسطقراطية من أقبح أنواع الارسطقراطية بتنصيب حكام يتولون الحـكم مدى الحياة . ولـكن الانظمة الامبراطورية الموضوعة في سنة ١٨٠٦ وكان أنصار المساواة مستائين منها كل الاستياء مع معرفة نابوليون ما لفرنسا من الغيرة الشديدة على هـذه المساواة لم تخضع لصدفة النسب سوى القاب ومناصب خالية من الاهمية السياسية : وفي هذه المادة الاضافية زيادة في توسيع سلطة الندوة فانه يسلم للصدفة أول منصب من المناصب العامة ومن خصائص هذا المنصب الحق بالاشتراك في سن الشرائع . ولو انشأ نابوليون مجلساً للاعيان يتوارث أعضاؤه العضوية خلفاً عن سلف وقت ماكان مستاء كل الاستياء من الجمهوريين وكان يعمل بجهد وعناء ساعياً وراء انشاء أسرة جديدة لتوطيد دعائم السلطة المستحدثة لـكان ذلك الانشاء مع معاكسته لروح العصر مطابقاً للمعقول من دون أن يقضي أحد منه العجب ولـكن الامر لم يبق كذلك بعد النشرتين الصادرتين عن خليج جوان وبعد ما أبصره وسمعه وأعلنه على الطريق من كان الى باريس وبعد المرسوم السامي الصادر عن ليون والمـكرر فيه بين تكبير فرنسا وتهليلها القضاء بالموت على الارسطقراطية القديمة فلا يحسن به والحالة هذه أن ينشيء في فرنسا مجلساً للاعيان يتوارث فيه الاعضاء مناصبهم خلفا عن سلف .

وكان ذلك الامر تكذيبا معجلا للامال التي صار القوم في فرنسا بعد سماعهم لهجته الحرة ورؤيتهم أمياله الشعبية يعللون النفس بنيلها .ونهض كارنو معا كسا بكل قوة نشر النظام المحتوي على ذلك الامر المبني على السياسة الخرقاء . فدافع عن المجد الطارف من المجد التليد . وعن الرجال العظام من أعقاب الرجال العظام وكان الخطباء في عهد القنصلية قد تكلموا بمثل هذا الكلام باسم نابوليون حينما ارادوا أن يجملوا انشاء نشأة جوقة الشرف موسوما بسمة الديمقراطيـة ويبينوا الفرق بين هذا النشان الحديث والنياشين الممنوحة في عهـد الحكومة السابقة . إلا أن أغراض الامبراطورية وتقاليدها تغلبت على ذكرى القنصلية فقد حفظ الفكر الملكي في نابوليون كل قوته وشدته . وزعم الامبراطور كما قال لبنيامين كنستان ان الاقلية هي التي تطلب وضع الانظمة ومهما تكن واضحة وصريحة الغايات التي يرمي اليها الشعب في تظاهراته الاخيرة فان نابوليون أصر على اعتباره المنحة المتمتعة بها الطريقة الدستورية نيرا وقتيا على الزي الحاضر .

وعول نابوليون على ما كان يشعر به الشعب الفرنسوي من النفور من رجال الحكومة القديمة في رؤيته القوم يقبلون باجماع الآراء على المادة الاضافية الآنف ذكرها وقد عني باضافته الى نظام عضوية الاعيان الموروثة وبعض المواد الخالية من الحرية التامة مادة تجدد الغاء العشر والحقوق الاقطاعية وملاشاة القاب الشرف القديمة وابعاد البوربون الدائم . ولم يعدم نابوليون اشخاصا يقترعون على الموافقة على تلك المادة الاضافية الممقوتة وضمها الى الانظمة الامبراطورية ولكن الرأي العام تأثر تأثراً سيئا من هـذا العمل فكان من نتيجة ذلك أن التحمس الشعبي العام الشديد الذي ظهر في شهر مارس صارت نيرانه تخمد شيئا فشيئا عند دنو شهر مايو .

وتألفت جمعيات وطنية في الامبراطورية الفرنسوية لعضد الحماسة الديمقراطية والتيقظ للدفاع عن الوطن فكان في باريس متحالفون تألبوا من سكانها وسكان الضواحي . وجاء متحالفو دساكر سان مرسو وسان انطوان وتطوعوا طالبين من العاهل سلاحا واسمعوه كلاما لم تتعود اذناه سماعه من قبل بيد أنه توقع منذ وصوله الى خليج جوان حدوث مثل هذا الامر فلم يلق مندوحة

عن الاذهان بقدر الامكان لمقتضيات موقفه : فأجاب بالكلام الآتي المتحالفين القادمين الى معونته :

« أيها الجنود المتحالفون من دساكر سان انطوان وسان مرسو

« قدمت وحدي لاتكالي على سكان المدن والقرى وجنود الجيش ولمعرفتي تعلقهم بالشرف الوطني . لقد حققتم جميعكم ثقتي بكم فأقبل ما تقدمونه لي وسأعطيكم سلاحا وأخصص لتولي قيادتكم ضباطا لاتزال الندوب بادية عليهم وهم الذين تعودوا أن يروا العدو فارا أمامهم .

« أيها الجنود المتحالفون اذا كان قوم في الطبقات العليا من هيئتنا الاجتماعية قد لطخوا لاسم الفرنسوي بالعار فقد حفظت محبة الوطن وشعائر الشرف الوطني عند سكان المدن والقرى وجنود الجيش . ويسرني ان اراكم فلي ثقة بكم فلتحي الامة ! »

ولما فتح الناخبون المحتشدون في باريس احقاق الاقتراع على تلك المادة الاضافية قدم وفد نتيجة ذلك الاقتراع للامبراطور في اجتماع مايو فبلغ عدد الذين قبلوه ثلاث عشرة مئة الف وعدد المعارضين اربعة آلاف . وكان جواب نابوليون على خطاب رئيس الوفد الحادث المهم الوحيد في ذلك اليوم الوطني المعظم الذي أذيع عنه في بدء الامر أنه فاتحة عصر النهضة وانتهى بامور تافهة أعني بفتح احقاق أوراق الاقتراع البسيط . وهذا ماقاله الامبراطور في خطابه :

« أيها السادة سواء كنت عاهلا أو قنصلا أو جنديا فان كل مالي هو من الشعب . ففي السراء والضراء وفي ساحة القتال وفي بهرة المجلس وعلى العرش وفي المنفى لم تنفك فرنسا الموضوع الوحيد الشاغل افكاري وأعمالي .

« انتم موشكون ان ترجعوا الى مقاطعاتكم فقولوا للوطنيين أن الاحوال حرجة فبالاتحاد والهمة والثبات نخرج ظافرين من العراك الذي يقوم به شعب عظيم على من يتعمدون هضمه فلتستقص الاجيال الآتية عن سيرتنا ماشاءت الاستقصاء فالامة تفقد كل شيء حين تفقد الاستقلال . وقولوا لهم ان الملوك الاجانب الذين أجلستهم على عروشهم والذين هم مدينون لي بحفظ تيجانهم على رؤوسهم والذين كانوا في أيام عزتي وسؤددكم يتهافتون على محالفتي وحماية الشعب الفرنسوي لهم يصوبون الآن جميع سهامهم علي : ولو لم أرأنهم لايتوخون

إلا السوء بالوطن لدفعت اليهم هذا الجسد الفاني الذي يبتغون إهلاكه . ولكن قولوا أيضا للوطنيين أنه مادام الفرنسويون يدخرون لي عواطف الحب الذي اروني عليه دلالات كثيرة سيظل حنق أعدائنا مثلوم الحد .

« أيها الفرنسويون ان ارادتي هي ارادة الشعب وحقوقي هي حقوقه وشرفي ومجدي وسعادتي ليست سوى شرف فرنسا ومجدها وسعادتها . »

وكان نابوليون يظهر بمظهر القوي حين ينبري للدفاع عن حياض الامة فيتخذ كلامه قوة حقيقية يشعر بها السامع شعوراً شديدا . وقد سروا برؤيتهم اياه يعترف جهاراً بأن له الحق دون سواه بان يجعل شرفه ومجده مندغمين بشرف فرنسا ومجدها وقد عبر بذلك عن افكار الجميع فكانت كأنها تنعكس على ضمير الرجل الكبير وكان فمه كان صدى للرأي العام عند الشعب العظيم إلا أن الجنسية لم تكن المصلحة الوحيدة الموجهة اليها عناية الجمهور فأصبحت الحرية موضوعا للمباحث الشرعية وانفتح المجال للخوض في القضايا الدستورية ولكن نابوليون لم يخلق لمثل هذه الامور على أنه عالج أن يجعل كلامه بمثابة وحي للسلطة المطلقة وأن يجعله موسوما بسمة توافق مقتضيات المجالس .

وافتتح البرلمان بذاته في ٤ يونيو وخطب خطابا طلب فيه مساعدته قائلا أنه يتوخى تعزيز المبدأ الشعبي المقدس .

ولم يخش نابوليون من معارضة مجلس الاعيان فانه كان صنيعته الا أن مجلس النواب المنتخب في ابان الهياج الديمقراطي على اثر اذاعة نشرتي خليج جوان جعله يخشى من تألف معارضة حرة لاتقتصر على معاكسة أميال العاهل فقط بل تكدر حياض الوفاق الذي لم يكن بد منه للدفاع عن البلاد بحدوث خلاف في المجالس الكبرى في الامبراطورية .وكان لافايت ولانجوينه من اعضاء المجلس النيابي وقد كفى مالهما من التفوق فيه منذ انعقاد الجلسة الاولى لاظهار خطتهما وميلهما فانتخب لانجوينه زعيما للمجلس وفوض اليه أن يبسط للعاهل عواطف نواب الامة فتوجه بوفد الى التويلري ليخطب امام العرش خطابا يتضمن اماني المجلس واليكم جواب نابوليون عليه :

« ان الدستور علامة تألبنا والنجم القطبي لهدايتنا في أزمنة الزوابع هذه فكل جدال عام يفضي بالصراحة أو بالتورية الى تقليل الثقة الواجب وضعها



معركة سنة ١٨١٤

بمنطوقه يعد ضربة على الدواة . فنحن في وسط صخور لا حك لنا ولا جهة ندري التوجه اليها . والمعضلة التي تورطنا فيها شديدة فلا نسلك مسلك السلطنة السفلى التي أصبحت سخرية للاجيال التي جاءت بعدها فانها كانت لما شن البربر الغارة عليها من كل جهة تعنى بالمباحث الوهمية غافلة عن آلات الحصار التي كانت تحطم ابواب عاصمتها . »

وفصل العاهل عن المدينة في ١٢ يونيو ناحيا الحدود البلجيكية فوصل في ١٤ منه الى آفن واذاع النشرة الآتية :

« أيها الجنود اليوم تذكار معركتي مارنغو وفردلاند اللتين قررتا مرتين حظ اوربا وقد اظهرنا حينئذ من مكارم الاخلاق ما أظهرناه بعد معركتي استرلتز ووغرام واعتقدنا صحة أقسام وعهود الملوك الذين أبقيناهم على عروشهم . واليوم تألبوا وقصدوا التحرس بسيادة فرنسا وحقوقها المقدسة . فتعدوا تعديا فظيعا . فلنزحف لملاقاتهم : أو لسنا نحن وهم كما كنا عليه من قبل ؟

« أيها الجنود أمامنا سير عنيف مقضي علينا اتمامه ومعارك ينبغي لنا أن نضرم مواقدها ومتالف لا نلقى لنا ندحة عن اقتحامها ، ولكننا سنظفر بالنصران نحن ثبتنا وستعود حقوق الانسان وسعادة الوطن . وقد دنت الساعة لكل فرنسوي في صدره قلب ليغلب أو يموت ! »

وبينا نابوليون يستثير بهذا الكلام شجاعة جنوده كانت الخيانة تتلصص الى الجيش : فان الجنرال بورمون وبعض القواد الآخرين انحازوا الى العدو . ولما انتهت الى نابوليون انباء تلك الخيانة دنا من ناي وقال له :« ياحضرة المارشال ماقولك في هذا الرجل الذي ظللته بكنف حمايتك ؟ » فأجاب اشجع الشجعان « ياصاحب الجلالة كانت ثقتي ببورمون مماثلة لثقتي بنفسي . » فقال نابوليون « على رسلك ياحضرة المارشال فالازرق يظل ازرق والابيض يظل أبيض »

وفتحت أبواب القتال في ١٥ منه في فلوروس فانهزم البروسيانيون وفقدوا خمسة مدافع وألفي رجل . وقتل في هذه الموقعة قائد من أشجع القواد الفرنسويين وهو الجنرال ليتور حاجب الامبراطور فانه جرح جرحا مميتا عند أسفل البطن وهو يحمل على اعدائه في مقدمة رجاله .

وكانت جيوش الحلفاء الذين يحاربون نابوليون يقودها ولنتن وبلوخر

ويزيد عددها على مئتين وخمسين ألفا على أن الجيش الفرنسوي لم يكن عدده ينيف على مئة وعشرين ألفا . وسعى نابوليون منذ ابتداء هذه الحرب للتملص من الخطر الممكن نزوله به من جراء تفاوت عدد الفريقين المتحاربين بفصله البريطانيين عن البروسيانيين وبذل جهده للتفريق بينهما . وفي ١٦ منه اصابت خطته نجحا في معركة ليني فان بلوخر انكسر منفرداوفقد في ساحة الهيجاء خمسة وعشرين ألف مقاتل إلا أن هذه الخسارة الجسيمة لم تضعف كثيراعدوا في صفوفه جنود كثيرون ووراءه جنود احتياطيون يفوقونهم عددا . وفي الموقف الذي صار اليه الامبراطور كان يعوزه نصر مبين جازم ينفي جيش بلوخر فيتسنى له في الغد الهجوم على ولنتن وسحقه في نوبته . فهذه الخطة المراد بها التنكيل المتعاقب بالبروسيانيين والبريطانيين دبرت بأوامر سيرها العاهل الى كل جهة . ولكن لايغني حذر من قدر فقد طرأت أمور جعلت دهاءه يضل عن المرمى ويخطىء مواقع الصواب وعلاوة على ذلك ناجاه حدسه أنه سيطرأ حادث غير منتظر يفسد عليه تدابيره وأن الاقدار ستقلب له ظهر المجن متنكرة عليه . وقال فيما بعد : « لم يكن لي في ذلك الحين ما كان لي من الثقة بنفسي وما كنت اتوقعه من النصر النهائي . »وماعتم ان تحققت مخاوفه فبعد يومين ظفر في خلالهما باعدائه ظفرا باهرا أصيب في سهول واترلو بنكبة جديدة كانت ختاما لحياته الحربية والسياسية .

وكان اليوم الثامن عشر من شهر يونيو فافتر ثغر الحظ في بدء الامر للفرنسويين : وهذا ماجاء في التقرير الرسمي : « بعد اطلاق المدافع ثماني ساعات وبعد حمل المشاة والفرسان حملات صادقة ظن جميع الجيش انا سنصيب النصر وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين سارت أربع فرق من الحرس الى الهضاب الممتدة ماوراء جبل القديس يوحنا لنجدة المدفعيين فضايقتها المدافع وحينئذ حملت على البطاريات بالحراب لتستولي عليها . وكاد النهار ينقضي فأغارت بعض الفرق البريطانية على كشحها وثلمت حدها . واجتاز الفارون الاودية ولما أبصرت الفصائل القريبة انهزام فصائل الحراس توهمت أن الحراس القدماء انهزموا وتحركت صائحة . « لقد فقدنا كل شيء فالحراس اندحروا . » ويزعم الجنود أنه كان في بعض الجهات أشخاص ذوو نيات سيئة قاموا بالمرصاد

فصاحوا : «فليهرب من يستطيع الهرب !» وانتشر ذعر شديد في ساحة الحرب فاندفع المقاتلون باضطراب عظيم على خط الاتصال وكان الجنود والمدفعيون والموكلون بصناديق الذخائر والمؤن يتزاحمون للوصول اليه وهوجم الحراس القدماء الواقفون للاحتياط .

وأصبح الجيش في مدة قصيرة مختلطا بعضه ببعض ولم يبق ممكنا تأليف فيالق متميزة ولما ابصر العدو ما كان من ذلك الاضطراب المدهش ارسل فرسانه فازداد الاضطراب وكان الليل قد دخل فخال الظلام دون ضم شمل العساكر واظهار خطأها لها .

وفقد الفرنسويون على تلك الصورة بذلك الخوف المستولي عليهم ما كانوا يأملون اصابته من تلك المعركة المنجزة وذلك اليوم المصلحة فيه التدابير الكاذبة وتلك الانتصارات التي كانوا يعللون نفوسهم بنيلها في الغد . وتضعضعت الفرق عينها المقيدة بخدمة الامبراطور والمصطفة الى جانبه وانهزمت أمام التيار الجارف فلم يبق والحالة هذه سوى السير مع مجراه وسقطت مركبات الذخائر والمؤن والامتعة التي لم تعبر السامبر وكل ما كان في ساحة القتال في حيازة العدو ولم يكن من سبيل لانتظار جنود ميمنتنا . ولا يخفى ما تكون حالة أعظم جيش في العالم حين يعبث به الاضطراب ويفقد نظامه .

هذه نتيجة معركة جبل القديس يوحنا فانها مع كونها مجيدة أصبحت وخيمة التبعة على الجيوش الفرنسوية . »

وقد عجل في الوصول الى هذه النتيجة المؤلمة خطأ ارتكبه المارشال غروشي فكان قد انتدب لمطاردة فيالق بلوخر النمساوية والبطش بها ولكنه تركها تزحف الى واترلو حيث كانت المدافع تقصف كالرعد من دون ان يخف اليها هو ذاته اجابة لطلب الجنرال جيرار . واعتقد غروشي أنه واقف بازاء البروسيانيين مع أنه لم يكن قدامه سوى فصيلة واحدة من جيوشهم . على أن هذا الخطأ وقد عالج كثيرا التملص من تبعته وألصقه به الرأي العام المبني على رأي نابوليون وغيره من القواد ممن كانوا شهودا عيانيين لم يغير فقط في ساعة واحدة نتيجة معركة عظيمة بل غير حظ اوربا طرا !

وكان نابوليون يعرف الروح السائد ندوة النواب بحيث انه لم يخف عليه

مايخشى من حدوثه في المجلس من المعاكسة له حين يذيع نبأ انكسار جيشه فشعر بضرورة الاسراع في العودة الى عاصمته ليتمكن بحضوره من الضرب على أيدي اعدائه في الداخل ويتلافى أو يسكن المعضلة المجلسية فوصل الى باريس في ٢٠ يونيو في الساعة التاسعة مساء يصحبه الدوق دي باصانو والقادة برتران ودروو ولابدويار وغورغو . ودعا اليه في الحال شقيقيه يوسف ولوسيان وكمباساريس المستشار الاكبر وجميع الوزراء . فكان الموقف حرجا وقدم كل منهم مايراه موافقا لدفع الخطر العام ودعي أيضا مجلس شورى الدولة فبسط له العاهل مانزل به من البلايا ومايحتاج اليه ومايعلق عليه من الآمال . ولما كان يعلم أهمية مداراة مجلس النواب وكتمان مايمكن حدوثه من الخلاف بينه وبين هذا المجلس قال أنه لاينسب إلا للاقلية سوء المقاصد في مابدا في المجلس المشار اليه.

إلا أنه اذا كان نابوليون قد انخدع انخداعا حقيقيا بميل اكثرية النواب الفرنسويين فلم يمض عليه وقت طويل حتى زال اغتراره عند رؤيته أعمالهم فان المجلس كان منقادا الى لانجوينه ولافايت اكثر مما كان نابوليون يتوهم فقرر المجلس اجابة لطلب لافايت أنه ثابت واتهم بالخيانة كل من يعالج حله وهذا التنافر الذي كان من شأنه القاء المسؤولية الكبرى على نواب الامة أصبح ضربة قاضية على حياة نابوليون السياسية . فهلل البوربون والاجانب لذلك الامر وأكبروه وأملوا أن مثل هذا الخلاف الشديد بين العاهل وممثلي الشعب يفضي بالامراء الى تنازل الامبراطور مرة ثانية عن العرش أو يؤدي الى حادث كالحادث الذي وقع في ١٨ بروميير : ففرنسا الحرة لاتستطيع بدون نابوليون كما أن نابوليون لايستطيع بدون فرنسا الحرة مقاومة الجيوش المتحالفة مقاومة طويلة .

ولما ذاعت مقاصد النواب في الاليزه بوربون نشأ عنها اضطراب في حاشية الامبراطور فاستولى اليأس على أخص المقربين اليه بحيث انهم اشاروا عليه بالاذعان الى الاقدار التي تقتضي منه تضحية جديدة وكان رينيو دي سان جان دنجلي أحد الملحين عليه لاقناعه بالتضحية بنفسه مرة أخرى على مذبح الوطن . ولما علم نابوليون ان مجلس الشيوخ حذا حذو مجلس النواب رأى أن اصحابه خذلوه كما خذله اعداؤه وأعلن أنه مصمم على التنازل عن العرش لابنه

وكان رجل واحد في المجلس مخالفا له على عزمه لزعمه ان هذا الامر يلقي فرنسا بين أيدي الاجانب وذلك الرجل هو الرجل ذاته الذي أقام النكير وحده على انشاء الحكومة الامبراطورية وهو كارنو . فانه مع شدة اعتصامه باهداب المبادىء الحرة لم يعتقد أنهم يجب عليهم أن يعرضوا للخطر الاستقلال الوطني بافراطهم في التحفظ من العاهل وكان متوهما أن هذه المصلحة الاولى للامة تعرض للخطر بابعاد الزعيم الوحيد الذي يرضى الجيش والشعب بالمسير وراءه ولما ساد الرأي المخالف لرأيه جلس أمام منضدة وغطى وجهه بكلتا يديه واستخرط في البكاء . فحينئذ قال له نابوليون : « لقد عرفتك متأخراً » وعند ذلك نظم العاهل الاعلان الآتي بيانه :

« أيها الفرنسويون لما باشرت الحرب للذود عن استقلال الوطن كنت متكلا على مضافرة جميع الامة ومساندة جميع رجال الحكومة وقد عللت النفس حينئذ بادراك الوطر المروم وازدريت بكل ما اذاعته الدول عني ولكن الاحوال تغيرت وجوهها . فاقدم نفسي ضحية لبغض أعداء فرنسا فياليتهم يكونون صادقين في اذاعاتهم فيقصروا انتقامهم على شخصي . فحياتي السياسية انقضت واريد أن أبايع ابني مطلقا عليه اسم نابوليون الثاني عاهل الفرنسويين ويؤلف الوزراء الحاليون مجلسا للحكومة بصورة وقتية على أن اهتمامي بابني يحملني ادعو المجالس الى أن تنشىء بدون تأخير وكالة المملكة بموجب قانون فاعقدوا عزائمكم على الامن العام وظلوا أمة مستقلة . »

وفي الحال بسط هذا الاعلان للمجلسين فكبر له النواب الذين كانوا سببا لانشائه ولكنهم لم يقرروا شيئا جازما جليا عن نابوليون الثاني وقد دعمت شرعية حقوقه اقوال بعض الخطباء ولاسيما بيرنجه ودي لادروم . وعلى أثر المباحثة الدائرة على رحى ذلك الموضوع صعد الى المنبر رجل جعل الناس يقولون عنه منذ ابتدائه بالكلام : « لقد جاء ليرث ميرابو . » وكان اسمه مانويل

وارتأى مجلس النواب أن يرسل وفدا الى نابوليون ليهنئه على تنازله عن العرش للمرة الثانية .

فخاطب نابوليون الوفد بالكلام الآتي : « اني شاكر لكم ما تبدونه

من العواطف لي فيـاليت تنازلي عن العرش يجلب الهناء على فرنسا ولـكنني لا آمل هـذا الامر فهذا التنازل يترك الدولة بغير رئيس وبغير كيان سياسي وقد كان ممكنا استعمال الوقت الضائع لقلب المالـكية لتمكين فرنسا من سحق اعدائها . وأوصي المجلس بالمبادرة الى تعزيز الجيش فمن يريد السلم يجب عليه أن يستعد للحرب . وحذار أن تتركوا هذه الامة العظيمة تحت رحمة الاجانب أو ان تغتروا بآمالـكم : فهنالك الطامة الـكبرى . وكيفما كان المصير الذي انتهي اليه سأكون سعيدا بمعرفتي أن فرنسا رائعة في بحبوحة الغبطة . »

الا أن خصوم الاسرة الامبراطورية ظفروا بأمانيهم في مجلس النواب فنبذوا دبر آذانهم مبايعة نابوليون الاول لنابوليون الثـاني وألفوا مفوضا من خمسة من أعضائهم وهم فوشه وكارنو وغرينيه وكينيت وكولانكور لينشئوا حكومة وقتية . ولما انتهى هذا الخبر الى نابوليون قام وقعد وارغى وازبد وصاح قائلا : « لم أتنازل عن العرش ليخلفني ديركتوار جديد بل تنازلت عنه ليخلفني ابني . فان هم لم يبايعوه الخلافة كان تنازلي لغوا . فالمجلسان يعلمان أن للشعب والجيش والرأي العام رغبة فيه وميلا اليه ولـكن الاجنبي يحبسه عنده . ولا يستطيعان أن يضطرا الحلفاء الى الاعتراف بالاستقلال الوطني بالتصاغر والتطامن وتعفير الجباه . ولو كانا شاعرين بحقيقة موقفهما لبايعا مختارين نابوليون الثاني ولأبصر الاجانب ان لـكم ارادة وغاية وعلامة للاجتماع ولعلموا أن حادث اليوم العشرين من شهر مارس لا يعتبر مسألة احزاب وضربة من ضربات المتآمرين بل نتيجة تعلق الفرنسويين بشخصي وباسرتي ولأصبح اجتماع الـكلمة الوطنية أشد وقعا عليهم من جميع اختلافاتنا الدنيئة المحقرة »

وكان في باريس عدد وافر من الوطنيين يفتكرون كـكارنو بانه يجب الاهتمام قبل كل شيء بالدفاع عن البلاد وأن هذا الدفاع لا يتيسر بغير ذراع الامبراطور ودهائه واسمه . وكان رجال الجندية يذهبون هذا المذهب ويجاهرون به . وقد ارتفعت في كل ناحية هذه الاصوات : « اذا لم يكن امبراطور فلا يكون جنود » بحيث ان الجمهور المزداد عدده حول قصر الاليزه بوربون مقر نابوليون جر القلق على المجلسين وعلى فوشه متولي الحـكومة الوقتية والمفاوضات مع الاجانب فخافوا ألا يكون تنازل العاهل عن العرش معتبرا في أعين الاجانب سوى ألعوبة

مادام صاحب العرش مقيما في باريس . ففوض الى كارنو أن يبسط لنابوليون مخاوف زملائه وأن يدعوه الى الابتعاد عن العاصمة . فتوجه كارنو الى الاليزه للنهوض باعباء مهمته فوجد نابوليون وحده يستحم . ولما أوقفه على الغاية التي قدم لاجلها ابدي العاهل الساقط العجب من المخاوف الناجمة عن وجوده وقال له : « لست سوى فرد من افراد الشعب وأقل من فرد منه . »

على أنه وعده باجراء رغبة المجلسين والحكومة الوقتية وتوجه في ٢٥ يونيو الى المالميزون واذاع على الجيش النشرة الآتية :

« أيها الجنود اني باذعاني الى الضرورة التي تلجئني الى مغادرة الجيش الفرنسوي الباسل اتحقق كل التحقق ان هذا الجيش سيحقق بما يأتيه من الخدم الجليلة وبما يتوقعه منه الوطن الثناء الذي لا يسع اعداءنا انفسهم أن يضنوا به عليه

« أيها الجنود اني ارافقكم وان كنت غائبا عنكم فأنا أعرف جميع الفيالق ولا يظفر فيلق منها بالنصر على العدو إلا وأطري على البسالة التي يبوح بمكتوماتها فكلانا قد استهدف لنبال السعاية. ان بعض الاشخاص اللئام الذين لا يستحقون خدمكم رأوا في تعلقكم بي غيرة مقصورة علي دون سواي . فلتظهر لهم انتصاراتكم المستقبلة انكم كنتم تخدمون الوطن فوق كل شيء حينما كنتم تطيعونني . واني اذا لقيت عندكم حبا كنت مدينا بذلك الى حبي الشديد لفرنسا أم جميعنا .

« أيها الجنود أظهروا قليلا من الجهد فتنحل عرى المحالفة ويعرفكم نابوليون من الضربات التي تضربون بها اعداءكم .

« خلصوا كرامة الفرنسويين واستقلالهم وكونوا حتى النهاية كما عرفتم من عشرين سنة فلا يشق لكم غبار ولا تبارون بمضمار »

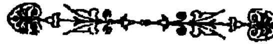
وكان نابوليون في المالميزون قريبا من باريس بحيث أن أعداءه لم يكن يقر لهم قرار بوجوده فيها وخشي فوشه من اقدامه على عمل جديد فاوعز الى الجنرال بكر أن يراقب حركاته وسكناته عن كثب زاعما أنه يحافظ بذلك الامر على حياته . وفي ٢٧ يونيو لما ذاعت أنباء اقتراب الحلفاء ورأى نابوليون فرصة ملائمة لضربهم ضربة قاضية كتب الى الحكومة الوقتية يعرض عليها تطوعه كجندي لخدمتها :

« اني بتنازلي عن العرش لم أزل وطنيا معتصما بحقوق الوطنية الشريفة ومعتبرا ان لي الحق بالدفاع عن بلادي .

وان دنو الاعداء من العاصمة لايدع ادنى مجال للارتياب بمقاصدهم واغراضهم المنحرفة .

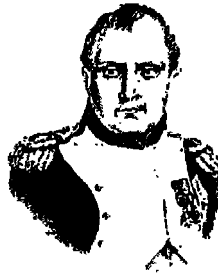
«ففي هذه الاحوال الحرجة اقدم خدمي كجنرال معتبرا نفسي كاول جندي للوطن »

على أن الذين اصروا على طلب تنازل العاهل عن العرش لم يوافقوا على تسليم قيادة الجيش الى الرجل العظيم الذي أنزلوه عن سرير الامبراطورية . وعلموا حق العلم أن جنديا نظيره لم يكن من منصب يليق به الا منصب القيادة العامة وأن قبولهم اياه كمساعد يكون مدرجة الى اعادة السلطة العليا اليه . فنبذوا طلبه وكان جوابهم مثيرا لحنقه بحيث قال انه يريد أن يزحف في مقدمة الجيش ويضرب ضربة مماثلة لضربة ١٨ بروميير . الا أن الدوق دي باصانو غير فكره مبينا له ان الاحوال الحاضرة غير مماثلة للاحوال التي كانت في السنة الثامنة للجمهورية ولما لم يلق بدا من الاذعان للقدر فصل عن المالميزون ميمما روشفور وهو ينوي الشخوص الى الولايات المتحدة الاميركية .



LE TEMPLE DE LA GLOIRE

Empereur des Français
le 18 mai 1804
Mort à S^t Elène
le 2 mai 1821



Général en chef
en mars 1796

NAPOLEON.

Brouillon écrit en entier de la main de l'Empereur de la lettre qu'il adressa de Rochefort au Prince Régent d'Angleterre, le 13 juillet 1815

[illegible]

Signature de l'Empereur

Napoleon

En butte aux factions qui divisent mon pays, et à l'inimitié des plus grandes puissances de l'Europe, j'ai terminé ma carrière politique, et je viens, comme Thémistocle, m'asseoir au foyer du peuple britannique. Je me mets sous la protection de ses lois, que je réclame de V. A. R. comme du plus puissant, du plus constant et du plus généreux de mes ennemis.

4 sous.

هيكل المجد

الفصل الرابع

وصول نابوليون الى روشفور — رسالة الى الامير وكيل المملكة في بريطانيا العظمى — ركوبه متن البليروفون وشخوصه الى بريطانيا — تصرف الوزارة البريطانية نحوه — معاكسة العواطف الودية التي ابداهاله الشعب البريطاني — اعتراض نابوليون على المكان الذي عينته له الوزارة البريطانية — ركوبه متن النرتمبرلند وانطلاقه الى جزيرة القديسة هيلانة .

ان بكر الذي فوضت اليه الحكومة الوقتية مراقبة حركات العاهل وسكناته في المالميزون تلقى الاوامر بمرافقته الى روشفور وبعدم افتراقه عنه الاعلى متن السفينة التي تقله الى العالم الجديد . وقال هذا الجنرال الشجاع للعاهل عنداقترابه منه : « لقد فوضت اليّ مهمة شاقة وسافعل كل مايتعلق بي لاضطلع باعبائها وفقا لرغبتك ومرضاتك » وقد بر هـذا الجنرال بوعده من دون أن يحيد دقيقة واحدة عن المنهاج الذي نوى انتهاجه ومن دون أن ينسى مايجب عليه عمله من المجاملة لذلك الداهية الهاوي عن حالق مجده

وفصل نابوليون عن المالميزون في ٢٩ يونيو فوصل الى روشفور في ٣ يوليو وفي الغد وافاه اليها شقيقه يوسف . وكان العاهل في أثناء اقامته في تلك المدينة يسمع دائما هتاف الشعب له حول المنزل المقيم فيـه . وخرج غير مرة الى شرفة دار الحاكم فابصرهم يقيمون له المظاهرات الاكرامية الولائية نفسها التي ادخرها له الشعب . وركب متن البحر في ٨ يوليو وهو ينتوي المضي الى الولايات المتحدة الاميركية وقد وثق بأن الجواز الذي وعدته به الحكومة الوقتية لايلبث الخلفاء أن يرسلوه اليه بدون تريث ولاابطاء . وبعد يومين أرسل لاس كاس وسافاري الى المركب البليروفون ليعلم من ربان هـذه السفينة الحربية البريطانية هل جاءته أوامر من وزراء الدولة البريطانية بعدم تعرضهم لركوبه متن ذلك المركب ولم يكن قد وصل الى الربان مايتلاندقائد البليروفون تعليمات في هذا الشأن فقال انه سيخاطب أمير البحر في هذا الصدد . وفي ١٤ منه كان نابوليون في جزيرة اكس ينتظر الجواب فتولاه السأم من الصمت الطويل واراد أن يخرج من دائرة الشك

المضروبة حوله من اربعة أيام . وعاد لاس كاس ومعه لالمان الى الربان مايتلاند فوجد أنه لم يتلق التعليمات بشأن العاهل ولكنه عرض عليهما أن نستقبله على متن مركبه ويسير به الى بريطانيا حيث يلقى مايطمع به من حسن المعاملة وكرم الضيافة .

ولما عاد لاس كاس ولالمان وأوقفا العاهل على نتيجة مهمتهما جمع رفاقه في نكبته واستشارهم في ماينبغي له أن يفعله . فكان أمامهم مركب حربي لايمكنهم المرور على رغم منه ووراءهم أرض جعل غزوا الاجانب لها وعودة البوربون اليها المقام ينبو فيها بكل من يطلق عليه اسم نابوليون وبكل من شاطر عن كثب مجده وسؤدده . فارتأى نابوليون في ذلك الموقف الحرج أن الافضل له الالتجاء الى مكارم اخلاق الامة البريطانية واختيار المقام بين ظهرانيها فتناول القلم وخط السطور التالية الى الامير وكيل المملكة :

« ياصاحب السمو الملكي ان خطتي السياسية انتهت على اثر استفحال امر الاحزاب الناجم عنها الانقسام في بلادي وبسبب عداوة الدول الاوربية العظيمة وقد نهجت منهج تمستوكل فجئت لاجئا الى ديار الشعب البريطاني لاستظل بكنف شرائعه والتمس هذا الامر من سموك الملكي معتبراً إياك أقوى اعدائي وأثبتهم واكرمهم . »

وحمل لاس كاس وغورغو هذا الكتاب الى الربان مايتلاند وانبأاه أن نابوليون سيأتي في الغد الى مركبه . وفي ١٥ منه عند أول النهار قلت السفينة « ابرفيه » العاهل الكبير وأوصلته الى البليروفون . ولما وصل نابوليون الى المركب ورأى أن الجنرال بكر يدنو منه ليودعه قال له بلهجة شديدة : « ارجع ياحضرة الجنرال فلا اشاء أن يظن الناس ان فرنسويا اسلمني الى اعدائي . » ولما خاطبه بهذا الكلام مد اليه يده ولم يفترق عنه إلا بعد معانقته إياه .

ولما وصل نابوليون الى البليروفون قال للربان : « اتيت الى مركبك لاستظل بكنف شرائع بريطانيا العظمى » فسار به الربان في الحال الى الغرفة المعدة له وزار العاهل في الغد السفينة « سوربب » الراكب فيها أمير البحر هوثام قائد الاسطول وعاد الى البليروفون في اليوم عينه فأبحر به توا الى بريطانيا العظمى . وقال لاس كاس ان أمير البحر هوثام أظهر في اثناء زيارة نابوليون له كل مايستطيع

إظهاره من اللطف والكياسة انسان عالي المقام ممتاز بتربيته . وفضلا عن ذلك لم يكن العاهل يظهر بين اعدائه الالداء من دون أن يكون لظهوره بينهم تأثير شديد ناجم عن تفوق سلطته . واقتدى الربان والضباط والبحارة بقائدهم في اكرام الضيف العظيم واحترامهم له . فاذا خرج الى متن السفينة بادر كل من يبصره الى نزع قبعته عن رأسه ... ويمكن القول ان نابوليون كان على متن البليروفون عاهلا

ولما انتهى الربان مايتلاند في ٢٤ يوليو الى طورباي ارسل الى اللورد كيث يخبره بما وقع وينتظر أوامره فأمره بالتوجه الى بليموث وألقى البليروفون مراسيه في مرفأ هذه المدينة .

وحالما انتشر في السواحل البريطانية نبأ قدوم العاهل أظهر القوم رغبة شديدة في مشاهدته فغشت سفائن كثيرة ميناء طورباي واشتد اعجاب الناس بذلك الرجل الداهية . وكان ذلك الاستقبال معاكسا لما نوت الحكومة البريطانية إعداده لنابوليون بحيث ان وزراء الملك جورج لم يعالجوا منع التظاهرات المعاكسة للسياسة المنكرة التي ازمعوا السير عليها . وفي بليموث أحاطت بالبليروفون قوارب مساحة أمرت باطلاق النار على الفضوليين لتمزيق شملهم . على أنه مع ما أعطت الحكومة من الاوامر المنيفة خفت جماهير غفيرة من انحاء الديار البريطانية الى بليموث رغبة في مشاهدة بطل فرنسا . وظلت السفن تغشى البحر حول السفينة المعتقل فيها ذلك الرجل الفاقد النظير .

وفي خلال التظاهرات التي أقامتها الامة المعادية له عيل مصطبره لمعرفة الخطة التي تقرر الحكومة البريطانية انتهاجها معه ، وجاء اللورد كيث الى البليروفون ولكن زيارته المقرونة بالبرودة والتحفظ لم تطل مدتها . وفي الايام الاخيرة من شهر يوليو عاد الشفاليه بنبري وقد جاء هذه المرة لازالة الارتياب من ذهن العاهل : فانه كان حاملا مذكرة من الوزارة البريطانية تعين بموجبها جزيرة القديسة هيلانة مقرا للجنرال بونابرت . وكانت هذه المذكرة بمثابة حكم بنفيه الى اقليم وبيل الهواء يخشى من أن يكون من وراء حصره فيه قضاء عليه بالموت .

ولما علم نابوليون من فم أمير البحر ماقررته الوزارة البريطانية بشأنه امتلأ غيظا واحتج بشدة على خرق حكومته لحقوق الانسانية فقال : « انا ضيف بريطانيا ولست أسيرها وقد جئت مختارا لأستظل بكنف شرائعها فداسوا بمعاملتي

هذه المعاملة حقوق الضيافة المقدسة فلا أذعن أبدا مختارا الى الاهانة التي أتوها نحوي فالعنف وحده يكرهني على الانقياد اليها »

وأرادوا أن يشددوا في التضييق عليه بحصرهم عدد الاشخاص المرخص لهم بمرافقته فأذنوا لثلاثة رجال أن يصحبوه وخيروه في انتقائهم ماعدا سافاري ولالمان . فهذان الخادمان المخلصان لنابوليون ظنا أنه مقضي عليهما بالابعاد عن تلك البلاد وانهما سيساقان الى النطع المهيأ بأمر لويس الثامن عشر في ٢٤ يوليو وكان اسماها مذكورين في جدول الاسماء المقضي على اصحابها بالموت .

فماذا وقع في نفس نابوليون بعد ما بلغه اللورد كيث القرار القاضي بابعاده الى الجزيرة الكامن فيها الموت ؟ السجن في المنفى ريثما يأتيه الموت الزؤام ببطء ما أمر ذلك النصيب لمن ضاقت أوربا بأسرها عن مطامعه الكبيرة وهو ذلك الجبار الذي شاهد الملوك الصيد يتسابقون الى استمالته اليهم وينتظرون أمام غرفته وقتا طويلا ! فهل ازمع أن يعطي العالم مثالا عن الاذعان الذي لم يسمع بمثله أو يريه مشهداً من مشاهد اليأس المبتذلة ؟ ودعا اليه لاس كاس وسأله عما يعرفه عن جزيرة القديسة هيلانة وهل يستطيع المعيشة فيها ثم أنه قال له : « وهل انت متأكد اني سأسير اليها ؟ وهل يتعلق الانسان بامثاله حين يشاءصرم حبال حياته ؟ ياعزيزي كثيرا ماتناجيني النفس بان أغادركم وهذا ليس بالامر الصعب . »

فأقام لاس كاس النكير على ماعقد نابوليون عليه عروة العزم ما قذف الذعر على فؤاده وابعد عن العاهل تبرمه في حمل اثقال الحياة بتعليله إياه بالآمال في المستقبل وبقوله له : « ومن يعرف اسرار الزمان ؟ » ولما ذكر العاهل مايتوقعه من الملالة في جزيرة القديسة هيلانة قال له لاس كاس ولكننا سنعيش على الماضي فأجابه الامبراطور : « وسنكتب مفكراتنا . أجل ان الانسان مقضي عليه بأن يشتغل والشغل يعتبر منجل الزمان . وعلاوة على ذلك مكتوب للمرء أن يتمم حظه : وهذا مبدإي العظيم فليتم حظي » وعلى هذه الصورة تاب نابوليون الى نفسه . واذا دفعه حيناً من الزمان شر البشر وخيانتهم وجحودهم الى اليأس من جراء نفوره من أعمالهم فأوشك أن ينتحر فانه ماعتم أن أقيل عثار قواه الادبية لما أعاد على نفسه ذكري مجده الماضي وأعانته على ذلك طبيعته القوية .

وخرج البليروفون من ميناء بليموث في ٤ اغسطس ولكنه لم يتوجه الى

ناحية الجنوب بل توغل في المانش فعلم حينئذ نابوليون انهم سينقلونه الى مركب آخر يدعى النرثمبرلاند أمر بالمضي به الى جزيرة القديسة هيلانة على أن الكلام الشديد اللهجة الذي خاطب به اللورد كيث لما بلغه ذلك القرار كاد التاريخ يفقده لو لم يدونه في احتجاج رسمي سيره الى أمير البحر المذكور وهذا كلامه بنصه :

« احتج رسميا امام السماء والبشر على ماعوملت به من المعاملة العنيفة وعلى دوس اقدس حقوقي بتصرفهم بالعنف بشخصي وبحريتي . لقد أتيت بملء حريتي على متن البليروفون فلست أسيراً بل أنا ضيف بريطانيا . لقد أتيت اليها إجابة لاغراء الربان القائل أن معه أوامر من حكومته بقبولي في مركبه والمجيء بي الى انكلترا مع حاشيتي اذا كنت ارغب ذلك . وعليه جئت بثقة تامة ابتغي الاستظلال بكنف شرائع بريطانيا . وحالما وطئت باخمصي متن البليروفون صرت اعتبر نفسي في أرض بريطانية . فاذا كانت الحكومة باصدارها الاوامر لربان البليروفون بقبولي مع حاشيتي في مركبه قد نصبت لي فخا فانها تكون قد خرقت حرمة الشرف ولطخت علمها بوصمة العار .

واذا أتت الحكومة البريطانية هذا العمل المنكر فلايعود يحسن بالبريطانيين من الآن فصاعدا ان يديروا ذكر مروءتهم وشرائعهم وحريتهم فتكون عزة النفس البريطانية قد قضي عليها في ضيافة البليروفون .

« اني أبسط هذا الامر للتاريخ فسيقول ان عدوا للشعب البريطاني حاربه عشرين سنة فخانه الجد فجاء بملء حريته ملتجئا الى شرائعه . واي برهان واضح يستطيع أن يعطيه اياه عن احترامه وثقته . وكيف يقابلون في بريطانيا مثل هذه المروءة . اظهروا انهم يمدون لهذا العدو يدا للترحيب به وحين استسلم اليهم واثقا بصدقهم وامانتهم نحروه . »

وغادر نابوليون البليروفون في ٧ أغسطس منتقلا الى النرثمبرلند المتولي قيادته أمير البحر كوكبرن . وقد اغتنموا هذه الفرصة فنزعوا السلاح من جميع الاشخاص المتألفة منهم حاشية العاهل ولكن بقي لهم شيء من الحياء جعلهم يبقون له سيفه . اما أمتعته فان أمير البحر ذاته تفقدها بمعاونة مأمور من مأموري المكس . فاخذوا من بين أمتعته أربعة آلاف دينار ولم يتركوا له سوى الف وخمسمئة دينار ليستعين بها على القيام بأود معيشته . ولما قضي عليه بمفارقة

أصدقائه الامناء الذين ضنوا عليهم بمشاطرته سجنه ومنفاه البعيد خر ساقاري عند قدميه والدموع تنهل من مقلتيه وقبل يديه . وقال لاس كاس : وقبله الامبراطور وهو رابط الجأش وسار نحو الزورق . وبينا هو سائر كان يحي برأسه الذين على طريقه وعلامات اللطف على جبينه وكان جميع الفرنسويين الذين فارقناهم يذرفون العبرات الغزيرة فلم يسعني الا ان أقول للورد كيث الذي كنت احادثه في ذلك الحين : « أولا ترى يا سيدي اللورد ان الذين يبكون هم الذين يبقون . »

الفصل الخامس

السفر فى البحر ــ الوصول الى جزيرة القديسة هيلانة

المقام في هذه الجزيرة حتى سفر لاس كاس

وكان اللورد كيث متناهيا في اللطف والتحفظ مع الفرنسويين الذين على متن البليروفون ولم يقل عنه كوكبرن في مجاملتهم واظهار الاحترام للرجل العظيم الذي كان على كره منه سجانه الوقتي والمبالغة في العناية به .

واستاء الوزراء البريطانيون مما ابداه الربان مايتلاند وبحارته من الاكرام لنابوليون ولاموه على اطلاقه على اسيره اللقب الذي كان يحمله وهو على العرش واتخذوا التدابير العنيفة لئلا يحدث شيء مثل ذلك على متن النرثمبرلند وذكروا في تعليماتهم انه لا يجوز ان يطلقوا على العاهل الساقط سوى لقب جنرال .

ولما عرف نابوليون ما كان من تلك الاشياء الصغيرة المراد بها تحقيره قال : « فليطلقوا علي ما شاؤوا من الاسماء فلا يمكنهم ان يمنعوني عن أن اكون أنا »

وخرجت النرثمبرلند من خليج المانش في ١١ أغسطس وبينا هي مارة عند رأس الهوغ عرف نابوليون سواحل فرنسا ففي الحال حياها بمد يده نحوها وصاح بصوت متهدج : « اودعك يا أرض الشجعان اودعك يا فرنسا العزيزة فلو لم يكن فيك بعض نفر من الخونة لبقيت سيدة العالم : » هذه كلمات الوداع

الاخيرة التي وجهها الرجل الـكبير الى الارض الشريفة التي فيها الشعب العظيم .

وكان العاهل ذات يوم يتنزه في اثنـاء السفر على متن السفينة كمألوف عادته بعد الغداء فهبت عاصفة شـديدة فلم يشأ دخول غرفته وامر بأن يأتوه بردائه الرمادي المشهور ليتقي به المطر الغزير ولم يكن البريطانيون انفسهم ينظرون الى ذلك الرداء الا بمقلة الاعجاب والاحترام :

وقتل العاهل الوقت بمطالعة الصحف فنـدر ان يقرأ صحيفة من دون ان يكون فيها اراجيف ومطاعن موجهة اليـه ولـكنه لم يكترث لذلك الامر فقال للاس كاس في هذا الصدد : « لم يكن السم يؤثر بمتريدات فالوشاية اصبحت من سنة ١٨١٤ لا تؤثر بي . »

ووصلت النرثمبرلند الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٥ اكتوبر وفي ١٦ منه صعد العاهل الى البر يصحبه امير البحر والجنرال برتران . واقام في ريق الامر في بريار عند تاجر من الجزيرة يدعى بلكمب .

وكانت اقامته في منزل بلـكمب وقتية فان المقر النهائي المعد له كان في لونود وهو منزل للحاكم في العراء ولـكنه لم يكن مهيئا لسكنه فيه . ووجد عنـد المستر بلـكمب كل ما يستوجبه من الاكرام وبعض وسائل تقتـل الضجر . ولم تدخر تلك الاسرة الـكريمة شيئا من الاشياء المخففة عنه ثقل السآمة التي يلقاها في ذلك المـكان .

وفي ابان إقامة نابوليون في بريار لم يخرج سوى مرة واحـدة لزيارة قائد الفصيلة التي في الجزيرة فـكان يعنى بمفكراته ويملي مدة طويلة على لاس كاس او على ابنه او على منطولون او على غورغو او على برتران ويتنزه في المعابر المغطاة أو الآجام في بريار فلا يرى سوى الوهاد الهائلة من تلك المتنزهات

وكان زنجي يقال له طوبيا يحرث حديقـة المستر بلـكمب وهو هندي من هنود ماليزيا اختطفه البريطانيون وباعوه رقا . وكان العاهل في خلال تنزهه يلقى ذلك المنـكود الحظ في غالب الاحيان ويظهر له اهتماما شديداً بأمره . وصمم على دفع فديته وكلما ذكر اختطافه يستشيط غضبا ولما وقف امامه في ذات يوم لم يتمالك عن ضبط افـكاره المزدحمة في نفسه وطفق يقول : « ما اعجب هذه الآلة البشرية المسكينة فلا غلاف منها يماثل غلاف الاخرى ولا داخل منها

الا ويختلف عن غيره . فلو صيرت طوبيا نظير بروتس لانتحر ولو صيرته كايزوب لرأيته الآن مستشارا للحاكم ولوصيرته مسيحيا غيورا وورعا لحمل قيوده امامه تعالى وباركها اما طوبيا المسكين فلم ينظر الى ذلك عن كثب بل أقبل على العمل مذعنا بكل بساطة . » وبعد ما تأمل فيه حينا من الزمان وهو صامت قال وهو يبتعد عنه : « انه ولاجرم فرق بين طوبيا المسكين والملك ريشار ... ومع ذلك فالذنب لايقل عنه فظاعة فلهذا الرجل اسرة وافراح وحياة خاصة وقد اقترفوا جناحا عظيما باتيانهم به الى هذا المكان ليموت رازحا تحت اثقال العبودية . » ثم انه صمت فجأة وقال للاس كاس :

« ولكنني أقرأ في عينيك أنك تفتكر أنه ليس نسيج وحده في جزيرة القديسة هيلانة فيا عزيزي لا يمكن أن يكون ادنى علاقة به هنا واذا كبرت الجريمة كان للضحايا موارد اخرى . فهم لم يكرهونا على مزاولة الاشغال البدنية ولو أنهم عالجوا ذلك لوجدوا أن لنا نفسا ينخدع بها الظالمون ... وقد يكون لحالتنا من ميل ... وسنظل شهداء لمبدإ خالد ... وملايين من البشر يبكون علينا والوطن ينتحب والمجد يلبس ثياب الحداد ... وللنكبات أيضا شدة ونخر ... وقد كانت الشدائد تنقص خطتي ... فلو قضيت نحبي وانا على العرش محفوفاً بمجالي العظمة والسطوة لبقيت لغزاً لايرى الناس سبيلا لحله أما وقد صرت الى هذه الحالة فانهم باتوا بما نزل بنا من الرزايا قادرين على الحكم علي حكما مجردا . »

وبرح نابوليون بريار في ١٨ دسمبر متوجها الى لونود للاقامة فيه : أجل ان المقر الجديدتوفرت فيه أسباب الراحة ولكنه قاسى كثيرا من عنف سجانيه وخشونتهم . فاقاموا خفراء أمام نوافذه واحاطوا المسكن بجميع أنواع التحفظ المحقرة الجائرة : فامر منطولون بان يكتب الى امير البحر عن ذلك ولم يشأ ان يتولى بذاته شيئا من الاشياء معه لئلا يدع لاحد مجالا لأن يقول : « قال لي العاهل كذا وكذا . »

وخرج في أواخر شهر دسمبر للتنزه راكبا جوادا فاضطرته وعورة الطريق الى الترجل وقد غاص في الوحل حتى ركبتيه بحيث لم يتمكن الا بشق النفس من الخروج من ذلك المأزق الحرج . وقال حينئذ عن ذلك : هذه واقعة قذرة . »



قبـل معركة واترلو

ولما تخلص من تلك الورطة قال : « لو هلكنا في هذا المكان فماذا يقول الناس في اوربا ؟ والمراؤون يقولون ولا مراء انا هلكنا بسبب ما تمنا . »

وكان جميع البريطانيين المارين بتلك الارجاء يعرجون على جزيرة القديسة هيلانة لمشاهدة الضحية العظيمة التي ألقتها حكومتهم على تلك الصخرة الصماء فيستقبلهم نابوليون بلطف مقرون بالعظمة . ولما كانوا يجدونه خلافاً لما صوروه لهم مدة عشرين سنة كانوا يعتذرون عن تصديقهم الاراجيف المذاعة عنه . فقال نابوليون لاحدهم باسما : « اني مدين لوزرائكم بجميع هذا اللطف فقد شحنوا اوربا بالنشرات القادحة والمثالب الموجهة الي وقد يعتذرون عن ذلك بقولهم انهم لم يفعلوا شيئاً غير المجاوبة على النشرات الصادرة ضدهم من فرنسا . ولكن لا بد للمرء من أن يكون منصفا فالذين رقصوا من قومنا على انقاض وطنهم لم يعترفوا بخطأهم وعمدوا الى الاكثار من نشر مثل تلك النشرات . »

ومال أمير البحر الى النظر في الشكاوي التي نقلها منطولون اليه فجاء الى العاهل وفاوضه في شأنها وافترقا وكل منهما راض عن الآخر . وكان الكولونل سكلتن معاون الحاكم يكثر من ابداء الاحترام لنابوليون فيدعوه العاهل غير مرة الى تناول الطعام هو وامرأته على مائدته .

واجتمع رفاق الرجل العظيم في اول يناير سنة ١٨١٦ ليقدموا له تهانئهم بدخول العام الجديد على أن نابوليون الذي ذكرته تلك الحفلة بأيام مجده وسؤدده لم يدع احدا يشعر بشيء مما يجول في جنانه عن مقابلته الاستقبال البسيط في لونود بالاستقبالات الرسمية في التويلري . فاكرم وفادة رفقائه الذين اختاروا مشاطرته النوائب ودعاهم الى الغداء معه . وخاطبهم بالكلام الآتي : « لستم سوى نفر قليل في طرف العالم وسيكون عزاؤكم في ان يحب بعضكم بعضا . »

وكانوا في كل يوم يرون حول لونود بحارة خالفوا التعليمات المعطاة للخفراء ودنوا من المنزل ليروا وجه الجبار السجين وقد قال نابوليون في هذا الصدد : « ما أعظم قوة التصور وما أشد تأثيرها في البشر ! فهؤلاء الناس لا يعرفونني ولم يروني قط ولكنهم سمعوا عني . فأي شيء لا يشعرون به وأي شيء لا يأتونه

حياً لي ؟ وجميع هذه الامور الغريبة تتجدد في جميع البلدان وفي كل عصر وعند كلا الجنسين . هذا هو التعصب فالتصور متسلط على العالم . »

ولم تكن الفسحة التي يستطيع نابوليون أن يتنزه فيها راكبا فرسه تمكنه من السير اكثر من نصف ساعة ومع ذلك اضطر فيما بعد الى العدول عنها : فتارة كان أحد الضباط البريطانيين يزعم أنه أهين ببقائه وراء غيره وانه يشاء الاختلاط بوليجة العاهل وتارة لم يكن الجنود البريطانيون يدركون معنى نظامهم فيرفعون بنادقهم على اكتافهم ويصوبونها عليه .

ولم تلبث حالة الجو والاسران ظهر تأثيرها فتوعكت صحة العاهل توعكا بينا ولم يكن ذا بنية قوية على مايزعمون وقد قال أحد رفاقه في المنفى : « لم يقد جسده من الحديد ولكن عقله قد منه . » وكان الدكتور اوميرا الجراح الانكليزي يعالجه وقد نال فيما بعد ملء ثقته .

وجاءت الجرائد الى جزيرة القديسة هيلانة باخبار موت مورات وخروج بورليه على الحكومة والاقتصاص منه ومحاكمة ناي واجراء الحكم عليه بالموت ولما قرأ لاس كاس امام العاهل الجريدة المذكور فيها خبر مصرع ملك نابولي الفاجع قبض نابوليون بشدة على يده وقال بصوت عال من دون أن يزيد كلمة واحدة : « ان الكالابريين أشد انسانية من الذين ارسلوني الى هذا المكان . »

ولم يدهش من عمل بورليه فقال : « عند رجوعي من جزيرة البا جاءني الاسبانيول الذين فاقوا سواهم في المعارضة لي على غزوتي وفي المدافعة عن بلادهم وقالوا انهم لم يقاتلوني الا لاعتبارهم اياي طاغية وقد جاؤوا يلتمسون مني خلاصهم ولم يطلبوا مني سوى مبلغ يسير ليستعينوا به على التحرر وعلى اضرام نيران فتنة في شبه الجزيرة تحاكي نيران الفتنة التي اضرمتها . ولو أصبت النصر في واترلو لبادرت الى نجدتهم وهذا الحادث يفسر لي معنى السعي لاثارة الفتنة الاخيرة ولا امتري في انها ستتجدد مرة أخرى . ولقد سعى فردينان عبثا في شدة سخطه للقبض على صولجانه بخنق فسوف يفلت من يده يوماً من الايام كما يفلت الجري . »

ورأى ان اقامة الدعوى على ناي غير محكمة كما ان الدفاع عنه غير حسن فثار ثائره من ذلك الحكم المدوسة فيه الحقوق المقدسة على أن هذا الحكم الجائر لم

يزد وصف اسير جزيرة القديسة هيلانة له بالظلم على وصف عضو من أعضاء مجلس الشيوخ له فيما بعد في وسط المجلس عينه .

ثم انه انتقل الى رفض اولياء الامر والنهي في فرنسا منح المرحمة التي التمستها عقيلة لافالت وفرار زوجها فانتقد السياسة الخرقاء التي جرى عليها البوربون وقال : « ان الاندية الخاصة في باريس تبدي الاميال عينها التي تبديها الاندية العامة وقد عاد النبلاء الى تمثيل دور اليعقوبيين ... على أن الفرنسويات قد شرفن عواطفهن : فعقيلة لابدويار اوشكت أن تموت من الحزن وعقيلة ناي صارت مثالا للاخلاص المقرون بالشجاعة العظيمة وعقيلة لافالت كادت تبيت جبارة اوربا »

ولم يقتصر نابوليون على السياسة المعاصرة فانه بعد ما ألقى نظرة فكرية سريعة وثابتة على حالة اوربا في ذلك الوقت ولخص الحوادث سر بالعودة الى الماضي وتمثله أمامه الاشخاص المشهورين والحوادث العظيمة في التاريخ وجعل يعمل في ذلك الامر فكرته السامية وعقله الراجح .وحدث أنه في أثناء التأملات في العصور القديمة وقف عند العراك الشديد الذي نشب بين النبلاء والسوقة في رومية القديمة وذكر الاوهام والمناقضات العابثة بالاجيال التالية عن تصورها بالغراك فقال : « ان التاريخ يمثل الغراك مشاغبين وثوريين وسفاحين ولكنه يبين بوجه الاجمال أن لهم فضائل ولطفا ونزاهة ودماثة أخلاق وانهم كانوا ابناء كرنيليا الشهيرة وهذا من شأنه أن يستميل اليهم أصحاب القلوب الكبيرة فما سبب هذا التناقض ؟ فدونكه : ان الغراك وقفوا نفوسهم مدفوعين الى ذلك بكرم الاخلاق على حقوق الشعب المهضومة للمدافعة عنها من اعتداء مجلس الشيوخ الجائر وكانت مواهبهم العقلية السامية واخلاقهم الكريمة تعرض للخطر ارسطقراطية شرسة الطباع ولكن هذه الارسطقراطية ظفرت بهم ونكلت بهم وأذلتهم . وقد نقل المؤرخون ذوو الاغراض أخبارهم الينا موسومة بسمة هذا الروح .

« وفي العراك الهائل الدائر بين الارسطقراطية والديمقراطية والمشتدة وطأته في هذه الايام وفي سخط الحالة القديمة على الصناعة الجديدة المختمرة في جميع الاقاليم الاوربية لايعتري أحد في أنه لو ظفرت الارسطقراطية بالقوة لما لقيت

في كل مكان عـددا وفيراً من الفراك لتعاملهم برقة على مثـال ماعومل به الذين تقدموهم . »

ولـما فاه نابوليون بهذا الـكلام لم يكن سخط الارسطقراطية العصرية معتبراً افتراضاً بسيطا فان ماحدث من الارتجاع في سنة ١٨١٥ ساق الدمار الى فرنسا : وامتزج دم لابدويار وناي وشرتران وموطون دوفرنه بدم برون ورامل . وكان القائمون باعمال الاجانب والملك يكملون مهمة السفاحين الذين قذف بهم رعاع المدن الجنوبية .

أو لم تحصر الارسطقراطية في جزيرة القديسة هيلانة أعظم الديمقراطيين وأشدهم بأسا ارادة أن تجهز عليه على مهل ؟ واذا كان نابوليون وهو في المنفى تذكر لاس كاس تخدمه للملوك الذين يتهمهم بنكران الجميل ويفتخر بحبسه عنهم ما أطلقوه عليه فان هذه الذكرى تفصح عن بيان أسباب سقوطه وتبرىء ساحة الامة التي اهملته فعد ذلك الامر من جملة أحكام العناية التي لا مرد لها . إلا أن الملوك لم يثبطهم ذلك الامر عن تعقبهم في شخصه جندي المبادىء الديمقراطية الاول ولسان حالها ورسولها وقد فاخر حتى في لونود بهذا اللقب المطلق عليه وفضله على لقب مخلص الملكية والمحسن الى الارسطقراطية .

على أن التصور المشؤوم الذي دبر سقوطه انتاب مخيلته وهو ملقى في وهدة الشقاء فقد كان رسول الثورة ميالا الى صيرورته وسيطا بين الماضي والحاضر وبين رجل الملوك والشعوب . وهـذا التنافر الذي بيناه زال من ذهنه وقت ما اذاع الملوك نشرتهم المشهورة في ٢ اغسطس سنة ١٨١٥ . فقال نابوليون: « اذا عقل القوم في اوربا واستتب النظام في كل ناحية فلا نساوي المال والاعتناء المنفقين علينا في هذا المـكان ويمكن التملص منا وقد يقتضي هذا الامر بضع سنين أي نحو ثلاث سنين أو اربع سنين أو خمس سنين : وفي ماخلا ذلك وفي ماعدا الحوادث العرضية التي لايستطيع العقل البشري تداركها لاالقى سوى أمرين كبيرين غير معينين يمكن الاستعانة بهما على الخروج من هذه الجزيرة . حاجة الملوك الي لمعارضة تيار الشعوب الجارف أو حاجة الشعوب الي للخروج على ملوكهم : فاني في العراك الشديد الناشب بين الحاضر والماضي أراني حكما ووسيطا طبيعيا . وقد طمعت بان أصبح الحـكم الا كبر في مثل هذه الحال وجملت وكدي

في ادارتي الداخلية وعلاقاتي السياسية الخارجية أن أصل الى هذه الغاية الكبيرة ولقد كانت النتيجة ممكنة وميسورة لو لم تتوخ الاقدار خلاف ذلك الامر. وثمة غرض آخر وهذا يترجح امكان حدوثه وهو حاجتهم الي للوقوف في وجه الروس إذ أنه مادامت الحال على هذا المنوال تصبح اوربا جمعاء قبل عشر سنين قوزاقية أو جمهورية . هؤلاء هم رجال السياسة الذين أنزلوني عن العرش ... »

ورأى العاهل فيما بعد أنه يصعب عليه تفسير معنى النشرة المذاعة في ٢ اغسطس سنة ١٨١٥ بغير بيان اخلاق كل من العهال والملوك الموقعين عليها فقال:

« ان فرنسوى متدين وأنا صهره . والاسكندر ابرمت بيني وبينه أسباب المودة . وملك بروسيا سقت اليه كثيرا من الاذى ولكنني كنت قادرا على جر مضرات أعظم وأشد عليه وفضلا عن ذلك أفلا يشعر المرء بسرور وافتخار بتوسيع دائرة سلطانه ؟ وبريطانيا نلت مانالته من جراء بغضاء وزرائها لي ولكن يهم الامير وكيل المملكة أن يرى تلك الامور ويتدخل فيها لئلا يتهم بالبلاهة وحماية أهل الشر . وانه لأمر محقق ان جميع هؤلاء الملوك سودوا صحيفتهم وهبطوا من حالق مجدهم بمعاملتهم إياي بهذه المعاملة . »

أيها الرجل الكبير دع اولئك الملوك والعهال يسودون صحيفتهم ويهبطون من حالق مجدهم بمعاملتهم إياك بتلك المعاملة فان عملهم هذا معدود من جملة الاعمال الداخلة في مهمتك فانت لم ترسل لتثبيت عروش الملوك وان يكن قد بدر من فيك مايدل على هذا الامر وبدت منك افعال تؤيده بل أرسلت لتكمل هدم البناية الملكية بنكباتك كما فعلت بانتصاراتك ...

وهذه صورة النشرة الآنفة الذكر التي أثارت حنق العاهل وذكرته بما فعله لاجل الموقعين عليها .

« حيث أن نابوليون بونابرت أصبح في قبضة الحلفاء فاصحاب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندة وعاهل النمسا وعاهل روسيا وملك بروسيا يقررون بموجب شروط الوثيقة المنعقدة في ٢٥ مارس سنة ١٨١٥ مايتعلق بالتدابير الملائمة لاحباط كل عمل يباشره لاقلاق راحة اوربا :

« المادة الأولى — تعتبر الدول الموقعة وثيقة ٢٠ مارس المنقضي أن نابوليون بونابرت اسيرهن .

المادة الثانية — يفوض أمر خفارته بنوع خاص الى الحكومة البريطانية الخ . الخ . » وحيث أن الحكومة البريطانية رضيت بأن تكون آلة تديرها بغضاء اوربا القديمة ولم تبال بحقوق الامم فلم ينقص السجان الملكي في ونسور إلا أن يبحث في نوبته عن آلة أخرى أوجدتها الطبيعة لاجراء الحكم العنيف الذي اصدره اولئك المهال فدله وزراه كاسلري وباثرست على هدصن لو .

الفصل السادس

هدصن لو — مقاومة نابوليون المستمرة لمزاعم الحاكم المنكرة وأعماله — أوجاع العاهل وانحطاط صحته — اضطرار لاس كاس الى الافتراق عن نابوليون

هدصن لو ! ان ذكر هذا الاسم* يستثير الاستفظاع والاشمئزاز في جميع النفوس الكريمة ... وانتما يا كيث وكوكبرن ابديتما شيئا من الاعجاب بالمجد ومن الاحترام للدهاء ومن الميل الى عظمة الشهرة والحظ ولكنكما لم تكونا عارفين حق المعرفة المهمة المنتدبين لاجلها .فقد ظننتما انكما انتدبتما لمراقبة جبار فرنسا وابقائه محصوراً في السجن ... فاهنئا ببلاهتكما !وما قدجاء الآن سجان يحسن فهم مقاصد مواليه العظام فهو سيفهمكما مايقتضيه الانتقام والخوف منكما وما يستطاع نيله بواسطتكما في بضع سنوات من اقليم حالة جوه كحالة جو جزيرة القديسة هيلانة اذا أعانه رجل كهدصن لو .

ووصل الحاكم الجديد الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٤ ابريل سنة ١٨١٦ وعند اجتماع نابوليون به للمرة الاولى وجده شخصا تقذى به النواظر وتنفر منه القلوب فقال عنه : « هو انسان كريه الطلعة ذو وجه تنبو عن منظره الاحداق ولكن فلنترو في ابراز الحكم عليه : فربما اصلحت اخلاقه ما أفسده منظره وليس هذا الامر بمستحيل . »

وأول أمر باشره هدصن لو انتدابه رفاق العاهل في المنفى الى توقيع صك يثبتون فيه انهم مقيمون باختيارهم في لونود وانهم يخضعون لمقتضيات أسر نابوليون .

وكان هدصن لويسر بايصاله الى العاهل نشرات وصحفا شحنهااعـدائه بالمثالب والمطاعن بحقه وحق حكومتـه وقد دبجت احدى تلك النشرات براعة الاب دي برادت فأديرت رحى البحث فيها على ارسال السـفراء الى فرسوفيا . ولم تـكن مثـل تلك الاعمال المبنية على اللؤم سوى أمور صبيانية صادرة عن رجل مثل السرهدصن لو . واستدعى للمثول امامه جميع خدام العاهل ليسأل كلا منهم منفردا عن نوع بقائه في جزيرة القديسة هيلانة هل هو باختياره أم لا وكأنه لم يقتنع بصحة الصكوك المـكتوبة المقدمة اليه في هذا الصدد . فتأثر نابوليون من هذا العمل بيد أنه لم يلق بدامن أغضاء الطرف على هذه الاهانة الجديدة ولما فرغ الحاكم من هذا الاستنطاق المقرون بالقحة دنا من لاس كاس ومنطولون وقال لهما أنه انتهى من عمله وسيكتب الى حكومتـه ليخبرها انهم جميعهم وقعوا الصكوك مختارين ثم انه جعل يطنب في مدح موقع الجزيرة وقال ان العاهل ورجاله مخطئون بتذمرهم وفضلا عن ذلك يتمتع جميعهم بصحة جيدة. ولما قالوا له انه ليس في الجزيرة شجرة واحدة يمكنهم ان يستظلوا بظلها في مثل ذلك الاقليم الحار قال لهم والخبث يقطر من شفتيه : « ستغرس فيها الاشجار » وبعد ما حبس لسانه عن الـكلام تركهم ومضى .

وازدادت صحة العاهل توعكا يوما بعـد يوم وفي اواخر ابريل الفى ذاته مضطرا الى نبذ الحرية القليلة الممنوحة له للتنزه فلم يكن يخرج من غرفته . فجاء الحاكم لعيادته فاستقبله المريض العظيم وهو مضطجع على مقعد ولابس ثياب النوم . وكانت أول كلمة فاه بها قوله للسر هدصن انه مصمم على الاحتجاج على الوثيقة المبرمة في ٢ أغسطس . وبعد ما قال انه ابى الالتجاء الى روسـيا اوالنمسا وانه لم يشأ الدفاع في فرنسا حتى النهاية مما كان يجعله يأمل نيل شروط ملائمة له قال : « ان اعمالـكم لا تشرفـكم في التاريخ وماعدا ذلك ستنتقم العناية لي وستجنون عار أعمالـكم المرة عاجلا اواجلا ولا يمضي وقت طويل حتى تـكفروا عن هذه الجريمة فيتبدل يسركم بالعسر وتتضعضع شرائعكم . . . وقد برهن وزراؤكم للملأ طرا بما اصدروه من الاوامر بحقي انهم يبتغون التملص مني فلماذا لم يجرؤ الملوك الذين أبعدوني على القضاء عليّ جهارا بالموت ؟ ولا يخفى ان هذا النوع من الموت

او ذاك النوع منـه متماثلان في شرعيتهما فتعجيل موتي يدل على عزيمة شديدة فيهم اكثر مما يدل عليها الموت البطيء الذي قضوا به علي »

فاجابه الحاكم انه لم يفعل الا ماأمر به وأن الاوامر الصادرة اليه تقضي بأن يلازمه احـد الضباط ملازمة خياله له . فقال نابوليون : « اذا وضعتم هذه الاوامر موضع الاجراء على هـذه الصورة امتنعت عن الخروج من غرفتي » وحينئذ اخبره السر هدصن لو انه ستصل عن قريب سـفينة تقل قصرا من الخشب ورياشا واطعمة تخفف من اثقال المعيشة عن سكان لونود الا أن العاهل لم يكترث لما علموه به من الآمال وشـكا شكوى مرة من حرمان الوزارة البريطانية اياه جميع انواع العزاء كحبسها عنـه الـكتب والجرائد واخبار ابنه وزوجته . وقال . : « اما الاطعمة والرياش والمسكن فانت وانا جنـديان ياحضرة السيد ونحن نعتبر هـذه الاشياء بقدر قيمتها الحقيقية لقد انتجعت مسقط رأسي وقد تـكون زرت بيتي فهو وان لم يكن احقر بيت في الجزيرة وان لم أ كن أستحي به لابد من أن تـكون قد شاهدت انه صـغير . واعلم اني وان اصبت عرشا ووزعت تيجانا فلم أنس حالتي الاولى : فقعدي هذا وسريري الذي تراه امامك يكفياني . »

ولما هم الحاكم بالانصراف كرر على العاهل اقتراحه عليه بارسال طبيبه اليه وكان في اثناء الحديث قد اقترح عليه ارساله فنبذ نابوليون اقتراحه . وعلى أثر مزايلة الحاكم لنابوليون أخبر هذا مادار بينهما من الحديث . ولما فرغ من مقاله صمت قليلا ثم قال : « ما أقبح هيئة هذا الحاكم ! ففي أثناء حياتي لم تقع عيني على نظيره .... واذا وقف الى جانبي هنيهة من الزمان مثل هذا الرجل امتنعت عن شرب فنجان القهوة ... ويمكنهم أن يرسلوا الي ما هو شر من سجان . »

وكأنه لم يكفه ماساقه اليه أعداؤه من سوء المعاملة رغبة في تعذيب ذلك الداهية وإتلاف حياته حتى حدثت اختلافات بين خدامه زادت في تعذيبه وتمزيق نفسه وكان أن الشقاق قد تلصص الى أبطال الامانة فقال لاس كاس : « حدثت بيننا مشاحنات ومخاصمات ساءت العاهل وسببت له نـكد العيش . » وهذا ماقاله لنا في هذا الصدد : « يجب عليكم أن تبذلوا الجهد لـكي تؤلفوا هنا أسرة واحدة



نابوليون فى جزيرة القديسة هيلانة

فلقد صحبتموني لتخففوا عني وطأة الشقاء أفلا يكفي هـذا الامر ليجعلـكم تتسلطون على عواطفـكم ؟ »

ونشأ ذات مرة خلاف شديد بين خادمين شديدي التعلق به وحين سمعهما العاهل يعينان موعد المبارزة اغتم اغتماما شديدا وانتهرهما بالـكلام الآتي :

« أتقولان انـكما صحبتماني رغبة في مرضاتي ؟ فـكونا أخوين وإلا جررتما علي الانزعاج ... فـكونا أخوين ان رغبتما في هنائي . كونا أخوين وإلا جلبتما علي العذاب .

« أتقولان أنـكما تريدان المبارزة وذلك أمام عيني أو لم أصبح في نظركما كل شيء يجب عليكما الاهتمام به أو لا تزال عين الأجنبي موجهة الينا ؟ وأريد أن تـكون روحي منعشة لـكل واحد منـكم هنـا . وأريد أن يجرع جميع المحيطين بي كؤوس الهناء وان يشاطروني ما بقي لنا من الملاهي والملاذ . وليس من أحد حتى عمانوئيل الصغير ذاته الا واريد ان يأخذ قسطه منها . »

وضعفت صحة العاهل يوما بعد يوم واقتضت مزيد عناية فشاء ان يباحث الدكتور أوميرا في ذلك الشأن ليعلم هل كان يعنى بأمر معالجته كطبيب للحكومة البريطانية مخصص لسجن الدولة ام كطبيب معين لمعالجته الخاصة : فاجابه الطبيب بعزة نفس وصـدق لهجة انه طبيب نابوليون ومن ذلك الحين وضع المريض النبيل كل ثقته به .

وبعد ما دعا الحاكم على غير جدوى الجنرال بونابرت الى تناول الطعام عنده توجه الى لونود حوالي اواسط شهر مايو ليخبر سجينه ان المنزل الخشبي وصل فلم يكرم العاهل وفادته وقال له ان امير البحر مع اجرائه بعض الامور المخالفة لمشيئته نال ثقته التامة ولا يرتئي أن ينيل خلفه مثل ما أناله . فاستاء السر هدصن لو من ذلك التعنيف وقال له انه لم يأت ليتلقى منه درسا .

فقال العاهل : « ليس ذلك لـكونك غير محتاج اليـه فقد قلت يا حضرة السيد ان التعليمات التي تلقيتها هي أشد عنفا من تعليمات أمير البحر فهل أمرت بأن تميتني بحـد السيف أم بالسم : واني أنتظر كل شيء من وزرائـكم فهاءنذا أمامك فأجر في حكمهم . وانا أجهل طريقة معالجتك قتلي بالسم اما قتلك اياي بحد السيف فلديك الذريعة التي يمكنك التذرع بهـا لاصابة بغيتك . واذا حدث

كما سبق لك ان هددتني به ان تخرق حرمة منزلي فاشعرك بأن رجال الفصيلة الثالثة والحسين الشجعان لا يلجونه الا بعد ان يدوسوا جثتي . »

وابتدأت صحة نابوليون تتحسن قليلا فالحوا عليه بأن يغتنم الفرصة من ذلك التحسن ويستأنف تنزهه على متن فرسه . ففي مؤتنف الامر أبى اجابة سؤلهم لانه لم يشأ الرضى بالانحصار ضمن الحدود الضيقة المعينة له وان «يدور على نفسه كأنه في ميدان ترويض الخيل » وفي آخر الامر رضي باجابة طلبهم ومر وهو عائد امام المعسكر البريطاني فبادر الجنود الى الاصطفاف تاركين كل شيء ليحيوه التحية العسكرية فقال حينئذ : « اي جندي اوربي لا يتأثر عند دنوي منه : »

وحاذر هدصن لو الا يظل العاهل شاعرا شعورا كافيا بأنه سجين في لونود وعليه كان في كل يوم يعالج ان يذكره بذلك الامر بما كان يأتيه نحوه من ضروب الاهانة والعسف والقسوة . فضبط المكاتيب الواردة اليه من أوربا زاعما انها لم تمر على أحد الوزراء وضبط ايضا رقعة خطتها عقيلة برتران بدعوى انها كتبت بغير اذنه . ونهى بصورة رسمية العاهل ورجاله عن كل علاقة خطية او شفاهية بسكان الجزيرة بغير موافقته.

وحولت الوزارة البريطانية القرار السياسي الصادر في ٢ اغسطس الى نظام رسمي في ما يتعلق بسجن نابوليون . ولما وصلت الى الحاكم اوامر مبنية على قرار البارلمان في ذلك الشأن اغتنم الفرصة لتجديد عذاب سجينه ، واضاف الى تلك الاوامر ملاحظات محقرة عن نفقات العاهل ملمحا عن وفرة عدد الخدام الذين آثروا البقاء مع مولاهم.

وعلى هذه الصورة تجرع العاهل كؤوس المهانة مترعة الى اصبارها وبعد ما كان يقتحم ميادين القتال غير مبال بلعلعة المدافع ووميض الشفار استسلم الى التبرم وآثر الاعتزال في غرفته . ولم يكن ينفصل عنها الا ليعود عقيلة دي منطولون بعد ولادتها . وكان لهذه السيدة غلام في الثامنة من عمره يدعى تريستان فكان العاهل يسر بان يسمعه يتلو بعض الحكايات . ولما قال له الغلام انه لا يشتغل كل يوم سأله العاهل قائلا : « او لا تأكل كل يوم : » فاجابه الغلام : « بلى » فقال نابوليون : « بناء عليه ينبغي لك ان تشتغل كل يوم

فالمرء لا يستحق ان يأ كل ان لم يشتغل :» فقال الغلام : «اذا كان الامر كذلك فاني سأشتغل كل يوم » فقال نابوليون وهو يضحك ويدغدغ الولد على بطنه: «انظروا الى تأثير البطن الصغير فالعالم يحركه الجوع والبطن الصغير : »

وكانت أسرة بلكمب توالي زياراتها لنابوليون فيجل استقبالها . على ان ذلك الغازي الهمام والقائد المصور الذي لم يظن وهو في بريار ان لعبة الغميضة تنقص من كرامته لم يظن قط وهو في لونود انه يكسف بهاء مجده ودهائه بمزاولته تلك اللعبة وبتعليمه احدى اوانس بلكمب لعب البليار .

ووصل مندوبو الدول الاوربية الى جزيرة القديسة هيلانة وابدوا رغبتهم في رؤية نابوليون . فزار امير البحر ملكلم نابوليون واخبره ذلك الامر . وكان نابوليون يحب ذلك البحار الشجاع فقال له انه يتعذر عليه أن يستقبل مندوبي الحلفاء وختم حديثه بهذه الكلمات : « ياحضرة السيد انت وانا انسانان وانا اجملك حكما في هذه القضية : أمن الممكن أن عاهل النمسا الذي اقترنت بابنته بعدما التمس مني وهو جاث أمامي ان اعقد هذا القران وبعد ماارجعت اليه عاصمته مرتين وبعد ماحبس عنده امرأتي وابني يرسل الي مندوبه من دون أن يرسل الي معه سطرا واحدا ومن دون أن يخبرني عن صحة ابني ? فهل استطيع والحالة هذه استقباله ? وهل عندي شيء من الاشياء اقوله له ? وما قلته عنه يمكنني أن اقوله عن الاسكندر فلطالما افتخر هذا بصداقتي ولم تكن حروبي معه حروبا شخصية بل حروبا سياسية . وهما يتباهيان عبثا بكونهما عاهلين فنحن لسنا سوى بشر ولا اتقاضاهما الآن غير هذا اللقب . أو ليس لجميعهم قلب ? وصدق ياحضرة السيد اني حانق استاء من لقب جنرال الذي يطلقونه علي لا ارتاع منه ولا انبذه الا لكونه يدل على اني لم اكن عاهلا . ولا يخفى أن دفاعي عن شرف غيري في هذا الشأن يفوق الدفاع عن شرفي . »

واعطى امير البحر العاهل جرائد منشورا فيها نعي عاهلة النمسا والاحكام المبرزة على القواد الذين تناولتهم الاوامر الصادرة في ٢٤ يوليو وتبرئة ساحة كمبرن والقضاء بالموت على برتران . وانتهت الى العاهل في ذلك الحين رسائل من والدته وشقيقته بولين وشقيقه لوسيان .

وخطر لنابوليون في اليوم السابق عيده ان يصطاد الحجال فلم يستطع

المشي طويلا فاضطر الى ركوب الحصان . ولما كانوا جالسين على العشاء وسمعهم يقولون انهم في ليلة ١٥ اغسطس قال لهم بتأثر : « غدا ستشرب في اوربا انخاب كثيرة توجه الى جزيرة القديسة هيلانة وستجتاز المحيط اماني حارة وعواطف نبيلة . » وتغدى في الغد مع جميع رجاله الأمناء في خيمة كبيرة جميلة امر بنصبها في الحديقة وقضى سحابة نهاره بينهم .

وكان ما وجهه نابوليون من التعنيف المر والاهانة الى السر هدسن لو قد زاد في إيقاد نيران البغضاء في فؤاده وصيره يشدد في التضييق على السجين النبيل . ولما كان المستر هبهوس قد ارسل الى العاهل الكتاب الذي ألفه عن المئة يوما وكتب عليه باحرف مذهبة : « الى نابوليون الكبير » ضبط الحاكم الكتاب بدعوى ان كاسلري منتقد فيه بلهجة عنيفة . وبعد هذا العمل المنكر ببضعة ايام تجاسر على الاطلاع على العاهل فوجده في الحديقة . وعالج التنصل مما عزي اليه قائلا انهم لو عرفوه حق معرفة لخففوا من لهجة انتقاده الا أن هذه الوقاحة جرت عليه اهانة جديدة في حضرة امير البحر ملكم .

فقال له نابوليون : «انك لم تتول قيادة غير قيادة العيارين الكورسيكيين وبعض الفارين من الجندية واللصوص البيامنتيين والنابوليانيين . وانا اعرف اسماء جميع القواد البريطانيين الذين امتازوا عن غيرهم في ساحة الهيجاء ولكنني لم اسمع احدا يتكلم عنك الا ويدعوك كاتب بلوخر او رئيس عصابة من الاشقياء . فانت لم تتول قط قيادة اشخاص من أهل الشرف ولم تتعود المقام بين ظهرانيهم.» ولما قال له السر هدسن انه لم يسع لنيل المهمة الموكول اليه امر قضائها قال له نابوليون : « ان هذه المناصب لا يسعى الناس وراءها فالحكومات تسندها الى الاشخاص المتجلببين باسمال العار . » فحينئذ قال له الحاكم ان الواجب عليه ان يأتي هذه الاعمال وانه لا يمكنه مخالفة الاوامر الآتية اليه من الوزارة فقال له نابوليون : « لا أظن أن حكومة من الحكومات يحدوها اللؤم على اعطاء مثل الاوامر التي تجريها . » واخبر هدسن لو سجينه ان الحكومة البريطانية تنوي تخفيض النفقات في لونود . فقال العاهل : «لا ترسلوا الي شيئا من المطعم والمشرب اذا راقكم ذلك فأنا أتناول الطعام على مائدة ضباط الفصيلة الثالثة والخمسين الاشداء وأنا متأكد ان كلا منهم يسر بأن يمنح كرسيا بجانبه الى جندي قديم .

فلست الا من الشحنة الصقلية ولست بريطانيا . فلا تمثل أمامي من الآن فصاعداً الا حين تأتيني بالقضاء علي بالموت فحينئذ تنفتح جميع الابواب في وجهك . »

ولما رأى هدصن لو أن نابوليون وجميع الفرنسويين في لونود يحتقرونه عالج حمل البريطانيين الذين في الجزيرة على معاداتهم فاذاع أن رفض نابوليون استقباله ناجم عن بغضه الامة البريطانية وأن هذا البغض يتناول ضباط الفصيلة الثالثة والخمسين الذين لا يشاء مشاهدتهم . ولما انتهت هذه الاراجيف الى مسامع العاهل بادر الى دعوة أقدم ضباط تلك الفصيلة وهو الكبتن بوبلتن فأكد له أنه لم يقل شيئا ولم يخطر له شيء مما أذاعه ذلك الحاكم كذبا وافتراء وقال له « لست من العجائز وأنا أحب الجندي الشجاع الذي خاض غمرات القتال أيا كانت الامة المنتمي اليها . »

وبعد مازاد السر هدصن لو في الطين بلة بمعالجته التنصل مما اتهم به تعمد اتيان اهانات جديدة فظيعه فدعا اليه الدكتور أوميرا زاعماً انه يريد أن يستخبر منه عن صحة سجينه ولكنه كان في الحقيقة يبتغي التذمر من جراء ما لحقه من الغضاضة في اجتماعه الاخير به فقال له وشرر الغضب يتطاير من عينيه: « قل للجنرال بونابرت أنه يجب عليه أن يعتدل في تصرفه واذا أصر على غيه لم أر لي بدا من اتخاذ التدابير العنيفة لزيادة التضييق عليه . » ثم أنه اتهم نابوليون بأنه أهلك الملايين من البشر وختم كلامه بقوله : « أنه يعتبر علي باشا سفاحا يستوجب الاكرام أكثر مما يستوجبه بونابرت . »

ولام العاهل نفسه على اللهجة العنيفة التي خاطب بها الحاكم فقال : « كان الاشبه بي أن أعبر برباطة جأش عن جميع هذه الاشياء فانها تكون أشد تأثيراً . » وجاء الدكتور أوميرا وأخبره أن هدصن لو لن يطأ برجله أرض لونود ؛

على أن نابوليون لم يعتبر الاحتجاجات الشفاهية مع شدة لهجتها وفصاحة عبارتها كافية لان تنقل الى الاجيال الحاضرة والمستقبلة الحكم الفاضح الذي كان في نوبته قد قرف به القضاة الذين أصدروه وانتقدهم وهو في منفاه في الجزيرة الجرداء من دون أن تفارقه السياسة الادبية المتصلة اليه من العدالة والدهاء والعاجزة

المواصف السياسية عن صدمها وهدمصرحها . ففوض الى الـكنت دي منطولون أن يبلغ الحاكم صورة رسمية عن احتجاجه ضمنها جميع شكاويه بلهجة شديدة منطقية .

ولم ين هدصن لوعن التذمر من اسراف سكان لونود وانكاره كل يوم مايطلبونه من الطعام والشراب من دون أن يخشى أن يحتقر من جراء تنازله الى التدخل في مثل تلك الامور التافهة كاعتراضه على بعض قناني من الخمر أو بعض ارطال من اللحم. على أنه أذن بان تزاد النفقات بحيث تعرض عليه دا ءاوهددهم بزيادة التضييق ان هم نبذوا اقتراحه وهذا ماجعل لاس كاس يقول في مفكراته « كانوا يساومون في أمر حياتنا . » ولم يشأ العاهل قط أن يتدخل في مثل تلك المسائل وأمر بألا يعودوا الى ذكر شيء منها أمامه .

ووضع السر هدصن لو تهديده موضع الاجراء بتنقيصه النفقات فما عتم سكان لونود أن شعروا بنقص الاشياء الضرورية لهم . فذات يوم بعد ما تناول العاهل غداءه مر بالغرفة التي تتناول حاشيته الطعام فيها فوجد أن ما كان لديهم من الطعام والشراب قليل جداً لا يكفيهم فأمر من ذلك الحين بأن يباع كل شهر قسم من الآنية الفضية التي له للاستعاضة بثمنها عن المبلغ الذي حسمه الحاكم . ولم يكتف هدصن لو باضطرار العاهل الى بيع آنيته الفضية ليعيش من ثمنها بل أراد أن يغتنم الفرصة من ذلك الامر لايجاد أسباب أخرى يزعج بها سجينه . ولما كان الناس يتنازعون شراء أشياء تخص الرجل العظيم وكان تزاحمهم قد جعلهم يدفعون مئة دينار ثمن صحفة واحدة أعلن الحاكم أن هذه الصحفة لا يمكن بيعها إلا للشخص الذي يعينه ولـكن العاهل فكر في وجوب وضع حد لتلك المزاحمة وأمر بأن تحذف من الآنية المكسرة جميع العلامات الدالة على أنها تخصه ولم يحفظ منها سوى النسور الموضوعة على الاغطية .

وأثرت هذه المعاملات الدنيئة في صحة العاهل شيئًا بعد شيء فبدا على سحنته شحوب غير هيئته وألقى القلق في الافكار بحيث أنه صار شديد الشبه بأخيه البكر . على أن آلامه وهزاله لم يحولا دون مواصلة الرياضات والاعمال العقلية التي باشرها منذ وصوله الى الجزيرة: فكان يدرس الانكليزية على لاس كاس. ولا يهمل الاملاء على قواده أو لاس كاس أو ابنه عن حروبه والحوادث الخطيرة.

في حياته . وفي اليوم عينه الذي تعمد فيه هدصن لو ازعاجه بمطالبه الاخيرة بشأن الآنية الفضية املى حوادث موقعة مارنغو على الجنرال غورغو وأعاد النظر مع لاس كاس في حوادث معركة اركول التي أملاها عليه قبلا . وذكر في المفكرات أن العاهل قرر أن تقرأ عليه في المساء الفصول التي أملاها ولكن حدث ذات ليلة أن إحدى السيدات استهواها النعاس فنامت وجعلت تغط في نومها فلم يعد الى قراءة تلك الفصول في المساء وقال فيهذا الصدد : «ان المؤلفين يعجبون دائما بمصنفاتهم . » .

وبعد الاهانات والاضطهادات المتوالية التي وجهها هدصن لو الى العاهل وبعد كؤوس الغضاضة التي تجرعها من قبله طلب أن يشاهده فأصر العاهل على رفض استقباله اصرارا شديداً . فصمم الحاكم على أن يرسل اليه بواسطة الدكتور أوميرا رسالة ذكر فيها أنه لم يخطر له قط أن يهين الجنرال بونابرت أو يجرح عواطفه وهذا مايخوله الحق بأن يتقاضاه اعتذارا عن اللهجة العنيفة التي خاطبه بها في مقابلته الاخيرة . وطلب أيضا هدصن لو اعتذار الجنرال برتران عن إغلاظه الكلام له في اجتماعهما الاخير وقال اوميرا : « ان العاهل تبسم باحتقار عند افتكاره بطلب السر هدصن لو منه أن يعتذر اليه . »

وجاء الكولونل ريد الى لونود بعد يومين وطلب الدخول على العاهل وكان حاملا مذكرة يطلب فيها السر هدصن لو مطالب جديدة . فأدخل الكولونل على نابوليون وقرأ له المذكرة المكتوبة بالانكليزية وأبقاها معه من دون أن يترك له نسخة منها أو ترجمة عنها . وهذه خلاصة مذكرة هدصن لو .

« يجب على الفرنسويين الراغبين في البقاء مع الجنرال بونابرت أن يوقعوا الصك البسيط الذي يبسط لهم وأن يرضوا بالاذعان لجميع النواهي الممكن وضعها للجنرال بونابرت من دون أن يبدوا أدنى ملاحظة خاصة في هذا الشأن . والذين يأبون التوقيع يرسلون توا الى رأس الرجاء الصالح : فيخفض عدد الخدام الى أربعة وهؤلاء ينبغي لهم أن يعتبروا أنهم خاضعون للقوانين نظير رعايا بريطانيا العظمى ولاسيما فيما يتعلق بالقوانين المراد بها تأمين الجنرال بونابرت والمعلنة أن كل مساعدة له على الهرب تعتبر جريمة خيانة . وكل من يقدم منهم على خيانة الحاكم أو الحكومة المنتمي اليها أو يبدي ملاحظات عليهما أو يسيء التصرف

نحوهما يرسل في الحال الى رأس الرجاء الصالح ولا يسهل له طريق العودة الى أوربا . »

ولما أبلغ نابوليون الدكتور اوميرا المذكرة الصادرة من سجانه قال بعد ما اعمل رويته قليلا : « أفضل أن اراهم جميعهم يسافرون على أن أرى حولي أربعة اشخاص أو خمسة أشخاص لا ينفكون عن التخوف ويهددون في كل دقيقة باركابهم متن السفن بالقوة . ويستنتج من هذه المذكرة أنهم جميعهم تحت مطلق تصرفه فليبعد عني جميع الناس وليجعل الخفراء على الابواب والكوى وليرسل الي الخبز والماء من دون غيرهما فهذا لا يهمني لأن فكري مطلق وقلبي حر على مثال ما كانا عليه حين كنت أسن الشرائع لاوربا . »

ونحن لم نذكر حتى الآن كل التضييق الذي تعمد هدصن لو اجراءه بحق العاهل نابوليون فأعلن أنه بموجب السلطة المطلقة الممنوحة له في جميع مساحة السجن الموكولة اليه خفارته لا يستطيع نابوليون أن يميل عن الطريق العام أو يدخل بيتا من البيوت أو يكلم شخصا من الاشخاص الذين يلتقي بهم وهو يتنزه راكبا جواده أو ماشيا على قدميه . ثم أن ذلك التضييق على الجنرال بونابرت ماعتم أن شمل جميع حاشيته . فلم يصدق القوم في لوندون في بدء الامر صحة عنف ذلك التضييق وعهد الى الدكتور اوميرا في أن يستوضح الحاكم عن الحقيقة فبسط هدصن لو لاوميرا ايضاحا وافيا بلا تردد أو محاولة تخفيف وطأته . ولما كان شديد الاهتمام بالاحتجاج الرسمي الذي وجهه اليه المسيو دي منطولون أراد أن يعلم هل ارسل ذلك الاحتجاج العنيف الى لندرة واوربا وهل كانت نسخ عنه في الجزيرة ؟ ولما أجابه اوميرا بالايجاب ساوره قلق عظيم .

وانتظر نابوليون كل معاملة قاسية من هدصن لو وقد أعلن له ذلك في مقابلتهما الاولى إلا أن المعاملة الاخيرة صيرت كأس حنقه دهاقا لانه لم يخطر بباله أن يعامل بمثلها وظل مترددا في اعتقاده أنه لا يمكن أن تأمر الوزارة البريطانية بمثل هـذه المعاملة وان يكن الحاكم قد أبلغه بواسطة اوميرا أنه لا يجري الا الاوامر التي يتلقاها من حكومته . فقال : « اني متحقق انه لا توافق على هذا العمل الجائر الاخير الا وزارة اللورد باثرست »

وقال نابوليون متذمراً : « أنهم يقصرون حياتي باثارتهم كامنات سخطي وكانت حالته الصحية تتأخر يوما بعـد يوم فأصابته الحمى وصار يشعر بتوعك



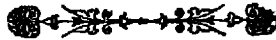
معركة واترلو فى ١٨ يونيو ١٨١٥

عام . ولم يشأ أحد من رفاقه في مصائبه مفارقته مهما كانت عنيفة التدابير التي لجأ اليها هدصن لو . فأرسلوا الصك الى الحاكم وقد وقعه جميعهم وفقا لطلبه مع استبدالهم لفظة نابوليون بونابرت بلفظة العاهل نابوليون . فأبى هدصن لو الموافقة على هذا التغيير وأعاد الصك الى الجنرال برتران ليعيدوه الى نصه الاول. ولما علم نابوليون ماكان من ذلك الامر طلب أن ينهوا هذه المسألة برفضهم توقيع الصك والرضى بالانتقال الى رأس الرجاء الصالح .

وجاء الحاكم الى لونود ليخبر الجنرال برتراق أن الجنرالية ولاس كاس وأفراد حاشية الجنرال بونابرت الذين أبوا توقيع الصك سيرسلون حالا الى رأس الرجاء الصالح .

وكان لذلك الانذار القريب أجل الاجراء ماتوقعه الحاكم من الوقع الشديد فان اولئك الاشخاص الذين اختاروا المنفى الى ذلك الاقليم البعيد المزار راضين باحتمال شظف المعيشة حبا لذلك الجبار العظيم الذي أحبوه فوق كل شيء اضطروا الى الاذعان للاستبداد مؤثرين ذلك على مفارقته . وبعد منتصف الليل ساروا الى الكبتن بوبلتن من دون أن يشعروا العاهل بذلك ووقعوا الصك الذي نظمه الحاكم وتخلف عن توقيعه سنطيني لاصراره على الامتناع عن توقيع أي ورقة كانت لايطلق فيها على مولاه لقب امبراطور . على أن نابوليون لما درى ما كان من هذا الامر لم يدهش من الادلة الجديدة على شدة اخلاصهم له وتعلقهم به فقال : « انهم لايتأخرون عن توقيع أي ورقة كانت ولو أطلق فيها علي لقب الطاغية بونابرت أو غير ذلك من الالقاب المحقرة بحيث يستطيعون البقاء معي في المنفى يشاطرونني الشقاء ويؤثرون ذلك على العودة الى أوربا حيث يمكنهم أن يجروا ذلاذل الغبطة ويرتعون في بحبوحة الهناء . » وقال العاهل للدكتور اوميرا : « انه لضرب من الحماقة ان أرضى بلقب امبراطور في الحالة التي صرت اليها اذا كان الوزراء البريطانيون ينكرون علي هذا اللقب وا كون والحالة هذه كواحد من اولئك التاعسين الذين في معقل بدلام فهؤلاء يتوهمون انهم ملوك وهم مقيدون في الاغلال ومضطجعون على الهشيم . » ولكنه كان شديد الاعتصام بذلك الأمر لاعتباره اياه من جملة حقوق الشعب الفرنسوي ولم يتمسك به اجابة لداعي العجب والمجد الباطل .

وتناول بغض الحاكم لنابوليون جميع الفرنسويين المقيمين في لونود الا ان بغضه للاس كاس كان أشد واقوى لان هدصن لو رأى فيه مذيع اعماله الخسيسة اليومية . فاحتال السير هدصن لو لاجل التملص منه على اخذ خادم خلاسي متقيد في خدمته ثم أن الخادم عاد خفية الى لونود ليعرض على سيده القديم خدمته بارساله جميع المكاتيب والرسائل التي يبتغي تسييرها الى اوربا . فاعتقد لاس كاس صحة كلامه واعطاه مكاتيب ومن جملتها مكتوب الى لوسيان بونابرت . فما ابطأ هدصن لو ان استولى على المكاتيب وسقط لاس كاس في الفخ المنصوب له وظفر السجان الغاشم بحاجته واوشك القانون الموضوع لسكان لونود ان يجري بحق شخص يميل هو كل الميل الى التملص منه . وفي اواخر شهر نوفمبر سنة ١٨١٦ جعل لاس كاس في السجن في جزيرة القديسة هيلانة وبعد ما تفقد هدصن لو جميع اوراقه استنطقه وامر بابعاده الى رأس الرجاء الصالح . وكان ذلك الامين الصادق المستهدف لنبال الخيانة يستحق المكافأة والتعزية فافتكر نابوليون به وكتب الى لاس كاس وهو في السجن رسالة لكن الحاكم الجائر ضبطها فلم تصل الى لاس كاس الا بعد وفاة العاهل نابوليون .



الفصل السابع

ايام نابوليون الاخيرة ووفاته

ان غورغو الذي كانت تحدث بينه وبين لاس كاس مشاحنات ومناظرات عنيفة لم يشأ أن يدعه يبرح الجزيرة من دون أن يبين له أن قلبه لا يحمل حقدا . فطلب أن يصحب برتران الذي نال الاذن لمشاهدة لاس كاس وجاءا معا لوداع رفيقهما المنكود الطالع وقد حول منفاه الاختياري الى منفى إجباري .

ودامت المظالم في لونود بعد ذهاب لاس كاس كما كانت حين كان فيها على أن الدكتور اوميرا كان الوسيط الدائم بين نابوليون والحاكم وقد نهض باعباء المهمة الشاقة بخفة روح استمالت اليه ثقة العاهل به يوما بعد يوم وصيرته مشتبها فيه عند هدصن لو . وحقق ذلك الرجل بفعله ما قاله عنه نابوليون اي انهم ارسلوا اليه من هو شر من سجان . وتجدد الاضطهاد كل يوم تحت اشكال شتى . ولما ابدى العاهل رغبته في تصفح الكتاب الذي وضعه بيليه عن بريطانيا وطلبه من الدكتور اوميرا اخذ السر هدصن لو من مكتبته كتابا عنوانه : «تاريخ الرجال الخاملي الاصل عند جميع الامم الذين اختلسوا القاب امبراطور وملك وامير . » وأعطاه الدكتور قائلا له : خذ هذا ايضا للجنرال بونابرت فقد يجد فيه صفات تنطبق عليه . هذه كانت اخلاق ذلك الرجل الذي اختاره اعداء نابوليون ليكون في جزيرة القديسة هيلانة لسان حال الملوك والارسطقراطيين في اوربا وينتقم لهم من الجبار العظيم الذي ابقى عليهم بعد ما كان يستطيع تعفية آثارهم وطمس رسومهم .

وقد أصاب نابوليون الغرض حين وصف السر هدصن لو مطلقا عليه لقب « الشحني الصقلي » ولم تكن وايم الحق هذه اللفظة كافية للتعبير عما يثوي في نفس ذلك السجان اللئيم من الخساسة والدناءة والخبث والفظاعة . وكان كلامه ترجمان جنانه وكثيرا ما استعمل اخشن الالفاظ للتعبير عن احقر العواطف . فذات يوم اطال لسان القدح بحق رفاق العاهل الصادقين فقال : كان الافضل

للجنرال بونابرت ان لايكون معه اولئك الكذابون كمنطولون وبرتران إبن الكلبة الذي لم يكن دأبه غير التذمر .

وانه لامرمؤكد ان حاشيةنابوليون كانت قذى في عين مجري ارادةالمحالفة المقدسة ولم يشأ هدصن لو ان يخفف اصدقاء نابوليون عذابات مولاهم بما يبدونه له من دلائل التعلق والاخلاص بل شاء أن يضرب ضحيته ضربة قاضية في الخلوة من دون أن يخشى أن يكون لتلك الضربة صدى . ولهذه الغاية ابعد عنه لاس كاس وصار يجهد في ابعاد الدكتور اوميرا عنه .

وقال هدصن لو غير مرة للدكتور اوميرا : اصبحت مشتبها فيك ولم يبق لي مندوحة عن التحفظ منك . وكتب الى لندرة يطلب اخراج الدكتور اوميرا من جزيرة القديسة هيلانة .

وحين كانت كتابته سائرةعلى الطريق الى اوربا كان الدكتور اوميرا يزدري باتهام الحاكم اياه ونفوره منه وثابر على عيادة مريضه النبيل وتقديم وسائل التعزية اللازمة له علاوة على تقديم الذرائع الطبية التي يراها ملائمة . ولما لم يكن خاضعاً للنظام العنيف الخاضع له سكان لونود استفادوا من حرية علاقاته بالخارج وابدى نابوليون ثقة عظمى به .

وكان نابوليون في اثناء الراحة التي يتركها له الحاكم يسر باعادة ذكرى رجال التاريخ أو البحث في القضايا المهمة المتعلقة بالسياسة الحاضرة .

وقد مثل الماهل الثورة في مجموعها ومبادئها وهو في شاهق الفلسفة وموقف التجرد عن كل ميل أو هوى في الحالة التي اوصلته اليها تقلبات الاقدار ووضعت حدا لحياته السياسية قبل اوانها . وقد قال في هذا المعنى : « ليست الثورة الفرنسوية نتيجة تصادم اسرتين تتنازعان العرش بل هي حركة عامة صادرة عن مجموع الامة لمناوأة اصحاب الامتيازات ... وقد استنارت بمشكاة مبدإ المساواة واضمحلال بقايا الازمنة اصحاب الاقطاعات وانشأت بلاداً فرنسوية جديدة قسمت ارضها تقسيما متجانساومنحت نظاما قضائيا واحداونظاماً ادارياً واحداًوشرائع مدنية واحدة وشرائع جنائية واحدة وطريقة واحدة لجباية الضرائب . وصارت فرنسا الجديدة المحتوية على خمسة وعشرين مليونا من السكان تؤلف طبقة واحدة

من الوطنين خاضعة لشريعة واحدة ونظام واحد وقانون واحد . وقد جاء ذلك التغير موافقا لخير الامة وحقوقها ولجرى العمران . »

فاذا استمدت الثورة والحالة هـذه اصلها من مبدإ المساواة وهداها دهاء الحضارة فهل يستطيع اعداؤها الالداء المتعجرفون الغض من كرامتها ؟ أجل انهم خلعوا ممثلها عن العرش ونفوه وسجنوه وجرعوه كؤوس المهانة والعذاب ولـكن ذهبت مساعيهم على غـير جدوى فالمستقبل مضمون لها . واذا أقصتها الحـكومة عنهـا لاذت بعقوة الهيئة الاجتماعية . فصارت الصحافة لسان حالها بعد نابوليون وستعيد اليها هـذه الصحافة ادارة الحـكومة يوماً من الايام . وابصر سجين القـديسة هيلانة وهو في الاغلال وعلى مسافة بعيدة انتصارا جديدا أصابه المبدأ المقدس الذي كابد ما كابده من أجله حتى فاضت روحه وهو يجاهد في سبيله فقال : قبلما تنقضي عشرون سنة على وفاتي بعدما يغيبني الحفير سترون في فرنسا ثورة جديدة . »

ولم تقتصر نبؤته على فرنسا وحدها بل هدد مبدأ المساواة الارسطقراطية البريطانية نفسها فقال للدكـتور اوميرا : « في رؤوسكم كثير من العجرفة الارسطقراطية فانتم تعتبرون سوقة الناس مجبولين من طينة أدنى من الطينة المجبولين انتم منها تتـكلمون عن حريتكم ولـكن هل ترون افظع من تجنيد بحارتـكم بتلك الطريقة الاستبدادية . ومع ذلك فالوقاحة تحدوكم على انتقاد تعبئة الجنود في فرنسا . وهذا الامر يجرح عواطف كبريائـكم لانه ليس من تمييز بين طبقات المجتمع الانساني ما أحقر المنزلة التي ينزل اليها عنـدكم ابن النبيل عنـد اضطراره الى الدفاع عن وطنه ومساواته لابناء السوقة وتعريض حياته كانه واحـد من أبناء الشعب . ومع ذلك جعل الحق سبحانه وتعالى المساواة بين جميع النـاس . فمن تتألف الامة ؟ لاتتألف فقط من لورداتـكم أو اساقفتكم الـكبار أو رجال كنيستـكم أو نبلائـكم أو بعض الخاصة عندكم . فسيأتي يوم ينتقم فيـه الشعب وسيشاهد الناس أموراً هائلة : »

وكان نابوليون من جهتي التـاريخ والنبؤة يحب بنوع خاص ان يعالج فحص ملـكه وحياته مثنيا عليهما فاختصر ما تخللهما من الحوادث بسطور وقال :

« لقد اجهدوا نفوسهم على غير طائل بحـذفهم واسقاطهم ما شاؤوا حذفه

واسقاطه وتشويههم ما راموا تشويهه فيتعذر عليهم أن يطمسوا رسومي . ولا يلقى المؤرخ الفرنسوي مندوحة عن ذكر الامبراطورية واذا كان له قلب فلا يلقى له بدا من ارجاعه الي شيئا من الاشياء ومن اعطائي نصيبي مما استحقه . ولعمر الحق انه يسهل عليه هـذا الامر لان الحوادث تتـكلم وتبدو واضحة كالشمس في رائعة النهار .

« لقد سددت ثلمة الفوضى وحللت عقدة الخـلاء وطهرت الثورة وشرفت الشعوب وثبت اركان عروش المـلوك واستثرت حب المنافسة وكافأت اصحاب الاهلية وأخرت حدود المجد . ولا يخفى ان هذه الامور لا يستهان بهـا . وهل يمكنهم ان يتهجموا علي قادحين ولا يقوم المؤرخ للدفاع عني ؟ وهل هـذه مقاصدي ولـكن ثمة أسباب تدعو الى تبرئة ساحتي . فهل أتهم بالاسـتبداد . يبين انـ الحـكم المطلق كان امرا لاغنى عنه ' وهل يقولون اني القيت الجنادل في سبيل الحرية فانه يبرهن عن ان فساد الاخلاق والفوضى والاضطرابات أوشكت ان يستفحل أمرها . وهل يتهموني بشدة الميـل الى الحرب . فانه يقول اني اتخذت خطة الدفاع . وهل يزعمون اني توخيت وضع اساس الامبراطورية العامة فانه يظهر ان ذلك الامر نتيجة عرضية للحوادث وان اعدائي الجأوني الى تلك الحال . وهل يدعون ان مطامعي كانت سببا لذلك البلاء فانه ولا مراء سيجد لي من المطامع مقادير وفيرة ولـكن أعظم تلك المطامع واسماها انشاء سلطة العقل ومزاولة القوى العقلية وقد يضطر المؤرخ هنا الى التأسف على حبوط تلك المطامع... هذا تاريخي بكامله حصرته في هذه الـكلمات القليلة . »

وصمم هدصن على ابعـاد اوميرا عن نابوليون كما أبعد عنه لاس كاس . ولما لم ينل من لندرة ابعاد الدكتور أوميرا فكر في إخضاعه في نوبته لقانون جائر ثقيل الوطأة يتعذر عليـه احتماله فيضطر الى التملص منه بالمبادرة الى الاستقالة . فاصاب بغيته من ذلك الامر اذ ان أوميرا أكره على البقاء محصورا ضمن دائرة لونود ومحروما معاشرة البريطانيين وتولي العلاقات مع أي كان من الناس اللهم الا ما كان من خصائص مهنته الطبية فعالج التخفيف من ذلك التضييق برفع واقع الحال الى امير البحر بلامبين المقيم في بريار . ولمـا ابى

امير البحر ان يستقبله عقد عروة العزم على الاستقالة وبادر الى الكتابة في الحال الى الحاكم .

الا ان مندوبي الدول المتحالفات لما علموا ان صحة العاهل تقتضي عناية متواصلة وخافوا ان يكون انطلاق الدكتور أوميرا قبل ان يعينوا له خلفا يرضى به نابوليون سببا لحدوث أمور محزنة تزيد في عظم المسؤولية الملقاة على عواتق حكوماتهم ألحوا على الحاكم في ابقاء الطبيب البريطاني يزاول مهنته في لونود . واخيرا اقتنع هدصن لو بابقائه بعد جدال عنيف طويل لكنه عاد الى تجديد وشايته بحق الدكتور أوميرا طالبا من الوزارة في لندرة اخراجه من الجزيرة لئلا يفسد عليه أمره في المهمة الموكول اليه قضاؤها .

وحرش عليه قائد الفصيلة السادسة والستين التي خلفت الفصيلة الثالثة والخمسين واقنعه برفض جلوس الدكتور اوميرا على مائدة الضباط وبعد ارسال تقارير مطولة من كلا الفريقين في وصف تلك الحالة انتهت الى الدكتور اوميرا رسالة من ادورد ويتيارد نائب الكولونل يخبره فيها بالنيابة عن هدصن لو انه وردت اوامر من الكونت باثرست في ١٦ مايو سنة ١٨١٦ بابلاغ الدكتور اوميرا الابتعاد عن الجنرال بونابرت وعدم مخالطة اي كان من سكان لونود

وقال اوميرا : ان الانسانية وما تقضي به علي مهنتي وحالة نابوليون الصحية حالت دون اذعاني لتلك الامور العارية عن الشعائر الانسانية . فصممت لساعتي على ما ينبغي لي عمله فازمعت التمرد غير مبال بعواقب فعلتي هذه . واقتضت صحة نابوليون ان أصف له طريقة المعيشة وان اهيء له العلاجات اللازمة في اثناء تغيب الجزاح . وعاد الدكتور الفاضل الى لونود واوقف العاهل على امر الكونت باثرست فقال نابوليون : « انهم يعجلون في ارتكاب جريمتهم فقد طالت حياتي في انظارهم . »

وبسط الدكتور أوميرا لعليله النصائح الطبية الواجب عليه المسير بموجبها بعد مفارقته اياه . ولما فرغ من الكلام انشأ نابوليون يتكلم بحدة ويقول :

« حين تصل الى أوربا اذهب الى أخي يوسف او ادعه اليك وقل له اني ارغب ان يعطيك الرزمة المحتوية على المكاتيب الخاصة السرية التي كتبها الي العاهلان الاسكندر وفرنسوى وملك بروسيا وغيرهم من العهال والملوك والاقيال

في أوربا وقد سلمته اياها في روشفور . فطبعها ارادة ان يقنع بالعار أولئك الهال والملوك والاقيال ويقف العالم طرا على الاكرام المقرون بالتذلل الذي أدوه لي حين التمسوا مني نعما أو طلبوا مني المحافظة على عروشهم . وحين كنت ذا سطوة وبأس وكانت السلطة في قبضتي تزاحموا على طلب حمايتي ونيل شرف محالفتي ولحسوا التراب تحت قدمي . اما وقد شخت فانهم تهضموا حقوقي بخساسة وفرقوا بيني وبين زوجتي وابني . فارجو منك ان تفعل ما أوصيك به واذا رأيت أحدا ينشر صدى مثالب ومطاعن عن الحين الذي قضيته معي وقدرت ان تقول : « لقد ابصرت بعيني وعلمت ان ما قيل ليس صحيحا فعارضه . »

ثم ان العاهل املى على الكونت برتران رسالة ذيلها بحاشية بخط يده اوصى بها ماري لويز باوميرا . وفوض الى ذلك الدكتور ان يستخبر عن أسرته ويخبر انسباءه الادنين عن الحالة التي صار اليها .

وقال له : ابسط لهم ما ادخره لهم من العواطف وكن ترجمانا عن محبتي لزوجتي العزيزة ووالدتي الفاضلة وشقيقتي بولين . وان انت ابصرت ابني فقبله عني وقل له آلا ينسى أبدا أنه ولد أميرا فرنسويا وعبر للادي هولاند عن العواطف التي احفظها لكرم اخلاقها وما أشعر به من الاحترام لها . واخيرا ابذل المجهود لترسل الي اخبارا صحيحة عن الطريقة التي يجرون عليها في تربية ابني . » ولما قال العاهل هذا الكلام قبض على يد الدكتور أوميرا وضمه إلى صدره قائلا له « اودعك يا أوميرا فلم يبق لنا أمل باللقاء وأؤمل ان تقضي حياتك بالهناء . »

ولم تكن مفارقة أوميرا لنابوليون خاتمة أحزانه فلم يكد الطبيب يغادر جزيرة القديسة هيلانة حتى اضطر غورغو في دوره ان يبرح الجزيرة الوبيلة الهواء ليتداوى من الداء الذي كان يبرح بجسمه منذ زمان طويل . ولما وصل هذا الجنرال الى أوربا اذاع في كل مكان ما ينتابه من المخاوف على صحة العاهل وقد ألم باسرة الرجل العظيم من جراء ذلك الامر كآبة ما وراءها من مزيد . وتفتتت بنوع خاص مرائر والدته حين انتهى اليها ان ابنها مورد هنائها ومصدر فخرها مصاب بداء يخشى ان يصير قتالا من دون ان يكون على مقربة منه طبيب يعالجه بما يتيسر له من اساليب الفن . فسعت مع أخيها الكردينال فش لمفاوضة اللورد باترست في امر نجلها فنال منه الترخيص بارسال الدكتور انطومرخي وكاهن وشخصين آخرين الى جزيرة القديسة هيلانة .



ولنغتن فى واترلو

ووصل انطومرخي الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٨ سبتمبر سنة ١٨١٦ فدهش من حسن استقبال هدصن لو له وجمل هذا يشكو من انفة الجنرال بونابرت وخشونته واحتجاجاته الا ان هذا الاستقبال لم يمنع ريد وغوريكور خادمي الحاكم عن القيام باعباء المهمة المعقوتة المفوضة اليهما. واعتذر غوريكور عن اضطراره الى الاطلاع على المكاتيب والمخطوطات والخطط المرسلة الى لونود اما ريد فانه لم يتمحل له عذرا وعمد الى تفقد امتعة انطومرخي ورفاقه وكان بينهم الابوان بونافيتا وفينيالي .

ولم يحسن استقبال انطومرخي في لونود كما أحسن استقباله في مقر الحاكم وحيث ان العاهل لم يكن قد أشعر من لدن الكردينال فش أو غيره من أفراد أسرته بقدوم الطبيب الجديد تردد في مفتتح الامر في قبوله لنفوره وتحفظه من كل ما يأتيه من بريطانيا او بواسطة الوزارة البريطانية . الا ان انطومرخي ازال شكوكه منذ أول مرة دخل فيها عليه فقال له العاهل : « انت كورسيكي وهذه هي الملاحظة التي جعلتني أرضى ببقائك عندي : » ولما ركن اليه نابوليون استخبر منه عن والدته وزوجته واخوته واخواته ولاس كاس وأوميرا واللورد واللادي هولاند . وصرف الدكتور بعد تلك الاستخبارات . وبعد بضع ساعات دعوه فباشر فحص المريض القادم هو من اقصى ايطاليا لتولي معالجته .

فقال له نابوليون : « ماذا ترى يا حضرة الدكتور هل اظل وقتا طويلا سببا لتخمة الملوك — ستعيش بعدهم يا مولاي . — أظن ذلك فانهم لا يمكنهم ان يبعدوا عن أوربا أخبار انتصاراتنا فستجتاز العصور وتحدث عن الغالبين والمغلوبين وعن كرام القوم ولئامهم . وستبرز الاجيال الآتية احكامها لكنني لا أخشاها . — ان هذه الحياة ملك لك . . . ولكنك لم تنته بعد الى غايتها فلديك مجال واسع تجري فيه . — كلا يا حضرة الدكتور ان البريطانيين قضوا لبانتهم مني ولا أستطيع ان اعيش عمرا طويلا في هذا الاقليم الوبيل الهواء . » وقد رضي بان يمتثل لوصايا الطبيب ووصفاته بعد ما كان يأبى الخضوع لها . ثم انه قال له : « لقد تركت كل شيء لتأتيني بوسائل الفن فالحال تقضي علي بأن افعل ما يساعدك في مزاولة مهمتك وان اذعن لما تبتغيه مني . » وقص على الدكتور انطومرخي ما لقيه من العذاب بعد ارتحال الدكتور أوميرا فقال :

« لقد منعوا عني منذ سنة من الزمان مساعدة الطب وحرموني معالجة الـ لباء الذين اثق بهم . فالجلاد يجد نزعي بطيئا جدا فيعجله ويستنفد الميسور لتقريب اجلي مني . فالهواء نفسه الذي استنشقه يجرح نفس ذلك المرء الخسيسة . وهل تظن ان مساعيه أطيل اجلها وانها تجري بصورة علنية واني أوشكت ان ابيت صريع النصال البريطانية فالجنرال منطولون كان متوعك الصحة وقد ابى هدصن لو مفاوضـة برتران وشاء ان يتولى المفاوضة معي رأسا . فـكان يرسل الي مرتين في النهار مندوبيه ريد وويفيار الواضع ثقته فيهما فيزعجان هـذه المساكن الشقية ويبتغيان الدخول علي فاقفلت ابوابي وحشوت غداراتي وبنادقي ولا تزال محشوة الى الآن وهددت بالهاب دماغ اول شخص تدفعه الوقاحة على اقتحام مثواي عنوة فرجعا وهما يصيحان بملء اشداقهما انهما يبغيان رؤية نابوليون بونابرت وانه يجب على نابوليون بونابرت أن يخرج وانهما يعلمان كيف يجبران بونابرت على البروز . فظننت ان تلك المشاهد المحقرة انتهت ولـكنها تـكررت في كل يوم بعنف متزايد باشكال شتى كاطلاعهما على منزلنا فجأة وتفوههما بكلام التهـديد وقذفهما بالسباب وتركهما مكاتيب مشحونة اهانة وتحقيرا : وكان خـدامي يلقون في النار تلك الرسـائل ولـكن طفحت كأس الغضب : وصار ينتظر من حين الى آخر حـدوث فاجعـة . ولم يسبق لي أن كنت مستهدفا كما كنت في ذلك الحين لسهام العطب . وكنا في اليوم السادس عشر من شهر اغسطس وقد ابتدأت تلك الاعتداآت في ١١ منه ، فاشعرت الحاكم بأني قررت افـكاري وأن بنائق صبري انفتقت وأن أول سفاح مأجور يجتاز عتبة بيتي اصرعه بعيار ناري من غداراتي . فاعتبر بهـذا الـكلام ووضع حدا لتلك الاهانات ... اني تنازلت حرا مختارا لاجل ابني والدستور وعمت بارادتي انـكلترا ونويت أن أعيش فيها معتزلا تحت كنف شرائعها ولـكن هل للارسطقراطية شرائع ؟ وهل يستطيع شيء من الاشياء أن يوقفها عند حد ؟ وهل من حق من الحقوق لاتدوسه برجلها ؟ فجميع زعمائها مرغوا وجوههم أمام اعلامي وقد وضعت تيجانا على رؤوس بعضهم واقطعتهم بلدانا من فتوحي واجلست البعض الآخر على عروش هوت أمام النصر . وقد عاملت الجميع بالشفقة والمروءة

ولكن الجميع أعرضوا عني وغدروا بي وتهافتوا على تشديد حلقات قيودي : وبت تحت رحمة لص من لصوص البحر . »

وبقي انطومرخي ثمانية عشر شهراً يقارع بكل ما أوتيه من الدهاء في العلم وبكل ما فطر عليه من الحمية مرضا اشتدت وطأته على العاهل وقد عرف جميع سكان لونود ماسيكون من نتيجته على الرجل العظيم . وعلم ذلك الطبيب الحاذق أن مساعيه باطلة فكتب في أواسط شهر مارس سنة ١٨٢١ الى رومية الى الكافاليا ركولونا حاجب السيدة لاتيسيا والدة نابوليون يخبره أن نهاية حياة العاهل اقتربت وكان في جملة ماقاله له : « تذيع الصحف البريطانية ان صحة العاهل جيدة فلاتصدق هذا الامر وستريك الحوادث هل يصدق مروجو تلك الاراجيف أم يخبطون في دياجي الضلال . »

وبعد أيام قليلة دار بين نابوليون وانطومرخي الحديث الآتي عن صحة الاول منهما فقال للثاني :

« ياحضرة الدكتور اراني مع ماتصفه لي من العلاجات مقتربا من النهاية أو لاتظن ذلك ؟ — انك مخطيء في وهمك . — حسنا قلت ولكن هو غرور طبي فأي تأثير سيكون لموتي في أوربا ؟ — لايكون له ادنى تأثير يامولاي . — أتقول أنه لايكون له تأثير ؟ — نعم لانه لايحدث . — وهب حدث . — فحينئذ يامولاي... — ماذا يكون ؟ — ان جلالتك قبلة اماني الشجعان فان دجى الغم يغشاهم . — وماذا يصيب الشعوب ؟ — يبيتون تحت رحمة الملوك ولا تقوم قائمة للمبدأ الشعبي . — أتقول أن هذا المبدأ لاتقوم له قائمة ياحضرة الدكتور ؟ وماذا تفتكر عن ابني ؟ هل تظن ... — كلا يا مولاي ولكن ما اطول المسافة الباقية امامه — وهل هي اطول من المسافة التي عبرتها ؟ — ما اكثر المصاعب التي لابد من تذليلها ! — وهل كانت المصاعب التي ذللتها اقل منها ؟ وهل كانت البداءة التي ابتدأت بها اسمى من بداءة ابني ؟ فاعلم ياحضرة الدكتور انه يحمل اسمي وقد خلفت له مجدي ومودة أصدقائي وحسبه هذا الامر في اصابته هذا الارث . » وقال انطومرخي فيما بعد : كان ذلك الكلام هذيان اب دخل في طور النزاع فلم أطل البحث في الموضوع مخافة أن انسخ من ذهنه الاغترار النازل فيه .

والتزم العاهل سريره من اليوم السابع عشر من شهر مارس وحين لم يسهل على الضابط الموكول اليه امر تحقق وجوده في كل يوم في لونود ان يبصره يبرز للانظار اشعر الحاكم بذلك فظن هـذا في بدء الامر ان سجينه فر لجاء بذاته وجعل يطوف حول المنزل ليتحقق وجوده فيه . ولما لم يحل بطائل من بحثه اعلن انهم اذا لم يأذنوا لمندوبه بالدخول مرة واحدة في كل اربع وعشرين ساعة ورؤية الجنرال بونابرت اضطر الى المجيء بذاته مع اركان حربه ودخول غرفة المريض عنوة غير مبال بما يكون من العواقب الوخيمة من وراء دخوله . ولم يتمكن الجنرال منطولون من اقناعه بالعدول عن مقصده ببسطه له حقيقة حال صحة العاهل . فقال له السر هدصن لو انه لا يهمه موت الجنرال بونابرت اوحياته وان من الواجب عليه أن يتحقق وجوده ولا يسعه الا تتميم مايجب عليه . وبينما هو على تلك الحال لقيه الدكتور انطومرخي فعنفه هذا على كلامه القاسي واعماله المنكرة . فلم يشأ السر هدصن لو ان يسمع منه اكثر من ذلك الكلام وعاد وهو يرعد ويبرق وظل انطومرخي يقبح اعمال جلادي الرجل العظيم مخاطباً ريد بهذا الكلام : « ان نفوسكم مجبولة من طين التاميز ولذا اتيتم لمراقبة انفاس الميت الاخيرة وعندكم ان نزاعه طالت مدته فتريدون تعجيله والتمتع به . ان السمبري الذي فوض اليه امر قتل ماريوس تردد في عمله ... واما انتم ... لا بأس من ذلك فاذا قيس الهوان بالجريمة فنكون قد انتقم لنا . »

واغتاظ السر هدصن لو من كلام انطومرخي وظل مصراً على مقاصده الوحشية فعزم على وضع تهديده موضع الاجراء ولكن العاهل رضي بالحاح برتران ومنطولون عليه بان يستشير طبيبا آخر وسميا له الدكتور ارنولت . وقد فوض الى هذا الطبيب أن يثبت رسميا وباوقات معينة لمندوب الحاكم وجود السجين . واقترب الاوان الذي أوشكت أن تزول فيه مخاوف السجان ففي ١٩ ابريل اعلن نابوليون لاصدقائه المتوهمين انه يتعافى ان منيته تدنو منه فقال :

« لستم مخطئين فانا اشعر بتحسن في صحتي اليوم ومع ذلك لا يدفع عني هذا التحسن الشعور بدنو أجلي . وحين أقضي يتعزى كل منكم بتمكنه من العودة الى اوربا . وسيبصر بعضكم ذوي قرباه والبعض الآخر اصدقاءه وانا

سأجتمع بابطالي في دار النعيم . » ثم أنه رفع صوته قائلا : « ان كليبر وديزه وبسيار ودوروك وناي وموراث وماسينا وبرتيه سيخفون جميعهم الى لقائي وسيحدثوني عن كل ما فعلناه وسأقص عليهم حوادث حياتي الاخيرة . وحين يشاهدونني تستفزهم خفة الحماسة والفخر . ونحادث سيبيون وحنيبعل وقيصر وفريدريك واشباههم عن الحروب التي اضرمنا مواقدها ويكون في ذلك الامر لذة عظيمة ... مالم يستول الخوف ثمة على القوم من اجتماع هذا الجمهور الغفير من المقاتلة . »

ووصل الدكتور ارنولت في تلك الاثناء فأحسن العاهل استقباله وحادثه عن آلامه ومايشعر به من الحوادث الموجعة ثم أنه قطع اسباب حديثه فجأة وقال له بصوت أجش :

« لقد قضي الامر يا حضرة الدكتور ورشقت بالسهم ودنوت من النهاية وسأرد جثماني الى التراب . تقدم يابرتران وترجم لهذا السيد ما ستسمعه مني : فهي سلسلة من الاهانات جديرة باليد التي جرتها الي . ترجم كل شيء ولا تهمل كلمة ما :

« اتيت الى الارض البريطانية ملتجئا ومستضيفا فداسوا الحقوق البشرية وكبلوني بالحديد فالاسكندر يستقبلني بغير هذا الاستقبال والعاهل فرنسوي يحسن مجاملتي وملك روسيا ذاته يبدي لي من مكارم الاخلاق اكثر مما ابداه لي البريطانيون . وقد استأثرت بريطانيا بمخادعة الملوك وجرهم الى اعطاء العالم مشهدا لم يسبق لهم ان رأوا نظيره وهو تألب اربع دول عظمى على رجل واحد . وقد اختارت وزارتكم هذه الصخرة الصماء التي تفنى عليها في أقل من ثلاث سنوات حياة الاوربيين مبتغية ان تنهي حياتي بالقتل . فكيف كانت معاملتكم لي من الحين الذي القيتموني فيه على هذه الصخرة ؟ انكم لم تدخروا تحقيرا أو فظاعة الا وسررتم بتجريعكم اياي كأسها . فالمواصلات الاهلية التي لا تحظر على أحد ضننتم بها علي ولم تتركوا خبراً أو رسالة من اوربا يصلان الي فامرأتي وابني لم يبقيا في عالم الوجود عندي وابقيتموني ست سنوات معذبا بجهل كل شيء . وفي هذه الجزيرة التي لاتصلح للسكنى عينتم لي السكنى في موضع لا يصلح للاقامة

فيه ويشعر قطينه بوخامة تبعة جوه الاستوائي . فاضطررت الى حبس نفسي في ضمن أربعة جدران واستنشاق هواء فاسد بعد ما جبت على صهوة جوادي جميع الاقطار الاوربية . لقد اطلتم اجل تعذيبي وقتلي متعمدين فاجرى هدسن لو الوغد مقاصد وزرائكم العالية . وستكون نهايتكم نظير نهاية جمهورية البندقية المتعجرفة وانا حين اموت على هذه الصخرة الصماء وقد حرمت ذوي وكل شيء القي اعباء تبعة موتي وما يصحبه من الفظاعة والعار على عاتق الاسرة المالكة في بريطانيا العظمى . »

واستنزف الكلام الذي فاه به نابوليون ما بقي فيه من القوة فهوى بعد قليل من الحين مغشياً عليه الا أنه ثاب اليه نشاطه في الغد وتمكن من النهوض عند تباشير الصباح فقضى ثلاث ساعات يملي ويكتب ولكن ذلك التحسن كان وقتيا فلم يغتر به . وما مكثت الحمى ان عادت فاستأنف العليل مسيره الى الرمس . وفي ذلك اليوم (٢١ ابريل) دعا اليه الاب فينيالي وقال له : « هل تعرف المحكمة التي تصدر على المحبوسين الحكم بالموت بالنار ؟ — نعم يا مولاي . — وهل توليت خدمتها ؟ — كلا . — بناء عليه ستتولى خدمة محكمي . » وبعد ماقال هذا اقبل على الكاهن واخبره بالتدقيق ما يجب عليه أن يفعله . وقال انطومرخي : « كانت هيئته منتعشة ووجهه منقبضاً فتتبعت بقلق ما يبدو على محياه من العبوسة واذا به قد لاحظ على وجهي حركة ساءته فقال : « انت اسمى من هذا الضعف ولكن ماذا تبتغي فلست فيلسوفا ولا طبيبا ولكنني أؤمن بالله ولا ازال معتصما باهداب دين ابي ومن يشأ الايمان لا يكفر . » ثم أن نابوليون عاد الى مخاطبة الاب فينيالي فقال له : « ولدت في حضن الكنيسة الكاثوليكية واريد أن اتمم فروضها واقبل المساعدة التي تزاولها . »

ولما انصرف الاب فينيالي جعل العاهل يلوم انطومرخي على قلة ايمانه ويقول له : « وهل تستطيع أن تنكر ذلك الى هذه الدرجة وهل يسعك ألا تؤمن بالله ؟ فكل شيء يذيع وجوده وفضلا عن ذلك آمن به جميع اصحاب العقول الكبيرة » فاجابه انطومرخي انه لم يشك قط بوجود الحق سبحانه وتعالى وان العاهل اخطأ بتفسير الحركة التي لاحظها على وجهه . فقال نابوليون متبسما : « انت طبيب

ياحضرة الدكتور . » ثم قال بصوت منخفض : « ان هؤلاء القوم لا يفكرون الا بالامور المادية ولا يؤمنون بشيء . »

وكان العاهل في اواخر شهر ابريل يقدر مع ضعفه المتزايد على النهوض من سريره والجلوس في البهو ولم يكن يطيق اطالة المكث في غرفته الفاسدة الهواء وعرض عليه على غير جدوى الاشخاص المقيدون بخدمته ان يحملوه فقال لهم : « تحملوني حين اموت ويكفي الآن ان تسندوني . »

وبعد ما قضى في الغد ليلة نابغية اشتدت عليه فيها وطأة الحمى دعا الدكتور انطومرخي وخاطبه بما يأتي وهو رابط الجأش ساكن البال :

« بعد موتي القريب اريد أن تفتح جثتي واريد بل احتم ان تعدني بألا تدع طبيباً من الاطباء البريطانيين عد يده الي . واذا لم يكن بد من الاستعانة بطبيب فيمكنك أن تستعين بالدكتور ارنولت دون سواه . وابتغي أن تأخذ قلبي وتضعه في الكحل وتحمله إلى زوجتي العزيزة ماري لويز في بارما . وقل لها اني احببتها حبا شديدا وان روحي لها لم تخمد قط . واخبرها كل ما شاهدته وكل مايتعلق بحالي وموتي . واوصيك خصيصا بان تدقق في فحص معدتي وان تنظم عن نتيجة الفحص تقريرا كاملا مفصلا تدفعه الى ابني ... فالقيء المتواصل يجعلني اظن أن المعدة هي العضو المصاب بالمرض من بين جميع اعضائي ولا يبعد عن ظني انها مصابة بالداء عينه الذي دفع ابي الى القبر أي بداء السرطان عند فتحتها ... فاذهب بعد موتي الى رومية لرؤية و لدتي واسرتي واخبرهم كل ماشاهدته عن حالي ومرضي وموتي وعن هذه الصخرة الصماء . وقل لهم ان نابوليون الكبير قضى في اشقى الحالات وهو يعوزه كل شيء وقد ترك وشأنه هو ومجده . وقل لهم انه عند وفاته ترك لجميع الاسر المالكة العار والفظاعة اللذين شعر بهما في أواخر حياته . »

وانضم الهذيان الى الحمى فكان ذلك العقل الكبير الذي توهمه العالم صادراً عن الحكمة الالهية خاضعاً للناموس الطبيعي الخاضع له جميع البشر . وصاح نابوليون قائلا: «ياستنجل يادزيه ياماسينا مال النصر الينا اذهبوا واسرعوا واحملوا حملة صادقة فقد منحنا اكتافهم . » ثم أنه وثب عن سريره واراد الخروج الى الحديقة ولكنه هوى الى الحضيض ساقطا فاسرع انطومرخي لينهضه . فنقل

الى سريره وهو يهذي وظل يلح في الخروج الى الحديقة . وأخيرا خفت حـدة الهذيان وهبطت درجـة الحرارة وثاب السكون الى الرجل العظيم . فظهر بمثل ما كان عليه في الحقيقة وقال للدكتور : « تذكر ما اوصيتك بفعله عند مفارقتي لهذه الدنيا فدقق في فحص جسدي ولاسيما معدتي . فقد قال اطباء منبليه ان داء السرطان في فتحة المعدة سيكون متوارثا في اسرتي ... فيجب علي على الاقل ان اخلص ابني من هذا الداء الوبيل . فستراه ياحضرة الدكتور وتصف له مايحسن به ان يفعله . ويجب أن تكتم عنه ما أقاسيه من العذابات وهذه آخر خدمة انتظر منك قضاءها لي »

وعادت الحمى بعد ثلاث ساعات (٢ مايو عند الظهر) فقال العليل النبيل لطبيبه وهو يتنفس الصعداء : « اشعر باشتداد الالم علي ياحضرة الدكتور واشعر بان وفاتي حانت : » ولم يكد يفوه بهذه الـكلمات حتى غاب عن الهدى

فقال انطومرخي ان النهاية اقتربت واوشكنا أن نفقده فصار كل يضاعف غيرته عليه ومجاملته له ويريد ان يعطي علامة أخيرة عن اخلاصه وتعلقه . وكنت أنا ومرشان وسان دنيس قد احتفظنا بالسهر عليه ليلا ولـكن نابوليون لم يكن يطيق النور فاضطررنا الى انهاضه وتغيير ثيابه والاعتناء به بقدر ماتقتضي حالته من العناية وكل ذلك في الظلام الحالك . وكان القلق مضافا الى التعب وقد وهت قوى المارشال الاكبر ولم يكن الجنرال منطولون مستطيعا عمل شيء ولم اكن أقوى منهما . وحينئذ اجبنا الفرنسويين الذين في لونود على طلبهم الشديد واشركناهم معنا في القيام بتلك الواجبات المؤلمة . فـكان بيارون وكورتو وغيرهما يسهرون بالتناوب مع واحد منا . وقد اثر في العاهل ما أبدوه من الغيرة والعناية فاوصى بهم قواده وطلب منهم أن يساعدوهم ويعضدوهم ولاينسوهم وقال « يجب ألا تنسوا الصينيين المقيدين بخدمتي فليعط كل منهم بضع عشرات من الذهبات ويحسن أيضا أن اودعهم . »

وانتظر الاب فينيالي كلمة واحدة من العاهل لينهض نحوه باعباء مهمته الروحية فخرجت تلك الـكلمة من فم الرجل العظيم في ٣ مايو في الساعة الثانية بعد الظهر . وكانت الحمى خفيفة وقد صرف الجميع ماعدا الـكاهن الجليل فتناول نابوليون الزاد الاخير .



نابوليون فى واترلو

وثابت اليه الحمى بشدة بعد ساعة من الزمان ولكن ظلت حواسه تتمم وظائفها . فانتهز الفرصة من تلك الحال واوصى الموكول اليهم اجراء وصيته وهم برتران ومنطولون ومرشان بألا يأذنوا لطبيب من اطباء البريطانيين ماعدا الدكتور ارنولت بأن يدنو من جثمانه حين يفقد الحس . ثم انه قال لهم : «اني مشرف على الموت وانتم عن قريب تعودون الى اوربا وعندي نصائح ابسطها لكم وعليكم باعتبارها في سيرتكم : لقد شاطرتموني المنفى وستظلون حافظين ذكري ولاتفعلون مايشوهه . لقد كرست جميع المبادىء وادمجتها في شرائعي واعمالي ولم ادع مبدأ واحدا منها إلا وقدسته. ولكن الاحوال كانت واسؤتاه عنيفة جدا فاضطررت الى المعاقبة والارجاء وجاءت الرزايا فلم أستطع حل وتر القوس وحرمت فرنسا الانظمة الحرة التي اعددتها لها فهي تبرز على حكما لينا وتقدر لي مقاصدي حق قدرها وتمز اسمي وانتصاراتي فاقتدوا بها واخلصوا النية للآراء التي دافعنا عن حياضها والمجد الذي اصبناه وليس في ماخلا ذلك سوى العار والخزي . »

وهبت عاصفة شديدة في الليلة التالية على جزيرة القديسة هيلانة فاقتلعت جميع المغروسات في لونود ولم تنج من العاصفة الصفصافة التي كان العاهل يحبها ويستظل تحتها من حرارة الشمس في تنزهه العادي .

ودام النزع سحابة الغد كله (٤ مايو) وفي ٥ منه عند طلوع النهار اشعرت حالته بمفارقة الروح جسده البارد ومع ذلك بقي يتنفس ولكنه غاص في لجة الهذيان ولم يلفظ سوى هاتين الكلمتين : « مقدمة ... الجيش ... » واقتربت الساعة الرهيبة واوشك « العمل البريطاني » ان يتم وان تنتفض اوربا القديمة وكاد بطل فرنسا الحديثة ينتهي الى غاية حياته العجيبة . وانتظر هدصن لوتقطع انفاسه الممدودة وقد عيل مصطبره ليبشر الاسطقراطيين والملوك الذين انتدبوه لتلك المهمة ان عمله تم بصورة عجيبة وانه اجهز على ضحيته .

وكان ثمة مشهد مؤلم ختمت به المأساة : فان عقيلة برتران المضطرة الى ملازمة الفراش بمرض نابها نسيت اوجاعها وجاءت الى غرفة العاهل المحتضر ومعها ابنتها وابناؤها الثلاثة ليتمتعوا للمرة الاخيرة برؤية وجه الرجل العظيم .فاسرع الاولاد مندفعين على سرير العاهل وقبضوا على يديه وقبلوها وغسلوها بدموعهم واشتد

الحزن على نابوليون على برتوان الحدث اشتدادا صرعه على الحضيض مغشيا عليه . وذرف جميع الحاضرين الدموع ولم يسمع في الغرفة سوى العويل والنحيب فقد اوشك ان يتم حادث عظيم في العالم ... وفي الساعة الخامسة والدقيقة التاسعة والاربعين فاضت روح نابوليون بونابرت .

وبعد تشريح الجثة بحسب ما أوصي به الدكتور انطومرخي وضعت الجثة على سرير وغطيت بالرداء الرمادي الذي لبسه نابوليون في معركة مارنغو . وتقاطر سكان الجزيرة وظلوا يومين محدقين بجثمان العاهل الميت . وحين رفعت جثة الرجل العظيم تنازعوا ما كان يمسه او ما كان يخصه واتخذوه ذخيرة ثمينة .

وأقيمت لنابوليون مناحة في ٨ مايو فدفن في مكان يبعد عن لونود نحو ميل . وأصبح قبره منذ اليوم الاول لدفنه موضوعاً للاحترام العام ولاقبال الناس على زيارته . على أن هدصن لو الجدير بالمهمة المعهود اليه فيها ظل مثابراً على اضطهاد الرجل الكبير حتى بعد وفاته فاستاء من الاكرام المقدم لربيب الثورة الفرنسوية العظيم ووضع حول الرمس خفيرا يمنع الناس عن الدنو منه وأعلن أن الخفير سيظل في ذلك المكان الى ماشاء الله . ولكن المثوى الاخير لذلك البطل الشهير ظل مثابة للزائرين مهما اتخذه هدصن لو من التدابير . وكانت زيارة الناس لذلك المكان تتم بشكل لاتنفر منه الفلسفة لصدورها عن حب المجد وقد أريد بها تخليد التعلق بالرجال العظام باعطاء نوع من التقديس الديني للاعجاب والاحترام اللذين يوحيهما الدهاء من غير ما تمييز بين الامكنة والازمنة

وكان مدفن نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة وقتيا لانه عين في ذيل لوصيته بتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٢١ مدفنه النهائي فقال : « اريد أن يستريح رفاتي على ضفاف السين بين الشعب الفرنسوي الذي احببته كثيرا . » على أن تتميم امنية الرجل العظيم الاخيرة اقتضت القاء الشعب الفرنسوي نير البوربون عن منكبيه وتحرر حكومته تحررا تاما من التسود الاجنبي . فسقط البوربون بعد عودتهم وتمت نبؤة نابوليون في الوقت الذي عينه .

ولما انتهت انباء مصرع نابوليون الى اوربا لم يصدقها الناس في ريق الامر لزعمهم أن نابوليون خالد وانه ليس فيه شيء معرض للفناء ولاعتقادهم أن حياته ملازمة لمجده . وكان عدم تصديق ذلك النعي بمثابة تأليه حقيقي للرجل العظيم على ما يوافق روح العصر :

الفصل الثامن

في نقل رفات نابوليون الى فرنسا

مات رجل عظيم! هذه العبارة فاه بها زعيم الاسرة البوربونية حين طرق مسامعه خبر مصرع نابوليون. على انه وان يكن الدهاء عند خمود نيرانه قد صير خصومه عادلين ينصفونه حقه فانه لم يجعلهم يسلسون مقادتهم للسياسة ويلينون لها مجستهم. فان الخوف الداخل على ملوك اوربا القديمة من ذلك الجبار وهو في المنفى البعيد المزار ظل يقلق خواطرهم ويبلبل مجالسهم ومن جراء ذلك قضي على رفاته بالابعاد عن بلاده كما قضي عليه وهو حي بالابعاد عنها كأن تلك الذراع الهائلة التي زعزعت العروش ودكتها تستطيع وهي في ظلمات الرمس ان تحرك ساكنات الشعوب. وكان هذا الخوف في التويلري أشد منه في القصور الاخرى المقيم فيها ملوك اوربا. فذكر حادث ٢٠ مارس بما لاسم نابوليون من التأثير في مجموع الامة فاعتراهم الحذر من ازدياد هذا التأثير عند رؤية رفاته خوفا من أن يميد العرش بالجالس عليه قبل ان تتوطد دعائمه. وبقي رفات اعظم رجل في الثورة مقضيا عليه بالنفي عن وطنه في خلال مدة حكم البوربون بعد عودتهم الى العرش. وكان المتفوه باسم نابوليون يعد عندهم مرتكبا جريمة لاتغتفر فينزلون به انكا العقوبة. ولكن لما هدمت الثورة في ثلاثة أيام ما بناه البوربون في خمس عشرة سنة كان اول أمر طلبه الشعب الظافر جلب رفات العاهل الى فرنسا. فلم توافق الندوتان على هذا الطلب في مبتدأ الامر مخافة أن تستحكم حلقات العراقيل امام الحكومة الجديدة بتمثيل شبح نابوليون في ذلك الهرج الذي صير موقف أسرة أرليان متزعزعا، ولشد ما دهش الملأ الفرنسوي حين رأوا ان المسألة المطروحة على بساط البحث في عهد البوربون تحت ظل الراية القديمة المنبوذة على رغم معاطس الامة أعيد طرحها عليه في عهد أسرة ارليان تحت ظل الراية المثلثة الالوان ووافق جميع اعضاء المجلسين على جلب رفات الرجل العظيم الذي ألبس فرنسا رداء من المجد ضافي الاذيال ليدفن في الارض الفرنسوية. وحرك رفض البوربون لجلب ذلك الرفات ساكنات قريحة فكتور هوغو الشاعر المطبوع

فنظم قافية في ذلك الموضوع الخطير نكتفي بذكر الابيات التالية منها :

ضننتم بسلوان على أيم سمت   لدى كل حزب في البلاد صفاتها
قسمتم للاسكندر الملك ملكه   وخفتم اشباحا وخيف رفاتها
فما أسخف الاحلام فيكم فانها   اذا اشتد وقع الخطب خفت حصاتها

وجاءت بعد ذلك أيام الصفاء وقد ترأس الوزارة الفرنسوية رجل كان لحظه السياسي ولجده الادبي علاقة بمجد فرنسا الفتاة . نخفقت العواطف الوطنية اصوات المخاوف عند خلفاء البوربون وكان عمانوئيل دي لاس كاس يكثر من سؤال المسيو تيارس عما آلت اليه عروض الحال العديدة المرفوعة الى الحكومة من سنة ١٨٣٠ لنقل رفات الماهل نابوليون فاجابه المسيو تيارس في أول مدة وزارته الاخيرة بانهم باشروا مفاوضة الحكومة البريطانية بهذا الشأن .

وبعد حديث دار بين المسيو تيارس واللورد غرانفيل كتب المسيو غيزو سفير فرنسا في لندرة الكتاب الآتي المؤرخ في اوائل شهر مايو سنة ١٨٤٠ :

الى اللورد بالمرستن

« انا الموقع اسمي ادناه السفير فوق العادة والمفوض من لدن صاحب الجلالة ملك الفرنسويين اتشرف باعلام سعادة وزير خارجية جلالة ملكة مملكتي بريطانيا العظمى وارلندة المتحدتين اني بموجب الاوامر الواردة الي من حكومتي اشعركم بأن الملك راغب رغبة شديدة في نقل رفات نابوليون الى فرنسا الارض التي دافع عنها وشرفها وهي تضم في أحشائها رفات الوف من رفاقه من القواد والجنود الذين شاطروه الاخلاص في خدمة الوطن .

« فانا الموقع اسمي ادناه اعتقد ان حكومة جلالة الملكة لا ترى في رغبة جلالة ملك الفرنسويين هذه سوى عاطفة عادلة دينية وانها ستبادر الى اصدار الاوامر اللازمة لاجل نقل رفات نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا . الخ . الخ . الخ

غيزو »

وكان اللورد بالمرستن قد عرف ذلك الامر من اللورد غرانفيل فارسل الى المسيو غيزو جوابا بطيه نسخة عن الرسالة الآتية التي وجهها الى السفير البريطاني في باريس .

من اللورد بالمرستن الى اللورد غرانفيل

« ياحضرة اللورد ان حكومة جلالة الملكة نظرت بعين الاعتبار الى طلب الحكومة الفرنسوية لنقل رفات نابوليون بونابرت من جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا ويمكنكم ان تؤكدوا للمسيو تيارس ان حكومة جلالتها ترغب في أن تعتبر فرنسا السرعة التي نعطي بها هذا الجواب برهانا عن رغبة جلالتها البريطانية في اطفاء نيران تلك العداوة الوطنية التي كانت في حياة العاهل قد جعلت الامتين في حرب دائمة . على ان حكومة جلالتها البريطانية معتقدة انه اذا كان باقيا ثمة بعض آثار لتلك العواطف العدائية فانها ستدفن في القبر الذي سيضم رفات نابوليون . وستتخذ حكومة جلالتها البريطانية والحكومة الفرنسوية التدابير اللازمة لنقل ذلك الرفات .   بالمرستن»

وبادر اللورد غرانفيل الى اشعار المسيو تيارس بأمر الرسالة التي وصلت اليه ولما استوثقت الحكومة الفرنسوية من رضى الحكومة البريطانية اسرعت واوقفت الندوتين على حقيقة الغرض الوطني الذي تحته . وفي ١٢ مايو وقف المسيو دي ريموزا وزير الداخلية خطيبا على منبر المجلس وفاه بما يأتي :

« يا حضرة السادة اصدر جلالة الملك امره الى حضرة صاحب السمو الملكي مولاي البرنس دي جوانفيل بالمضي بسفينته الى جزيرة القديسة هيلانة لجلب رفات العاهل نابوليون .

« وها نحن نطلب منكم التذرع بالذرائع اللازمة لاستقباله بكرامة في أرض فرنسا وبانشاء الضريح الاخير لنابوليون . ولما كانت الحكومة طامعة بالقيام بما يقضي عليها العمل الوطني فانها فاوضت بريطانيا في هذا الصدد وطلبت منها الوديعة الثمينة التي دفعتها اليها الاقدار . ولم تكد فرنسا تظهر تلك الفكرة حتى بادرت الحكومة البريطانية الى قبولها . وهذا هو الكلام الذي خاطبتنا به حليفتنا الكريمة :

« ان حكومة جلالتها البريطانية ترغب في ان تعتبر فرنسا السرعة التي نعطي بها هذا الجواب برهانا عن رغبة جلالتها البريطانية في اطفاء نيران تلك العداوة الوطنية التي كانت في حياة العاهل قد جعلت الامتين في حرب دائمة . على أن

حكومة جلالتها البريطانية معتقدة أنه اذا كان باقيا ثمة بعض آثار لتلك العواطف العدائية فانها ستدفن في القبر الذي سيضم رفات نابوليون »

« يا حضرة السادة ان بريطانيا مصيبة في هذا الكلام فان ارجاع ذلك الرفات النبيل يوثق عرى العلاقات التي تضمنا وتجهز على إزالة كل اثر محزن من آثار الماضي ولقد جاء الحين الذي يجب فيه على كلتا الامتين ألا تتذكرا إلا مجدها

« وان السفينة الموقرة رفات نابوليون ستصل الى مصب نهر السين وهناك ينقل الى سفينة أخرى تجلبه الى باريس ويوضع في الانفاليد. وستقام حفلة عظيمة واحتفال ديني وعسكري باهر لافتتاح القبر الذي يضم ذلك الرفات الى الابد.

« يا حضرة السادة ان فخامة ذلك الذكر تقتضي ألا يظل المدفون الجليل معرضا في مكان عام بين اظهر جمهور كثير الضوضاء فيوافق ان يوضع في مكان هادىء ومقدس يستطيع ان يزوره فيه بورع جميع الذين يحترمون المجد والدهاء والعظمة والشقاء.

« لقد كان عاهلا وملكا وكان صاحب السلطان الشرعي في بلادنا ويستوجب لحمله هذا اللقب ان يدفن في سان دنيس ولكن لا يحسن ان يعطى نابوليون مدفن الملوك العادي فيجب ان يملك ويأمر في الموضع المدفون فيه جنود الوطن والمتهافت عليه المندوبون للدفاع عنه. وسيوضع سيفه على ضريحه.

« وسينصب الفن تحت القبة في وسط الهيكل الذي كرسه الدين لرب الجنود ضريحا جديرا اذا أمكن ذلك بالشخص الواجب وضعه فيه. ويجب ان يكون لهذا الضريح جمال بسيط وشكل كبير ومنظر ثابت لا يتزعزع ويسخر بتقلبات الاقدار ويجب أن يقام لنابوليون نصب خالد كذكره.

« والغاية التي نرمي اليها في طلبنا هذا الاعتماد المالي من المجلسين هو نقل الرفات الى الانفاليد وإقامة الحفلة الدينية وبناء الضريح.

« ولا تخامرنا ريبة يا حضرة السادة في أن المجلس سيشترك بعاطفة وطنية في الفكر الملكي الذي بسطناه لديكم.

«فمن الآن ستحرز فرنسا وحدها ما بقي من نابوليون وقبره وشهرته لايختصان

غير بلاده . فالحكومة الملكية المنشأة في سنة ١٨٣٠ ستكون الوارثة الشرعية الوحيدة لجميع التذكارات المفتخرة بها فرنسا .

« فمن خصائص هذه الحكومة ولامراء ـ وهي أول من ضمت جميع القوى ووفقت بين جميع اماني الثورة الفرنسية ـ نصب التمثال والضريح للبطل الشعبي وتكريمهما وهنالك شيء واحد لا يحاذر المقابلة بالمجد ألا وهو الحرية »

ويتعذر علينا وصف التحمس الذي أيقظه من رقدته ذلك الخطاب في المجلس فكأن شبح الرجل العظيم تراءى عند كلام الوزير لنواب فرنسا فخفتت في الحال اصوات الاحزاب الضالة في احكامها والشقية في بغضائها ولم يكن يسمع غير كلام الاعجاب والاقرار بالمعروف والتجرد من ذلك الجيل النافد صبره وتقلص ظل الشقاق وزال الخلاف من بين النواب على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم واميالهم في تلك الامة التي كان قاهر ايطاليا اول من اطلق عليها اسم «عظيمة» وعند ذكر اسم نابوليون زال ما كان ضيقا وصغيرا في سياسة ذلك العهد وقد تم زواله بشكل يصح أن نسميه ضربا من السحر . وان البغضاء الشديدة والخصومات الحقيرة نالها ما نال السياسة عند ذكر ذلك الاسم . وكأن العلي أمهلهم بضع ساعات امتزجت في اثنائها جميع القلوب المتنافرة واتحدت في عاطفة كبرياء وطنية شريفة وحب عام شديد لربيب فرنسا المجيد الذي ساد العالم وكانت أرض الوطن تنتظر رفاته منذ عشرين سنة .

واغتنم المسيو دي ريموزا الفرصة من ذلك التأثير الشديد وقرأ على النواب اقتراحا طلب فيه منهم تقرير انفاق مليون فرنك في ميزانية سنة ١٨٤٠ وانتداب الوزارة لنقل رفات العاهل نابوليون الكبير الى كنيسة الانفاليد وتشييد ضريح له .

وما عتم التأثير الذي ألم بالمجلس النيابي ان انتشر بسرعة البرق في جميع انحاء فرنسا فكانوا بتحيتهم اسم نابوليون يكرمون الوطن والشرف الفرنسوي على ان الامة التي قضي عليها أن تظل مدة طويلة تسمع بعض الناس يطلقون اسم « مختلس » على ذلك الجبار المتوج بيدها السامية لاحظت ببهجة مقرونة بمعرفة الجميل ان الوزارة تتحرى الانتقام للشعب الفرنسوي من بذاءة الارستقراطية الاوربية واحتقارها باعادتها الى ارادة الامة قدرتها الكلية وبتكريسها تكريسا

ثابتا الصفة التي وسمت نابوليون بها باطلاقها لقب « صاحب السلطان الشرعي » على ذلك الذي أقصته أوهام النسب عن العرش بعد ما أجلسه عليه مرتين اقتراع وطنييه اجابة لنداء الدهاء والمجد :

وخامر الحكومة الابتهاج من نيل مبتغاها وصدى حماسة كلامها في افئدة الامة فبادرت على الفور الى إعداد البعثة الموكول اليها جلب الرفات الثمين المودع في جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا . ففوض الملك الى البرنس دي جوانفيل أحد انجاله قيادة السفينتين « بل بول » (الدجاجة الحسناء) و« الفافوريت » (المحبوبة).

وغادرت البعثة طولون في ٧ يوليو وصحب الامير على متن السفينة المسيو هرنو ربانها وحاجبه والضابط المسيو طوشار المقيد بخدمته والمسيو دي روهان شابو معتمد الملك والمسيو دي لاس كاس عضو مجلس النواب والجنرالان برتران وغورغو والدكتور غيليار والاب كوكرو وسان دنيس ونوفراز خادمي العاهل الخاصين وبيارون وكيل طعامه وشرابه وارشمبول مدرب كلابه .

وتألفت بعثة القديسة هيلانة من الاشخاص المار ذكرهم وانضم اليها ايضا مرشان الامين الذي كان نابوليون شديد الميل اليه وركب متن الفافوريت المتولي قيادتها الربان غيه .

وأخذ الجنرال برتران معه ابنه ارثور المولود في جزيرة القديسة هيلانة وهذا الغلام قدمته والدته للامبراطور بصفة كونه « اول فرنسوي دخل لونود بغير اذن الحاكم . »

ومرت السفينتان في ١٥ يوليو في بوغاز جبل طارق وألقتا مراسيهما في الغد في قادش .

ووقفتا في ماديرا في ٢٤ يوليو واحتفلتا في جزيرة طريف في ٢٩ منه بتذكار ثورة سنة ١٨٣٠ . وفي هذه الجزيرة يتكلم الناس الفرنسوية وبعضهم ينظم فيها الشعر وقد قدم شاب للامير قصيدة بالفرنسوية نسج بردتها على منوال نقل رفات العاهل طالبا فيهـا اغضاء الطرف عن نظم شاب كناري يشاطر الفرنسويين وهو في ذلك المكان المنفرد في عرض المحيط الاتلانتيك حبهم للبطل نابوليون وإعجابهم به .

واجتازت السفينتان خط الاستواء في ٢٠ اغسطس ووصلتا في ٢٨ منه الى



الحرس يموتون ولا يستسلمون

باهيا ولبثنا فيها الى اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر . وبعد ثلاثة وعشرين يوماً بلغنا جزيرة القديسة هيلانة . فكتب برتران الشاب من ذلك المكان ما يأتي :
« ان المشهد المنبسط امام عيني مجهول عندي فقد كنت صغيرا من عشرين سنة وغير قادر على تمييز وعورة المكان والصخور السوداء الجرداء المحيطة من كل جانب بجزيرة القديسة هيلانة ولم يبق في ذهني سوى تذكارات مبهمة . يالله ما أوحش مسقط رأسي وأقفره عند الناظر اليه ! وما كان فيها من الملاءمة لاحتفار رمس فيها ! »

وكان اليوم السابع من شهر اكتوبر وقبل ذلك الحين بعشرين سنة وفي الشهر نفسه أي في ١٥ وصلت الى جزيرة القديسة هيلانة سفينة بريطانية تقل الركاب انفسهم على التقريب وكان على متنها ماعداهم رجل لم يكن العالم يسع عظمته وسطوته وقد انتقم الملوك منه بحصرة في تلك الجزيرة . وكان ذلك الرجل يجيل انظاره كبرتران الحدث في تلك الصخرة الصماء المعينة سجنا له وقد ظل جبينه ساكنا . وكان الى جانبه شخص من حاشيته شديد التعلق به يلاحظ حركاته وسكناته فكتب في مساء ذلك اليوم في مفكراته مايأتي : «لم أنظر على محياه ادنى تأثر ومع ذلك كان هذا المكان سجنه الابدي وربما سيكون قبره »

ووصلت « البل بول » الى جزيرة القديسة هيلانة وقد تحققت حينئذ الافكار التي جالت في خاطر ذلك الشخص في ١٥ اكتوبر سنة ١٨١٥ .

وبينما سفينة البرنس دي جوانفيل تهم بدخول الميناء اليها جاء اليها قائد سفينة حربية آتية من شربورغ بربان من المانش الى «البل بول» ولم يكن القائد سوى الربان دوره أحد البحارة الاشداء الذين قدمهم الجنرال برتران لنابوليون في سنة ١٨١٥ وهو في جزيرة اكس وكانت غايتهم اختطاف العاهل والمضي به الى الولايات المتحدة

ورست السفينتان في ١٨ اكتوبر وماعتم مندوب الملك والمسيو عمانوئيل دي لاس كاس ان صعدا الى البر .

وصعد البرنس دي جوانفيل وحاشيته الى البر في الغد في الساعة الحادية عشرة وساروا توا الى مقر الحاكم واستأنفوا بعد قليل من الحين المسير الى المدفن المودع فيه نابوليون وقد نفد صبر الامير الشاب لعلمه أنه ممثل من فرنسا ونائب الثورة وأنه جاء متأخرا لاخذ رفات أعظم ابنائها ولاصلاح مايمكن اصلاحه

من نتائج انتقام الملوك الاوربيين ومن اعمال الارسطقراطية البريطانية الموسومة بسمة جريمة لا تمحى .

واليك ماقاله المسيو عمانوئيل دي لاس كاس : « دخلنا السور في الساعة الثانية والدقيقة العشرين ... فبدا القبر لانظارنا ... ولم يكن ثمة سوى رفات ذلك الذي ادهش مجده وبأسه العالم .

« ورفع البرنس دي جوانفيل قبعته عن رأسه وخر الاب كوكرو ساجدا عند يسار المدخل الى جانب سروة وصلى ... وابصروا على الارض جذع شجرة من اشجار الصفصاف الباكي وكانت هذه الشجرة حية حين دفنوا نابوليون في ذلك المكان . وابصروا أيضا شجرة أخرى باقية حية تظلل الضريح . وكنا صامتين كأن على رؤوسنا الطير ... وكل منا غارق في لجة الافتكار ... وتأملنا عن كثب بتلك الصفائح السوداء ... فلم يكن مكتوبا عليها شيء ... ولم نستطع تحويل انظارنا عنها ... فدار الامير على مهل حول القبر وقطف بعض أوراق من نباتات بصلية نابتة عند الجهة الموسد فيها الرأس . وبعد ما أمر بان يهيئوا له بعض فسائل من الصفصاف اوعز الى المسيو هرنو حاجبه بان يدفع الى الجندي الشيخ حارس القبر كل ما يمكنه حشده من المال . فوجد قبضة من الدنانير المنقوشة عليها صورة نابوليون . ثم انصرفنا »

وبعد ما غادر الامير المكان المدفون فيه نابوليون توجه الى المنزل الذي فاضت فيه روح الرجل الكبير . ولشد ما كان عظيما تأثر الذين اقاموا مع العاهل في لونود عند دنوهم من ذلك المسكن فقد شاهدوا فيه عذاب وموت الرجل العظيم الذي أحبوه وأعجبوا به واحترموه حبا واعجابا واحتراما ما وراءها من مزيد والقائد الكبير الذي كان في حياته موضوع عبادتهم الحقيقية والذي أصبح ذكره بعد موته بعشرين سنه سغلا شاغلا لافكارهم .

وترجل الامير عند وصوله الى لونود وبسط الجنرال برتران ورفاقه في المنفى للامير الشاب ما ابتغى الوقوف عليه من الايضاح عن الاماكن التي كان ينتابها العاهل وعن كل ما يتعلق به . وكانت الابنية الخارجية قد تحولت الى اسطبلات وحظائر للمواشي . ولم يكن يرى من الغرفة الاولى التي كان يسكنها العاهل سوى جدرانها الاربعة . ولما دخل الامير ورفاقه اليها رفعوا قبعاتهم

عن رؤوسهم خذا البريطانيون حذوهم . ثم انهم دخلوا الغرفة التي نقل اليها المحتضر وتقطعت فيها انفاسه المعدودة فقال الجنرال برتران والمسيو مرشان : « كان مضطجعا هنا . . . وقد أدار رأسه الى هذه الجهة . . . » وقد تحولت الغرفة الى مطحنة دقيق وبدت آثار الخراب على أرضها وسقفها وجدرانها ونوافذها وابوابها اما غرفة النوم فقد حولت الى اسطبل : وتجنب الضباط البريطانيون مرافقة الامير ولما التفت هذا وراءه ليلقي عليهم اسئلة لم يجدهم فقد خجل أولئك الشجعان عن حكومتهم وعن اهمالها المقصود وبغضها الشديد الباقي في فؤادها فمع اجماع امم الارض والقوم في الممالك البريطانية الثلاث على اجلال اسم نابوليون واكرامه والاسراف في تعظيم مجد بطل فرنسا ظل أعضاء الارسطقراطية البريطانية الذين لم يخمد لظى بغضهم يحبذون قيام هدصن لو السريع باعباء المهمة المفوضة اليه على اهانة ذلك الذي كان العالم طرا يحترمه ويعجب به . وبعد انزالهم الردى بضحيتهم حفظوا في قلوبهم حنقهم وظلمهم له . واذ لم تبق لهم المقدرة على جرهم الاذى الى شخص الرجل العظيم جعلوا من وكدهم الاضرار بشبحه وذكره وكل ما له علاقة به غير مستثنين من ذلك الجوامد التي لامسها نفسه الاخير وكانت صدى لكلماته الاخيرة . فان اولئك المدنسين لهيكل الدهاء جعلوا الاقذار وحشائش الارض تعبث بالاماكن المشهورة بسجنه والمقدسة بانفاسه الاخيرة ولم يجسر حفيد هنري الرابع وحفيد نسيب لويس الرابع عشر على دخولها من دون ان يرفع قبعته عن رأسه . فلا يستطيع الناس ان ينسوا ان بين هذه الاخشاب المتداعية وهذا السقف الجانح للسقوط وهذه الجدران المتزعزعة والمغشاة بالاقذار ارتفع صوت ستردده الاجيال الآتية ، وفاه بهذه الكلمات الخالدة : « لقد أطلتم أجل تعذيي وقتلي وتعمدتموه فأجري هدصن الوغد مقاصدوزرائكم العالية ... وستكون نهايتكم نظير نهاية جمهورية البندقية المتعجرفة وأنا حين اموت على هذه الصخرة الصماء وقد حرمت ذوي وكل شيء القي اعباء تبعة موتي وما يصحبه من الفظاعة والعار على عاتق الاسرة المالكة في بريطانيا . » وعند رجوع البرنس دي جوانفيل من لونود توجه الى دار حاكم الجزيرة لتناول الغداء ولما كان من الغد اهتموا بتنظيم حفلة اخراج الجثة من القبر وقد ارادت الحكومة البريطانية ان تعنى بهذا الامر فضرب اليوم الخامس

عشر من شهر اكتوبر موعدا للحفلة وكان افراد البعثة الفرنسوية يجالسون على الطعام في الفترة الباقية لحلول الاجل المعين ضباط الفصيلة الحادية والتسعين فيجتمعون ببعض ضباط المدفعية وفرقة المهندسين . وفي نهاية احدى الولائم رفع أحد الفرنسويين كأسه وقال : اشربها على اتحاد البلادين الوثيق العرى . فكبر جميع الحضور عند سماعهم كلامه وطبقوا الفضاء باصوات التهليل ولا يخفى ان الجيش في البلادين كان على مثال الشعب غير مشارك للحكومة في بغضها واوهامها وغير ممالىء لها بغير هدى على اعمالها .

وجاء مندوبو الامتين في نصف الليل في ١٥ اكتوبر الى قبر الماهل ليشاهدوا إخراج الجثة منه . فبوشر العمل بعد نصف الليل بربع ساعة وبعدما حفروا نحو خمس اقدام من التراب الندي وصلوا الى طبقة جاسية فظنوها الصفيحة المغطى بها اللحد ولكنهم بعد تلاوة صك الدفن الذي نظمه هدصن لو علم المسيو دي روهان شابو انهم وضعوا فوق الصفيحة المغطى بها التابوت طبقتين من الحجارة المبنية بالكاس والمشبكة بقضبان من الحديد . وعلم المندوبان بعد فحص قصير ان الطبقتين المذكورتين في الصك لم تكونا سوى الطبقة التي وصل اليها الحفارون .

واقتربوا من الوصول الى التابوت فاستعد الاب كوكرو للقيام باعباء مهمته الدينية وقال المسيو ارثور برتران : « اوشكنا ان نشاهد ذلك الذي اصبح من ثلاثة اشهر موضوع احاديثنا واهتمامنا افلا نجد كما كان في التخمين سوى بقايا غير معروفة لذلك الذي انتدبنا لنقله الى الوطن؟ فكان الخشوع عاما والقلق شديدا ولم نكن نتنفس الا بمشقة •وخفق قلبي خفقانا كاد يشق صندوق صدري

« وحالما رفع الغطاء عن التابوت المصنوع من الحديد الابيض ابصرنا مادة بيضاء وهي الفراش المصنوع من الحرير . فرفعه الدكتور غيليار مبتدئا من الرجلين حتى انتهى الى الرأس فظهر نابوليون كأنه حي . وقد خرجت اصابع رجليه من الحذاء الذي كانت اخياطه قد تهرت . وكانت قبعته موضوعة على ركبتيه ويده اليسرى على فخذه ولم يكن جلد على عظم بل يد حية بيضاء وكان لحم ... وحفظ رأسه شكله وقد اصفرت البشرة بعض الاصفرار وخداه اللذان كانا ممتلئين هبطا فاصبح الوجه اطول مما كان عليه وهو حي .

« ونظرت بين الشفتين بعض الاسنان البيضاء وقد نبتت لحيته بعدما حلقت في الليلة السابقة وفاته . وتغير طرف الانف وأطبقت اجفانه فلم يستطع رؤيتنا . ونحن أبصرناه بمشقة من جراء الدموع الغزيرة المتساقطة من اعيننا ولـكنه ربما كان ينظر من أعلى السموات الى ما نبديه من التعلق به . وهو يعلم كما أنبأ ابنه ان العالم سيتحدث عما كان من مجده ومن اعماله العظيمة . »

وقال شاهد آخر عياني وهو المسيو عمانوئيل دي لاس كاس : « هـذا نابوليون بعينه وقد فقد الحياة من دون ان يلم به البلي . وكان الناظر اليه يتوهمه في آخر يوم من حياة الجد والعمل والمهالك ... وفي أول يوم من أيام الابدية ... فلو شهد ابي هـذا المنظر لـكان عظيما جدا ما يشعر به في قلبه من الحماسة . ولعمري ان قوته تخذله عنـد رؤيته مثل هذا المشهد فيرزح تحت أثقال حزنه . وكاد الجنرال برتران يهوي الى الحضيض وبكى كثيرون من الحضور منتحبين وبدت الـكآبة على وجوه غيرهم وابتلت عيونهم بالدموع . وتماطرت العبرات على صفيح خد الـكنت دي شابو الشاب . اما أنا فـكنت أتمثل نابوليون ميتا وقد خيل الي عند رؤيتي ما حولي اني أرى حلما سماويا . »

وتعجب الدكتور غيليار الذي مس وحـده جسمان نابوليون من بقاء ذلك الجسمان سليما من الفساد مع أنه لم يحنط وارتأى هـذا الدكتور انه لا شيء أفضل من اعادة الجثة الى حالتها الاولى لابقاء رفات الرجل العظيم محفوظا فعني بعد رشه قطرات من الـكريوزوت (روح القطران) على الجثة باعادة الحرير المحشو قطنا وغطاء الحديد الابيض وغطاء الخشب وصفيحة الرصاص ووضع ذلك كله في التابوت الرصاصي المغشى بصفيحة كبيرة كتب عليها بأحرف ذهبية ما يأتي :

نابوليون

امبراطور وملك

توفي في جزيرة القديسة هيلانة

في ٥ مايو سنة ١٨٢١

وبعد ما لحمت اطراف هـذه الصفيحة وضع التابوت في نعش من الابنوس رصع غطاؤه بأحرف ذهبية تؤلف اسم العاهل

نابوليون

وفرغت حفلة اخراج الجثـة واتمت الحـكومة البريطانية مهمتها . وقرأ الربان الاسكندر صكا دفعه الى المسيو روهان دي شابو وكان مبينا فيـه ان رفات العاهل نابوليون موضوع في النعش الذي أرسـلته الحـكومة الفرنسوية وانه سينقل الى الموضع الذي يوضع فيه على متن السفينة بعناية الحكومة نفسها

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين سار الموكب الى جيمس طون ولما تحرك الموكب للمسير جاء الماجور جنرال تشرتشل لابساثياب الحدادومعه ضابطان وهم مكشوفو الرأس وغير مبالين بالامطار وارادوا باظهار ذلك الخشوع ان يبينوا للملأ طراً ان شجعان بريطانيا العظمى على مثال شجعان الامم الاخرى يأبون ان يوافقوا على ما ارتـكبت الحـكومات الاوربية من اعمال الظلم والجرائم بحق الرجل العظيم .

واقام البرنس دي جوانفيل على المرفأ ينتظر الوديعة الثمينة الموكول اليـه نقلها الى فرنسا ووصل الموكب في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين وسلم الماجور جنرال مدلمور قائد الاسيطيل الفرنسوي الشاب رفات نابوليون . فصار الآن الرفات بحسب رغبة الجبار عند دنو أجله يستريح تحت ظل الراية الوطنية . وفي الحال فتح التابوت وقال المسيو دي لاس كاس : وكان الامير ينظر اليـه وهو

لا يبدي حراكا وقد بدا على وجهه وجميع جسمه تأثر شديد وشعاثر متنوعة من الحزن والانفة فكانه يقول : انظروا مابقي من ذلك المجد العظيم . . . وهاءنذا أرد الى فرنسا رفات نابوليون ..' فياليت هذا الامير الشاب يحفظ طهارة وسمو العواطف التي ابداها في هذه الاحوال . »

وكانت الشمس في ذلك الحين تنحدر نحو الافق وقد أنارت أشعتها الاخيرة خروج نابوليون من أرض المنفى ورجوعه الى ما بين ابناء فرنسا . وحالما ابتعد عن البر الزورق المقل النعش اطلقت المدافع من القلاع والمراكب ثلاث طلقات مبشرة الاصقاع البعيدة بأن المنفي العظيم أعيدت اليه حقوقه بعد موته بعشرين سنة وانه عائد كعاهل الى وطنه تحت ظل الراية الشريفة التي نصبها مرات كثيرة بيديه الظافرتين فوق ابراج جميع العواصم في القارة الاوربية واسوارها

وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٨١٥ جاء امير بحر بريطاني باسم الارسطقراطية البريطانية ومعيدي البوربون الى عرش فرنسا ودفن حيا في جزيرة القديسة هيلانة ممثل الديمقراطية الفرنسوية . وكان ذلك الضمان لازماً للظافرين في واترلو وموقعي وثيقة فينا فنفي« المختلس وموته يمكنانهم دون سواهما من ضمان الامن والراحة للملوك الشرعيين فالضمان الذي اشتدت رغبة الملوك في اصابته وجد : فهواء الجزيرة الوبيل ومعاملة هدصن لو ساعدا على ايجاده فتلا الموت نفي ذلك الجبار ... فماذا جرى والحالة هذه ؟ هل نجت الارسطقراطية الاوربية بما تذرعت به من الذرائع المنكرة وتحدته من المعاملة العنيفة واتته من التدابير القاسية المحقرة متخلصة تخلصا نهائيا من المخاوف التي كان قرب عهدها بالثورة الفرنسوية يسوقها اليها بشخص نابوليون ؟

اليكم جواب التاريخ عن هذا التقرب البسيط : نحن الآن في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٠ امام جزيرة القديسة هيلانه وامام رفات ذلك الشخص المعتبر وجوده حاجزا حصينا في وجه انتصار معاكسة الثورة انتصارا جازما نرى قائدا بريطانيا ممثل خلفاء بت وكاسلري ينافس أميرا من أسرة البوربون في بذل الغيرة واظهار الاعجاب والاحترام والاكرام السامي لمنتخب الشعب ومنفي سنة ١٨١٥ وعدو البوربون والبريطانيين . ولا يخفى ان هنالك ما هو أعظم من تفوق الدهاء والمجد وعدالة الاجيال الآتية في تغيير من مثل هذا التغير : ففي

هذا الموقف تتجلى تجليا خاصا قوة المبدأ المتجسم في نابوليون وهو المبدأ الذي ساد قبله ونال خصل السبق في مواقف شتى على يده وادرك بعده نصرا مبينا الا وهو مبدأ الثورة . فالثورة هي التي أرجعت ممثلها العظيم الى فرنسا والثورة هي التي التي عودها العجيب الدهش في قلب أوربا القديمة وتولت الرئاسة في حفلة مناحة ابنها العظيم واعادة الكرامة الى ذكره بطريقة رسمية وتعظيم ذلك الداهية في القبر الذي علت الحكومات الاوربية النفس بتغييبه فيه مع مبدأ الثورة الى ما شاء الله .

وعاد العاهل نابوليون الى فرنسا ونقل في ظل الراية المثلثة الالوان الى المقر الابدي الذي ابتغاه وعينه في تربة الوطن . ولما وصلوا به الى متن السفينة ومروا به بين اركان الحرب المصطفين والسيوف مصلتة بأيديهم صدحت الموسيقى باللحن الحربي . وكانت تلك التظاهرات صدى عواطف الشعب الفرنسوي الممثل بأولئك الشجعان القليلي العدد المحتفلين بتحمس شديد بعودة العاهل الكبير مختار الامة تحت ظل الراية الوطنية . وكان المدفع والصور صدى اصوت الخطباء على منبر المجلس الفرنسوي وقد رددا كلام الوزير الذي له اليد الكبرى في نقل رفات نابوليون الكبير واعادا كلام المسيو دي ريموزا القائل : « كان نابوليون عاهلا وملكا وكان صاحب السلطان الشرعي في بلادنا . »

واقلع الاسيطيل في ١٨ اكتوبر فاجتاز الخط في ٢٨ منه والتقى بالسفينة الهولاندية « اغمون » في ٢ نوفمبر وكانت آخر الاخبار الآتية معها عن باريس مؤرخة في ٥ اكتوبر وما لها محاولة البرنس لويس قلب الحكومة والحكم عليه ووثيقة ١٥ يوليو واطلاق القنابل على مدينة بيروت وحصار سورية وطلب استقالة الوزارة الفرنسوية . وقد ملأت حوادث بولونيا قلوب رفاق نابوليون في المنفى حزنا ومرارة . وقال برتران الشاب في هذا الصدد ما يأتي : « ما أحزن الاخبار التي بلغتنا ونحن عائدون من جزيرة القديسة هيلانة فالثورات تشبه العواصف ولا بد من ان يرثى لحال الغرقى . »

اما الاخبار عن امكان تقطع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا العظمى فقد اقلقت خواطر الجنود والبحارة الفرنسويين العائدين برفات اكبر قائد في فرنسا واعظم عدو وجد للارسطقراطية البريطانية . فكأن نابوليون سمع وهو موسد في النعش



ارثور ولسلي دوق ولنغتن ولد سنة ١٧٦٩ وتوفي سنة ١٨٥٢

كلمات اللورد بالمرستن المحقرة فانتفض من شدة الغضب ونزع عنه الكفن مندفعا الى متن السفينة ليعطي العلامة لمحاربة البريطانيين . وكأنه بعد ما أعلن في حياته انه ضامن لمجد فرنسا وعظمتها لا يزال محافظا على ذلك الضمان وهو في القبر وانه لا يبتغي الخلود الا ليندمج مع شعبه العظيم في المستقبل كما توخى ذلك الامر في اثناء حياته . وعاد الروح المنتشر في معسكر بولون الى الظهور على متن « البل بول » فانبعث من صدر الجبار الذي طالما هزت سطوته المعمورة والذي لم يمسوا رفاته من دون ان يهزوا اعصاب الامم ويحركوا البر والبحر ويتعرضوا لصدمات جديدة شديدة .

وسرى الى قائد السفينة الهمام تأثير ذلك الروح السري المنبعث من داهية فرنسا الاكبر وهو الروح الذي هب في صدره من سنة من الزمان عند شواطىء سان جان دولوى . وافتخر ذلك الجندي الشاب بان يجد في المقاربة بين اصله وفصله والمهمة المفوضة اليه صلة بين الشهرة التاريخية والجد العصري . واظهرانه حفيد نبيل لهنري الكبير وامين جدير بالمحافظة على رفات نابوليون العظيم . ولم تنقض ساعتان على اطلاع البرنس دي جوانفيل على الاخبار الواردة مع السفينة « اغمون » حتى أصدر امره الى ربان سفينته بانه مطلق اليد في العمل للاسراع في المسير وأمر أيضا بان يستعدوا للقتال وعقد عروة العزم على أن ينحدر الى قعر اللجة مع رفات نابوليون ولا يدعه يعود الى أيدي البريطانيين وفي الحال نزعوا جدران قمرته ووضعوا المدافع في الكوى المخصصة لها. وقال المسيو دي لاس كاس: «ان الامير بعد ما كان لنا مثالا في ذلك الامر قال لنا وهو ضاحك انه استاء من ذلك ولكنه لا يلقى مندوحة عن وضع المدافع في مراكزها . وقد اذن بان يهيئوا لنا غرفاً في البطاريات فشغلت كل غرفة محل المدفع المأخوذ . وبعد تناول الصبوح في ٣ منه شرعوا في الحال في هدم غرفنا فألقيت في البحر الجدران الخشبية والامتعة وأطلق اسم لاسيديمون على الجهة المبنية فيها الغرف الجديدة»

وكانت تلك التدابير باطلة فلو سخرت اوربا القديمة بفرنسا الحديثة ونفتها من المؤتمرات السياسية المعقودة لتقرير المسألة الشرقية وبعثت اليها من لندرة بما يجر الاهانة والتحقير لتحركت فرنسا الجديدة على غير جدوى وظل ما تشعر به ن الحنق والحماسة الحربية عقيما . وعرف اللورد بالمرستن حق المعرفة ما تصير اليه

حالة فرنسا فان القوم فيها يهيجون ويضجون ولكنهم يسلمون عند دنو الساعة الرهيبة لان فرنسا الثورية يمثلها أصدقاء وخدام قدماء لاوربا القديمة وهؤلاء الاشخاص الذين تصوروا فيما مضى وجود كلمة مرادفة لخنق حرية المطبوعات سيلقون الآن امتيازا متقنا لخنق كلمة الشرف الوطني . وان هم وجدوا في سبيل المراقبة ان كلمة « منع » تؤدي معنى « استدراك » فلايفوتهم عهيد سبيل السلم على أي وجه كان ويتحرون أن يشعروا الشعب العظيم قبل الاحتفال بمناحة داهيته بان تقي فرنسا من مؤتمرات الممالك الاوربية لا يعد سوى طريقة مستهجنة لا يستطاع تشبيهها بالاهانة . فحينئذ يزول الغرور ولا يبقى من اثر للتسود ويسهل علينا أن نعلم أن نابوليون الذي كان كأنه قد بعث الى الوجود على متن «البل بول» قد مات حقيقة ولم تبق فرنسا مرتابة قط بان البرنس دي جوانفيل لم يأتها إلا بالرفات ليس إلا .

ان التاريخ مدون هذا الانحطاط الغريب بعد تلك العظمة السامية ومسجل هذا العار العظيم بعد ذلك المجد الاثيل لا يمكنه إلا الاعتراف بفضل الامير الشاب زعيم بعثة جزيرة القديسة هيلانة وعواطفه الكريمة واغراضه النبيلة . ويقول كما نقول نحن وكما يقول جميع المكبرين للشجاعة والوطنية : المجد للبرنس دي جوانفيل .

وهدمت غرفته وغرف حاشيته ونصبت المدافع في الاماكن التي تشغلها ولكن تلك المدافع لم تضطر الى مجاوبة المدافع المطلقة قنابلها على بيروت لانه حين وصلت « البل بول » في ٣٠ نوفمبر الى ثغر شربورغ علمت ان وثيقة ١٥ يوليو عقدت من دون ان تقيم فرنسا النكير عليها وان الوزارة التي رأت في تلك الوثيقة تهديدا واهانة لبلادها اضطرت الى الاستقالة بحيث ان البعثة المرسلة الى جزيرة القديسة هيلانة لم تسلم رفات الامبراطور الى الوزارة المفوضة اليها نقله وبدلا من أن ينقل رفات نابوليون الى هيكل مارس في عهد وزارة المؤرخ الشهير الذي دون حياة قاهر ايطاليا سيستقبله في ارض الوطن كتاب ساقهم الحظ المنكود في عهد النكبات الحالة بفرنسا الى المسير تحت راية الاجنبي أو تحيتها .

الفصل التاسع

مناحة نابوليون

وطمعت جميع المدن الفرنسوية التي على شاطىء البحر باستقبال رفات نابوليون في موانيها وجاهرت معظم تلك المدن برغبتها في نيل تلك الامنية . وكانت مدينة طولون أشد هن مجاهرة في ذلك الامر لاعتبارها نفسها مهداً لعظمة ذلك الجبار : إلا أن الحكومة قررت تعيين مدينة الهافر للاستقبال . وهذا ماجعل الناس يقولون أن الحكومة فضلت مدينة الهافر على سواها لانها أقرب من غيرها من المدن البحرية الى باريس وكانت غايتها من وراء ذلك حجبها رفات الرجل الكبير بقدر مايمكنها حجبه عن انظار الشعب المتحدمة في فؤاده نار الحماسة . وقد عالج بعضهم ان ينفي عن الحكومة مثل هذه التهمة ولكن تأليف الوزارة الجديدة أيدها فقد كان في تلك الوزارة الى جانب خدام الامبراطورية المشاهير رجال تسلطت على افكارهم مبادىء مخالفة لمبادىء الامبراطورية وأربى خوفهم من الديمقراطية الفرنسوية على خوفهم من الارسطقراطية الاوربية . ولما دخلت « البل بول » مرفأ شربورغ حيتها مدافع الاسوار ورددت تلك التحية المدافع التي على الحصون البعيدة .

وجاءت ثلاث بواخر وهي « نرمنديا » و « الفيلوس » و « الكوريه » واصطفت حول « البل بول » وقد فوض اليها استقبال بعثة جزيرة القديسة هيلانة ووديعتها المقدسة والمسير بها الى نهر السين وتم النقل في ٨ دسمبر . وسار الاسيطيل قبالة الشواطىء التي ودعها نابوليون للمرة الاخيرة وهو أسير ومتوجه الى جزيرة القديسة هيلانة على متن «النرثمبرلند» بقوله لها : اودعك يا أرض الشجعان اودعك يافرنسا العزيزة فلو لم يكن فيك بعض نفر من الخونة لكنت باقية سيدة العالم . » وخف سكان نرمنديا الى الشاطىء فطبقوا الفضاء باصوات التهليل والتكبير . وكان القوم على طول ضفاف نهر السين كما كانوا على طول شواطىء المانش يهرعون زرافات والتحمس بالغ منهم . وكان نابوليون وهو جثة

هامدة محجوبة عن الابصار وسائرة الى المقر الأخير المعد لها في الانفاليد يقيم القوم ويقدمهم في المدن والقرى والسهول والجبال ويجتازظافرا الناحية التي اجتازها شارل العاشر من عشر سنوات هاربا وهو صامت وقد أعرض عنه جميع الناس على التقريب . يارجال الماضي ما أعظم الانذار الذي ترونه في هذا الاختلاف !

ووصلت السفن الى الهافر في ليل اليوم الثامن من شهر دسمبر والقمر يرسل أشعته الفضية على البسيطة . وفي صباح الغد في الساعة الخامسة تحرك الحرس الوطني في المدينة وضواحيها للاحتفاء بمرور رفات العاهل. وهانحن نورد الكلام الذي فاه به حاكم ولاية السين السفلى : « لم يصحب حادث من الحوادث التاريخية ماصحب نقل رفات العاهل نابوليون من العظمة والابهة ... فأنتم تؤدون لهذا الرجل العظيم مايستحقه من الاكرام بسكينة وكرامة ملائمتين لقوم شعروا غير مرة بتأثير سطوته الحامية وعطفه الخاص . »

ودخلت « نرمنديا » نهر السين وهي رافعة الرايات الوطنية والراية الملكية فوق السارية الكبرى بين أصوات المدافع حين كانت الشمس الساطعة طالعة من وراء الافق كما كانت طالعة في يوم استرلتز وغصت ضفتا النهر بجماهير المتفرجين الغفيرة . ولم تنقطع أصوات الحماسة والطلقات النارية دلالة على ذلك الاحتفال الباهر . وظل القوم يبدون مثل تلك التظاهرات الحماسية حول الموكب في اثناء الطريق كله . وكان في كليوف معظم الحرس الوطني الذي في نرمنديا السفلى لحيوه بالتحية العسكرية . ووقف الموكب عند فال دي لاهاي في مساء اليوم التاسع منتظرا اسيطيل السين الاعلى المعد لنقل العاهل الى كوربفوى . فوصل في صباح اليوم العاشر منه ونقل النعش الى متن « الدوراد » في الحال .

ودنا الاسيطيل من روان وكانت هذه المدينة الكبيرة الصناعية المكرم فيها اسم العاهل تستعد من ايام للاحتفاء باستقبال رفات الرجل الكبير الذي أحبته حبا شديدا لاجل احسانه اليها وأعجبت بالمعجزات النادرة التي اتاها . ونصبت قوس نصر في وسط النهر تحت قنطرة من قناطر الجسر المعلق. ورفعت على العدوتين اهرام رسمت عليها اسماء أهم الانتصارات في عهد الامبراطورية .

ووصل الاسيطيل الى روان في ١٠ منه عند الظهر وازدحمت جموع غفيرة كالبنيان المرصوص على ضفتي السين وهم يرددون هاتين الكلمتين « ليحي الامبراطور »

واظهر الحرس الوطني في المدينة وضواحيها وجنود الحامية التحمس نفسه الذي اظهره الاهلون وخرج الكردينال رئيس الاساقفة من الكنيسة من الساعة السادسة صباحا بطواف احتفالي يحف به نحو مئتي كاهن ويمم رصيف سان سيفر وجاء اليه ايضا رجال الحكومة على اختلاف خططهم ومعهم رجال المجلس البلدي . ولما وصلت السفن الى موضع معين بين الجسرين وقفت « الدوراد » فابتدأ الكردينال الحفلة الدينية وكانت في اثناء ذلك مدافع الحرس الوطني المنصوبة على مرتفعات القديسة كاترين ومدافع السفن الراسية في الميناء تطلق قنابلها وبين الطلقة الواحدة والاخرى مهلة دقيقة فتجيب « الدوراد » بالتدقيق على كل طلقة منها . ولما فرغوا من الصلاة أطلق مئة مدفع ايذانا بذلك ومن ذلك الحين لم يكن الناس يعتبرون انهم ينقلون رفات جبار الى مقره الابدي بل رأوا امامهم امبراطورا كبيرا عائدا بانتصار الى عاصمته . فزالت جميع علامات الحداد وصارت الاجراس تقرع قرعا متواصلا والطبول تدقدق متواليا والجنود يحيون الموكب برفع السلاح والموسيقى تعزف بالحان النصر . ومر نابوليون تحت قوس نصبها الروانيون الصناديد ووقف قدماء الجنود ينتظرون وصوله بنافد الصبر فنثروا عليه من أعلى الجسر أكاليل من الكتلة الدائمة النضارة وغصونا من الغار والرياحين واطلقت المدافع في تلك الاثناء مئة طلقة وطلقة إيذانا باستئناف الموكب سيره .

وفي ألبوف وبون دي لارش وفرنون ومانت وجميع الامكنة التي مر بها الاسيطيل هرع السكان مهرولين لتحية النعش الامبراطوري . ولما وصلوا به الى جسر بواسي انتظروا السفن البخارية المرسلة من باريس لاستقباله ، وحالما ذاع في العاصمة نبأ قدومه اهتزت العاصمة بأسرها. وكانوا في اليوم الثالث عشر من شهر دسمبر . على أن الحكومة المسرعة في تهيئة المعدات اللازمة عينت اليوم الخامس عشر منه موعدا لدخول الماهل مدينته الفخمة باريس . وفني الصبر عند القوم على اختلاف طبقاتهم ومقاماتهم فغصت جميع الطرقات المؤدية الى بواسي .

ورأى البرنس دي جوانفيل ان السفينة المرسلة من باريس وان تكن مبنية بفخامة وزخرفة وفقا لقواعد الفن لاتضمن سلامة النعش الامبراطوري

فظلت السفينة « الدوراد » حاملة حملها الشريف حتى بلغت مرسى كوربفوى حيث ابتدأ رفات نابوليون يمس ارض فرنسا

وضرب اليوم الخامس عشر من دسمبر موعداً لدخول النعش مدينة باريس. ففي الاجل المسمى شرعت طبول الحرس الوطني ومدافع الانفاليد تعلن للعاصمة من الساعة الخامسة صباحاً حلول الاجل المضروب . وفي أقل من لمح الطرف خرج الاهلون الى الشوارع والطرقات المعينة لمرور الموكب فيها وهم غير مبالين بالبرد القارس والظلام الحالك وقد استعانوا بالانوار والمشاعل . ولما بزغت الشمس كان الحرس الوطني والجنود تحت السلاح وقد أمر الحرس الوطني بالاصطفاف صفين الى كل جانب من شريون نوبي صف من الجسر الى حدود «الاتوال» ثم يمتد الى الجهة اليمنى فقط حتى ينتهي الى مدخل القصر. وكان وراء الحرس والجنود نحو ثماني مئة الف نفس يترقبون مرور الموكب

ووصل الاسيطيل الى كوربفوى في ١٤ منه وجاء في المساء الى ذلك المكان فريق كبير من مريدي الرجل العظيم غير مبالين بالبرد القارس وقد حداهم الشوق على المجيء لتكريم رفاته . وكان بين الجمع كثيرون من الجنود القدماء الباقين من الجيش اللهام وقد قدموا من ديار شاسعة ليشهدوا الاحتفال ولم يجل في وهمهم قط أن وجودهم وهم الذين تحطمت سيوفهم حين تحطم سيف العاهل في معركته الاخيرة بجهل الخونة يحمرون خجلا في ذلك الموقف الرهيب وهؤلاء الاخيرون خانوا وطنهم بانتظامهم تحت ألوية ولنتن وبلوخر . وقضى اولئك الشجعان ليلتهم عند جسر نوبي وكان الزمهرير شديداً فهبطت الحرارة الى الدرجة الثامنة تحت الصفر في المقياس المئوي الا انهم اعتبروا انفسهم مالكين ناصية السعادة بوجودهم ذواتهم بعد خمس وعشرين سنة انقضت على معركة واترلو مقيمين في المعرس عينه المقيم فيه نابوليون ومشاطرين الامة معرفتها الجميل نحو قائدهم الخالد الذكر . وفي ١٥ منه في الساعة الثامنة صباحا ابصروا شيخا لابساً ثياب الحداد وقد ربط شريطة سوداء على ذراعه وسيفه يقترب من النعش واستند الى رجلين يشاطرانه اسفه . وهو شيخ جليل باح باسرار فنه مدة سنوات كثيرة للمدافعين عن الوطن حين كان رئيس جراحي الحرس الامبراطوري وجميع الجيوش الفرنسوية في عهد نابوليون وهو لاري المحترم مثال المرؤة والصدق . وقد أسهب في الثناء عليه

سجين جزيرة القديسة هيلانة حين نظم وصيته . وكان يستندالى ابنه والى جراح من جراحي الجيش يدعى تشارنر وهـذا كان في حملة روسيا وصحب العاهل الى فيلنا . وتمكن لاري الشيخ من المسير على قدميه من المرسى الى الانفاليد وراء رفات الذي أحبه حبا شديداً وقدر صدقه وكرم اخلاقه حق قدرها وحين رفع النعش الامبراطوري من «الدوراد» وأصعد الى البر ووضع على المركبة المعدة له تحت قوس النصر المنصوب أمام المرسى ابصروا فريقا كبيرا من القواد يتهافتون على مثال البارون لاري للدنو من نابوليون وكان بينهم دسبان كوبيار وزير الحرب سابقا بزة كولونل الفصيلة الاولى التي تولى قيادتها في واترلو . وفي تلك الساعة الرهيبة ارتفعت اصوات الجموع مرددة «فليحيي الامبراطور» وكان ذلك دلالة على وصول رفات الرجل العظيم إلى الارض الفرنسوية

وفصلت العربة القالة النعش عن كوربفوى في الساعة العاشرة صباحاً فوصلت في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين الى قوس النصر عند « الاتوال » بين جماهير غفيرة تملأ الفضاء هتافا . وأطلق واحد وعشرون مدفعا إيذانا للباريسيين بأن الرفات المنتظر بنافد الصبر وصل الى اثر من الآثار العديدة التي نصبها ذلك الجبار لمجد فرنسا .

واجتاز الموكب على مهل شارع الشانزليزه الغاص بخمس مئة الف متفرج مملوئين تحمساً وفي الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين انتهى الى ساحة الانفاليد حين كان الاسيطيل الحامل النعش الامبراطوري من روان الى كوربفوي يلقي مراسيه أمام الجسر .

وكانت الساعة الثانيـة بعد الظهر حين آذن المدفع بوصول مركبة النعش الى مدخل الانفاليد . وحمل بحـارة « البل بول » على أذرعهم الوديعة الثمينة التي جاؤوا بها الى فرنسا وسلموها الى ضباط الحرس الوطني والجيش وهؤلاء حملوها الى الـكنيسة حيث كان رئيس اساقفة باريس مقيما على حبل انتظارها محفوفا باكليروسه . وكان الملك والوزراء والمارشالية وامراء البحر ومجالس الحـكومة تحت القبة ولم يتمكن اصحاب المناصب العالية من شق الجماهير الغفيرة الا بشق النفس . أما سفراء أوربا القديمة فانهم ظلوا معتزلين عن غيرهم لعلمهم ان أوربا القديمة لايجمل بها ان تشهد رسميا حفلة اقامتهـا فرنسا الجديدة ارادة اصلاح

ما كان من أمر الوثيقة المعقودة في ٢ أغسطس سنة ١٨١٥ . على أن حضور ممثلي المحالفة القديمة في هذه الحفلة لم يكن امرا مستحسنا .

وكان بين المارشالية واحد يعد عميد الجنود في فرنسا فهذا كان من أيام يسأل طبيبه هل يظل حيا الى اليوم الخامس عشر من شهر دسمبر وهو الوطني الصادق الذي قاتل الاجنبي عند ابواب باريس في ٣٠ مارس سنة ١٨١٤ حين بدأت الخيانة تظهر في كل جهة والذي فضل بعد ثمانية عشر شهرا خسارة منصب المارشالية والسجن في قلعة هام على صيرورته آلة للانتقام الملكي من رفاقه في الجندية . حتى استجابت السماء توسلات حاكم الانفاليد الشيخ فان المارشال منسي وان تمكن الشيخوخة والاسقام التي نالته في الحروب قد منعته عن المشي بقي حيا في ١٥ دسمبر فحملوه على كرسي الى امام المذبح قراب نعش نابوليون ليودعه الوداع الاخير ويستمطر على نعشه سحائب البركات والدموع .

ولما أطلق أول مدفع إيذانا بوصول الموكب الى مدخل الانفاليد الكبير خرج رئيس أساقفة باريس محفوفا باكايروسه بطواف حافل الى الرواق لاستقبال جثمان العاهل وما عتموا ان عادوا بالنظام نفسه ووراءهم الموكب السائر في مقدمته البرنس دي جوانفيل وحمل اطراف بساط الرحمة أربعة وهم المارشالان اودينو ومووليطور وأمير البحر روسان والجنرال برتران . ولم تجف ماآقي هذا الاخير قط في أثناء سير الموكب . وحالما اقتربوا بالنعش من الدكة المنصوبة في الموضع المعد لتشييد ضريح لنابوليون انحدر الملك عن العرش ومشى لملاقاة الموكب حتى انتهى الى مدخل القبة وهناك قال له البرنس دي جوانفيل : مولاي أقدم لك جثمان نابوليون فقد جئت به الى فرنسا تلبية لاوامرك . فأجابه الملك : اني استقبله باسم فرنسا . وكان الجنرال اطالان يحمل على وسادة سيف العاهل فتناوله الملك من يد المارشال سولت وناوله الى الجنرال برتران قائلا له يا حضرة الجنرال اكلفك بأن تضع سيف العاهل المجيد على نعشه .

وبعد ما أتم الجنرال برتران ما أمره به الملك عاد هذا الى كرسيه ووضع النعش على الدكة وحينئذ باشروا صلاة الموتى . وبعد القداس نضح رئيس الاساقفة الماء المبارك على الجثة وقدم المنضحة للملك . فهذا تم ما هو مقضي



جبهارد لبريخت بلوخر ولد فى سنة ١٧٤٢ وتوفى فى سنة ١٨١٩

عليه ثم انصرف وختمت الحفلة . وخرج الجمهور من الكنيسة بخشوع واخبات وحينئذ قال منسي الشيخ : والآن اطلق يا رب عبدك بسلام

وفي الايام التالية بلغ عدد الزائرين الذين جاؤوا لرؤية نعش العاهل مئات الالوف فازدحم مريدو الرجل العظيم عند رتاج الانفاليد فأذنوا لهم بالدخول والتفرج على المنصة الموضوع عليها النعش . وفي أواخر شهر سبتمبر سنة ١٨٤١ كان نحو مئة شخص ينظرون باحترام الى ضريح العاهل الوقتي واذا ببكاء وانتحاب قد سمعا عند مدخل الكنيسة فشخصت جميع الابصار الى الجهة الآتي منها الصوت فرؤي شيخ مستند الى ذراع شاب وخيل للحاضرين حينئذ ان صوتا خارجا من النعش يقول : « دعوا هذا الجندي الباقي من الجيش العظيم يدنو مني فقد صحبني في ابتداء حروبي في ايطاليا وكان معي أيضا حين قلب لنا الحظ ظهر المجن في الاصقاع الشمالية . » وحينئذ صاح الجميع : افتحوا طريقا فهذا ولا مراء رفيق من رفاق العاهل في حروبه . وفي الحال انشق الحاضرون وافسحوا مجالا للكولونيل الشيخ الذي تولى قيادة الفصيلة السابعة والخمسين ورقي الى رتبة امير لواء في معركة المسكوفا . وقد قطع مسافة مئة وخمسين ميلا وقدم مع زوجته وابنه ليذرف العبرات على رفات الجبار الذي رافقه في حروبه الخالدة من منتنوت الى واترلو .

واننا في ما كتبناه عن سيرة نابوليون الكبير اودعنا في كل صفحة سر تلك القوة التي لا يزال ذكرها مؤثرا في جميع اصحاب الاحلام الراجحة فنابوليون ذاته نم بها في معظم الخطب التي كان يلقيها ولكنها جاءت بشكل واضح صريح في الكلمات الآتية التي فاه بها « لست عاهل الجنود كما قالوا عني بل أنا عاهل الفلاحين والشعب وفرنسا ومع كل ما جرى في الماضي ترون الشعب مقبلا علي . وليس شأني شأن المختارين فالنبلاء خدموني وتزاحموا على بابي ينتظرون التفاتي اليهم ولم يكن من منصب الا وقبلوه وطلبوه والتمسوه . وكان ثمة كثيرون من أمثال منمرنسي وأشباه نوايل ونظائر روهان واقران بوفو واتراب مرتمار ولكن لم يكن من مشابهة تامة بينهم فالجواد كان يتطامن لانه كان مدربا على ذلك كل التدريب ولكني شعرت بانه يرتجف اما مع الشعب فليس الامر كذلك : فعواطف الشعب صدى لعواطفي وقد خرجت من صف الشعب ولذلك كان

لصوتي تأثير فيه انظروا الى هؤلاء المتجندين فهم أولاد الفلاحين وانا لم اكن أتملقهم بل كنت أعاملهم بالقساوة ومع ذلك لم يبتعدوا عني ولم تحملهم تلك المعاملة يقلاون من الهتاف « فليحيي الامبراطور . » وليس ذلك لوجود تشابه في الطبيعة بيني وبينهم . فهم يعتبرونني سنداً لهم ومنقذاً من النبلاء »

أو لا نري أن كل ما حدث في خلال خمس وعشرين سنة بعد موته وكل ما نظر وسمع في مناحته حقق العاطفة العميقة الدالة على ميل الشعب اليه ميلا غير منفصم العرى . أجل ان الشعب مع كل ما حدث في الماضي ثاب اليه وسيظل الى ما شاء الله متعلقاً به فالجندي المتوج مع كل ما فعله لترميم صرح الارسطقراطية المتداعي سيظل في انظار الاجيال الآتية كما كان في انظار الملوك المعاصرين سبب ذعر لاوربا القديمة وداهية فرنسا الحديثة وربيب الديمقراطية وكلمة الثورة المجيدة

انتهى



ذيل للجزء الثالث

نذكر في هـذا الذيل موضوعات شتّى لها علاقة بنابوليون الـكبير تتمة للفائدة :

برنادوت وأسرته

جاء في كتاب نسجت بردته براعة شاتوبريان الـكاتب الفرنسوي المشهور ما يأتي : « كان في مدينة مرسيليا أسرة غنية تدعى أسرة كلاري يتعاطى افرادها التجارة . فذات يوم جاء هذه الاسرة ضابط برتبة كبتن في فرقة المدفعيين وهو في ريعان الشباب بيد انه كان يشكو من ضيق ذات يده وطلب الاقتران باصغر كرائم تلك الاسرة . وكان شقيق ذلك الضابط الا كبر واسمه يوسف قد اقترن با كبر بنات الاسرة المذكورة . فعقدت الاسرة مجلسا للنظر في طلب الضابط الشاب . وبعد مباحثة طويلة رد طلبه : وجاء بعد ذلك ضابط آخر في مقتبل العمر وفي غاية الاملاق أيضا بيد انه أجمل صورة وا كثر حنكة فراقهم ورضوا به صهرا . وكان الاول يدعى نابوليون والثاني شارل جان برنادوت وهو الذي جلس فيما بعد على عرش مملـكة اسوج . وكانت كريمة تلك الاسرة المزاولة للتجارة بعد ما اوشكت أن تصير امبراطورة قد كتب لها الحظ بأن تـكون ملـكة فقط . »

قد يتوهم قارىء هـذه السطور الوجيزة أنها مجمل حـكاية من الحـكايات ولـكن هي قصة حقيقية تاريخية الا ان كلام شاتوبريان لايعبر عن واقع الحال تماما . وقد عثرنا على أصل هـذه الرواية فاحببنا نشرها اظهاراً للحقيقة وتفـكهة للقراء .

كان في مرسيليا في أواخر القرن الثامن عشر أسرة من أسر التجار الاغنياء تدعى أسرة كلاري تقيم في منزل فخم بشارع الفوسيين . وكان لهذه الاسرة ابن وحيد واربع بنات وقد لعبت اثنتان منهن دورا خطيرا في التاريخ .

فالبنت الكبيرة تدعى جوليا وكانت على جانب عظيم من الرزانة والتعقل وقوة الارادة ولكنها لم تكن جميلة الصورة فتانة المحاسن . والبنت الصغيرة تسمى دزيره ولها عينان نجلاوان وشعر اسود جميل وقامة صغيرة بيد أنها ممشوقة ويدان ناعمتان وقدمان صغيرتان وذكاء مقرون بالحدة والنشاط وكانت دزيره ألطف وأجمل فتاة بين فتيات مرسيليا . وتعرفت أسرة كلاري في سنة ١٧٩٤ بشاب كورسيكي يقال له يوسف بونابرت اتخذت أسرته من عهد غير بعيد مدينة مرسيليا محلا لاقامتها . ولم يكن للآنسة دزيره سوى ثلاث عشرة سنة من العمر فشغف بها يوسف وطلبها من والديها . فحل طلبه عندهما محل القبول وتم الاتفاق بين الفريقين على ارجاء الزواج سنتين بالنظر الى سن الفتاة .

وقدم من طولون الى مرسيليا في تلك الاثناء قائد من قواد المدفعيين اشتهر فيها اشتهارا امتد صداه الى الاصقاع السحيقة . وكان هذا القائد شقيقا ليوسف بونابرت واسمه نابوليون . فقدمه يوسف الى اسرة كلاري وعرفها به . ولم تكد عين هذا الضابط تقع على دزيره الحسناء حتى افتتن بجمالها وشغف بلطفها وفي ذات مساء خاطب شقيقه في بهو منزل أسرة كلاري بكلام لا يستطيع أحد معا كسته قائلا : « اذا شاء الزوجان ان يعيشا بالوفاق والوئام وجب على أحدهما أن يسلس قياده للآخر . فانت يا يوسف متردد في اعمالك ودزيره ذات خلق عائل خلقك أما أنا وجوليا فنعلم ما نريد نخير لك أن تقترن بجوليا وأما دزيره فستكون لي زوجة . »

قال نابوليون هذا الكلام وأجلس البنية دزيره على ركبته .

وبعد نصف قرن رددت تلك المرسيلية الصغيرة وكانت قد صارت ملكة اسوج كلام الضابط الصغير المدفعي على مسمع سكرتيرها وقالت له : وعلى هذه الصورة اصبحت خطيبة لنابوليون .

وتم كل شيء وفقا لمشيئة الرجل الذي ابتدأ من ذلك الحين يمثل دور العاهل المطلق الارادة الحر الاميال . فرضيت جوليا بان تكون خطيبة ليوسف وكانت تحبه سرا ويوسف وان لم يكن يحب جوليا بل كان يحب دزيره طلق قلبه حب هذه الاخيرة وتزوج جوليا لأن هذه كانت مشيئة أخيه . وصار جميع افراد الاسرة يعتبرون نابوليون خطيبا لدزيره .

وجاء اليوم التاسع من ترميدور وهو الموافق لليوم السابع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٩٤ وفيه هوى روبسبيار عن كرسي مجده وانقضى عصر المخاوف بانقضاء ولايته . وكان قائد المدفعيين الشاب الآنف الذكر قد احرز رتبة امير لواء فانطلق الى باريس للقيام بمهمة خطيرة وتداعى في الحين عينه ما شيده الحبيبان من صروح الاماني في ذهنهما . فكانا في بدء الامر يتكاتبان مودعين كتبهما عبارات أرق من النسيم واصفى من الزلال . وبعد حين من الزمان صارت الفترات طويلة بين المكتوب الواحد والمكتوب الآخر من مكاتيب الخطيب وما عتم نابوليون ان وجد في التيار الباريسي ملاهي جديدة جعلته ينسى الاقسام التي حلفها لتلك المرسيلية الصغيرة الحسناء .

وتعرف نابوليون في ذات يوم عند عقيلة تاليان بامرأة بارعة الشكل وهي أيم جنرال قطعت عنقه في مقصلة الفتنة . وكانت تلك المرأة تدعى جوزفين دي بوهرنه . وهي أكبر من نابوليون في العمر . فحلت في فؤاده محل دزيره حتى أنه بدلا من ان يعود الى مرسيليا في سبتمبر سنة ١٧٩٥ انجازا لوعده كتب الى جوليا زوجة أخيه عاهدا اليها في ان تبلغ دزيره انها اصبحت من ذلك اليوم مطلقة القياد وباح لها بمحبته لتلك الايم الحسناء وقال لها انه صمم على الاقتران بها في وقت قريب .

فكان لذلك النبأ وقع اليم على دزيره فاكبرت نقض نابوليون لعهده وكتبت اليه ما يأتي :

« هل استحق يا قاسي الفؤاد أن أعامل بمثل هذه المعاملة . . . أو لا تذكر عهودك ووعودك ؟ لقد صيرتني تاعسة طول حياتي . . . فلا استطيع تعود هذه الحال فانها تقضي علي . . . ولا أقوى على العيش بعدها . . . وسأريك اني ارعى عهد الامانة لوعودي فلا اتزوج بغيرك وان تك انت قد نقضت حبال المواثيق التي تربطنا . وقد علمتني التجارب معرفة اخلاق الرجال والتحفظ من فؤادي . . . »

وقد تسرعت دزيره في عقد عروة العزم على نبذ الزواج فلم تبق عانسا في بيت أبيها بل تزوجت . على ان الحظ وان يك قد حال دون صيرورتها امبراطورة لم يحل دون صيرورتها ملكة .

ويستنتج مما بسطناه ان شاتوبريان اخطأ في روايته الانف بيانهـا فلم ترد أسرة كلاري طلب نابوليون مصاهرتها بل هو نابوليون الذي خان عهد دزيره وسعى وراء غيرها من النساء .

ولبثت دزيره في ريق الامر على ما كانت قد صحت عليـه عزيمتها فردت طلب كثيرين ابتغوا الاقتران بهـا وفي جملتهم جونو أحـد رجال نابوليون ولـكنها مالت الى دوفو الا أنه لم يتم شيء من هذه الجهة لانه قتل في رومية في اثناء فتنة .

وظن صيرفي اسوجي واسـع الثروة أنه يتمكن من استمالة قلب تلك الفتاة وتليينه ولـكنه عاد بصفقة المغبون .

وجاء برنادوت وكان شابا جميل الطلعة بعيد الشهرة له المنزلة الثانية بعد نابوليون بين قادة جيوش الجمهورية . فرضيت دزيره به خطيبا لها . ولم يستملها اليه شيء من الاشياء التي بسطناها بل قبلته لانهم قالوا لها : « هـذا هو الرجل الوحيد القادر على مناجزة نابوليون ومناوأته » وكان حب الانتقام السبب الذي من اجـله رضيت تلك المرسيلية الصغيرة بأن تصير زوجة لبرنادوت .

وتم زواجهما في صو في ٣٠ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية . وكان للعريس اكثر من اربع وثلاثين سنة من العمر اما العروس فلم تـكن قد تجاوزت السابعة عشرة من سنيها . واقبلت على حب زوجها حبا شديدا غير مبالية بما بينهما من التفاوت في السن وابدت له تعلقا واخلاصا ما وراءهما من مزيد وتمكن بفضلها من النجاة من تعقب نابوليون له بداعي اشتراكه في سنتي ١٨٠٢ و ١٨٠٤ مع مورو في دسيسته المشهورة مع انه كان لدى نابوليون ادلة كثيرة تثبت اشتراكه فيها ومن ترجمة برنادوت انه نجل محام من مدينة بو تطوع في الجندية في سنة ١٧٨٠ واخذ يترقى من درجة الى درجة حتى وصل الى درجة فريق في سنة ١٧٩٥ قبل وصول نابوليون اليهـا . وامتاز في جيش الرين وجيش السامبر والموز وجيش ايطاليا . ثم قلد وزارة الحربية ومستشارية الدولة وقيادة جيش الغرب في سنتي ١٧٩٩ و ١٨٠٠ ورقي الى درجة المـارشالية في سـنة ١٨٠٤ وجعل حاكما لهانوفر وابلى بلاء حسنا في معركة استرلتز فـكافأه نابوليون على ذلك بمنحه اياه

لقب برنس دي بنتي كرفو وباسناده اليه حكومة المدن التجارية في ألمانيا الشمالية الغربية .

وتبتدىء من ذلك الحين الحوادث التي استمالت اليه احترام الاسوجيين له واعترافهم بجميله وتمهيدهم في وجهه سبيل الوصول الى عرش بلادهم .

ومال غستاف الرابع ملك أسوج الى موالاة البريطانيين ومعاداة فرنسا ففوض الى برنادوت أمر مقاتلته فحاربه وظهر عليه وأحسن معاملة الضباط الاسوجيين الناشبين في حبائل أسره . وخلع غستاف الرابع عن العرش بعد اربع سنوات فخلفه شارل الثالث عشر . ولما لم يكن للاسوجيين امير يرث الملك بعد ملكهم الجديد تذكروا معاملة المارشال الفرنسوي لهم بالحسنى وصحت عزائمهم على انتدابه لولاية العهد .

واستشير نابوليون في هذا الامر فوافق عليه وان لم يكن يركن الى هذا الخصم الذي كان يخشى شره ومن المحتمل أنه لم يشأ أن يضن بتاج المملكة على التي ضن عليها بتاج الامبراطورة .

وانتخب المارشال برنادوت وبرنس دي بنتي كرفو في ٢١ اغسطس سنة ١٨١٠ وليا للعهد في مملكة اسوج وتبناه الملك شارل الثالث عشر .

ووصل برنادوت الى السنور في ١٩ اكتوبر سنة ١٨١٠ ودخل مدينة استوكهلم في ٢ نوفمبر واستلم قيادة الجيشين البري والبحري . وما لبث أن قبض بيديه على ادارة السياسة الاسوجية بالنظر الى تقدم الملك شارل الثالث عشر في العمر واعتلال صحته .

وتوفي شارل الثالث عشر بعد سبع سنوات فخلفه برنادوت متخذا اسم شارل الرابع عشر جان .

واصبحت المرسيلية الصغيرة التي كانت في شارع الفوسيين ملكة على اسوج الا ان مقامها الجديد لم يرو غليل رغائبها . وكما ابت اختها جوليا عند صيرورتها ملكة على اسبانيا ان ترافق زوجها الى شبه الجزيرة الايبرية آثرت دزيره المقام في باريس بقصرها الفخم في شارع انجو على المضي الى الاقاليم الشمالية ولبس التاج على رأسها . ولكنها لما انتخب زوجها وليا للعهد في مملكة اسوج وافته الى وطنه الجديد فاحتفى الاسوجيون باستقبالها احتفاء باهرا جعلها تمكث

ردحا من الدهر في استوكهلم على انها لم تفتأ تحن الى باريس ومع ما كان يبديه لها الملك الشيخ من العطف ويعاملها كابنته ومع شدة تعلقها بزوجها ومع فرط حبها لولدها الوحيد البرنس أسكار الحدث « فليون » نابوليون تولاها التبرم من الاقامة في اسوج . ولما اوشكت الحرب ان تنشب بين اسوج وفرنسا اغتنمت الفرصة للعودة الى باريس رغبة في السعي لاطفاء جذى سخط العاهل واستمالته الى برنادوت وتبديد الغيوم المتلبدة في أفق السياسة .

ولم تدرك هـذه المرة ضالتها المنشودة وفي شهر مايو سنة ١٨١٣ تولى برنادوت قيادة جيوش الحلفاء وقهر رفيقيه القـديمين اودينو وناي في غروس بيرن ودنوتز واجرى الخطة الحربية التي رسمها وانتهت عند ليبزيغ

وعلى هـذه الصورة حقق برنادوت ما اخبروا دزيره عنـه فلم يكن فقط الرجل القادر على مقاومة نابوليون بل الرجل القادر على قهره .

ولمـا وضعت الحرب أوزارها وتضعضعت اركان امبراطورية نابوليون لم تشأ دزيره كلاري المضي الى استوكهلم للتمتع بانتصارات زوجها الحربية فبقيت في باريس . ويقال ان النـكبات التي حلت بنابوليون اثارت في فؤادها دفين عواطف قديمة لرجل الحظ والاقدار . ويروى أيضا انهـا لم تفتأ عن مرافقة الدوق دي ريشليو الى حيث يمضي ارادة استمالته الى سجين جزيرة القديسة هيلانة وبقيت زهاء عشر سنوات بعيـدة عن زوجها ولم تشخص الى اسوج الا في سنة ١٨٢٣ لتشهد حفلة خطبة ابنها لوحيد لـكريمة أوجين دي بوهرنه البكر . ولم تنتجع تلك الربوع الا على أمل الرجوع الى قصرها بشارع انجو لتستأنف الايام السعيدة التي قضتها فيه .

الا انّ مقتضيات مركزها كزوجة وأم وملـكة قضت عليها بالبقاء في استوكهلم فعاشت فيهـا سبعا وثلاثين سنة وكانت تحن دائما الى باريس وتأسف على عدم تمكنها من العودة اليهـا . وقضت تلك السنين في اعمـال البر والخير كعيادة المرضى وتعهد المساكين واغاثة الملهوفين .

وفاجأتها المنية في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٠ ولها من العمر ثمانون سـنة وكان زوجها قد سبقها الى القبر قبل ست عشرة سنة وكان بعد سنة ١٨١٥ ان اسوج



كمبرن فى واترلو

قررت الابتعاد عن التدخل في الشؤون الاوربية والاقتصار على النظر في شؤونها الداخلية . فاظهر برنادوت أو شارل جان انه من مشاهير الرجال الاداريين السياسيين كما كان معدودا من كبار القادة المحنكين . ولما حضرته الوفاة في سنة ١٨٤٤ بعد ملك دام ستا وعشرين سنة وسلطة فعلية دامت احدى وثلاثين سنة خلف لابنه أسكار الاول بلادا عامرة زاهرة تهطل عليها سحائب الخير ويدر عليها الرزق .

وظلت الامة الاسوجية سائرة في طريق الحضارة والعمران في عهد شارل الخامس عشر واسكار الثاني نجل اسكار الاول وغستاف الخامس ملكها الحالي .

نابوليون الاول وحرب روسيا

وضع الكونت لاون تلستوي الكاتب الروسي المشهور كتابا بعنوان « نابوليون وحرب روسيا » وصف فيه فظائع تلك الحرب الهائلة باسلوب انتقادي خطأ فيه مزاعم معظم المؤرخين الفرنسويين والروس الذين أسهبوا في الكلام عن تلك الحرب وسفه آراءهم من مثل ايجاد مؤرخي الفرنسويين اعذارا لعاهلهم تنصله من تبعة تلك الحملة التي هلكت فيها مئات الالوف من البشر وأنفقت في سبيلها القناطير المقنطرة من المال ومثل ادعاء مؤرخي الروس ان قيصرهم وقادة جيوشه تمكنوا بدهائهم من القاء الفرنسويين في تلك الورطة التي فغرت فاها وابتلعتهم . ولما كان تلستوي ينظر الى نابوليون بغير المقلة التي ينظر بها اليه السواد الاعظم من بني الطينة أحببنا ان ننقل الفصل الاخير من الكتاب المذكور وننشره على علاته قال تلستوي :

نابوليون والاسكندر الاول

اذا جارينا المؤرخين زاعمين معهم ان الرجال العظام يسيرون بالانسانية الى غايات معلومة وأن الموازنة الاوربية وانتشار الافكار الثورية وعمران البلاد وغير ذلك من الاغراض تتعلق بعظمة الدولتين الروسية والفرنسوية

تعذر علينا والحالة هذه ان نفسر معاني الحوادث التاريخية من دون ان نجعل للصدفة والدهاء شأناً فيها . ولو كانت الغاية من الحروب الاوربية التي شبت نيرانها في مفتتح هذا القرن (التاسع عشر) اعلاء شأن الدولة الروسية لأمكن ادراك تلك الغاية بغير الحروب التي سبقتها وبغير تلك الغزوة .

ولو كانت عظمة فرنسا الضالة المنشودة لاستطيعت اصابتها بغير الثورة والامبراطورية .

ولو كان الغرض الذي يرمون اليه نشر الافكار الثورية لكانت الكتب اسهل منالا له من الجنود

ولو كان رفع منار العمران الحاجة التي يطلبونها لسهل عليهم قضاؤها بذرائع انجع من اهلاك عباد الله ونهب اشيائهم .

ولماذا جرت الحوادث في هذا المجرى ولم تجر في غيره ؟

ان التاريخ يجيب أن الصدفة أوجدت الحالة فاستفاد منها الدهاء ولكن ماهي «الصدفة» وما هو معنى لفظة «دهاء» ؟

إن كلمتي صدفة ودهاء لاتعبران عن شيء موجود في الحقيقة وهذا هو السبب الذي يجعل تحديدها متعذرا .

فهما لاتدلان الا على طريقة واحدة يستعان بها على ادراك حقائق الامور فانا اجهل مثلا سبب هذا الحادث ويجري في وهمي اني اعجز عن فهمه ومن جراء ذلك لاأعالج الوقوف على كنهه فأقول ان الصدفة أوجدته .

اني ارى قوة تنتج عملا لاينطبق على صفات البشر المألوفة وحينما تصعب علي معرفة سبب تلك القوة اقول ان هذا ضرب من ضروب الدهاء .

ان الخروف الذي يضعه الراعي في كل مساء في حظيرة خاصة ويقدم له طعاماً وافراً يفوق من جراء ذلك رفاقه في السمن ويبين لاولئك الرفاق ان في امره شيئا من الدهاء على ان الحقيقة هي ان ذلك الخروف بدلا من ان يدخل في كل مساء الحظيرة العامة مع رفاقه يفرز في حظيرة خاصة يقدم له فيها العلف . وحينما يسمن ذلك الخروف ينحر ويباع للجزار فيؤثر ذلك الامر في باقي الغنم ويبين لها انه نتيجة من نتائج الدهاء المقرون بسلسلة من سلاسل الصدف الغريبة .

ولولم تكن الغنم تعتقد ان كل مايجري يرمى به الى غايات تتعلق بها دون

سواها ولو زعمت أن الحوادث الطارئة تجري الى غايات مجهولة الحقيقة لتجلت لها في الحال وحدة في العمل وتعاقب منطقي في كل مايطرأ على الخروف المسمن .

ان الغنم وان لم تدرك الغاية من تسمينه تدرك انه لم يحدث شيء مما حدث للخروف من باب البداهة ولا تحتاج الى تفسير معنـاه الى الالتجاء الى الصدفة او الى الدهاء . ونحن لا نكتشف في حياة الاشخاص المذكورين في التاريخ تعاقبا منطقيا للحوادث التي تقتضيها الضرورة الا حينما نعرض عن معرفة غاية الاشياء الاخيرة باعترافنا ان فهمنا يقصر عن الوصول اليها . فحينئذ يتجلى لنا سبب التفاوت بين اعمالهم ومقدرة الاشخاص العاديين ولا نظل البتة محتاجين الى الاعتقاد بكلمتي صدفة ودهاء ، وبناء عليه نقول انه يكفينا ان نعتقد انا نجهل الغرض من حركات الشعب الاوربي وانا لا نعلم الا الحوادث الناشئة عن المجازر التي جرت في فرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا وان الداعي لتلك الحوادث هو زحف الشعوب الغربية الى الشعوب الشرقية والعكس اي زحف الشعوب الشرقية الى الشعوب الغربية . وحسبنا الاعتقاد بهذه الامور حتى لانظل نجد شيئا من الدهاء والشذوذ في صفات نابوليون والاسكندر الاول ولا نبقى نعتبر ذينك العاهلين الا رجلين كسائر الرجال ولا نبقى فقط محتاجين الى ان نفسر بالصدفة معنى الحوادث الصغيرة التي صيرت ذينك الرجلين في الحالة التي كانا عليها بل يتضح لنا بجلاء ان تلك الحوادث الصغيرة لم يكن بد منها .

وحينما نهمل أمر المسير الى الغاية النهائية ندري انه كما يتعذر وجود ازهار وبذور لنبات من النباتات غير الازهار والبذور التي له يتعذر وجود شخصين من الاشخاص الذين يذكرهم التاريخ يستطيعان على مثال الاسكندر الاول ونابوليون من مفتتح حياتهما الى مختتمها ان ينهضا كل النهوض باعباء المهمة الملقاة مقاليدها اليهما .

ان السبب الاصلي للحوادث الاوربية في فاتحة هـذا العصر منشأه الحركات الحربية التي أجرتها في بدء الامر الشعوب المحتشدة للزحف من الغرب الى الشرق وفيما بعد من الشرق الى الغرب .

كان بدء هذه الحركة في الغرب وكانت الامور الآتية تدعو الشعوب الغربية الى الاغارة على الديار الروسية والتوغل فيها حتى موسكو .

١ — ان تلك الشعوب كانت متكاتفة تكاتفاً حربياً يمكنها من تلقي صدمة مجموع الشعوب الحربية الشرقية.

٢ — انها نبذت كل تقاليدها وعاداتها .

٣ — انها ائتمرت لاجراء تلك الحركة الحربية بأمر رجل تمكن من تزكية نفسه وتبرئة ساحتها باستعاذته بالكذب والنهب والقتل لادراك غايته . وان الثورة الاصلية الصغيرة المنتمية الى الثورة الفرنسوية الكبرى تبددت من جراء صغرها . وتغيرت التقاليد والعادات فتألفت شيئاً فشيئاً جماعة جديدة ونشأت معها تقاليد وعادات جديدة وفي ذلك الوسط نهض للاضطلاع بمهمته الرجل الذي ساقته الاقدار يوما من الايام الى ترأس الحركة وحمل إعباء مسؤولية الحوادث التي توالت . ان ذلك الرجل الذي لم تكن له مبادىء ولا عادات ولا تقاليد ولا اسم والذي لم يكن فرنسوياً هادنته الاحداث مهادنة غريبة وعرضية فنال ماوصلت اليه يده في أول الامر وتدخل مع جميع الاحزاب التي كانت تلقي الشقاق في فرنسا من دون أن يعتصم بحبل واحد منها وكان من أمره انهم رفعوه الى أعلى درجة .

ان جهل المحيطين به وضعف خصومه وعدم الاعتداد بهم واخلاصه في الكذب وضيق دائرة عقله الذي تكتنفه الدعوى دفعت ذلك الرجل الى تولي زعامة الجيش .

وان حسن الانتظام في جيش الحملة الايطالية وما أبداه العدو من الرغبة عن القتال وثقة ذلك الرجل بنفسه وجرأته الوهمية كانت مرقاة الى مجده العسكري وقد رافقته في كل شيء صدف سعيدة على زعم بعضهم .

وكان أولياء الامر والنهي في فرنسا ينظرون اليه شزراً . الا أن تلك المعاملة ساعدته على نيل رغائبه .

على أن المساعي التي بذلها لتغيير الخطة التي تحرى المسير عليها حبط الواحد منها بعد الآخر فالدولة الروسية أبت أن تدخله في خدمتها والدولة العثمانية نبذت ماعرضه عليها من الخدمة

وفي حرب ايطاليا كان غير مرة الخطر أدنى اليه من قاب قوسين بيد أن أحوالا غير منتظرة أخرجته من تلك الورطة الوبيلة .

ان الجنود الروسية التي كانت قادرة على تقويض أركان مجده بجميع أنواع التدابير السياسية لم تطأ أوربا بأقدامها بمدة بقائه فيها .

ولدن رجوعه من ايطاليا وجد الحكومة الفرنسوية في حالة من الانحلال تقضي على الاشخاص المتألفة منهم بأن يتواروا أو يهلكوا فكان الخروج من تلك الحالة المصحوبة بالخطر على نابوليون قد عرض من غير سعي ولا تمهيد وكان ذلك الامر قد افضى الى حملته الى افريقيا . وهي حملة لا محل لها من الاعراب وقد دلت على حماقته .

وعادت الصدفة الى خدمته بنوع عجيب فان مالطة المعتبرة منيعة جداً استسلمت اليه بلا حرب وان عزائم نابوليون التي لا تخلو من التغرير بالنفس كللها النجاح .

وترك أسطول العدو أي أسطول البريطانيين جيشا برمته يمر في عرض البحر على أنه بعد قليل من الحين لم يأذن لمركب وان زورقا أن يمر على متن اللجة

وفي افريقية ساق كثيرا من الفظائع الى قوم عزل على التقريب وكان الرجال الذين أتوا تلك المنكرات ولا سيما زعيمهم يزعمون أن ما أجروه عظيم وجميل وأنهم يجنون من أدواحه ثمار المجد . وان مآثرهم ومآتيهم الخطيرة تحكي مآثر قيصر الروماني والاسكندر المقدوني ومآتيهما

وان تصوراته الوهمية بالمجد والسؤدد التي لم يكن من شأنها فقط الاحجام عن اقتراف الجرائم بل الافتخار بها والنسبة اليها معنى يفوق الطبيعة والتي ستكون هادياً لهذا الرجل ولجميع مريديه وأشياعه أطلقت حريتها للاستعداد في افريقية :

وقد أفضى الى الفوز كل ما عالجه فان الطاعون تجاوزه ولم يعتبر قتله الاسرى جناية تلصق به

وان انطلاقه المعجل الوهمي الخالي من سبب موجب والدال على النذالة لتركه وراءه رفاقه في حال الضيق عده له بعضهم فضيلة وقد مكنه الاسطول البريطاني مرة ثانية من النجاة .

فحينئذ انبهر من تلك الجرائم التي فتحت في وجهه باب السعادة وانتهى الى باريس من دون أن تكون له غاية مقررة فالحكومة الجمهورية التي كانت منذ سنة

من الزمان تستطيع اهلا له بلغت موقفا من الانحلال أوصلها الى شفير الدمار وكان حضور ذلك الرجل الذي لاينتمي الى حزب من الاحزاب مدرجة لارتقائه الى مكانة عالية ولم يكن قد رسم له خطة ما بل كان يخاف كل شيء الا أن الاحزاب اعتقدت ان فيه نجاتها ولذلك التمست مساعدته .

فهو وحده بما جال في خاطره من أوهام المجد والعظمة وما ساوره من تلك الاحلام في ايطاليا وفي مصر وما كان فيه من الاعجاب بنفسه والجرأة على ارتكاب الجرائم والاخلاص في الكذب يستطيع أن يحقق تلك الحوادث الموشكة أن تتم .

وكان هو الشخص اللازم للحلول في المركز الذي يتوقعه وقد اشترك بغير ارادته ومع فقدان الخطة الواجب الجري عليها ومع ما هو عليه من التردد . ومع ما أتاه من الهفوات في تدبير مكيدة يراد بها القبض على أزمة السلطة فكان الفوز موالياً له .

فدفعوه الى وسط جلسة عقدها الديركتوار فذعر وصمم على الهرب لتوهمه أنه قد هوي الى وهدة العطب وادعى انحراف الصحة . وفاه بكلمات خالية من المعنى كادت تكون القاضية عليه

ولكن الاشخاص المؤلفة منهم حكومة فرنسا في ذلك العهد بعد ما كانوا قبل ذلك الحين كبار النفوس وراجحي الحصاة شعروا في تلك الساعة بأن دورهم انقضى ، وكانوا أشد اضطرابا من نابوليون نفسه ففاهوا بخلاف مايجب عليهم التفوه به للمحافظة على السلطة وخذل المختلس .

ان الصدفة أو بالحري ملايين من الصدف ساقت اليه السلطة وان جميع الناس قد اتفقوا على تثبيت تلك السلطة كأنهم قد تفاوضوا في ذلك الامر وقد أوجدت الصدفة ضعف أخلاق أعضاء الديركتوار الذي حملهم على الخضوع لنابوليون .

ان الصدفة منحت بولس الاول تلك الاخلاق وجعلته يعترف بسلطة نابوليون

ان الصدفة كادت له تلك المكيدة التي وطدت صرح سلطته بدلا من نقض دعائمها

ان الصدفة اسلمته البرنس دنغين ومكنته من الفتك به بنوع غير منتظر وقد برهن هذا العمل أكثر من سواه للملأ طراً على ان لنابوليون الحق باجرائه لان القوة بجانبه

ان الصدفة جعلته يستنفد الميسور لتأليف حملة يغزو بها انكلترا . وهو مشروع يأول الى هلكته . ويتعذر وضعه موضع الاجراء . بيد أنه وقع على غير انتظار على ماك والجيش النمساوي الذي استسلم من غير ما حرب ولا قتال .

ان الصدفة والدهاء جعلاه ينتصر في استرلتز . وقد اعترفت بالصدفة جميع الامم وأوربا بأسرها ما عدا بريطانيا التي لم تشترك في الحوادث الموشكة أن تحدث مع ما كانت جرائم نابوليون تثيره في أفئدتها من النفور والفظاعة بسلطته واللقب الذي انتحله لنفسه وأوهام المجد والعظمة التي وجدها جميع الناس جميلة ومعقولة .

وكانت قوات الغرب المتهيئة للقيام بحركة في المستقبل تعظم وتتوطد أركانها بعد ما كانت قد رمت بأنظارها غير مرة الى الشرق في السنوات ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٩ .

وفي سنة ١٨١١ اتحدت العصابة التي تألفت في فرنسا مع شعوب الوسط وأنشأت مجموعا هائلا .

وكان مع تعاظم ذلك المجموع تتعاظم تبرئة ذلك المترئس عليه من تبعة المسؤولية .

وكان أن ذلك الرجل في خلال السنوات الست التي جرى فيها الاستعداد للحركة العظيمة تولى الملاقات بجميع عمال أوربا وملوكها وأقيالها . وأن الامراء الذين فقدوا تيجانهم لم تكن أوهامهم المعقولة مما تقاوم به الاوهام غير المعقولة التي ابتدعها نابوليون لنيل العظمة والمجد وقد بادر الواحد منهم بعد الآخر ليبينوا له انهم ممن لا يعتد بهم .

وأرسل ملك بروسيا زوجته الملكة الى ذلك الرجل العظيم طمعا بنيل الحظوة لديه واعتبر عاهل النمسا أن ذلك الرجل يوليه نعمة كبرى باقترانه بابنته وجعل البابا حارس القداسة في البشر الدين قاعدة لتمثال مجد ذلك الرجل الداهية .

وان كل ماحف بنابوليون أوحى اليه المنهاج الذي جرى عليه في تمثيل دوره وجعله يلقي على عاتقه عبء مسؤولية الحوادث الحاضرة والمستقبلة بدلا من أن يتهيأ نفسه لتمثيل الدور المقضي عليه تمثيله .

ولم يأت عملا من الاعمال ولم يقترف جريمة من الجرائم ولم يباشر سرا من الاسرار البسيطة الا وبادر الناس الى التنويه ببسالته .

ولم يجد الالمان شيئا يروقه أفضل من الاحتفال بتذكار معركتي ايانا وارستاد ولم يكن هو وحده عظيما بل كان أجداده وأخوته وأولاد اخوته وأصهاره جميعهم عظماء . وقد آل كل شيء بسهولة الى أن يزيل منه آخر أثر من آثار العقل ويعده لتمثيل دوره الهائل . ولما تم له الامر كانت جميع القوى مستعدة لمناصرته .

وشرع في غزو المشرق فانتهى الى الغاية الاخيرة وهي موسكو فاستولى على تلك العاصمة وساق الى الجيوش الروسية متالف لم يك قد ساق مثلها الى الجيوش المعادية له من عهد استرلتز الى اليوم الذي وقعت فيه موقعة وغرام .

وعوضا عن الصدفة والدهاء اللذين جعلاه ينتقل من انتصار الى انتصار جاريا إلى الغـاية المنصوبة له تلقى فجأة مجموع صدف مما كسة له من الركام الذي اصابه في بورودينو الى الشرارة التي أضرمت النار في موسكو والرد القارس في روسيا . وبدلا من الدهاء نجد فيه ضعفا وصغارة لم يذكر التاريخ ما يماثلها .

وكانت الغزوة تتقدم ولـكن بشكل معاكس وصارت جميع الصدف معادية له بعد ما كانت من أحلافه . وحينئذ شهدنا حركة مخالفة موجهة من الشرق الى الغرب تشابه كل المشابهة الحركة التي سبقتها .

وقد أعلنت حركة جديدة بمساعي كثيرة جرت في السنوات ١٨٠٥ و١٨٠٧ و١٨٠٩ فتألفت عصابة كالعصابة الماضية وجعلت تـكبر حتى صارت جماهير غفيرة وتألبت شعوب أوربا الوسطى عند تلك الحركة المعتبرة تكرارا للحركة السابقة لانه لم ينقصها شيء لتماثلها مماثلة تامة من مثل التردد في أثناء الطريق وازدياد السرعة عند الاقتراب من الغـاية . وأدركت باريس وهي الغاية الاخيرة لتلك الحركة وكان من وراء ذلك انكسار نابوليون وجيوشه

وان نابوليون ذاته لم يبق شيئـا مذكورا وصارت أعماله الاخيرة تستثير الشفقة عليـه والنفور منه . ومع ذلك بدت صدفة جديدة تعجز الافهام عن ادراكها فان المتحالفين كانوا يبغضون نابوليون ويعتبرونه سببا لجميع مصائبهم .

وكان يقضى عليهم في ذلك الحين عند زوال مهابته وتقلص ظل قوته واتهام الناس اياه باقتراف الجرائم والغدر بان ينظروا اليه بالمقلة عينها التي نظروا اليه



نابوليون يستسلم لبريطانيا العظمى

بها قبل ذلك العهد بعشر سنوات وبعده بسنة واحدة أي أن يروا فيه لصا نبذته الشريعة الا أن صدفة غريبة لم تجعل الناس يعتبرونه ذلك الاعتبار ولكنه لم يكن قد أكمل تمثيل دوره بعد فان ذلك الرجل المعتبر لصا نبذته الشريعة أرسل الى جزيرة تبعد يومين عن فرنسا وأعطي تلك الجزيرة وعين لخدمته خفراء وخصص لنفقاته ملايين من الفرنكات لاسباب لا يعلمها الا الله .

وأخذت حركة تلك الشعوب تسكن وهدأت الامواج الثائرة وعقبها في ذلك البحر الساكن تموجات لطيفة ركب متنها سياسيون توهموا أن الفضل في ذلك السكون مرجعه اليهم .

وعاد البحر الى الهيجان فاعتقد أولئك الساسة أن الخلاف الطارىء بينهم أصل لذلك الهيجان وباتوا يتوقعون نشوب حرب بين مواليهم وبانت لهم تلك الاحوال مأزقا لامخرج منه . بيد أن الامواج التي شعروا بدنوها منهم لم تأت من الجهة التي انتظروا مجيئها منها بل كانت آتية من باريس .

وان ذلك الرجل الذي القى فرنسا في وهدة الخراب عاد اليها وحده من دون أن تصحبه الجنود ومن دون أن يكون لديه خطة معروفة يسير عليها وكانت حياته تحت رحمة كل خفير يلقاه في طريقه ولكنه بصدفة غريبة لم يمس بأذى . وهرع القوم لملاقاته باحتفاء خلافا لما كان منتظرا منهم . وطبقت أصواتهم الفضاء بالتهليل لذلك الذي كانوا بالامس يقذفونه باللعنات والذي سيعودون بعد شهر من الزمان الى لعنه . ولم يقع ذلك الا لانهم كانوا لايزالون محتاجين اليه لاتمام الفصل الاخير . انتهى الفصل وتم الدور الاخير وأمر الممثل أن يخلع لباسه وينزع عنه خضابه لاستغنائهم عنه .

وهو نفسه أظهر للملأ طرا بكل وضوح حقيقة ذلك الشيء الحقير الذي اعتبره البشر قوة وقت ما كانت يد الحوادث غير المنظورة تقوده .

وان مدبر الكائنات الحقيقي لما فرغ من تلك الرواية أمر أهم ممثل فيها أن ينزع عنه ما كان متنكرا به وأرانا اياه قائلا : «انظروا ذلك الذي آمنتم به واعلموا الآن اني انا الذي جعلتكم تسيرون على الطريق الذي سلكتموه وليس هو !»

الا أن البشر الذين تعمي بصائرهم قوة الانجذاب لبثوا ردحا من الدهر وهم لايدركون الحقيقة .

وإنا لنجد أمورا كثيرة مقدرة في حياة الاسكندر الاول وهو الذي ترأس الحركة المعاكسة أي الحركة التي حدثت من الشرق الى الغرب . فما هي الصفات المزدان بها ذلك الرجل ليتمكن من تصيير ماسواه نسيا منسياً وترأس تلك الحركة ؟

لقد ازدان ولامراء بعاطفة العدالة وعني عناية حقيقية بشؤون أوربا ولم يتعلق باذيال أمور لاطائل تحتها . وقد تحلى بصفات أدبية تفوق صفات الملوك المعاصرين له وأصاب اخلاقا لطيفة تستميل اليه القلوب وشعر باهانة شخصية نالته من نابوليون .

وكانت جميع هذه الاشياء المميزة متجمعة في الاسكندر الاول وقد حشدتها الصدف الكثيرة أو الصدف المزعومة التي حدثت في ماضي حياته وساعدها كل شيء كتربيته واصلاحاته المبنية على أساس الحرية والمستشارين الذين ضافروه . بصرف النظر عن استرلتز وتلست وارفرت .

ولاذ هـذا الرجل في أثناء الحرب الوطنية بعقوة الخمول للاستغناء عنه . ولكنه لما أصبحت الحرب الاوربية مما لايستغنى عنها برز في المواقف الخطيرة الى الموقف المعد له ليضم متفرق الشعوب الاوربية ويسير بها الى الغاية المعروفة وحينئذ أدركت تلك الغاية . وبعد الحرب الاخيرة التي انشبت في سنة ١٨١٥ كان لدى الاسكندر أعظم قوة يستطيع الانسان الحصول عليها

وماذا فعل بتلك القوة الهائلة ؟

ان الاسكندر الاول معيد السلم الى أوربا والهابة في صدره منذ حداثته نسمات الرغبة الحقيقية في جر الهناء والراحة الى رعيته والمعتبر في مقدمة الذين أدخلوا الى الديار الروسية الاصـلاحات الموسومة بسمة الحرية ذلك العاهل القابض بيديه على عنان سلطة مطلقة كان يستطيع بالحقيقة أن يعمل لخير رعيته ونجاحها . وماذا يبدو لنا الآن ؟ لما كان نابوليون في منفاه يرسم خططاً كاذبة ووهمية ليبين السبيل الذي يمكنه أن ينتهجه لسعادة الانسانية لو كانت له السلطة على ذلك كان الاسكندر المحرز تلك السلطة ينهض باعباء مهمته وهو شاعر بيد الله على قلبه ويعلم ان تلك السلطة معدودة من جملة الاباطيل ولذلك

أعرض عنها تاركا اياها في أيدي أشخاص محتقرين وهو لاينى عن ترديد هـذه الكلمات : «ليس لنا المجد ولـكن لك وحدك»

أنا انسان نظيركم فاتركوني أعيش عيشة رجل بسيط لأتمكن من التفكير بنفسي وبالله .

وكما أن الشمس أو كل ذرة من ذرات الاثير تنشيء كرة مستقلة بذاتها وهي لاتؤلف سوى ذرة من ذلك الـكائن العظيم الذي يعجز الانسان عن الوصول اليه فان لـكل انسان غاية خاصة وفي الوقت عينه يخدم الغاية المشتركة التي يقصر العقل البشري عن الوصول اليها .

تقع النحلة التي تطير عن الزهرة على ولد وتلسعه فيصير الولد يخاف النحل ويتوهم ان غاية النحل في هذا العالم لسع الناس

يعجب الشاعر بالنحلة التي تمتص من كأس الزهرة ويصير يتوهم أن غاية النحل امتصاص شذى الازهار .

يلاحظ المشتغل بتربية النحل النحلة وهي تجمع اللقاح وعصير النباتات لتغذية اليعسوب وصغار النحل فيتوهم أن غاية النحل بقايا الجنس

يلاحظ النباتي ان النحلة تنقل اللقاح من احد النباتات الى عضو التأنيث في زهرة اخرى لتلقيحها فيتوهم ان غاية النحل التلقيح

يلاحظ نباتي آخر أن النحلة تساعد على نقل النباتات من مكان الى مكان آخر فيتوهم ان غاية النحلة نقل مثل تلك النباتات .

ولـكن الغاية الاخيرة للنحلة ليست في الغايات الاولى والثانية والثالثة التي مر بيانها والتي يستطيع عقل الانسان اكتشافها .

وكلما أكثر المرء من البحث عن حقيقة تلك الغاية الاخيرة تجلى له ان عقله يرتد كليلا عن الوصول اليها • ولا يمكنه الا أن يلاحظ العلاقـة المشتركة بين حياة النحلة والحوادث الطبيعية الاخر . فهو يبقى محصوراً في الدائرة الضيقة عينها للبحث عن غايات الحوادث والاشخاص المذكورين في التاريخ فيظل عاجزاً عن البلوغ الى الغاية الاخيرة .

نابوليون الثاني

أو

ملك رومية

في اليوم العشرين من شهر مارس سنة ١٨١١ اكتظت أسواق باريس منذ الفجر بجمهور غفير من الناس كان يهرول ميمما قصر التويلري لعلمه بدنو ميعاد تمخض العاهلة قرينة العاهل نابوليون الاول . وكانت نواقيس كنيسة نوتردام وجميع كنائس العاصمة تقرع قرعا متواصلا اظهاراً لابتهاج الباريسيين بقرب ولادة وارث أو وارثة لعرش عاهلهم الكبير . وعند الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من صباح ذلك اليوم سمع قصف مدفع الانفاليد فكان له في القلوب وقع لم يشعر بمثله القوم في تلك المدينة عند سماعهم صوت ذلك المدفع مع تعودهم سماعه غير مرة وكان عدد طلقاته ثلاثا وعشرين طلقة وهو دليل على أن المولود ذكر ينتظر منه أن يكون وارثاً لمجد ضخم وولي عهد ممالك كثيرة. فعلت أصوات التكبير والتهليل وتعانقت الجماهير وترنمت باناشيد الفرح وذرفت الدموع من فرط الاغتباط وعمت العاصمة بخمرة الجذل .

ولم يرتب أحد في أن فرنسا طراً ستبتهج في نوبتها بتلك البشرى السارة لانه ولد لنابوليون العظيم ولد ذكر أطلق عليه اسم « ملك رومية »

ولما شاهد الغلام النور خافوا عليه كثيرا لانه لبث بضع دقائق جامداً لا يأتي أدنى حركة كأنه ميت ولكنه ما عتم ان صار يزعق زعقات متوالية وأخذ يتحرك شيئا فشيئاً . وقال واحد من الذين عاينوه في تلك الساعة أن احمرار وجهه الشديد كان يدل على الجهد الذي عاناه في دخوله العالم وأن بكاءه افعم الفؤاد بهجة لدلالته دلالة واضحة على القوة والحياة . وبينما اصوات الفرح تصعد من ساحة الكاروسل مطبقة الفضاء تناول نابوليون غلامه بين يديه وحدق بباصرتيه فى

وجهه ولم يقو على حبس عبراته من الانحدار على خديه .

وتقضي التقاليد في فرنسا أن تتم ولادة أولياء العهد على مرأى من الشهود ولذلك كان في غرفة الامبراطورة ماري لويز ثلاثة وعشرون شخصاً ونظم صك الولادة رينيو دي سان جان دنجلي وزير الحكومة الامبراطورية ووقعه الدوق دي ورتسبورغ شقيق عاهل النمسا والبرنس أوجين بصفة شاهدين . ووقعه أيضاً نابوليون والملكة جوليا والملكة هرتنس وبولين وكمباسارس وغيرهم من الامراء والاميرات . وعند الساعة الحادية عشرة قدمت تسبحة الشكر لله في قصر التويلري . وفي أثناء تلك التسبحة الاحتفالية أطلقت المدافع وقرعت النواقيس بلا انقطاع . وزينت الاسواق والشوارع بالاعلام والبنود وانطلقت عقيلة بلانشار الطيارة المشهورة بالمنطاد من المدرسة الحربية لتذيع تلك البشرى المبهجة في جميع الانحاء الفرنسوية ولكن هبت ريح شديدة اضطرتها الى الوقوف عند مو . وأنفذت الوفود الى الحكومات الاجنبية والمدن الكبيرة في الامبراطورية الفرنسوية كرومية وأمستردام وهمبورغ وتريستة لان جميع هذه المدن كانت في ذلك العهد معدودة من جملة ممتلكات فرنسا . وفي الساعة التاسعة مساء من اليوم عينه رشم الطفل في معبد التويلري الكردينال فش خال نابوليون والكردينال البرنس دي روهان المرشد الروحي الاكبر بحضور جمع غفير من السفراء والمشيرين والاساقفة وأصحاب المقامات العالية ولم تسرف صحف تلك البلاد في وصف مثل تلك الحفلات ولم تتعود التزلف والتملق . وعلاوة على ذلك لم يفسح المجال في الجرائد لنشر مثل تلك التفاصيل وأذاعت صحيفة الديبا في الايام التالية النشرات الصحية الآتية بتوقيع كرفيزار وبوردوي وآفبني :

« التقم جلالة ملك رومية بلهفة وغير مرة ثدي مرضعه وقد زالت آلام المغص التي شعر بها جلالة ملك رومية في أثناء هزيع من الليل . وقضى جلالة ملك رومية نهاراً جميلا وجميع أعضاء جسمه تنهض بأعباء وظائفها حق النهوض. »

ولم يصدر الاطباء من اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس نشرات صحية عن ملك رومية . وفي ٢٨ من الشهر عينه استطاعت ماري لويز النهوض من سريرها . وضرب اليوم الثاني من شهر ابريل موعداً لتنصير الطفل ولكنهم أرجأوه

الى اليوم التاسع منه وهو عيد الثالوث الاقدس . وقد تمت حفلة العماد في الساعة الخامسة بعـد الظهر . وكان ذلك النهار بهجاً جدا . وانتشرت الجماهير الغفيرة وراء ثلاثة صفوف من الجنود من ساحة الكنكرد الى كنيسة نوتردام . وحكت تلك الحفلة حفلة التتويج . ولما تقدم كبير المنادين الى الوسط وصاح بصوته الجهوري ثلاث مرات : « فليحيي ملك رومية ! » ردد الحضور ذلك الهتاف وبلغ الصياح معظمه حين تناول نابوليون ولي عهده ورفعه بذراعيه فوق رأسه وأراه للجميع .

وقرر نابوليون منذ شهر فبراير سنة ١٨١٠ —وكان ذلك قبل زواجه الثاني— أن يطلق على ولي عهده اسم ملك رومية وقال نابوليون في ١٦ يونيوسنة ١٨١١ لمجلس شورى حكومته : « إن ولادة ملك رومية جعلتني أدرك وطري وضمنت مستقبل شعبي . » وبعد ما نشرت صحيفة الديبا هـذه الملاحظة وهي انه من أيام شارل السابع لم يولد ملك من ملوك فرنسا في عاصمة المملكة قالت : يجدر بنا أن نمعن النظر في تلك القوة الضخمة المستقبلة وذلك المجد الباذخ الآتي المعلق بهما على يد ملك رومية حظ شعوب كثيرة وحينئذ يمكننا أن نبين السبب الذي من أجله أبدى الناس في هذه الديار ما أبدوه من الابتهاج والفرح .

وهل يقوى أصحاب الوساوس والشكوك على نبذ الثقة بالمستقبل في مثل تلك الاحوال ؟ فليس ثمة حظوظ الحروب والانتصارات والغنائم والفتوح فان نابوليون في الحال التي صار اليها بعد ولادة ولي عهده بلغ درجة من العظمة لم يخطر له قط البلوغ اليها . فلم يبق في نظر الناس ذلك الجنـدي باهر أبصار الفرنسويين ببروق انتصاراته المتوالية ومذلل الدول الاوربية لدى سلطانه السامي الذي بل موطد دعائم حظه الميمون الواقفة عنده الاحلام حائرة ومحقق المقاصد المبنية على أسس الجرأة والاقدام . وقد صارت له منزلة بين الملوك وأسرهم . أوَ ليس هو القائل انه لا تنقضي عشر سنوات على عترته حتى يصير الناس يعدونها من جملة العتر العريقة في الشرف . وكأنه جرى في نفسه انه لا يكفيه ما أصابه من الدهاء والجد والحول والطول وما سنه من الشرائع والقوانين وما أخضعه من الشعوب والقبائل وما اعتدى به على الكنيسة حتى انه استمال اليه الحق سبحانه وتعالى أو ظهر عليه وجعله يبارك اقترانه بابنة القياصرة وان الله

وقد خلع نابوليون نائبه على الارض وألقاه في السجن واغتصب منه مدينة رومية عاصمته أظهر أنه راض عن انتصاراته وثبت أركان أعماله ووقى نابوليون والامبراطورية من تغير الدهر عليه وخيانة الحظ له بمنحه إياه ولداً ووارثاً وخليفة . ولكن ساء ما توهم ذلك العاهل وتوهم أنصاره ومريدوه فان المستقبل ليس له ولكن لله المبدي المعيد . . .

ولو مرت جميع هذه الامور في الحلم في خاطر ذلك الكورسيكي الملازم في المدفعية لاعترى مخيلته شيء من المس .

وكانت ماري لويز شديدة المحبة لابنها والتعلق به واليكم خلاصة ما كتبته في أثناء السنوات ١٨١١ و ١٨١٢ و١٨١٣ عن ثمرة أحشائها : « ان ابني مع صغر سنه عجيب بين اترابه فهو يضحك مقهقها وهو شديد الشبه بالامبراطور أبيه واعلل النفس بانه سيكون في مستطرف الحين نظير والده مجلبة للسعادة لجميع الذين يعرفونه ... ان ابني قوي البنية جميل الصورة وهو ينمو ويكبر في كل دقيقة ويزداد لطفا واظنني سمعته يلفظ كلمة بابا ... »

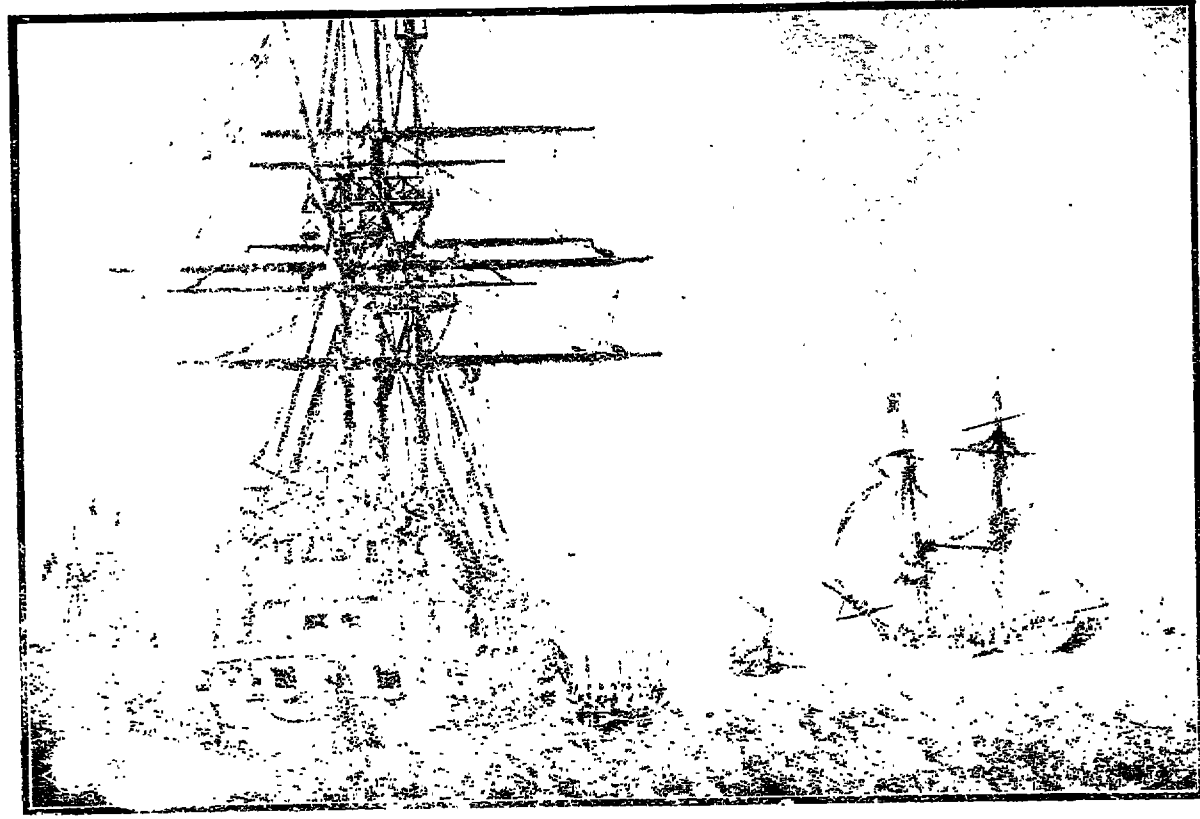
وأحبت ماري لويز ابنها كما أحبت زوجها حتى جاء حين انكرت فيه الواحد منهما واهملت العناية بالآخر . ولم تدر كيف تلاطف نجلها أو تحمله على ذراعيها أو تمازحه ليضحك . وجميع المقربين من الاسرة الامبراطورية شهدوا بما كان نابوليون يفشيه من اسرار المحبة الوالدية المقرونة بالبهجة والعجب والحرص . وان الذين لا يعرفون حقيقة طبيعة العاهل يقضون العجب من سماعهم مثل هذا الكلام المروي عن رقة عواطفه فان الدقائق القليلة التي كان يختلسها من مخالب الاعمال المستغرقة معظم وقته كان يقضيها في معاشرة امرأته وابنه على مثال الآباء الحنونين والازواج البارين . وقد قالت ماري لويز ان الامبراطور كان شديد العناية بابنه فانه كان يحمله على ذراعيه ويلاعبه ويداعبه ويريد أن يطعمه وينقله على ركبتيه من الواحدة الى الاخرى ويلاعبه باللعبة المعروفة « بالغميضة » ويغمس احدى أصابع الطفل بالمرق ويدهن خديه بالمربى . أجل أنه لم يكن خفيف الحركة في معالجة هذه الامور ولكنه كان يفعلها ببساطة وحنان أبوي بحيث لا ينفر منها الطفل بل يسر بها ضاحكا ومصفقا بيديه ومادا ذراعيه الى عيني والده . ولم يكن شيء من الاشياء ممنوعا عن ملك

رومية فكان يدخل كل مكان في القصر غير مستثن غرفة الامبراطور الخاصة فيفتح بكل جرأة ذلك الباب الذي يقف الملوك أمامه منتظرين اذن الامبراطور بالدخول عليه ويقلب الاوراق والقطع الخشبية التي يستعملها نابوليون لتنظيم الخطط الحربية ويجلس على المصورات . فيسر نابوليون سرورا عظيما عند رؤيته الغلام يفعل تلك الاشياء .

ولكن لسوء الحظ لم يكن نابوليون يقضي جميع اوقاته أومعظمها في قصره لان السنوات التي تلت ولادة ولي عهده كانت من أشد الازمنة عليه . وكان الغلام في أثناء تغيب والده ينم باسرار المحبة العميقة لعقيلة دي منتسكيو حاضنته التي كانت تقابله بالمثل :

وكتب منيفال عنه في أواخر سنة ١٨١٣ مايأتي : انه كان غلاما جميلا للغاية تبدو عليه علائم الصحة والقوة . وكان ادراكه ينمو نماء غريبا وكان رأسه مستديرا وشعره أشقر متجعدا وعيناه شديدتي الزرقة . وقد ورث من والدته لونها وفمها وشفتها السفلى المخصوصة باسرة هبسبورغ ولكن جبينه وذقنه كانا مماثلين لجبين والده وذقنه . وكان ميالا الى الابتهاج والهذر والتلطف والرقة ولكنه كان في الحين عينه سريع الغضب . ومما يروى عنه انه كان في ذات يوم يتقلب على حضيض الغرفة ويبكي بصوت عال فبادرت عقيلة دي منتسكيو واقفلت النوافذ فللحال صمت الغلام وسألها عن سبب اغلاقها النوافذ . فأجابته أتظن ان الفرنسويين يرضون بان يكون مليكهم نظيرك سريع الغضب ؟ ... فقال لها . أتظنين انهم سمعوني ؟ أن هذا الامر ليؤلمني كثيرا فاصفحي عني ياماماكيو (الاسم الذي كان يناديها به) وتأكدي اني لن أعود ابدا الى مثل هذا الامر .

وكان جميع الباريسيين يسرون به عند رؤيتهم اياه يمرح لاعبا في حديقة التويلري ولكنه كان يؤثر على تلك الحديقة حديقة سان كلود . وأهدته ملكة نابولي عربة صغيرة تجرها الغنم فكان هو يجرها بذاته ويفضل على كل ذلك مايختص بالجندية كعرض العساكر واقامة الخفراء في مراكزهم واتشاحهم بالبزات الرسمية ويميل ميلا غريزيا الى الجنود ويفتخر بثوبه الصغير المفصل على مثال ثياب الحراس ويرد برصانة التحية الجندية . وفي ٢٣ يناير سنة ١٨١٤ لما عزم العاهل نابوليون على تولي قيادة ما بقي لديه من الجنود لاضرام نيران المعركة الكبرى



ركوب نابوليون السفينة بروفون

جمع في قصر التويلري بحضرة ماري لويز وملك رومية ضباط الحرس الوطني وقال لهم :

« اذا دنا العدو من العاصمة فاني ا كل الى بسالة الحرس الوطني الامبراطورة وملك رومية ... زوجتي وابني ... »

وبعد يومين ودعهما وعانقهما للمرة الاخيرة .

وفي أثناء شهرين من الزمان اتى نابوليون اعمالا عجيبة من البسالة والدهاء صيرت معركة فرنسا أعظم معركة فانتصر عشر مرات على الروس والنمساويين والبروسيانيين على التعاقب ولكن لم يكن من سبيل الى الوقوف في وجه قوات تتجدد بلا انقطاع ولا يحصى لها عدد . وفي أواخر شهرمارس زحف المتحالفون الى مدينة باريس وفي الغد بلغ عددهم نحوا من مائة وخمسين ألفا ولم يكن لدى مرمونومرتيهومنسي الذين جمعوا شمل قواتهم المتبددةسوىخمسة وعشرين ألفا من المقاتلة . وجمع يوسف بونابرت مجلس الوكالة وكأن الامل بالنجاة من تلك الورطة أصبح مفقوداولم يعرف أحد مقر الامبراطور ولا العمل الذي يعمله . وارتأت الاكثرية انه من المقضي علىالامبراطورة وملكرومية الايبرحا العاصمة أبدا وقرأ يوسف كتابا انفذه اليه نابوليون في ٦ مارس يقول فيه : «اذازحف العدو الى باريس بقوات لاتستطاع مقاومتها فسير الى جهة اللوار الامبراطورة وابني . ولا تفارق ابني بل تذكر اني اؤثر ان أراه في نهر السين على رؤيتي اياه في ايدي اعداء فرنسا لان حظ استياناك الذي أسره الاغريقيون بان لي انكد من حظ سواه كما يروي التاريخ ... »

وسطر نابوليون في ٨ فبراير كتابا آخر مآله : « افضل نحر ابني على رؤيتي اياه يتربى في فينا كأمير نمساوي ولي حسن ظن بالامبراطورة فهي من رأيي..»

وقد انخدع نابوليون من هذه الجهة الا ان هذا الفكر اكثر من الاختلاف الى مخيلته فلم يشأ قط أن يصير ابنه رهينة ومع ذلك افضت التدابير التي لجأوا اليها الى عاقبة وخيمة لانه لو لم تغادر ماري لويز مدينة باريس في صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس ولو لم يفصل عنها يوسف بعد ظهر ذلك اليوم لما وقع مرمون صك التسليم ليل ٣٠ الى ٣١ منه ولكان نابوليون المسرع في

الزحف الى العاصمة انتهى اليها في الحين الملائم لان المسألة لم تكن تقتضي سوى بضع ساعات . . .

ولم يكن من سبيل الى الجدال في أوامر الامبراطور فالامبراطورة برحت القصر مع سليلها صباح ٢٩ مارس وكان انطلاقها شبيهاً بالفرار فمنذ تبلج الفجر تلبدت الغيوم في الافق وقرس البرد وكانوا قد هيأوا في عرصة قصر التويلري عجلات النقل ومركبات الركوب . وسرت حركة الناس والخيل كثيرا ملك رومية الواقف وراء نافذة من نوافذ رواق المرشالية .وعند الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين لما انتهى كل شيء وأرادوا أخذه جعل يبكي ويصيح ويقاوم مقاومة اليأس قائلا : لا تذهبوا بنا الى قصر رمبويه فانه ليس قصرا جميلا بل ابقوا هنا . . . فانا لا أريد أن اترك بيتي أو ان أهجره ...ففي غياب ابي أنا صاحب الامر والنهي

وعالج التخلص من بين ايديهم متعلقا بالاثاث وبما تصل اليه يداه كالستائر والباب ودرابزين الدرج . ولم تستطع عقيلة منتسكيو ولا عقيلة سوفلو (نائبة الحاضنة) ان تسكنا روعه فاضطر أحد الحجاب الى حمله بين ذراعيه لايصاله الى مركبة والدته . ولم يتمكنوا من تهدئة خاطره الا بوعدهم اياه بالرجوع به الى قصر التويلري بعد مدة قصيرة . أجل أنه يسهل التكلم الان عما جال في الخاطر من التكهن في ذلك الحين . وقد أبدى بوصه الملاحظة الآتية وهي ان غريزة ذلك الامير الحدث تكلمت بلهجة تخالف لهجة مستشاري الامبراطورية . وكان الموكب المؤلف من المركبات العشرين المرسوم عليها الشعار الامبراطوري وهي مركبات التتويج يجري كانه قافلة مهاجرين أو منفيين بين أصوات الجماهير المزدحمة كالبنيان المرصوص . ويصح أن يطلق على ذلك الموكب موكب مناحة الامبراطورية

ووقع نابوليون صك التنازل عن عرش الامبراطورية في ٦ ابريل وبرح فنتنبلو في ٢٠ منه مؤملا أن زوجته وابنه يوافيانه الى جزيرة البا في أقصر ما يمكن من الوقت بموجب عهد الملوك الرسمي وسافرت ماري لويز في نوبتها الى فينا في ٢٣ منه وكانت المناظر الجديدة التي تقع عليها عينا الغلام تبهجه وتسر خاطره ولكنه كان يقول من حين الى آخر لماذا لم يتركوني اعانق والدي مودعا اياه .

ولم تكد ماري لويز تعبر الحدود الفرنسوية حتى عادت الى حمل لقبها الاصلي أي ارشيدوقة نمساوية . واجتمعت في شنبرن باعضاء أسرتها الكثيري العدد

كاعمامها واخوالها وشقيقاتها وابناء اعمامها واخوالها وبناتهم وكانوا جميعهم يعتبرونها ابنة من بنات النبلاء حملتها الحماقة على عقد ذلك القران الذي لم يلبث أن افضى بها الى الافتراق عن زوجها . ولم يخطر لها قط أن تشخص الى جزيرة البا . ولم تجاوب على جميع الرسائل التي انتهت اليهـا من تلك الجزيرة ولم يكن يهمها سوى أمرين: الذهاب الى حمامات اكس للعناية بصحتها الثمينة والحصول من المؤتمر الموشك ان ينعقد على امارة أو دوقية أو قطعة أخرى من الارض . ومن اول يناير سنة ١٨١٥ انقطعت عن الكتابة الى نابوليون ومجاوبته على رسائله . وقد تولاها التبرم والذعر حين وافتها الانباء عن عودة زوجها الى فرنسا ونزوله الى البر في كان وناجت نفسها قائلة كيف السبيل الى التملص من ذلك الرجل الجريء وأعلنت انها بريئة من كل مايفعله زوجها وانها مستظلة بكنف حماية الدول . فكافأها المؤتمر الدولي على تلك العواطف النبيـلة بمنحه اياها دوقيات بارم وبلازانس وغواستالا من دون ان يكون لابنها ادنى حق بوراثتها .

وعاد نابوليون الى باريس ولـكنه قبل ان يدخلها كتب عدة رسائل الى ماري لويز وكان من جملة ما كتبه لها : « يالويز الحبيبة لايعوزني شيء سواك وسوى ابني . . . تعالي الي انت وابني. وانا آمل ان اعانقكما قبل نهاية الشهر... اني على حبل انتظارك انت وابني لغاية شهر ابريل »

ووصل الى ماري لويز كتب كثيرة بهذا المعنى من نابوليون ولـكنها لم تجاوبه عليها . ولما استأذن منها منيفال بالانصراف في مفتتح شهر مايو وسألها هل عندها شيء تكلفه بايصاله الى الامبراطور تأملت قليلا وقالت له : اتمنى له كل ما يمكنني ان اتمناه له من الخير . وكان نابوليون يغالب القنوط وكان مع ما لديه من الهواجس وشتى المهام يقضي ساعات طويلة بعد الظهر بصحبة منيفال ملقياً عليه كثيرا من الاسئلة التافهة .

ولقيت ماري لويز في واترلو وجزيرة القديسة هيلانة تعزية لها ماوراءها من تعزية . وارادت ان تطلب الطلاق والتحرر من قيد الزوجية ولـكنها لم تجسر على اتيان ذلك الامر . فهيأت جميع المعدات للحالة التي تخيرتها . وما ابطأت ان تعودتها وصارت تبتهج بها . وكانت تقضي معظم وقتها في بارم عائشة كماهلة في الدلال والعظمة بحيث صارت في مدة قصيرة على جانب عظيم من السمن . وكانت

تذهب كل ليلة الى الملعب لتشهد التمثيل وقالت انها في حال من السعادة لا تحسد عليها احدا من الناس . ومع ذلك كانت من حين الى آخر تكتب : « ان قلبي يقطر دماً حين افتكر ان عيني لم تكتحل من سنة من الزمان برؤية ولدي . . . ولا يمكنكم ان تدركوا مقدار ماشعر به من التنغص وقت ماافتكر باني لا القى لي بدا من ارجاء الحين الذي اتمكن فيه من معانقته . . . » وقد ثبت فيما بعد ان جميع هذا الكلام كان صادراً عن معدن الرياء لان نيبرغ استأثر بما في فؤادها من العطف والحب . ووزعت مابقي فيه من ثمالة العطف والحب على طاهيها ومرغريت خادمتها .

وألقي نابوليون على صخور جزيرة القديسة هيلانة الصماء فتحقق هذه المرة انه قد قضي الامر ولم يلق مندوحة عن الاذعان ولم يفكر قط في امر الفرار من منفاه ولو مهدوا في وجهه السبيل لنيل تلك الامنية لانه لم يشأ ان يلتمس شيئاً من جلاديه . وقد طلب امراً واحداً وهو الحصول على اخبار زوجته وولده فابوا إجابة طلبه .ولا يخفى ان هدصن لو ذلك الانكليزي الجلمودي الفؤاد لم يكتف بان يضن على نابوليون بالهواء والتنزه وان يقدم له بالكيل والوزن الماء واللبن والملح والحطب ويرصد حركاته وسكناته من خصاص الابواب والنوافذ واثقاب الاقفال وان يهزأ بما يقاسيه من العذابات الفادحة والآلام المبرحة بل تدخل في امر الطبيب الذي يعالجه والادوية التي يصفها له ولم يشأ ان يصدق انه مريض الا بعد تقطع انفاسه المعدودة . ولم يقف هدصن لو عند ذلك الحد بل تطرق الى تعذيبه بمعاكسة عواطفه الشخصية : فحدث ان جاء الى جزيرة القديسة هيلانة بستاني من الالى كانوا يعملون في حديقة البلاط النمساوي يقال له ولس وتمكن بواسطة مرشان من اعطاء نابوليون بعض شعرات من شعر ابنه . فلما درى هدصن لو بما كان من امر ولس بادر الى إخراجه من الجزيرة . وحدث مرة اخرى ان طاهياً جاء نابوليون بتمثال نصفي لولده الامير صنعه نحات في ليفورن فتحدمت مواقد الغضب في صدر هدصن لو وكاد يتميز من الغيظ واراد الذهاب بنفسه لينتزع بالقوة ذلك التمثال من يدي نابوليون ويحطمه تحطيما وحدثت حوادث كثيرة غير هاتين الحادثتين مما يدل على ماانطبع عليه ذلك السجان من قسوة القلب وفظاظة الاخلاق . ولم يستطع نابوليون ان يشاهد تلك الاعمال الفظيعة

من دون ان يتذمر ويغضب ويكل الحكم عليها للتاريخ والمستقبل فيقول :« انهم نزعوا مني ابني على مثال اولئك الذين كانوا يسبون اولاد المغلوبين ليزينوا بهم مركبات الظافر . . . ولعمر الحق انه لايمكن ان يتصور ان مثل هذه الامور الفظيعة تجري في هذا العصر »

واليكم ماخاطب به العاهل نابوليون الدكتور اوميرا الذي طرده هدصن لو من الجزيرة لانه كان يبدي لنابوليون احتراما مقرونا بالشفقة : « وان انت ابصرت ابني فقبله عني وقل له ألا ينسى ابدا انه ولد اميراً فرنسويا »

وأنى يستطيع ملك رومية ان يظل اميراً بعد ماسرق من ابيه وأهملته والدته وأخرج من بلاده وسلم الى الاجنبي ؟ فكان شعب فرنسا يسميه بونابرت الصغير ويعتبره وحشا غريب الشكل واسرته تنظر اليه بالعين نفسها التي تنظر بها الى شخص ثقيل الروح ودخيل وابن زنا والوزيران مترنيخ وتاليران يعتبرانه خطراً على السلم وحاجزاً في وجه الراحة . فماذا يجب والحالة هذه أن يصنعوا به ؟ فبعضهم ارتأى ان يدخلوه في سلك الاكليروس وغيره ذهب غير هذا المذهب . اما تاليران فأنه لم يهمه سوى تخليص لويس الثامن عشر منه بأي وجه كان . واعتبر مترنيخ ذلك الغلام رهينة ووسيلة وآلة بيده تبقي البوربون في فرنسا يتهيبون دولة النمسا ويحترمونها وتجعل فرنسا تحت وصايتها بتحريك عصا الثورة والحرب . أجل ان ذلك الامير الحدث لم يكن بحد ذاته شيئا مذكورا ولكنه كان وارثا لاسم عظيم ولذلك صممت النمسا على حفظه في حيازتها والاستفادة منه عند الحاجة . وكان ذلك الحدث حاد الطباع وقد دار في ذهنه ذكر مجد أبيه وهبت في صدره العواطف الرقيقة وثار فيه الغضب . فهل يجب أن يسحق سحقا ؟ ... لا ولكن يلزم ان يذلل ويجب أن ينسخ من عقله شيئا فشيئا كل ماهو مرسوم فيه من المبادئ النبيلة . وسنة ١٨١٥ كان ملك رومية لايزال عائشا في شنبرن مع الفرنسويين كبوصه مدير قصر نابوليون السابق ومنيفال كاتب سره الخاص وعقيلة منتسكيو وعقيلة سوفلو وابنتها فاني وعقيلة مرشان وغيرهم . وقبل ما ادرك الرابعة من عمره صار يحسن القراءة ويعرف بعض المبادئ التاريخية والجغرافية . وكان مرشد الوكالة الفرنسوية يخاطبه باللغة الايطاليانية وأحد الخدام يعالج تعليمه اللغة الالمانية ولكنه كان ينفر من تلك اللغة ويلقى

مشقة كبرى في تعلمها بالنظر لصعوبة التلفظ بها . وكان ملك رومية غلاما جميل الصورة أشقر الشعر متجعده ازرق العينين حادهما وحلوهما متناسب ملامح الوجه وقد أحبه الجميع لما لقوه فيه من اللطف واللين وسرعة الخاطر في الجواب . وكانت لهجته مماثلة للهجة غلمان باريس . ويبين انه اكبر وأقوى من اترابه وذو صفات حميدة مشكورة تبشر بمستقبل حسن . ولم تكن ذكرى فرنسا تبرح ذهنه . وحينما كان يسمعهم يتحدثون عن وطنه العزيز كان يشعر بميل شديد اليه. إلا أن التربية والمعيشة الفرنسويتين لم يطل امرهما : ففي ٢٠ مارس سنة ١٨١٥ اختار مترنيخ اليوم الذي صار فيه للغلام اربع سنوات من العمر والذي عاد فيه والده الى فرنسا ودخل قصر التويلري وأبعد عنه فجأة حاضنته عقيلة دي منتسكيو فبكاها الامير وطلب ارجاعها اليه ولكن نداءه لم يلق اذنا سميعة . فاستبدلوها بعقيلة متروسكي ومنحت هذه فيما بعد لقب كنتة سكارامبي . وبعد قليل من الحين طلب منيفال الرجوع الى فرنسا لانه لم يكن يطيق احتمال الحال التي صار اليها . وفي ٦ مايو ودع الامير الصغير ليعود الى فرنسا فألفاه متغيرا تغيرا بينا ولقي السويداء منتشرة على محياه وأنس منه نفورا من حاشيته وخوفا من اتباعه فلم يهرع لاستقبال صديقه القديم . وحين سأله هذا هل يعهد اليه في ابلاغ والده شيئا من الاشياء أطرق برأسه الى الارض ورجع الى الوراء بكل هدوء حتى وقف أمام احدى النوافذ . وحين شاهد ذلك الغلام ان منيفال تأثر من مرآه تأثرا أجرى الدموع من عينيه وقت ما انحنى ليقبله ويودعه جذبه اليه بلطف وهمس في اذنه قائلا له : يامسيو ميفا قل له اني لا أزال أحبه حبا شديدا .

وبقي بعض الفرنسويين في حاشية الامير الحدث فعمدوا الى ابعادهم وفي شهر سبتمبر صرفت ماري لويز بوصه وغيره من الفرنسويين المتقيدين في خدمتها وفي شهر اكتوبر صرفت عقيلة سوفلو وابنتها فاني التي علمت ملك رومية الحروف الهجائية وكانت تلاعبه. وفي شهر مارس سنة ١٨١٦ صرفت عقيلة مرشان والدة خادم نابوليون الخاص وكانت هذه ترقد الى جانب الغلام منذ ولادته وتوقظه وتغير ملابسه الخ . فاصبح وحيدا وهو لا يتجاوز الخامسة من عمره .

وما قاله غنتز صديق مترنيخ ان ملك رومية قضي عليه بان يعيش في وسط

بسيط يجر الحبال الى عقله لاغبار عليه من الصحة لان التهذيب الذي تلقاه وان يكن ضيق الدائرة هو التهذيب نفسه الذي يتلقاه الارشيدوقون المساويون .

ولا ينبغي لنا أن نذهل عن أن مهذبيه قد أحسن انتقاءا كثرهم فدياتريخستن مربيه رجل حسن الدخيلة طيب القلب مخلص الخدمة وقائد المائة فورستي معاونه جندي عالي الهمة واسع المعرفة شديد الشفقة على تلميذه والاحترام له وقد جعل ذلك الغلام شديد التعلق به بما باح له باسرار المودة الصافية والكاتب مني كولين الفرنسوي الاصل المعين لتعليمه لم يلبث الاميران خطب مودته فصار يلعب معه في حديقة قصر شنبرن ممثلا رواية روبنصن كروزي . ومع ما كان اولئك الاشخاص المقيدون بخدمته يبدون له من علائم الحب والاخلاص لم يبتهج كل الابتهاج بمعاشرتهم لاعتباره اياهم غرباء . وكان كثير التحفظ معهم غير ناس انه في المنفى وتمكن من التسلط على ذاته . وفي مساء اليوم الذي اضطرت فيه عقيلة مرشان الى مغادرته بلا وداع قال قائد المائة فورستي خلفها في السهر عند سريره : خشيت من انه عند استيقاظه تستولي عليه الاحزان التي تستولي عادة على اترابه الاحداث حين لا ينظر الى جانب سريره المرأة التي تعود أن يراها الى جانبه في كل صباح ولكنه لما أفاق من نومه خاطبني بلا تردد قائلا لي بسكينة تستعظم عند من كان في سنه : يامسيو دي فورستي أريد النهوض من السرير .

وكانوا يلبسونه ثيابا بيضاء وقد رضي بعد مقاومة عنيفة ان يعلقوا في عنقه نشان القديس اسطفان الكبير بدلا من نشان جوقة الشرف ولم ير مندوحة عن الرضى بان ينادوه باسم فرانز وهو اسم يكره حمله . واذا دفعته الحدة الى التفوه بكلمة جارحة او نبذ الطاعة لمهذبيه عاد الى استرضائهم بالتماسه منهم الصفح عن تلك الفلتات التي تبدر منه عن غير قصد . وكان يلاحظ ويتأمل ويفهم ولا ينسى أبدا فذات يوم أراه ارشيدوق حدث نوطا ضرب بمناسبة ولادته وسأله قائلا : هل تعرف هذه الصورة ؟ فاجابه الامير نعم أعرفها فهي تمثلني حين كنت ملك رومية . ولما شاهد للمرة الاولى البرنس دي ليفنيه وسأل عن رتبته وأجابوه انه مارشال قال وهل هو من الذين هجروا والدي ؟

وبينما هو يلعب ذات يوم مع أحد انسبائه الارشيدوقين الاحداث عيره ذلك الارشيدوق بقوله له انه لم يبق له أب فامتقع لونه ثم اكفهر وجهه وحبس

زفرة قوية كادت تشق صدره وقال بحنق ماوراءه من مزيد : حين اكبر أتقلد سيفي وانطلق لانقاذ والدي من سجنه .

ولم يكن أحد يتكلم في حضرته عن والده بتهكم أو استخفاف من دون ان يهب للانتصار لذلك الوالد العظيم فحدث انضابطا نمساويا كان يحدث مهذبي الامير في أمور الحرب وقد ذهل عن حضوره أو ظنه قاصرا عن فهم حديثه فجعل يورد اسماء القواد العظام كفريدريك الثاني ومنتيكوكولي والمارشال دي ساكس مردفا قوله بانه لايعلم أن العالم انتج قوادا أعظم منهم . فقال الامير بلهفة : ولكنني أعرف قائدا عظيما اغفلتم ذكر اسمه . فسأله الضابط قائلا : ومن هو يامولاي ؟ فاجابه الامير : هو والدي .

ولم يفارق ذهنه ذكر والده ولذلك لم ين عن سؤال دياتريخستين وفورستي وكولين عنه ملحاعليهم بطلب الاجوبة على مايلقيه عليهم من الاسئلة : فكانوا يسألون الامبراطور عما يجب عليهم عمله في مثل تلك الحال . فكان الامبراطور فرنسوى الثاني المعروف بالحلم وجودة القلب يجيبهم بوجوب اجابة سؤل الامير الحدث .

وابدى فرنسوى الثاني لحفيده ودا لقي صداه في قلب ذلك الحدث ولكن محبته له كانت محبة شخصية باردة بحسب مايوحيه اليه ضميره الذي كانت تتجاذبه عوامل مختلفة من قصر النظر في عواقب الامور والثبات في مبدأه المبني على مناوأة الامبراطورية الفرنسوية والاوهام الكثيرة التي ما انزل الله بها من سلطان فانه ابغض فرنسا ونابوليون بغضا يصح أن يضرب به المثل . وقد زاد على مترنيخ في الرغبة في تغيير جنسية ذلك الغلام الفرنسوي المعتبر عنده ابنا للثورة والفتح . ومنذ وصوله الى النمسا صدر الامر الامبراطوري بمنع الجميع عن إطلاق اسم ملك رومية عليه وعن تسميته ايضا باسم نابوليون كأنهم بذلك العمل يمحون من صفحات التاريخ ذلك الاسم الكبير . واتفقوا على أن يطلقوا عليه لقب ارشيدوق ريثما يكبر فحينئذ ينظر في امره . وسنة ١٨١٧ ظهر التقويم العسكري النمساوي وفيه اسم « فرنسوى جوزف شارل امير بارم » فقلق لويس الثامن عشر لذلك الامروقال في نفسه : أو لايخول هذا الاسم ذلك الامير الحق بتقاضي حقوقه على الدوقية وملحقاتها ؟ فاحتج تاليران على ذلك اللقب ومنذ ذلك الحين لم يطبع اسم أمير بارم في التقويم الآنف الذكر في السنين التالية .



نابليون فى جزيرة القديسه هيلانة

وأصدر فرنسوى الثاني مرسوماً في ٢٢ يوليو سنة ١٨١٨ قال فيه: انه يهم الجميع تحديد حالة الامير فريدريك شارل جوزف ابن الارشيدوقة ماري لويز (وكان ولا مراء يعتبر والده مجهول الاصل والفصل) فمنحه لقب سمو الدوق دي رشستاد وخوله حق الجلوس بعد أمراء الاسرة المالكة والارشيدوقين .

ولم يبق الدوق دي رشستاد ملكا لرومية فتوهمت أوربا أنها قضت مهمتها على أيدي بريطانيا والنمسا فأخذت بريطانيا النسر والنمسا فرخه .

ان الدوق دي رشستاد أمير ألماني مقامه تحت مقام الارشيدوقين ونسيب بعيد لهم وقريب مسكين ملطخ العرض بوصمة العار فالجنود القدماء لا يعرفونه وفرنسا نسيته لانها لم تكن تبصره أو تسمع عنه شيئاً . ويحسن بنا أن نتساءل هل يصح أن نسمي ذلك الغلام فرخ النسر أم لا ؟ فكيف كانت العواطف والافكار والمقاصد والاوهام الجائلة في صدر ذلك الشاب الاشقر النحيل الضئيل الذي كان سكان مدينة فينا يشاهدونه سنة ١٨٣١ ممتطياً صهوة جواده في ساحة التمرينات العسكرية أو راقصاً في المراقص المقامة في القصر الامبراطوري وهو يتمايل كالاملود ويشعر بنار مستعرة في أحشائه وأسرار تشغل خاطره وهو يكاد يرزح تحت عبء ثقيل ألقاه القدر المعتوب على منكبيه . فهل شعر بأن دمه يغلي في عروقه ودماغه يشتغل بذكرى الاصل المجيد المنتمي هو اليه ؟ أو ان نفسه تتعلل بتلك الآمال الجسيمة المعلقة عليه وقلبه يهتم بالدور المقضي عليه بأن يمثله على ملعب هذه الحياة الدنيا ؟ وهل جرى في وهمه أن يحطم قيوده ويفر هارباً الى فرنسا وهو يأمل أن يراها تهب هبوب النار للقيام بنصره وأن يدخل باريس باحتفال يفوق الاحتفال الذي جرى لوالده عند دخولها بعد معركة مارنغو وواقعة استرلتز ؟ . . . أو ؟ . . .

انه وايم الحق موضوع جميل كبير تتبارى في وصفه والاسهاب فيه جياد قرائح الشعراء والقصصيين . ولم يدر أحد حقيقة أفكار الدوق دي رشستاد أو يقف على كنه أسراره . وكل ما يمكن قوله عن ثقة في هذا الصدد هو أنه مع ما بذله أرباب السياسة من الجهد بقي الدوق دي رشستاد فرنسويا قلباً وفكراً ولم يكن نمسويا إلا بثوبه فقط . وكانت وفاته في سنة ١٨٣٢ .

فرنسا ونابوليون

وضع تيارس الداهية المشهور تاريخاً لبلاده في عهد القنصلية والامبراطورية وهو سفر جليل يدل على ما لذلك الرجل الكبير من طول الباع والتفنن في صناعة الكتابة وبعد النظر في الشؤون والتدقيق في سرد سياقة الحوادث واظهارها والتنزه عن الميل مع الهوى والانحراف عن الجادة القويمة . وقد وطنا النفس على تعريب فصل من التاريخ المذكور عنوانه «فرنسا ونابوليون» يستطيع القارئ ان يجد فيه خلاصة حكم تيارس على نابوليون وعلى علاقته بفرنسا . قال تيارس :

ان لنابوليون القابا لا يسعنا انكارها او نسيانها مع صرف النظر عن الحزب الذي تربطنا به الهيئة الاجتماعية التي نشأنا فيها او المذاهب التي نذهبها او المصالح التي نرمي اليها . انه ولا جرم لم يمنحنا الشكل السياسي الواجب على مجتمعنا الانساني ان يستند اليه استناداً نهائيا ويعيش معه في السلم والهناء ويجني ثمار اليسر والاقبال ويرتع في رياض الحرية . ولم يجد علينا بالحرية المقضي على خلفائه ان يكونوا مدينين لنا بها الى الآن ولكنه على اثر الاضطرابات المتسلسلة عن الفتنة الفرنسوية الكبرى لم يكن يسعه الا ان يوجد لنا النظام وينبغي لنا ان نعترف بانه حبانا مع النظام حالتنا المدنية وانظمتنا الادارية ولكنه لنكد طالعه وطالعنا اضاع عظمتنا . ومن جهة اخرى خلف لنا المجد وهو العظمة الادبية الجارة وراءها على توالي الايام العظمة المادية . وقد اوجده دهاؤه لفرنسا كما وجدت فرنسا له : فلا هو بدون الجيش الفرنسوي ولا الجيش الفرنسوي بدونه استطاعا ان يجريا وهما مفترقان ما اجرياه وهما متفقان . فهو علة مصائبنا ولكنه رفيق مآثرنا الخطيرة . ويجب علينا ان نغلظ الكلام في ابرازنا الحكم عليه الا اننا لا نلقى لنا بداً من محافظتنا له على العواطف الواجب على الجيش ان يشعر بها نحو قائده الذي سار به الى مواطن النصر والغلبة . فلنحف في التنقيب عن اعماله العظيمة المعتبرة اعمالنا أنفسنا فان كنا من رجال الجندية فلنتعلم منه فن قيادة الجيوش وان كنا من رجال الحكومة فلنأخذ عنه فن ادارة الممالك ولنثقف انفسنا تثقيفا خاصاً بما نشاهده فيه من الهفوات . ولنتعلم مع تجنبنا النسج على منواله محبة العظمة المعتدلة

وهي تلك العظمة الممكنة الثابتة لـكونها يسهل على القوم حمل اثقالها. وقصارى الـكلام لنتعلم الاعتدال من هذا الرجل الفائق غيره في الافراط وتجاوز الحد وبصفة كوننا وطنيين فلنتخذ لنا من حياته عبرة رادعة ولنعلم انه مهما عظم دهاء الانسان واتسعت دائرة عقله ورق شعوره فلا ينبغي لنا ان نفوض اليه تفويضاً اعمى حظوظ البلاد... على انه وان ساغ لشعب من الشعوب ان يستسلم لرجل من البشر فلا يسوغ ذلك الا للشعب الفرنسوي ولاسيما سنة ١٨٠٠ حين القى بمقاليد الزعامة الى نابوليون . ولم يكن في ذلك الحين فوضى كاذبة يتهددون الامة بها إرادة ان يقيدوها . بل كان بعكس ذلك الوف من الناس الابرياء يهلكون على النطع وفي السجون او في مياه الانوار : فقد عادت الى الظهور فظائع عصور الهمجية في وسط المدنية المذعورة . وبعدما ابتعد القوم عن تلك الفظائع نافرين منها ظلت الفتنة متقلقلة بين الجلادين الذين انتزعت من بين ايديهم والمهاجرين المضروب على ابصارهم وقد شاؤوا ان يجعلوها تتقهقر الى ماض مستحيل مجتازة غدراناً من الدم ومع ذلك كان في ذلك الحين الحسام الاجنبي مصلتاً يتوعد الامة الفرنسوية بسوء المنقلب . وحدث في خلال تلك الاحوال ان عاد من الديار الشرقية بطل شاب مملوء دهاء كان ابان سار يذلل الطبيعة والبشر وقد عرف بحنكته واعتداله وتدينه وكأنه ولد ليسحر العالم ويستعبده. ولم يحدث قط شيء من الاشياء الممهدة للامة الفرنسوية العذر لاستسلامها الى هذا الرجل نظير الحادث الذي حدث في ذلك العهد اذ انه لم تطرأ مخاوف نظير تلك المخاوف التي كانوا يفرون منها ولم يكن قط داهية نظير ذلك الداهية الذي لجأوا اليه . على انه بعد حقبة من الزمن اصبح ذلك العاقل مجنوناً فقد اصابه نوع من الجنون يخالف الجنون الذي حدث سنة ١٧٩٣ بيد انه لا يقل عنه مضرة ولا يقل عن مليون عدد القتلى الذين خروا صرعى بسببه في ميادين الوغى وساحات القتال . وكان من وراء ذلك ان اوربا جمعاء شنت الاغارة على فرنسا فقهرتها واذلتها واغرقتها في بحر من الدم وسلبتها ثمرة انتصارات متوالية اصابتها في عشرين سنة . ويمكن القول بالايجاز انها وصلت الى شفا الدمار ولم يبق فيهـا سوى جراثيم الحضارة الحديثة الـكامنة في أحشائها والمعقودة عليهـا عرى الآمال باستعادة ما فقدته . ولعمري انه لا يعقل كيف أصبح حكيم سـنة ١٨٠٠ مجنون سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٣ ولـكن الراجح الحصاة

لا يفوته ان المقدرة العظيمة مضمر فيها حماقة تعي من يداويها وهي الميـل الى مزاولة كل شيء حين يأنس المرء من نفسه مقدرة على مزاولة كل شيء ولو كان ما يميل اليه الشر بعد الخير . وعليه ففي هذه الحياة العظيمة التي يلقى الناس فيها أشياء جمة يعلمون بها رجال الجندية وأصحاب الادارة وأرباب السياسة لا يلقى سوقة الناس لهم بدا من أن يتعلموا في نوبتهم شـيئاً خطيراً وهو انه لا ينبغي البتة أن تسلم ادارة الدولة الى فرد كيف كان ذلك الفرد وكيف كانت الاحوال .
وعند اختتامي هذا التاريخ المطول المبني على انتصاراتنا وانـكساراتنا يخرج من صدري هذا الصوت الاخير وهو صادر عن اخلاص حقيقي أحب أن أوصـل صداه الى قلوب جميع الفرنسويين فيقتنع الجميع بأنه لا يحسن بهم بوجه من الوجوه أن يغامروا بحريتهم واذا شاؤوا ألا يدعوا تلك الحرية هدفاً لسهام المغامرة فعليهم بألا يجاوزوا الحد في استعمالها .

مصرع مورات

كان يواكيم مورات ابن صاحب فندق وقد ولد في البستيد مورات سنة ١٧٧١ وتطوع في الجندية سنة ١٧٩١ وتمكن بما أوتيه من الدهاء وصلابة العود وشـدة المقدم من بلوغ أعلى درجة في سلم المناصب الجندية على عهد الجمهورية وعهد الامبراطورية . وصاهره العاهل نابوليون الاول فزف اليه شقيقته كارولين وأجلسه على عرش مملـكة نابولي في سنة ١٨٠٨ ولمـا أفل نجم سعد نابوليون في سـنة ١٨١٤ وجافاه الحظ خلع مورات عن سرير مملـكة نابولي .
الا أنه عالج في شهر اكتوبر من السنة التالية استعادة مملكته جارياً في عمله هذا على منهاج اليأس والقنوط . ولم يكد يصعد الى البر في بتزو بكالبريا حتى وقع في قبضـة فرديناند الرابع الذي عاد الى أريكة مملـكته . وحينئذ أمر به الملك فرديناند أن يمثل أمام مجلس حربي .
وهانحن ننشر للقراء الـكرام ما اقتطفناه عن لامرتين مؤلف تاريخ عودة البوربون الى عرش فرنسا بعد ارتحال نابوليون عنها وتقلص ظل الامبراطورية فيها ذاكرين ما كان من أمر مورات في آخر حياته :
مثـل ستراتي لدى مورات سجينه وقرأ بتلعثم الامر القاضي بمثوله أمام مجلس حربي . فقال له مورات : « لقد نفذ القضاء فالامر القاضي بمحا كمتي هو

عينه الامر القاضي علي بالموت . » قال هذا ولجت شؤونه بالدموع فإن ذلك الرجل الموصوف بشجاعة يعز نظيرها تحركت في قلبه عوامل الشفقة على نفسه . وكل نفس حينما توشك أن تزهق من صدر الانسان الجبار تتململ فيه متألمة . ثم ان ستراتي قال له : ان المجلس سيجتمع في الحال في ردهة ملاصقة لهذا المكان وان القانون الحربي يخولك الحق باختيار محام يتولى الدفاع عنك . فقال له مورات وهو يصعر خده تيهاً وخيلاء : « قل للمحكمة اني آبي المثول لديها فمن كان نظيري من البشر لا يؤدي حسابا عن أعماله الا لله وحده فلتبرز المحكمة ما شاءت من الاحكام علي : فأذعن للقدر من دون أن أعترف بسلطة قاض من القضاة . »

وخرج ستراتي ورفاقه من حضرة مورات وجاء الجنرال نزينتي بحبر وورق للسجين وقال له : يمكنك أن تكتب ارادتك الاخيرة أو وداعك الاخير لاسرتك .

ولما خلا الجو لمورات كتب وهو يروي القرطاس بدموعه ذلك المكتوب المشهور الذي أودع فيه وقلبه يخفق بسطور قليلة ما كان من عواطف نفسه وحظه المنكود وحبه لزوجته وحنانه على أولاده وأنفته كملك وجرأته كجندي .

وقد وجه تلك الرسالة إلى زوجته الفتاة التي كانت مصدر الحب والفخر لشبيبته ومسرة حياته وتيهها وفي بعض الاحيان علة عذابه ولكنها كانت في كل حين موضوع اهتمام نفسه وغرض عنايتها . واليكم ترجمة تلك الرسالة .

« ياعزيزتي كارولين

لقد دنت ساعتي الاخيرة فبعد قليل من الحين ينقطع وريد حياتي وبعد قليل من الحين تفقدين زوجك . فلا تدعي عناكب النسيان تنسج على ذكري . أنا أموت طاهر الذيل فلم تلطخ بردة حياتي أدنى وصمة من الجور والعسف . الوداع ياابني أخيل ! الوداع ياابنتي ايتيسيا ! الوداع يا ابني لوسيان ! الوداع يا ابنتي لويز ! فاظهروا في المجتمع الانساني بمظهر جدير بي . وأنا أتركم بغير مملكة وعارين من المقتنيات بين أعدائكم الكثيري العدد . فاتحدوا اتحادا لا تنفصم عراه وتغلبوا على مصارعة الاقدار لكم وافتكروا في ما أنتم عليه الآن وفي ما كنتم عليه في ما مضى والحق سبحانه وتعالى يمطر عليكم سحائب بركاته . وحذار من قذف اسمي باللعن . واعلموا ان أعظم ضربة علي عند آخر حياتي هي موتي بعيداً عن

أولادي . فلتحل عليكم بركتي الابوية واقبلوا قبلاتي وعبراتي ولا تدعوا ذكر والدكم التاعس يبرح ذهنكم .»

ان هذه الرسالة التي أملتها عليه الطبيعة وقد أوشك أن يزايل هذه الدنيا وهو على بعد بضع خطوات من المحكمة المجتمعة لاصدار الحكم عليه تدل دلالة صريحة على كبر نفسه وجودة قلبه ورقة شعوره . فقد كان ذلك الرجل يضع الشيء في موضعه : فيحب وقت الحب ويقاتل آونة القتال . وكان أعظم من ملك وأشجع من جبار أي أنه كان انسانا. وهذه العواطف الاخيرة تدل على غير قصد منه ولتعظيم ذكره على أن كل ماأظهروه من التفخيم والتبجيل لرفيقه المنفي الى جزيرة القديسة هيلانة لايعد شيئاً مذكوراً بالنسبة اليها .فنابوليون أبدع في توديعه العالم أما مورات فأنه أجاد كل الاجادة في توديعه زوجته وأولاده . نابوليون قضى وهو على ملعب التمثيل أما مورات فأنه قضى كأنه محاط بأسرته . وموت مورات يفوق موت نابوليون كما تفوق الطبيعة المجرفة ووداع مورات يستنبط العبرات من عيون أبناء الأجيال الآتية بعده . وإذا لم ير المرء فيه ضحية وشهيدا رأى فيه المحب والاب والبطل ...

وبعد ماروى الصحيفة بدموعه وقبلها مرات عديدة بقدر القبلات التي كان يحب أن يرسلها الى زوجته وأولاده الاربعة طلب مقراضا فقطع خصلة من شعره الطويل وقبلها ارادة أن تلقى فيها أسرته أثر فمه . وبعد ماوضع الشعر المبلل في طي المكتوب ناول نتزينتي ذلك المكتوب موصياً اياه بايصاله الى المرسل اليهم .

ودخل عليه ستاراسي المعين محاميا رسميا عنه وهو يعالج اخفاء تأثره وقد خانته دموعه . فتوسل الى مورات أن يأذن له بالدفاع عنه لدى المجلس الحربي فحينئذ عاد مورات إلى اتخاذ اللهجة الملائمة لمركزه كملك وقال لستاراسي : « هؤلاء هم رعاياي وليس قضاتي والملوك غير مسؤولين تجاه رعاياهم حتى أنهم غير مسؤولين تجاه غيرهم من الملوك اذ أن العروش تصير جميع الملوك متساوين . وهل يريدون أن يحاكموني باعتبارهم اياي نائلا غير لقب ملك كمارشال فرنسوي مثلا فحينئذ لابد لهم من تأليف محكمة من المارشالية . وهل يعتبروني جنرالا فينبغي لهم أن يؤلفوا محكمة من الجنرالية .

وقبل أن يضطروني الى الاعتراف بمحكمة كالمحكمة التي ينتدبونني للمثول لديها لابد من تمزيق صحائف كثيرة من تاريخ اوربا . فانت لا أستطيع انقاذ حياتي لان الذين سيبتون الامر فيما يتعلق بحظي ليسوا قضاتي ولكنهم جلادي. وعليه فلنخلص في شرف الملكية .»

ولم يلق ستاراسي مندوحة عن الاذعان لمشيئة مورات التي لا مرد لها .

وجاء الموظف الموفد من لدن المحكمة لاستنطاق المتهم فقال له مورات :« ليس لك عندي سوى جواب واحد وهو اني يوا كيم نابوليون ملك بلادي صقلية . اغرب عني . »

ولما تملص من حضور قضاته الذين كانوا يتباحثون في الردهة الملاصقة لسجنه جعل يخاطب بحرية فكر الضباط الموكول اليهم أمر خفارته ... وكان الكلام الذي خاطبهم به على مثال الرسالة الموجهة منه الى زوجته وأولاده ويستدل منه على أن فكر الحق سبحانه وتعالى كان ينتابه وهو متأهب للارتحال عن هذه الدنيا وخلا به كاهن من كهنة بتزو قدموه له فقبله رجاء التعزي به ونيل الميتة الصالحة على يده . . .

وتمم مورات واجبات المحتضرين وناول الكاهن حسب طلبه رجاء الحصول على دفن مكرم الكلمات التالية التي كتبها بيده ووقع عليها :« اعلن اني أموت موت المسيحي الصالح .» ثم أنه عهد الى الكاهن في تسليم ساعته الى خادمه ارمان الامين لاستغنائه عنها من ذلك الحين .

وجعل مورات يمشي في طول الغرفة وعرضها مدة بضع دقائق ثم أنه جلس على سريره وأسند رأسه الى كلتا يديه وانبسطت لديه وهو على تلك الحال جميع أدوار حياته منذ الايام التي قضاها في الفندق الى الحين الذي دخل فيه قصر الملك . وخيل اليه أن حياته كانت كحلم ذهبي أو كذبة لامعة أو حكاية من حكايات الف ليلة وليلة. وكان مورات كقوس قزح ظهرت في خلال عاصفة ولكن ماعتم طرفا تلك القوس أن تواريا في غمام ولادته وسحاب موته . وفي آخر الامر ثاب الى نفسه فرفع رأسه فكان جبينه ساكنا بيد أنه ممتقع . ودنا من مرآة فصفف شعره ولم يفارقه شيء من اطواره الغريبة فاعتبر نفسه خطيباً للمنية ولذلك احب ان يلاقي خطيبته بهيئة جميلة .

وكانت المحكمة في أثناء ذلك الحين تصدر الحكم عليه بالموت بدعوى اثارته الخواطر على الحكومة الحالية وفقا لقانون وافق هو عليه من عشر سنوات ارهابا للثائرين في كالريا ولكنه لم يضع قط ذلك القانون موضع الاجراء .

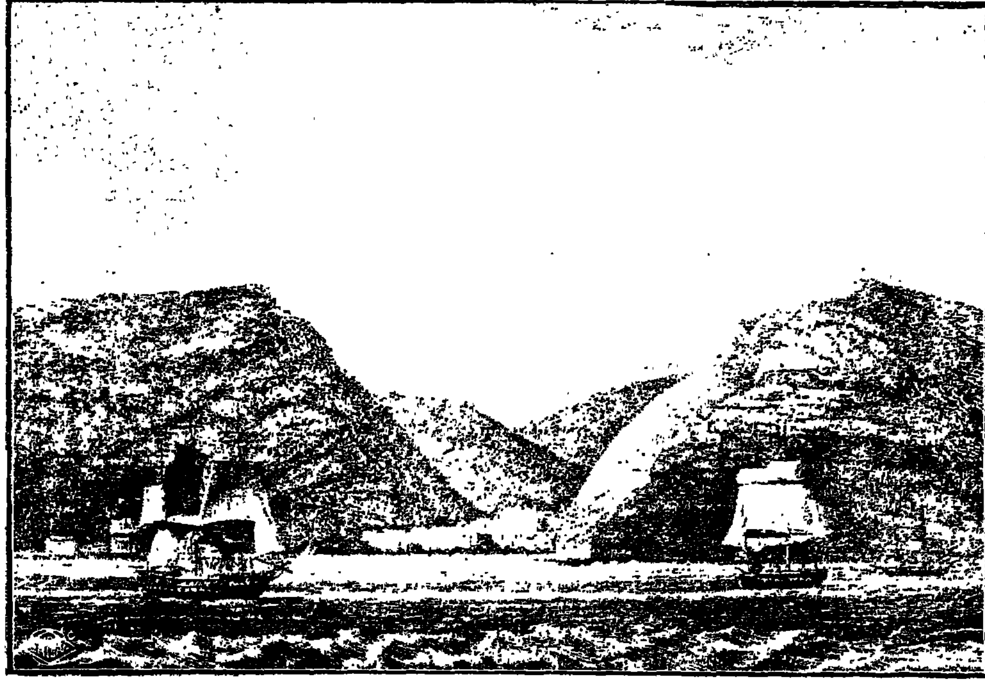
فتلوا عليه صورة الحكم بصورة علنية فأصغى اليه كأنه يصغي الى قصف المدافع في ساحة الهيجاء من دون أن يبدو عليه شيء من التأثر أو شيء من الاستخفاف . ولم يطلب عفواً ولا مهلة ولا استئنافا ...

ثم انه تقدم من ذاته نحو الباب كأنه يريد الاسراع للوصول الى الغاية المعين له الوصول اليها . وكانت أمام ذلك الباب عرصة ضيقة وقف على حبل انتظاره فيها اثنا عشر جنديا وبأيديهم بنادق محشوة . ولم يكن ضيق المكان يمكنهم من الوقوف في محل يحجب عن عينيه فظاعة الموت . ولما اجتاز مورات عتبة غرفته لقيهم أمامه وجها لوجه . فأبى أن يدعهم يعصبون عينيه والتفت الى الجنود وقال لهم مبتسما : « ياأصحابي لاتعذبوني باخطائكم المرمى : فاياكم أن ترتجف أيديكم وحذار من تصويب بنادقكم الى وجهي فصوبوها الى قلبي وها هو أمامكم . »

ولما قال هذا الكلام وضع يده اليمنى على صدره ليدلهم على موضع القلب وكان قابضا بيده اليسرى على نوط صغير فيه صورة زوجته وأولاده الاربعة وكانه شاء أن يجعلهم يشهدون ساعته الاخيرة أو اراد أن تكون صورتهم مرسومة في ناظره كما هي مرسومة في مخيلته . فخفض عينيه على الرسم وتلقى العيارات النارية من دون أن يشعر بها وهو مستغرق في التأمل في صور احبائه . وسقط جسمه وقد خرقته عن قرب اثنتا عشرة رصاصة وذراعاه ممدودتان ووجهه مكب على الحضيض كأنه يعانق تلك المملكة التي أصابها والتي لم يسترجعها الا لتكون مدفنا له .

وعلى هذه الصورة انتهت حياة أشجع جندي من جنود العصر الامبراطوري وهو رجل لا يعتبر أكبر من أترابه ولداته بل يعد من أجرأ رفاق الاسكندر الحديث . . .

وقد استوجب أكثر مما استوجبه الجنود والساسة الاطراء الذي يندر أن يستوجبه من يتولون شؤون الدول : أي «رجل المروءة» بكل معنى هذه الكلمة على أن التاريخ الذي يدخر للناس المدح والقدح سيستمطر على هذا الراحل الكريم شآبيب الدموع



أحد مناظر جزيرة القديسة هيلانة وجيمستون

اوجين بوهرنه

— ١ —

ولد اوجين بوهرنه في باريس في ٣ سبتمبر سنة ١٧٨١ من الفيكونت الاسكندر دي بوهرنه أحد قواد الجيش وجوزفين تاشر دي لاباجري الخلاسية المولودة في المرتينيك وأدخل الغلام مدرسة هاركور في باريس بينما كان والده منتخب بلدة بلوى منتظما في سلك الجمعية الوطنية في سنة ١٧٨٩ وقد عين فيما بعد سكرتيرا لهذه الجمعية فرئيساً لها .

وقد أصاب المسيو دي بوهرنه منزلة عالية في هذه الجمعية في سنة ١٧٩١ حينما كانت البلاد بلا حكومة والافكار متهيجة تهيجا شديدا وحدث في أثناء ذلك أن أوجين كان مارا في شوارع فنتنبلو مع والده فحياه الجمهور المتحمس مناديا اياه باسم « الامير ولي العهد »

وهذا الامر من غرائب الاتفاق فان هذا الغلام الذي قدر له أن يجلس على درجات عرش الامبراطورية عدة سنوات كانوا وهو مار مع والده يلقبونه بلقب يطلق على ولي عهد فرنسا .

وسار اوجين في سنة ١٧٩٣ مع والده الذي عين قائدا اكبر لجيش الرين وكان في الثانية عشرة من عمره ووضع في مدرسة ستراسبورغ في أثناء المدة القصيرة التي قضاها والده في قيادة الجيش وكان يذهب الى المعسكر لمشاهدته وقد تعود منذ نعومة أظفاره سماع لعلعة المدافع وقعقعة السلاح .

ولكن دوام الحال من المحال فان الحوادث السياسية اضطرت ذلك القائد الجمهوري الى الاستقالة من منصبه فدعي الى باريس ومثل أمام محكمة ثورية قضت عليه بالموت فصعد الى المقصلة في ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٤

وكانت حكومة الكنفنسيون في ذلك العهد تجازي في غالب الاحيان على هذا الوجه قوادها سواء كانوا غالبين أو مغلوبين في الحرب واستولت الحكومة على أموال الجنرال دي بوهرنه فبقيت امه بلا مال ولها ولدان قضي عليها بالقيام

بأودها فأبقت ابنتها هورتنس في منزلها ووضعت أوجين عند نجار ليتعلم النجارة وكان في الثالثة عشرة من عمره ووقف كل محبته البنوية على والدته من ذلك الحين

ولم تطل مدة إقامتـه في حانوت النجار لان الجنرال هوش اتخذه حاجباً له وأخذه معه الى جيش الغرب ولم يكن هذا المركز الرفيع لفتى في الرابعة عشرة من عمره ثابتاً فان الجنرال هوش أرسله الى والدته بعـد معركة كيبرون في ٢٧ يونيو سنة ١٧٩٥ .

وحينئذ فكرت عقيلة دي بوهرنه تفكيراً جديا في تعليم نجلها فعهدت في ذلك الى أستاذ في سان جرمان انلاي في محل اقامتها .

وكان الجنرال بونابرت في ذلك العهد في باريس يهتم بتقليم اظفار الاحزاب فحدث أن فتى جاء في أحد الايام الى مركز القيادة العامة وكان هذا الغلام صبيح المحيا تتقد عيناه ذكاء فطلب مواجهة القائد العام ولما مثل بين يديه التمس منه أن يعاد اليه سيف والده فأحسن القائد العام وفادته وجامله في الحديث مسروراً بطلبه ولما دفع السيف الى الفتى لم يتمالك هذا عن حبس عبراته عن الانهمار ولم يقل تأثير هذه المكرمة في الوالدة عن تأثيرها في الولد فجاءت بنفسها لتشكر للجنرال بونابرت صنيعه

فأثر في الجنرال بونابرت عمل عقيـلة دي بوهرنه وخلبت محاسنها لبه وم. عتم أن ردلها زيارتها وكان ذلك تمهيداً لعقد قرانه بها .

وقد غير هـذا القران مجرى حياة أوجين الفتى فلما رافقت عقيلة بونابرت زوجها الى إيطاليا في غد يوم قرانهما وعـد الجنرال أوجين بأنه لا ينساه وكان قد ابتدأ بونابرت يحبه وصمم على أن يجعله من المقربين اليه وأن يسهل له الوصول الى ذرى المعالي ولـكن نجـل جوزفين لم يكن متعلماً تعليما كافياً فقال له زوج والدته : « ادرس جيداً واعمل بجـد فتسد ما في تعليمك الابتدائي من الخلل وبعد ذلك أعنى بأمرك . »

فأقبل أوجين على الدراسة بنشاط وكد وقد قال هذا الفتى في هذا الصدد : « إني في الشهور الخمسة عشر التي قضيتها وحدي في سان جرمان بذلت ما في وسعي لتعلم الرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغة الانكليزية وكنت عالماً بأني سأجازى على جهدي ومواظبتي على الدرس . »

وتلقى أوجين مرسوماً من باراس رئيس حكومة الدير كتوار الاجرائية في ٧ دسمبر سنة ١٧٩٧ بتعيينه ملازماً ثانياً في الآلاي الاول في الفرسان وكان بونابرت قد قدم تقريراً بذلك الى حكومة الدير كتوار وبلغه الساعي الذي حمل اليه ذلك المرسوم أمراً بالانطلاق الى جيش إيطاليا حيث كان الجنرال ينتظره فبادر الى موافاة سنده وقد بقي فيما بعد ملازماً له في الايام المصيبة التي مرت عليه .

وحالما وصل عينه بونابرت حاجباً له وعهد اليه في مهام دقيقة لانه انس فيه ذكاء شديدا ومهارة عظيمة واوشك هذا الشاب مرة ان يبيت صريعا في مهمة فوضت اليه في أثناء هرج قتل فيه الجنرال دوفو ملحق السفارة في رومية وكان السفير يوسف بونابرت وقد قتل هذا الجنرال بطيشه وخطأه .

ولا يخفى ان هذا الجندي الشاب الذي واجه المنية مرات كثيرة في ميادين الوغى في أثناء خمس عشرة سنة في الديار الاوربية تعلم الحرب في ساحاتها وفي ١٨ مايو سنة ١٧٩٨ صحب الجنرال بونابرت الى مصر

ولما فتح الفرنسويون جزيرة مالطة اندفع في المعركة اندفاعاً شديداً ووفق الى انتزاع راية من العدو وكانت أعماله الباهرة في مصر تتمة للاعمال الكبيرة التي كان قد ابتدأ بها في اوربا في فاتحة حياته الحربية فشهد مواقع الرملة وشبريس والاهرام وجرح امام أسوار عكاء وجرح ايضا في رأسه امام اسوار يافا ولذلك لم يتمكن من الاشتراك في موقعة ابي قير في ٢٥ يوليو ١٧٩٩ . ولما رجع بونابرت من غزواته سكن حدة هذا الشاب وخفف من غلوائه ورقاه الى درجة ملازم مكافأة له على بسالته .

وكان اوجين بوهرنه في باريس في ١٨ بروميير الى جانب بونابرت لما قلب هذا حكومة الدير كتوار وشهد اوجين الحوادث التي ختمت بها الثورة وكانت مدرجة لزوج والدته للقبض على السلطة وصيرورته قنصلا اول

ولما انطلق بونابرت الى ايطاليا كان اوجين بوهرنه في الجيش الاحتياطي وكان من مهمة هذا الجيش بعد اجتيازه لجبل سان غوتار وزحفه الى بليزانس ان يشغل النمسويين ليسهل عمل جيش لان . ولم يكن اوجين ينى عن طلب اسناد مهمة خطيرة اليه يتسنى له فيها أن ينم بأسرار جرأته واقدامه ولكن شق عليه

كثيرا ألا يحضر معركة منتبلو التي اشتهر فيها لان ولقب فيها بعد بمرشال وجعل اسرته ممدودة من جراء هذا الامر بين الاسر المشهورة ولم يستطع اوجين اخفاء تأسفه فأعاضه الجنرال بونابرت من ذلك بان مهد في وجهه السبيل للاشتهار في معركة مارنغو

وقضى اوجين ليلة ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ في طوري دي غارافولو وفي الغد نشبت معركة هائلة امتاز فيها على اقرانه باسره الاعداء في ساحة الهيجاء فرقي الى رتبة قائد كوكبة من الفرسان ولم يكن قد تجاوز السنة التاسعة عشرة من عمره

ولما عاد اوجين من هذه المعركة التي ظفر فيها ظفراً مبينا بالاعداء أقبل على العمل كمألوف عادته ولم يشترك في البعثات التالية ولكن بونابرت لم يذهل عنه فرقاه الى رتبة امير لواء في سنة ١٨٠٢ من دون ان يتوسل بوسيلة ما لاصابة هذا المنصب الجديد .

٢

تنصيب اوجين بوهرنه

حاكما في ايطاليا

وبينما كان اوجين بوهرنه يعيش عيشة هنيئة يقضي معظمها في الدرس وبينما كانت البلاد تذوق وقتيا طعم السلم كان الجنرال بونابرت وقد عظمته انتصاراته عهد السبيل للصعود الى العرش وعصب جبينه بتاج الامبراطورية فاستبدل بلقب قنصل اول لقب امبراطور وكان نجل جوزفين مقدرا له في الحالة الجديدة ان يعلل النفس بآمال كبيرة في المستقبل .

انشئت الامبراطورية الفرنسوية الجديدة في ٢٤ مايو سنة ١٨٠٤ وتوطدت اركانها في انظار الملأ الاوربي على اثر حفلة تتويج منشئها وقد جاء الحبر الاعظم من رومية الى باريس في ٢ دسمبر من السنة عينها لتكريس الامبراطور الجديد وهو يأمل ان يصيب من نابوليون البر بما وعده به .

وشاء نابوليون ان تكون الحفلة مصطبغة بصبغة سناء لم يسبق له مثيل فألف وليجة من رجال خدموا الوطن خدماً جليلة واصابوا حظوة عنده وكان

اوجين في مقدمتهم وقد جمعت فيه جميع المزايا التي تؤهله الى احتلال منصب رفيع ولذلك اراد نابوليون ان يمنحه الاثرة على غيره فعينه قائداً لفرسان الصيادين وعهد اليه في حمل الخاتم الامبراطوري في خلال حفلة التتويج ليقدمه الى الحبر الاعظم في الحين المعين . وكان الامبراطور قد رقى ربيبه الى درجة امير فرنسوي ليمهد في وجهه سبيل الوصول الى الحالة التي يعده لها وسماه كبير مستشاري الامبراطورية

ونورد الكلام نفسه الذي فاه به الامير اوجين لما رقي الى تلك الدرجة السامية : « اقول ولا احاذر في القول لومة لائم ان المكانة الرفيعة التي اوصلني اليها الحظ لم تبهثني على الاستعلاء ولم اسكر بسلافة العظمة وبقيت عائشا بين جنودي وضباطي من دون ان اغير شيئا من عاداتي او من تصرفي معهم وقد تساقطت علي كتب التهنئة وكانت تفيض مدحاً وتؤكد لي صدق مرسليها واخلاصهم فقدرتها ما تستوجبه من التقدير كأني عرفت في ذلك الحين ما حققه لي الاختبار فيما بعد وقد اثر في شيء واحد في ذلك الموقف وهو الكلام الذي كتبه الامبراطور في المرسوم الذي وجهه الى مجلس الشيوخ ليشعره بترقيتي الى الدرجة التي جاد بها علي . . . »

وأراد نابوليون بعد قليل من الحين أن يعينه كبير امنائه فاعتذر اوجين عن قبوله لهذا المنصب وقال : انه يشعر بأن دما عسكريا يجري في عروقه ولا يأنس من نفسه ميلا الى الانتظام في سلك المقربين المتزلفين . والحق يقال أنه كان في ساحة القتال اكثر ارتياحا منه الى قضاء وقته في ظلال البلاط بين التملق والدسائس وقد عرف نابوليون هـذه الخلة فيه فلم يصر على تعيينه في المنصب الذي كان قد اختاره له .

وشخص نابوليون الى ميلانو في ٢٦ مايو سنة ١٨٠٥ بعد حفلة التتويج في باريس بستة أشهر ليتوج ملكا على ايطاليا فبارك الكردينال كبرارا التاج الحديدي وهو تاج ملوك لمبرديا القديم المشهور فوضعه نابوليون على رأسه وقال : « الله اعطانيه فحذار أن يمسه أحد . »

وأراد الملك الجديد بعد هذه الحفلة أن يترك في هذه المملكة شخصا ينوب عنه ويكون معروفا باخلاصه فاختار الامير اوجين نائبا عنه وعين مدينة ميلانو مقرا له وكان يحبه كأنه ابنه الحقيقي وقدمه للامة الايطالية ولم يكن له الاربع

وعشرون سنة من العمر في ذلك العهد وعين له المسيو ميجان وزيرا ومستشارا .

واقبل اوجين على التذرع بجميع الذرائع الميسورة له لاسعاد ايطاليا وتوفير الاقبال لها وليس له مطمع الا نيل ثقة الامبراطور به وتحقيق ماعلقه عليه من الآمال . فعمل على توسيع نطاق اليسر في الولايات الشمالية ووضع قوانين استرشد في وضعها بالحكمة والتروي لتعزيز الصناعة في البلاد وانجز في مانطو الحصون التي كان الامبراطور قد شرع في تشييدها وفتح الطرق وانشأ ادارة خاصة للجسور والطرق وعني الامير اوجين بالمحاكم وتطهيرها من الفساد الذي تلصص اليها في اثناء الحرب وجعلها تقضي بموجب قانون نابوليون وقانون المرافعات الجديد وانشأ مدارس وعضد التعليم ومد لواء حمايته على الفنون الجميلة والصناعة والتجارة ولطف معاملة المسجونين وبنى اسطولا صغيرا وقد دل هـذا الحاكم الجديد الذي لم يطو من عمره سوى خمس وعشرين سنة ولم يكن قد تخرج قبلا تخرجا كافيا على فن الحكم على انه يعرف حق المعرفة مابين الشعب وحاكمه من الفرق البين في اللغة والاخلاق والعادات ومابين بلاده وبلاد شعبه من الفرق في الاحوال الجوية

وحاول الايطاليون غير مرة ان يلقوا عن مناكبهم نير الاجنبي ولكنهم فشلوا في مساعيهم وعلموا ان اليد التي تسلطت عليهم من حديد وهي يد نابوليون العظيم ولكن الاحوال كانت تقضي بأن يسير نائب العاهل في ايطاليا على خطة المجاملة والملاينة وان يجاهر بالاهتمام بشؤون الشعب الملقاة اليه بمقاليد ادارته . وكان اوجين بوهرنه متحليا بالصفات اللازمة لمثل هذا النائب .

واذا لم يكن نجل جوزفين قد أوتي دهاء امتاز به عن اقرانه فانه ولامراء رزق ارادة شديدة وذوقا سليما كان الامبراطور يقدرها حق قدرهما وكان خبيراً بجميع ضروب الاقتصاد في ادارة الشؤون ولذلك تسنى له ان يقتصد ٩٢ مليون فرنك في خلال السنوات الثماني التي قضاها في منصبه . ولابد من القول بان البلاد التي كانت ادارتها مسندة اليه تشتمل على نحو نصف بلاد ايطاليا وقد اشتهرت بخصبها وهي تتألف من تسكانيا والالب اليوليانية .

ولما زحف الجيش العظيم الى استرلتز شعر الامير اوجين بدبيب الحماسة يدب في صدره واشتد فيه النزوع الى مشاطرة ذلك الجيش قتال الاعداء والتنكيل

بهم فالتمس من الامبراطور الترخيص له بموافاة الجيش ولكن العاهل لم يوافقه على طلبه وفضل ان يعهد اليه في حماية الحدود النمسوية لصد النمسويين عن غزوة ايطاليا فانقبض صدر الامير لما بلغه امر الامبراطور لان دمه كان يغلي غليانا ويدفعه الى خوض غمار القتال ولكن احترامه للسلطة العليا عقل لسانه عن الشكوى فكافأه نابوليون عن امتثاله لاوامره وكان شديد العطف على ربيبه ففكر في بناء صرح مستقبله بتزويجه وكان العاهل قد ابصر الاميرة أوغسطا اميليا كريمة مكسيميليان يوسف ملك بافاريا فاعجبه مالاحظه فيها من الصفات النبيلة وجمال الخلق والخلق فطلبها من والديها لربيبه الامير اوجين فوافقه والداها على طلبه بعد ماترددا في الامر وانتظرا ريثما يأتي الشاب لرؤية الفتاة وكان هذا في مقره في ميلانو ولما انتهى اليه الخبر خف الى مونيخ حيث كانت والدته ونابوليون ينتظرانه فقدماه الى خطيبته وبعد ماتم التعارف وانس كل من الشاب والفتاة ميلا الى الآخر عقد قرانهما بعد اربعة ايام في ١٤ ينايرسنة ١٨٠٦ في حفلة شائقة شهدها كبار البلاطين الفرنسوي والبافاري وكانت العروس في الثامنة عشرة من عمرها وانعم عليها نابوليون بدوقيتي بارم وبليزانس اما اوجين فانه لما عاد نهائيا الى باريس في سنة ١٨٠٧ تبناه نابوليون رسميا واعلن ذلك في مجلس الشيوخ واطلق عليه اسم نابوليون اوجين دي فرانس ومنحه لقب « أمير البندقية » وعينه خليفة له على عرش ايطاليا ومن ذلك الحين لم يكن يناديه الا « يا ابني » . فهتف الحاضرون هتافا شديدا لما أعلن نابوليون تبنيه لاوجين وكانت وجوههم طافحة بالبشر والابتهاج اما الامير اوجين فلم يكترث لهذه المظاهرات لزعمه أنها موجهة لنابوليون فلحظ هذا ذلك وقال له : «اشكر لهم يا اوجين فانهم يصفقون لك . »

وكان المرسوم الامبراطوري الذي اذيع في ميلانو مؤرخا في ١٦ فبراير سنة ١٨٠٦ ولكن الامبراطور راعى بعض الاسباب السياسية ولم يعلنه قبل هذا الحين وكان ينطوي على خمس مواد أعرب فيه الامبراطور الشديد الحول والطول عن ارادته فكانت كبرياؤه تبعثه على الاعتقاد بانه سينشىء أسرة مالكة يكون هو ارومتها ولكن الحق سبحانه وتعالى يدبر غير مايفكر به الانسان فانه حطم الصنم الخزفي الرجلين في الحين الذي شاءه .

وعاد الامير اوجين وزوجته الى ايطاليا واستأنف مهمته فيها وكان جل اهتمامه منصرفا الى ارضاء نابوليون باعماله . ولم يكد يصل الى ميلانو حتى تلقى أمراً من باريس بالوقوف بالمرصاد للجيوش النمسوية وكانوا يخشون من هجومها على ايطاليا في الحرب الجديدة التي اوقدت نيرانها في سنة ١٨٠٧ . وكان في اثناء قيامه بمهامه الحربية انه ولدت له ابنة في ١٤ مارس سنة ١٨٠٧ سماها جوزفين مكسيميليانة اوجيني نابوليونة وقد شاء نابوليون ان يظهر عطفه المتواصل على ربيبه الذي تبناه فمنح الطفلة لقب اميرة بولون وقد انشأه خصيصا لها .

على ان الامير اوجين مع ما اشتهر به من الصدق والاستقامة مر عليه زمن جنح فيه عن الطريقة المثلى وجارى تيار سياسة نسجت على منوال الدسائس وتحرير الخبر انه وضعت وثيقة ايطالية على مثال الوثيقة (الكونكوردا) المعقودة في سنة ١٨٠١ بين الكرسي الرسولي وفرنسا فان الجنرال ميولي استولى على انكونا أثمارا بأمر نابوليون وقد اشتد النضال بين السلطة الروحية التي لاتلين مجستها لاحد والسلطة الامبراطورية التي كانت اوربا تتطامن امامها وكان رجل شيخ ليس له من سلاح الاحقه قد توخى التصدي لهذه السلطة الاخيرة وكان نابوليون في درسد في ذلك الحين فانفذ كتابا الى الامير اوجين اغلظ فيه الكلام عن الحبر الاعظم وكان هذا الامير يستطيع ان يلطف المسألة بعدم نشر الكتاب ولا سيما لانه لم يكن مأمورا بذلك ولكن لما رأى قواد الامبراطور ان مولاهم يتعمد تحقير رئيس الكنيسة الكاثوليكية الاكبر توهموا انهم موعز اليهم بسلوك مسلكه واستدرج الامير اوجين الى هذا الامر فأرسل كتاب الامبرطور الى البابا بيوس السابع وضم اليه مذكرة كتبت بلهجة التحقير وقد بقيت هذه المذكرة وصمة عار لطخت بردة سمعة الامير كل حياته رغما مما حاول بعض الكتاب ان ينشروه ليدفعوا عنه معرة اللوم من هذا القبيل.



الخفير البريطانى يمنع نابليون عن المرور فى جزيرة القديسة هيلانة

٣
اوجين بوهرنه

في حروب الامبراطورية

وكان نابوليون شديد الميل الى اغداق سحائب نعمائه على كل فرد من افراد اسرته وهو ينوي بذلك ان يؤلف منهم بلاطاً مماثلا لبلاط اقدم الامبراطوريات الاوربية وكذلك آثر الامير اوجين بوهرنه على المرشال ماسينا وقلده قيادة جيش ايطاليا واسند اليه ادارة شؤون الحكومة فيها .

وزحف كل من الارشيدوق جان والارشيدوق شارل من جهتين مختلفتين في شهر ابريل سنة ١٨٠٩ من دون ان يكون قد سبق اعلان الحرب بين فرنسا والنمسا وكانا يقودان ١٢٠ الف مقاتل واستصحبا معهما المسيو دي هورماير السياسي المشهور لانه كان مطلعا على جميع اسرار الدسائس في البلاد الالمانية والبلاد الايطالية . وكان الامير اوجين في ذلك الحين في بلما نوفا وهي مدينة صغيرة في ولاية اودين ولم يكن يتوقع الهجوم عليه قبل اواخر شهر ابريل ولم يكن عنده الا فرقةسيراس وفرقة بروصيه وكان يتفقد طلائع جيشه مؤتمرا باوامر نابوليون . وكانت الفرق الست الاخرى المؤلف منها الجيش موزعة على اما كن تبعد عن مركز القيادة العامة . ولما فوجيء الامير اوجين وكان قليل الاختبارمع تعوده الحرب لم يتمكن من الحيلولة دون تقهقر طلائع فرقة الجنرال بروصيه ولم يستطع صد جيش الارشيدوق جان عن عبور الايزنزو ولم يلق بدا من التقهقر

واجتازت فرقتا سيراس وبروصيه التغليامنتو بأمر الامير أوجين وزحفتا الى ليفنزا وهو مكان يجهلون حقيقة موقعه . وقضى النمسويون أربعة أيام في الزحف من الحدود الى ضفاف التغليامنتو ولم يعرف الامير أوجين أن يغتنم الفرصة من هذه المهلة الطويلة فان قائداً غيره من القواد المحنكين كان يستطيع أن يحشد جنوده ويستعد لمواقعة العدو بهم ولكنه لم يفعل ذلك بل أزمع التقهقر لئلا يعرض جنوده للمتالف ومع ذلك لم يشأ بما فطر عليه من الجرأة والاقدام وبما كان يهب في صدره من نسمات النبل والانفة أن يتقهقر تقهقراً يتوهمه العدو انهزاماً .

وكان جيشه مؤلفاً من جنود شابت نواصيهم في ساحات الروع وكانوا قبلا تعتز بهم الجمهورية ومع حبهم لربيب قائدهم الا كبر الذي كان يقودهم الى ميادين الشرف لم يرقهم تردده في موائبة العدو فأطالوا لسان الانتقاد له وشكوا من قلة اختباره في فن الحرب ولا يخفى أن الانتقاد عند الجنود وعند طلبة المدارس لا يلبث أن ترتفع به أصوات المنتقدين وينتشر بسرعة فسمع الامير أوجين انتقاد الجنود ورأى تفتق بنائق صبرهم وكان سكان بلدة ساشيل يجاورنهم في المجاهرة باستيائهم من تردد الجيش الفرنسوي في مناهضة العدو وكان هؤلاء السكان يخشون من اقتراب النمسويين ويتوسلون الى القائد بألا يهملهم ويوليهم ظهره .

وكان الموقف حرجاً رهيباً : فمن الجهة الواحدة يشعر الجنود بقلق شديد ومن الجهة الاخرى يصر القواد على طلب مناجزة العدو والموت في ساحة المجد . وكان السكان مرتاعين من دنو النمسويين وطلبوا من الجيش الفرنسوي الدفاع عنهم . وكل ذلك كان يجري وجيش الاعداء يزحف ناعم البال .

فجمع الامير أوجين قواده وكانوا أشد اضطراباً منه فتسقطهم عن رأيهم في تلك الحال ولكن اولئك الشجعان الذين اشتهروا بالبسالة والاقدام في الحروب لم يؤتوا موهبة البراعة في قيادة الجيوش فتضاربت آراؤهم في المجلس الذي عقدوه فكان بعضهم يرى التقهقر ضروريا وكان غيره يرى عكس رأيه ويشير بالاندفاع الى معترك الهيجاء وقد كان من الضروري في ذلك الموقف أن يكون بينهم داهية يستطيع بنظرة واحدة أن يدرك ما يجب عليه عمله ليعزز الموقف ويدفع الغوائل ويذود عن الدمار ولكن الامير أوجين لم يكن ذا جرأة على رد مزاعم قواده وتسفيه الآراء الفائلة التي أبدوها فقرر العمل برأي الاكثرية أي مقاتلة العدو وأذاع على الجيش النشرة الآتية :

« أغار علينا الجيش النمسوي وهذا العمل أقدمت عليه حكومة فينا غير مراعية مكارم امبراطورنا الكريم وقد تناست استيلاءنا على ألم وانتصارنا في معركة استرلتز المشهورة ودخولنا فينا ظافرين ومعاهدة الصلح المعقودة في برسبورغ وقد أعيدت اليها بموجبها الولايات التي لم تحسن النمسا الدفاع عنها .

« أيها القواد والضباط والجنود يطلقون عليكم لقب « جيش ايطاليا » وليس لي ما أزيد عليه شيئاً أو لا يذكركم هذا اللقب بوجوب اتيان الاعمال

الباهرة . لقد طال عليكم عهد البقاء بلا عمل ولكن أعداءكم فتحوا لكم الابواب للخروج من هذه الحال فأشرقت عليكم شمس المجد ولا يذهب هذا اليوم بلا نتيجة قيمة فأنا أعرفكم ويجب عليكم أن تتخذوا لكم شعاراً « النظام والثقة » وعلى كل منكم أن ينهض بما يجب عليه فنحرز بمعونته تعالى رضاء نابوليون . »

أجل إن هذا الكلام مفعم حماسة وطنية توقظ الشجاعة من مربضها ولكن الامير أوجين ورئيس أركان حربه شربنتيه لم يحسنا وضع الخطة الحربية وإدارة الحركات العسكرية للوصول الى نيل الانتصار فلم يراع الامير موقع الارض ولم يقف على موقف العدو وفعل عكس ما كانت تقتضيه الحنكة وفن الحرب فوزع فرقه على أماكن متعددة ولبث وحده في مكانه ينتظر هجوم العدو .

وانكسر اوجين وجيشه امام النمسويين في مساء ١٥ ابريل في بوردينوني وفي ١٦ منه في ساشيل وكتب قائد جيش ايطاليا الاكبر رسالة موجزة الى الامبراطور في مساء ١٦ ابريل هذه ترجمتها :

« يا أبي احتاج صفحك . خشيت من ملامك ان انا احجمت فواقمت العدو وانهزمت .»

ولاينبغي للمؤرخ ان يشوه وجه الحقيقة فان الامير اوجين تم في ذلك الوقت العصيب باسرار شجاعة وهمة نادرتين ولكن وفرة عدد العدو ودهاء قواده وخبرتهم في مواقع ذلك الاقليم فتت في عضد الامير اوجين ورجاله المغاوير وعلاوة على ذلك لم يكن له من العمر الا ثماني وعشرون سنة ويستنتج من هذا ان الملوك والحكومات لاينبغي لهم ان يستسلموا الى العواطف الشخصية لاسناد المناصب السامية الى اشخاص لا يستطيعون ـ مع كفاءتهم الشخصية ـ ان يذللوا مايقوم في وجوههم من المصاعب وقد قال المسيو تيارس الشهير في هذا الصدد : « انهم كثيرا مايبذلون دم الجنود الثمين ويعرضون حظ البلاد للخطر فالملوك ورؤساء الجمهوريات يقلدون اولادهم او اخوتهم أو المقربين اليهم من غير اصحاب الكفاءة مناصب تجعل حياة رجالهم مستهدفة لنبال المهالك وحظوظ بلادهم رهن الخطر . »

في مثل الاحوال التي بسطناها كان الامير اوجين قادرا على تولي قيادة فرقة من الجيش من دون ان يكون قادراً على تولي قيادة جيش كامل ولا سيما حين

يكون في هـذا الجيش قواد نظير لامارك البالغ من العمر تسعا وثلاثين سنة وغروشي الذي كان في الثالثة والاربعين من عمره في ذلك العهد وحين يكون القائد الاكبر يحارب جيشا يقوده قائد همام كالارشيدوق جان النمسوي وقد عرف نابوليون في الحال الخطأ الذي ارتكبه ربيبه فبادر الى مجاوبته على رسالته وكتب اليه للمرة الاولى كتابا جافيا واليك بعض ماجاء في هذا الكتاب

« لا بأس من اندحاركم وقد كان يجب علي ان اتوقعه حين قلدت شابا خاليا من الاختبار قيادتكم على انني لم اشأ ان يتولى الامراء البافاريون والسكسونيون والورتمبرجيون قيادة جنود من بلدانهم وسأرسل اليكم مددا يسد مسد الخسارة التي منيتم بها أما الانتصار الذي اصابه العدو فسأصيره عقيما ولكن لابد لي من ان اقف على الحقيقة ليتسنى لي هذا الامر وانا خالي الذهن من كل خبر يتعلق بذلك وأراني مضطرا الى مراجعة النشرات الاجنبية لعلي أصل الى الحقيقة التي ضننتم علي بها وأنا آفعل مالم أفعله قط وما يجب ان يعرض عنه قائد محنك فاطير باسطا جناحي في الهواء من دون ان ادري مايجري حوالي ولعمري ان بقائي جاهلا للحقيقة يقض مضجعي . »

ثم أضاف نابوليون الكلام الآتي ومنه يستشف مايدخره من تقدير ماسيناحق قدره :

« الحرب لعبة خطيرة يعرض فيها الانسان شهرته وجنوده وبلاده لنبال الخطر والعاقل يأنس من نفسه ميلا او نفورا من الحرب ومزاولتها ولم يخف علي انكم تغالون في ايطاليا بالغض من كرامة ماسينا فلو ارسلته قائدا لجيشي فيها لما نزل بهذا الجيش مانزل من البلاء فاسينا معروف بمقدرته الحربية ويجب عليكم ان تحنوا الرؤوس جميعكم امام هذه المقدرة المجربة واذا كانت فيه عيوب فينبغي لكم ان تغضوا عليها الطرف لجل من لاعيب فيه وقد اخطأت باسنادي اليك قيادة الجيش ... »

أجل ان هذا الكلام كان شديد اللهجة وقاسيا ومما بعث عليه هو ان اوجين قصر في ارسال الايضاح اللازم مع النشرة الرسمية

وكان ان الصمت الذي طال اجله اياماً ساء الامبراطور وصير الامور كثيرة التعقيد في نظره

وكان كلام الامبراطور السابق كطمنة نجلاء في صدر الامير اوجين الشاب فصمم على نسخ ما علق بذهن الامبراطور بانتصاره انتصارا باهرا وقد قرن الفكر بالعمل فانه كان يرغب من صميم فؤاده ان يرى الجنرال مكدونال الى جانبه فلم يمض عليه وقت طويل حتى جاءه هذا القائد المجرب الهمام .

وتقدم جيش الارشيدوق جان النمسوي الى نهر الاديج وهو يجر ذلاذل النصر وقد أضاع في ذلك الاقليم فرصة ثمينة اغتنمها اوجين فانه في خلال الايام الثمانية التي قضاها العدو بلا عمل ثاب اليه روعه واستعرف مواقع العدو واكثر من مخالطة قواد جيشه وشدد عزائمهم بعد ما كان انكسارهم في ساسيلي قد أوهاها .

وتفقد الجنرال مكدونال الاماكن المجاورة فابصر ذات يوم عن بعد عددا كبيرا من الجنود ومعهم عدد الحرب وخيل اليه انهم يتقهقرون ميممين فريول وانهم من النمسويين ولكن ما عتم ان انقلب توهمه حقيقة فوخز جواده ودنا من اوجين واشار بيده الى ما كان يبصره وقال : « لقد انتصر الامبراطور في المانيا فلنزحف الى الامام »

وقد أصاب الجنرال مكدونال في حدسه فان نابوليون انتصر على جيش الارشيدوق شارل انتصارا باهرا في راتسبن ولكن الامير اوجين ورجاله لم يكونوا قد تلقوا تلك البشرى . فاشرق جبين اوجين لما بلغه هذا الخبر غير المنتظر وشد وراء الجيش النمسوي وكان الخوف قد دخل على النمسويين فقاتلوا مكرهين وليس لهم مطمع الا في الاسراع في الهرب واشتدت الحماسة في قلوب الفرنسويين فزحفوا بقيادة الامير اوجين الى جهات الالب الكادورية الجنوبية ونموا باسرار جرأة عجيبة بين الاديج وبيافي وانتهى القتال في ٧ مايو ١٨٠٩ بعد ما ترك النمسويون ٢٥٠٠ قتيل ومثل هذا العدد من الجرحى وعددا كبيرا من المدافع والذخائر الحربية في ساحة الروع.

واستؤنف القتال في ٩ مايو فظفر اوجين ظفرا مبينا بالارشيدوق جان في ١٢ منه في سان دانيالي واوزوبوا وانهزم النمسويون ومعهم ثلاثون الفا من جنودهم وقد تركوا ١٨ الفا في ميدان الوغى فكان في هذا الانتصار تعويض

للامير اوجين عن الانـكسار الذي لقيه في ساسيل وقد تلقى نابوليون نشرة من جيش ايطاليا نذكر منها الفقرة التالية :

« تصرف الامير تصرفاً جديرا بابن الامبراطور وقد اعجبت برباطة جأشه وجرأة مقدمه .» وكان الانتصار الذي أصابه الفرنسويون في ايطاليا حلقة جديدة تضاف الى سلسلة الانتصارات التي ظفر بها الفرنسويون في تلك البلاد ولما انتهى خبر هذا الانتصار الى نابوليون وهو في فينا طلب من الامير اوجين ان يقدم اليه فيها فبادر الامير الى تلبية الطلب مارا بكارنثيا واستولى وهو مار فيها على قرية ملبورغتو الصغيرة ووصل الى الجيش العظيم فسر به نابوليون سروراً عظيما وقال « لم يقدم عليّ مدفوعا بعوامل الشجاعة بل بعوامل العواطف » ونسخ انتصار الامير اوجين وانضمامه الى الجيش العظيم ما كان قد علق بالاذهان على اثر الانـكسار في ساسيل .

وكان اعداء نائب الملك قد سعوا لتنكير نابوليون عليه واتهامه بالعجز عن تولي القيادة العامة على ماتقدم بيانه فاغلظ له نابوليون الـكلام في الرسائل التي وجهها اليه ولـكن الامبراطور نسي ماجرى في الماضي لما انتهى اليه خبر الانتصارين اللذين احرزهما الامير اوجين في بيافي وسان ويله .

وكان امام هـذا الامير الشاب مجال واسع لاظهار ما امتاز به من الجرأة والمقدرة الحربية فانه ساق المتالف وهو على مرتفعات ليوبن الى جيش الجنرال يالاشيش ولم يكن عدد رجال اوجين يزيد على ٣٣ الفا وحينئذ تيسر له ان يزحف الى فينا من دون ان تتصدى له العقبات وبعد ما اذن لرجاله بان يستريحوا حينا من الزمان ذهب بهم الى نوستاد ثم الى اودنبورغ ليرصد حركات الارشيدوق جان وسكناته ووصل في ٩ يونيو الى ضفاف نهر رعب فلقي مكدونال وسر كثيرا باجتماعه به

وانقدت نيران المعركة في ١٤ يونيو حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا فـكانت معركة هائلة وكان المـكان النازل فيه النمسويون افضل من المـكان المخيم فيه الفرنسويون من الجهة الحربية ولـكن كان عـدد الجنود متساوياً من الجانبين وكان الامير أوجين يتنقل بين صفوف جنوده راكباً جواده في ساحة القتال ورصاص العدو يتساقط عليه كالوبل فـكان يشجع الجنود وينعش قوى الضباط

ويجازف بنفسه مجازفة ببسالة نادرة عجيبة وأتى القواد سيراس ودوروت وسيفيرولي أعمالا عظيمة تدل على جرأة لا يفل حدها وقد استولوا على قرية سزابادهيجي وكان عملهم هذا فاتحة الانتصار فان فرقة ساهوك هجمت على الاعداء على ضفة رعب اليمنى وأكرهتهم على الاستسلام فاسرت منهم عدة آلاف وغنمت مقادير كبيرة من المدافع وأتلفت قسما مما لم تستول عليه ولما رأى قواد الجيش النمسوي أن رجالهم خذلوهم دخل عليهم الخوف وتزلزلت أقدامهم فتقهقروا وقد ساعدهم موقع الارض وانتشار الظلام على التقهقر بانتظام ولم يفقد الفرنسويون في هذه المعركة سوى ألفي رجل وكان لهم فيها تعويض عما نابهم من الخسارة في معركة ساسيل أما خسارة النمسويين فكانت عظيمة فما عدا قتلاهم الذين عدوا بالالوف تركوا في ميدان الوغى ثلاثة آلاف جريح وتاه منهم الفان وسقط في أسر الفرنسويين ٢٥٠٠ وعانق المرشال مكدونال في ساحة الروع المنتصر الشاب وكان يهتم دائما بأمره وقد سمى نابوليون هذا الانتصار «حفيد مارنغو»

٤

الامير اوجين

وطلاق نابوليون لجوزفين

وجعل الامير اوجين مركز قيادته العامة في برسبورغ بعد معركة وغرام وقد اشترك فيها هو وجيشه ولكنه ما لبث ان رجع الى ميلانو وكانت الحال تقتضي وجوده فيها على انه لم يطل مدة إقامته فيها فقد كان منتظراً وقوع حوادث خطيرة في فرنسا فدعاه اليه نابوليون الى باريس في ٢٦ نوفمبر ليفاوضه في ما كان ينوي أن يفعله لتطليق جوزفين دي بوهرنه ورأى أن الابن يكون أفضل من غيره لتبليغ والدته ما يبتغي أن يبلغها إياه مما عقد عليه عروة العزم فكتب اليه ما يأتي : « يا ابني أريد أن تغادر ميلانو بحيث تستطيع الوصول الى باريس في ٥ دسمبر أو ٦ منه تعال وحدك ومر بفنتنبلو» . وكان الامبراطور قد صمم على كتمان مقاصده قبل وصول أوجين نخف هذا الى السفر على جناح

السرعة امتثالا للامر وكان في أثناء السفر يطلق باز الفكر في جو التفكير وقد توهم صحة ما قالته له زوجته وهو ان الامبراطور دعاه الى باريس ليذيع رسميا انه يتخذه وليا لعهده .

وفي حديث دار بين نابوليون وكمباسارس أثنى الامبراطور على الامير أوجين وقال انه يمنحه الاثرة على غيره ونوه بما أداه من الخدم المشكورة للدولة وبمزاياه الحميدة ولكنه لا يمكنه أن يتخذه وليا لعهده ليخلفه على العرش في فرنسا لانه لم يكن متحدراً من دم امبراطوري ولان أعضاء الاسرة البونابرتية العابثة بهم عوامل الحسد لا يلينون لاوجين مقادتهم ولا يخضعون لسلطته أبداً .

ولم يبق السر مكتوماً كل الكتمان فانه تسرب من القصر الامبراطوري الى الخارج وحالما وصل أوجين الى باريس خفت شقيقته هرتنس الى لقائه وأوقفته والدموع تلج في عينيها على ما كان الامبراطور قد صمم عليه . فأدرك الامير أوجين في الحال تداعي صرح مجده وتمثل في ذهنه انه اذا طلق نابوليون جوزفين وتزوج بامرأة أخرى وولدت له أولاداً جلسوا بدلا منه على عرش فرنسا وإيطاليا . أجل انه لم يسع قط وراء عرش فرنسا ولم يرغب فيه ولكنه كان يرى ان مملكة إيطاليا تخصه وانها ميراث له فقد حلت عليه الآن ضربة مزدوجة بصفة كونه ابناً وأميراً وأبصر انهيار بناء مقاصده العالية الذي كان قد شيده في ذهنه وكيفما كان الامر لم يكن له مندوحة عن تلقي تلك الضربة الشديدة بصدر رحب وعزيمة متينة فقد كان من المقضي عليه أن يكون عضداً ومعزياً لوالدته وشقيقته وقد قضت عليهما الاقدار بأن تجرعا كؤوس المهانة مترعة الى اصبارها .

ودخل أوجين على الامبراطور فضمه نابوليون الى صدره وعانقه وباح له بأسرار عطف شديد ولكن أوجين لم يعبأ بشيء من ذلك لان الطعنة التي طعن بها فؤاده كانت نجلاء وحسبه أن يتصور والدته هاوية عن العرش حتى تدك دعائم همته .

وأدخله نابوليون على جوزفين فوقع كل من الابن والام على عنق الآخر وكان أوجين يتعذب لاجل والدته وشقيقته أكثر مما يتعذب لاجل نفسه فكان يقول : « يجب على والدتنا أن تبتعد وأن نبتعد معها لنكفر في العزلة عن عظمة وقتية أقلقت حياتنا أكثر مما زينتها . »



نابوليون يملي مذكراته على لاس كاس الحدث

وكان نابوليون قد اسند قبلا الى اوجين منصب العضوية في مجلس الشيوخ ولكنه لم يجلس على كرسيه للمرة الاولى الا ليتلو فيه السطور التالية التي دبجتها يراعة الامبراطور نفسه : « والدتي وشقيقتي وانا مدينون بكل شيء للامبراطور فقد كان لنا اباً حقيقيا وسيلقانا في كل حين ولدين مخلصين له وخاضعين لاوامره

« فهناء فرنسا يقتضي ان يشيخ منشىء الاسرة الرابعة بين اولاد يتحدرون من صلبه ويكونون ضماناً لسعادة الجميع ولمجد الوطن

« ولما وضع التاج على مفرق والدتي بيد زوجها العظيم باسم الامة جمعاء عاهدت والدتي على بذل كل ماعندها من العواطف في سبيل مصلحة فرنسا . . . وقد تأثرت نفسها غير مرة من رؤيتها عوامل الاسى تمزق بعداها قلب رجل تعود ان يتسلط على الاقدار وان يوسم الخطى في الطريق الذي يوصله الى غرضه السامي . »

وما من أحد يشك في ان هذه الكلمات لم يفه بها اوجين الا بطرف شفتيه وانه لم يقرأها الا مكرها لان معرفة الجميل حملته على ذلك وكان ايضا يخشى ان يستاء منه الامبراطور اذا هو رفض ماأمره به .

ولما قضي الامر ونفذ السهم رافق اوجين والدته الى المالميزون واحاطها بنطاق حبه البنوي ليجعلها تنسى عظمتها الزائلة

وكانت زوجة اوجين قد بقيت في ميلانو وكانت على اتصال معه بالمكاتبة وجعلتها نفسها الكبيرة تقهر القدر الذي رشقها بسهمه فكتبت الى زوجها مايأتي:

« محيت اسماؤنا من جدول العظماء ولكن كتبت في سجل السعداء »

وعاد الامير اوجين الى ميلانو ولكنه لم ير بدا من الرجوع الى باريس ليشهد ولادة ملك رومية في ٩ دسمبر سنة ١٨١٠ وقد حضر هذه الحفلة بصفة كونه اميراً فرنسوياً ولكن قلبه كان مع الامبراطورة المنزوع التاج عن جبينها .

ولما شخص نابوليون وماري لويز الى شربورغ رافقهما الامير اوجين . ومع انه كان راغبا في اعتزال السياسة رضي بان يقبل من الامبراطور لقب غرندوق فرنكفور

واقترح نابوليون على الامير اوجين في سنة ١٨١٠ ان يقبل تاج اسوج الذي قبله برنادوت فيما بعد ويقول بعض المؤرخين ان الامبراطور كان يرغب رغبة صادقة في ان يرى ربيبه جالسا على عرش غستاف ادولف ولكن الامير الشاب

اعتذر عن قبول ذلك لانه كان يرى نفسه غريباً في تلك البلاد وبعيدا عن وطنه وآثر البقاء في ايطاليا معتصما بعرى الدين الكاثوليكي الذي ولد فيه

وكان الامير اوجين في اثناء مقامه بميلانو يقضي معظم وقته في الدرس ويسعى لتحسين احوال بلاده وكان بينه وبين الامبراطور مكاتبات تدل على لين جانبه وطول باعه في الشؤون الادارية ولم يترك ميلانو الا للانضمام الى الجيش العظيم لمحاربة روسيا.

٥

معركة روسيا ـ عبور البرسينا

وذهب الامير اوجين الى باريس في ابريل ١٨١٢ ليودع والدته قبل انطلاقه الى معركة روسيا فاجتاز المانيا بجيشه الايطالي المنظم ميمماً مايانس فبلوك وهناك اسندت اليه قيادة الفيلق الرابع . وبينما كان في ضواحي مدينة بلوك على ضفاف الفستول قدم عليه وفد من بولونيا ليقدم له تاج بلاده . وكأن الاقدار اصرت على وضع اكليل على مفرقه ولكنه نبذ ما كانوا يقترحونه عليه .

وكتب الكونت دي سيغور قائلا : « كان نائب الملك في ايطاليا نازلا في ماريوبول على رأس ٧٩٥٠٠ من البافاريين والايطاليين والفرنسويين وانتقل الى كروني في اول يوليو بعد ما ضم شمل جنوده الذين كان الزمهرير قد برح بهم وكانت الدوسنطاريا تفتك بهم فتكا واستطاع ان يعبر الدوينا بعد جهد شديد بينما كان الجنرال دوكتوروف الروسي يتقهقر برجاله وشهد المعارك في استروفنو وموهيليف وارتدى فيها بمطارف الفخر والمجد وأدى الامير اوجين في موسكو خدماً جليلة للامبراطور نابوليون ايدت ما كان مشهورا عنه من الشجاعة والاقدام فانه بما أوتيه من المقدرة الادارية والحنكة العسكرية تمكن من دفع الغوائل عن الجيش العظيم في عاصمة القياصرة القديمة واستطاع ان يحتل حصن بورودينو المنيع وكانوا يعتبرونه مفتاحاً لتلك المواقع فكان من وراء عمله هذا الظفر العام »

وقضت الحال بعد ذلك بالعودة وكان ذلك اعظم الاهوال واشد المخاوف ويقول الجنرال دي سيغور في هذا الصدد ما يأتي :

« احاط الروس على ضفاف نهر الووب بالفرقة الرابعة عشرة التي كان الامير اوجين يقودها فشاء هـذا القائد المقدام تخليصها ولـكن الجنود والضباط كان البرد القارس قد خدر جسومهم فان درجة الحرارة هبطت الى العشرين تحت الصفر بالمقياس المئوي وكانت الريح الصرصر تزيدها شدة فاضطجع الجنود على الرماد الحار وحاول القواد على غير جدوي أن يروهم العدو محيطا بهم يتحفز للانقضاض عليهم وكان الرصاص والقنابل تتساقط عليهم كالمطر المدرار ولـكنهم اعاروهم آذانا صماء وقالوا انهم يفضلون الموت على تحمل مشاق تلك العيشة وشظفها وقد تمكن الامير اوجين بشق النفس من انقاذ ساقة الحرس . »

وشرع الجيش العظيم في التقهقر في ١٩ اكتوبر ١٨١٢ ووقع قتال في ٢٤ منه في مالو اياروسلوتز وويازما وكان زحف الامير اوجين الى كراسنوي قـد جعله معدوداً من دهاة القواد فانه استطاع بجيشه القليل العدد ان يضلل الروس عن تعقبه وكان عدد الروس ثلاثين الفا ووصل الى كراسنوي حيث كان نابوليون فابتهج الامبراطور بمقدمه وعانقه وكان يظن أنه لن يبصره .

وخلص الامير اوجين المرشال ناي في ضواحي اورخا وكان الروس قـد اوشكوا أن يحيطوا به وبرجاله في ليل ٢٨ نوفمبر ثم عبر البرسينا ولهـذا العبور ذكرى مؤلمة في تاريخ الجيش الفرنسوي لا تمحوها يد الدهر فان الجنود الفرنسويين ذاقوا من العـذاب اشكالا والوانا في عبورهم لذلك النهر . واسندت الى الامير اوجين قيادة طلائع الجيش بعد يومين

وصمم نابوليون في ٥ دسمبر ١٨١٢ على ترك الجيش والرجوع الى فرنسا وفاوض في هـذا الامر الامير اوجين ومورات وبرتيه والقواد الآخرين ثم قلد ملك نابولي القيادة العامة . وكان من المعروف عن مورات انه متناه في البساطة في علاقاته الاجتماعية بقدر ما كان شجاعا في الحروب ولذلك لم يستطع أن يضطلع بالمهمة التي عهد فيها اليه فاستاء منه كثيرون من القواد وفي جملتهم الامير اوجين وكان هذا شديد الرغبة في العودة الى ايطاليا فـكتب الى الامبراطور ما يأتي :

« يا صاحب الجلالة وقفت حياتي على خدمتك ويشق علي ان استعملها لمجد غيرك ولا سيما حين تـكون عواطف هـذا الشخص عدائيـة نحوي وجلالتك

تعرف حقيقة هذه العواطف ولذلك اجرؤ على الاستئذان من جلالتك بالرجوع الى ايطاليا في الحين الذي تراه ملائما . »

فلم يمالئه نابوليون على طلبه وكتب اليه من سمورغوني مايلي :

« يا ابني انهض بما يجب عليك واتكل علي . »

فاذعن الامير اوجين لمشيئة مولاه وبقي مع الجيش ولم يكن يبتغي العودة الى ايطاليا الا للابتعاد عن المكان الذي التي فيه مورات الشقاق بين القواد .

وعادت البهجة الى فؤاد الامير اوجين فكتب الى زوجته : « دعي المزاح جانبا وانتظري ان تبصري كثيرين منا فقدوا انوفهم وآذانهم وهل يمكنك ان تصدقي يا عزيزتي انه لم يبق معي سوى الفي رجل من فيلقي الكبير وقد جرح نحو نصفهم . »

وبعد أيام قليلة ادعى مورات انه مريض ففصل عن الجيش مغادرا اياه ليعود الى نابولي ولم يكن له من مبرر لعمله هذا وقد حمله على ذلك وهن العزيمة والتواني وانتشر بين الجيش السبب الحقيقي لذهاب مورات . ولما انتهى هذا الخبر الى نابوليون كتب الى ربيبه الكتاب الآتي :

« يا ابني تقلد قيادة الجيش العظيم ويسوؤني أن لا اكون منذ البدء قد قلدتك هذه القيادة واؤمل انك تضطلع بهذه المهمة وانك لاتفقد عدداً كبيراً من هذا الجيش فما فات لايمكن اصلاحه . »

وعاد القائد العام الجديد بالجيش الى مغدبورغ مذللا مصاعب شتى تصدت له في طريقه . وكان عبور البرسينا بمثابة مقبرة للجيش وابدى الامير اوجين شجاعة تفوق الطوق البشري لانقاذ فلول الجيش فكان يقيل عثار فريق منه صرعته الشدائد وينفخ روح الجرأة في فريق آخر تداعت عزائمه وقد اعتقد ان وجود شخص يتولى الزعامة في مثل ذلك الموقف الحرج ويكون رابط الجأش بعيد النظر قادراً على انعاش قوى الجيش امر لامندوحة عنه .

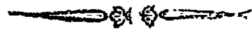
ولا يخفى ان جميع المؤرخين الذين كتبوا عن تقهقر الجيش العظيم الى مغدبورغ اثنوا على اختلاف منازعهم السياسية على ما ابداه الامير اوجين من جرأة المقدم وحسن الادارة في ذلك الموقف العصيب وكان للامير اوجين نصيب كبير في الانتصار في معركة لوتزن في ٢ مايو سنة ١٨١٣ فانه كان يقود جيشا

بحرا مؤلفا من ١٥٠ الف مقاتل وخمسة قواد اكبر منه في العمر . وبعد ما قام بتلك الاعمال الحربية الباهرة عاد الى ايطاليا وانتهى اليه وهو فيها ان حماه ملك بافاريا انتظم في سلك المحالفة المؤلفة لمناوأة نابوليون وأرسل هذا الملك رسولا يحمل الى صهره رسالة يدعوه بها الى ترك نابوليون ويعده بان يجعله يصيب تاج مملكة في مقابل انحيازه الى الحلفاء ولكن الامير اوجين اجابه جوابا يدل على الانفة والكرامة ومن جملة ما كتبه اليه ما يأتي :

« انا مدين بكل شيء لنابوليون ولا يسعني أبدا الانفصال عنه وربما تضطرني الاحوال قريبا الى الالتجاء الى مونيخ ولا تخالجني ادنى مرية في أن ملك بافاريا يفضل أن يستقبل صهرا بلا تاج على صهر بلا شرف . »

وألح الرسول على الامير اوجين بقبوله اقتراح حميه ولكنه ظل مصراً على الرفض . ومن المدهش ان زوجته الاميرة وافقته على رأيه لانها كانت على جانب عظيم من عزة النفس وقطعت كل علاقة باسرة والدها ولم تبد أي أسف على فقدان تاج يفقدها المحافظة على اعز شيء عندها وهو كرامتها .

وعاد الجيش النمسوي الى غزو ايطاليا ولكن الامير اوجين صمد له بعزيمة لا يفل حدها وبقي شهرين يقاتل بخمسة وثلاثين الف مقاتل ستين الفا من الاعداء وظهر عليهم أخيرا في ١٠ فبراير سنة ١٨١٤ بعد ما كسرهم شر كسرة وقد فتك رجاله فتكا ذريعا برجال حميه فان هؤلاء البافاريين الذين كانوا من ثماني سنوات يطبقون الفضاء بالهتاف لامبرطور الفرنسويين حينما ذهب الى مونيخ ليشهد حفلة زفاف كريمة مليكهم الى الامير اوجين جاهروا بنكران جميل فظيع بعد ما انقذت فرنسا بلادهم وحررتها وجعلتها مملكة وأغنتها باسلاب النمسا .



٦

آخر حياة اوجين بوهرنه

ودخل الحلفاء باريس في ١٣ ابريل سنة ١٨١٤ وكان ذلك فاتحة تداعي صرح الامبراطورية فاضطر الامير اوجين الى عقد هدنة مع المرشال دي بلغارد النمسوي الذي كان يحاصر مدينة مانطو وتم الاتفاق في هـذه الهدنة على ارجاع مانطو وبلاد لمبرديا الى النمسا ورجوع الجنود الفرنسويين منها الى فرنسا مجتازين جبال الالب ونشر الامير اوجين في هذا الصدد النشرة الآتية على جيشه :

« أيها الجنود الفرنسويون ستعودون قريبا الى بلادكم ويسرني ان اعود بكم اليها وما كنت لاتنازل لغيري — في غير الاحوال الحاضرة — عن السير بكم أيها الشجعان الى مواطن الفخار بعدما قذفتم بانفسكم الى مواطن الهلكة ولكن مهام خطيرة تقضي عليّ بالافتراق عنكم .

« أيها الجنود الفرنسويون ثقوا باني لا انسى ابدا الثقـة التي وضعتموها فيّ في آونة المخاطر وفي الاحوال السياسية الشديدة التعقد واعلموا اني سأظل شديد التعلق بكم وسأدخر لكم عرفان الجميل وعلاوة على ذلك يخطب الشعب الايطالي ودكم ويحترم ما ازدنتم به من السجايا الكريمة » .

وكان الامير اوجين يتوهم انه يحق له أن يظل في منصبه وان ذلك واجب عليه إلا أن الحوادث تراكمت متزاحمة بسرعة تجعل يراعة المؤرخ عاجزة عن بيان الحقائق فقد نص في معاهدة فنتنبلو على احتلال الجيش النمسوي لايطاليا وعلى تنازل نابوليون وخلفائه عن وضع التاج الحديدي على مفارقهم وكان ذلك خاتمة لمهمة الامير اوجين السياسية والحربية فانه سلم المرشال دي بلغارد حصون البلاد وقلاعها وانطلق باسرته الى باريس .

ولا بد من القول ان شيء الشؤم تلك التي اجتازتها الامبراطورية والنكبات الشديدة التي اصابتها اوهت عزائم قواد الجيش الفرنسوي ورجال الحكومة الامبراطورية بحيث رأوا ان الامر قضي ولم يبق لهم مطمع باستعادة مجدهم الضائع .

وتألف حزب في فرنسا جاهر بمبادئه على رؤوس الاشهاد ونبذ المحاذرة

وبث في الامة نظرية فحواها أن الملوك دون سواهم يستطيعون ان يخلصوا البلاد من الاجنبي ويعيدوا اليهـا السلام والسكينة وان الحال تقضي بابتعاد نابوليون وذويه عن ملعب السياسة ولم يتأسف الامير اوجين على مغادرة ايطاليا ولم يقبل الحكم فيها إلا بعد ما رفضه يوسف بونابرت وقد خدم الامير اوجين نابوليون خدمة صادقة في اثناء اقامته فى ايطاليا ولما خرج من هـذه البلاد ترك مليونين وسبع مئة الف فرنك في خزانة حكومتها وكان ذلك نتاج حسن ادارته واقتصاده . أجل ان الحكومة النمسوية اعترفت فيما بعد بان هذا المال للامير اوجين ولـكنها لم تؤد شيئا منه لا له ولا لاولاده فلم يرفع الاميرصوته بالشكوى وتحمل بهمة عالية تحامل الاقدار عليه ونـكران جميل البشر نحوه .

واستمال الامير اوجين اليه احترام الايطاليين ومحبتهم له بحكمته ولين جانبه وكان له في هذه العواطف التي اظهرها له الشعب الايطالي سلوانا عما حل به من البلايا

ولما عاد الامير اوجين الى باريس اراد نابوليون ان يعطيه علامة أخيرة عن عطفه عليه واحترامه له فانعم عليه بلقب مرشال ولـكن الامير التمس من الامبراطور ان يعفيه من قبول هذا اللقب لانه كان يرى أن مهمته العسكرية انتهت . وبينما كان نابوليون سائرا على طريق المنفى في جزيرة البا . أخذ الامير اوجين وأسرته طريق مونيخ ومنها ذهب الى فينا لحضور المؤتمر واعطي الامير اوجين في معاهدة فنتنبلو في ١١ ابريل سنة ١٨١٤ تعويضا قدره عشرون مليون فرنك في مقابل عقارات وحقوق كانت له في ايطاليا وابقى له المؤتمر حقوقه في اقليم انـكون وقبض خمسة ملايين فرنك من ملك الصقليتين ولـكنه ترك هذا المبلغ لحميه في مقابل دوقية لختمبرج وامارة ايشستاد وقد صار من ذلك الحين يعرف باسم دوق دي لختمبرج .

وكان الامير اوجين يقيم في قصره بمدينة بايروت في اثناء « الايام المئة » فلم يشترك في الحوادث السياسية التي وقعت في سـنة ١٨١٥ وشطرت الجيش الفرنسوي شطرين متعادين وكان الدوق دي لختمبرج يرى ان حزب نابوليون لا يرجى قيامه من عثاره لان موارد قوى فرنسا كانت قد نضبت وكانت دعائم شجاعة جنودها قد تقوضت وكان الحلفاء يحتلون بلادها ولذلك لم يكن من سداد الرأي والحـكمة التمادي في التحرس بالاقدار .

ويزعم بعض الذين كتبوا ترجمة الامير اوجين دي بوهرنه ان الملك لويس الثامن عشر كان يحترم هذا الامير ويقدر صفاته العالية حق قدرها فعرض عليه منصب « كنيتابل » ولكنه رأى ان هذا المنصب غير لائق به بعد ماكان كملك في ايطاليا . وقد بقي محتفظا بلقب مرشال فرنسوي في عهد البوربون ولم يشأ ان يشكر فضل نابوليون عليه بخدمته ملوك فرنسا فان نابوليون كان بمثابة أب حقيقي له .

ولما كانت والدته مريضة في المالميزون استقبل الامبراطور الاسكندر وكان هذا العاهل قد شاء ان يعود زوجة نابوليون الاولى ويظهر لها اهتمامه بامرها فاظهر القيصر للامير اوجين علامات عطف وود صادرة عن صدق واخلاص ولكن اوجين اوشك في ذات يوم ان يعتقل بامر الاسكندر نفسه لما كان نابوليون في جزيرة البا ولم ينج من الوقوع في حبالة الاعتقال الا بعد ماقطع عهدا بالا يغادر فينا وكان الحلفاء قد اكرهوه على الاقامة فيها وقد سعى الامير اوجين بعد ذلك رغما من هذا الامر الى الالتجاء الى مكارم القيصر وكلمته المسموعة الافراج عن سجين القديسة هيلانة . فكان جواب عاهل الروس مفرغا بقالب الود واللطف ولكنه ظل حبراً على ورق .

وبعد وفاة والدته في ٢٩ مايو سنة ١٨١٤ غادر فرنسا ولم يعد اليها قط بعد ذلك وكان في اثناء مرض والدته يستنفد المجهود لتعزيتها وتخفيف اوقار غصص الموت عنها . ولم ينزل الى معترك السياسة قط في عهد البوربون بعد نفي العاهل نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة وكان ان هذا القائد المصور الذي تنقل في بلدان اوربا على صهوة جواده في عهد نابوليون الكبير اراد أن يستريح من مشاق الحروب ومشكلات السياسة فآثر الانزواء في بيته بين إفراد أسرته يتذوق طعم المعيشة البيتية اللذيذة وكانت اواخر حياته هادئة ساكنة كما كانت اوائلها . ولما عاد نابوليون من جزيرة البا في اول يونيو سنة ١٨١٥ انعم عليه بلقب نبيل من نبلاء فرنسا وكان هذا اللقب آخر علامة شرف نالها .

وطلب ولي عهد أسوج يد جوزفين كريمته الكبرى في سنة ١٨٢٢ وفي اثناء حفلة العرس أصيب الامير اوجين بفالج شديد صرعه فبادروا الى معالجته والعناية به وافتر ثغر الام[illegible]ئه واستأنفوا حفلة الزواج بين مجالي الابتهاج



نابوليون على سرير الموت

ومظاهر السرور ولكن الداء عاد اليه بمدينة بشدة قضت عليه وعلى الآمال التي كانوا يعلقونها عليه فتصرمت حبال حياته في مونيخ بين اسرته في ٢٠ فبراير سنة ١٨٢٤ وهو في الثالثة والاربعين من العمر . ولما بلغ نعيه ملك فرنسا قال : « اني آسف على مصرع الامير اوجين فقد كان رجلا كريما معروفا بصلاحه . »

والذي يزور كنيسة القديس ميخائيل في مونيخ يبصر ضريحا فخما من الرخام الناصع البياض صنعه النحات تور والدسن الدانمركي المشهور فان كريمة ملك بافاريا وأيم الامير اوجين ارادت ان تخلد ذكرى زوجها العظيم بأقامة ضريح يليق به واكتفى النحات بان يحفر هاتين الكلمتين « شرف وأمانة » عند قاعدة تمثال الامير وهما كافيتان للدلالة على هاتين الصفتين الكريمتين اللتين كان نجل جوزفين دي بوهرنه ممتازا بهما .

٧

تأبين تيارس لاوجين بوهرنه

والدة السلطان محمود الثاني

اقتطفنا ترجمة الامير اوجين بوهرنه من تاريخ القنصلية والامبراطورية لداهية السياسة الفرنسوية ادولف تيارس والى القارىء الكريم نتفة من تأبين تيارس لاوجين بوهرنه : « اوجين دي بوهرنه من أجمل الصور التي ظهرت في هذا العصر وهو مثال تام للشجاعة والمروءة وقد دعا أحد اساتذة التاريخ جان دارك وماري ستوارت وماري لكزنسكا أشهر النساء اللواتي امتزن بالفضيلة وشرفن بلاد فرنسا ولو ذكر هذا الاستاذ اسماء الرجال الذين امتازوا بالفضيلة لوضع ولامراء اسم اوجين دي بوهرنه الى جانب اسماء دي غيكلان وبايار وطورين وسواء كان في ساحة الهيجاء أو في بلاط نابوليون أو في قصره بميلانو أو في قصره ببايروت بعد سقوطه عن منصته العالية بقي حافظا سكينته ولطفه البادين على جبينه .

وكان اوجين بوهرنه وضاح الطلعة جذابها وقد استطاع مع تباين الاحزاب وغليان عواطفها ان يستميل اليه احترام جميع الاحزاب لان الجميع كانوا يعتبرونه جنديا هماما وقائداً شجاعا مترفعا عن المطامع وصغائر الامور . وكان شديد الشكيمة مستقلا في الرأي وقد خدمته الاقدار في أحوال شتى ووضعته على درجات العرش ولكنه لم يمل قط الى الجلوس عليه ، وكان نابوليون قد جعله نائبا للملك في ايطاليا ولكنه كان يحاذر ان يستخدم ما له من المنزلة السامية عند الامبراطور للتعسف عن محجة الشرف أو لخيانة الشعب الذي كان يتولى حكومته وقد عرف نابوليون حقيقة اخلاق ربيبه وصدقه واخلاصه ولذلك جاهر وهو على تلك الصخرة الصماء في جزيرة القديسة هيلانة بما كان يكنه للامير اوجين من الاحترام وشهد بذلك قائلا : « ان اوجين لم يحملني قط على الاستياء منه . »

ونختم هذا الفصل بقولنا انه كان للامير اوجين بوهرنه ثمانية أولاد ولكن لم يبصر أحد منهم النور في أرض فرنسوية ولم يكتف الحظ بان يعبس في وجوههم لما جاؤوا الى الوجود بل ظل متنكرا عليهم في كل حياتهم وكان ذلك مناقضا لحياة الامير والدهم فانه بعد ما ابلى بلاء حسنا في سبيل فرنسا في خلال عشرين سنة قضى عليه القدر المعتوب بان يقضي نحبه في ارض غربة في ميدان حروب الامبراطورية الاولى .

وقد توفي بعض اعقابه في المانيا وانتحل البعض الآخر المذهب الارثوذكسي ونالوا لقب اصحاب السمو الامبراطوري الروسي وصاروا معروفين باسم رومانوفسكي ولم يبق أحد منهم في فرنسا .

وقبل أن نختم هذه الترجمة نذكر شيئا عن نسيبة لجوزفين دي بوهرنه والدة صاحب هذه الترجمة وهذه النبذة مأخوذة عن ترجمة السلطان محمود الثاني الذي يعدونه أباً للاصلاح في تركيا :

كان لجوزفين دي لا باجري (الامبراطورة جوزفين) نسيبة تدعى ايمه دوبوك دي ريفري ولدت في جزيرة المرتينيك في سنة ١٧٧٠ ولما بلغت الثامنة عشرة من عمرها ساقتها الاقدار الى التزوج بالسلطان عبد الحميد الاول فولدت له السلطان محمودا الثاني وتحرير الخبر ان هذه الفتاة لما كان لها من العمر ثماني سنوات ارسلت الى مدينة نانت في فرنسا لتتلقى العلم في أحد الاديرة فقضت

فيه عشر سنوات وبينما كانت راجعة الى المرتينيك هجم قرصان جزائري على المركب الذي كانت فيـه في عرض البحر واسره وتقاسموا الاسلاب والغنيمة فوقعت الفتاة آيمه دوبوك دي ريفري في حصة زعيم القرصان ولما تفرس فيها وابصرها آية في الجمال خطرت له في الحال فكرة ارسالها هدية الى مولاه السلطان عبد الحميد الاول رغبة في بقائه حاصلا على عطفه . ولما وصلت الفتاة الى القسطنطينية ووقعت عليها عين السلطان خلبته بحسنها الفتان فتزوجها بعد ما اكرهت على الاسلام لانه لم يكن لها في اليد حيلة وولدت غلاما سموه محموداً وعنيت بتربيته عناية عظيمة جاءت بثمار يانعة في مستقبل حياته فاوجدت فيه روح الفضيلة ونشأته على حب الخير والاصلاح في بلاده وظلت مقيمة في القصر السلطاني الى سنة ١٨٢٧ فنزلت بها علة ناهكة أدنتها من شفير القبر فعادت اليها ذكرى حداثتها واحبت ان تموت على الدين الذي ولدت فيه فدعت نجلها السلطان محموداً اليها وهي مضطجعة على سرير الموت وقالت له : يا ابني انا موشكة ان اموت ولي عندك طلبة اؤمل انك لا تضن بها عليّ . فقال لها محمود : ان رغائبك يا اماه بمثابة اوامر تصدرينها لي . فقالت ولـكن الامر الذي اطلبه منك في غاية الصعوبة : فقال لا بأس من ذلك قولي ماترغبين فحاجتك مقضية . قالت : رغبتي هي اني اريد ان اموت على دين آبائي واريد ان تأتيني بكاهن كاثوليكي

فاجفل محمود في بدء الامر لما سمع كلام والدته ولـكنه مالبث ان وعدها باجابة سؤلها لان هذا السلطان كان على جانب عظيم من الهوادة وكانت تربية والدته قد اثرت به كثيرا ولما خرج من غرفة والدته دعا اليه احد حجابه وارسله الى رئيس الكبوشيين في دير القديس انطونيوس في القسطنطينية يحمل اليه فرمانا سلطانيا وكان هذا الرئيس يدعى الاب كريزستوم (فم الذهب) وكان الوقت ليلا ولما ايقظوا الرئيس وابصر الحاجب دخل عليه الخوف الشديد وتوهم ان ساعته دنت لانهم لم يكونوا يرسلون الحاجب السلطاني في مثل تلك الساعة الا لامر جلل فطلب الحاجب من رئيس الدير ان يقرأ المرسوم السلطاني ثم يتبعه الى القصر وكان زورق ينتظره فركبه وكان فيه اثنا عشر مجذفا من الشبان الاشداء وما عتموا ان اجتازوا به البوسفور

ولما وصل الرئيس الى القصر أدخل باشارة من السلطان غرفة فاخرة الرياش

وكانت امرأة مريضة مضطجعة على سرير ولم يكن الى جانبها الا الطبيب ثم دخل السلطان وهو يذرف الدموع منتحبا وقال : « يا اماه اردت ان تموتي على دين آبائك الذي ولدت فيه فقد اتيتك بكاهن كاثوليكي »

قال السلطان هذا الكلام وخرج هو والطبيب وبقي الكاهن مختليا بالسلطانة الوالدة ساعة من الزمان فاعترفت له بجميع خطاياها وشعرت بان حملا ثقيلا انزل عن منكبيها ولما دخل السلطان ابصر الكاهن يناولها القربان المقدس لان ذلك الكاهن كان قد استدرك الامر وجاء بالقربان معه وما لبثت المريضة ان جادت بنفسها الكريمة .

هرتنس بوهرنه

ابنة جوزفين وام نابوليون الثالث

ووصيتها لولديها

في اوائل شهر نوفمبر سنة ١٧٩٠ وصلت الى مدينة طولون قادمة من جزيرة المرتينيك سيدة تصحبها ابنتها وهي فتاة في السابعة من عمرها تبدو عليهما علامات الخوف فانهما غادرتا تلك الجزيرة فرارا من ثورة اشتعلت نيرانها ولكنهما لم تكادا تطآ ذارض فرنسا حتى علمتا انها ملعب ثورة لا مثيل لها . فالام هي جوزفين دي بوهرنه حفيدة حاكم مقاطعة فرنسوية والفتاة هي ابنتها هرتنس دي بوهرنه وبعد وصول جوزفين دي بوهرنه الى فرنسا انطلقت ومعها كريمتها الى فنتنبلو لموافاة زوجها وقد كان مسنداً اليه في ذلك الحين منصب رئاسة الجمعية الدستورية

وارتأى الوالدان ان يسرعا في ادخال ابنتهما هرتنس الصغيرة الى مدرسة دير الاباي اوبوى ليجعلاها بمنجاة من كل ما يخشى من المكاره الناشئة عن الحوادث في ذلك الحين الا انها لم تطل المكث في ذلك الدير فأخرجت منه بغتة في ١٠ اغسطس وهو تاريخ هجوم الغوغاء على قصر التويلري وقد تلا ذلك الهجوم تدمير الاديار والمدارس . وفي تلك الاثناء جعل المسيو بوهرنه قائداً لجيش الرين

إلا انه لم يلبث طويلا في قيادته لصدور امر يقضي بفصل جميع النبلاء من مناصبهم في الجيش فاعتزل في قريته للاشراف على عقاراته ولكنه لم يلبث ان القي القبض عليه وزج في السجن . وبعد بضعة أيام قبض على زوجته . وحدث أن هرتنس الصغيرة لما استيقظت ذات صباح علمت أن والدتها دخلت عليها وقبلتها من دون ان توقظها وانها سيقت الى السجن ولم يبق لها من سند تعول عليه إلا شقيقها البالغ اثنتي عشرة سنة من العمر فهذا الفتى سعى على غير طائل لخلاص والديه وصدر امر يقضي على جميع اولاد النبلاء بتعلم مهنة من المهن فاختار بوهرنه الحدث مهنة النجارة . وكانت هرتنس الصغيرة تشهد بعينها من المنزل المقيمة فيه بشارع البينيار جميع حوادث الثورة تجري وهي لا تدرك لها معنى .

وجاء يوم ٩ ترميدور (من شهور الثورة) فدخلت على هرتنس سيدة مقنعة وقبلتها قائلة لها انها سعت لاخلاء سبيل والدتها فنجحت وكانت تلك السيدة عقيلة تاليان . وعادت جوزفين الى بيتها في ١٨ ترميدور من السنة التالية وأطلق ايضا سراح الجنرال هوش في اليوم عينه وكان هذا الجنرال صديقاً لوالد هرتنس فلما أعيد الى الجندية بعد خروجه من السجن طلب ان يؤخذ بوهرنه الحدث الى الجيش وكان ذلك فاتحة خدمته العسكرية . وأدخلت هرتنس في خلال ذلك مدرسة انشأتها في سان جرمان عقيلة كمبان وصيفة الملكة ماري انطوانت .

وكانت تلك الفتاة تخرج في بعض الاحيان من المدرسة فذات ليلة صحبت والدتها الى ليلة ساهرة فتقرر في تلك الليلة حظ هرتنس ووالدتها ونحن نكتفي بايراد ما كتبته هي عن هذا الحادث

« . . . وكان عدد المجتمعين كبيراً فجلست على المائدة بين والدتي وجنرال كان ينحني ويحاول التقرب منها ليخاطبها بلهفة فكانت تضطر الى التراجع الى الوراء وقد تمكنت من التأمل في محياه من دون ان يعلم فوجدته بهي الطلعة ترتسم على وجهه سيماء القوة والذكاء الا انه كان مصفرا . وكان يتكلم بحدة ونزق . وكان ذلك الضابط الجنرال بونابرت . »

ومع معارضة هرتنس وشقيقها في زواج والدتهما بالجنرال بونابرت صممت

الام على الاقتران به في ١٩ فنتوز من السنة الرابعة وقت ماأسندت اليه قيادة جيش ايطاليا .

وعقب ذلك سلسلة انتصارات عديدة نالها ذلك القائد وكانت معلمة هرتنس تقول لها : لقد أصبت حظا بكون زوج امك قائدا كثير الفتوح

فقالت هرتنس : ولكنه أصاب فتحا لن انساه ابدا وهو فتح قلب والدتي.

وعاد الجنرال بونابرت من ايطاليا بعد اشهر وسكن منزل جوزفين بباريس وكانت هرتنس المبتهجة برؤية والدتها مستاءة من رؤيتها التغير الطارىء في البيت بوجود بونابرت قاهر ايطاليا فكتبت مايلي : « ما اعظم التغير الذي حدث في مسكننا الصغير فهو يغص بالقواد والضباط وقد صعب على الخفراء منع الناس من الدخول لمشاهدة القائد الظافر . »

وانطلق بونابرت الى مصر بعد حين من الزمان ومعه شقيق هرتنس فرافقت جوزفين زوجها وابنها الى طولون تاركة هرتنس في مدرسة عقيلة كمبان مع كارولين شقيقة بونابرت ونحن نذكر كيف عرفت تانك الفتاتان حوادث ١٨ برومير واليك ماكتبته هرتنس في هذا الصدد :

« في ليلة ١٨ برومير ارسل الينا الجنرال مورات المتيم بحب كارولين اربعة من جنوده ليوقفونا على ماحدث في سان كلو وما كان من ارتقاء الجنرال بونابرت الى منصة القنصلية . فليتصور القارىء مجيء اولئك الجنود الاربعة ليلا الى دير فيه نساء فرعا كان في ذلك الامر بهجة الا ان عقيلة كمبان لم تنس قط تلك المخالفة لقواعد اللياقة وقد دونت ذلك في مفكراتها . »

وتخير القنصل الاقامة في قصر اللكسمبور بعد فتنة ١٨ برومير ولكنه هجره بعد حين من الزمان واتخذ قصر التويلري مسكنا له . وقد قالت جوزفين لابنتها على اثر ذلك الانتقال : ان ذكرى ماري انطوانت تقض مضجعي .

وأزف الحين الذي ذكروا فيه مسألة زواج هرتنس فادركت من سماعها كلام القنصل الاول انها لاتستطيع اتخاذ بعل غير موافق لرغبته ولمصلحة الدولة واضطرت الى الاقتران بشقيقه لويس بونابرت ولم يكن أحد من الزوجين راغبا في ذلك الزواج ولكنهما رضيا به مكرهين .

ومعلوم ان الزواج الذي يتم على كره يكون وخيم المغبة ولاسيما متى اجبرت

عليه فتاة رقيقة الشعور خيالية الافكار حادة المزاج كابنة جوزفين . ومع ما كانت عليه طباع الزوجين من التنافر لم يلبثا ان ولد لهما غلامان في مدى سنتين وهما نابوليون شارل ونابوليون لويس .

ولما انتدب زوجها للجلوس على عرش هولندا لم تجد مندوحة عن المضي الى تلك البلاد لموافاته . ولا يخفى على أحد ان ابنة جوزفين لم تخلق لتكون ملكة فالبلاد التي تربعت في سريرها جاهرت بعداوتها ومما زاد الطين بلة اتصاف زوجها باطوار غريبة .

وفقدت هرتنس ابنها البكر على أثر مرض قصير الامد فغادرت هولندا شاخصة الى جبال البرنات لترويح النفس بعد تلك الصدمة العنيفة التي اصابتها . ثم انها عادت الى باريس واقامت في منزلها بشارع شيرتي ولم تخطر على بالها العودة الى بلاد القاع تلك البلاد الممقوتة او مساكنة بعلها ذلك الرجل المكروه .

وكانت تعيش في باريس في وسط يختلف اليه الفنانون وينتابه هواة الفنون الجميلة فعنيت بالتصوير ونظم الاناشيد وقد اصبحت النشودة « الانطلاق الى سورية » التي نظمت عقدها النشودة وطنية . وفي ٢٠ ابريل سنة ١٨٠٨ ولدت غلاما ثالثا وهو شارل لويس نابوليون وهذا صار فيما بعد امبراطورا وقد عرف باسم نابوليون الثالث .

وكانت فكرة الطلاق تجول منذ عهد بعيد في ذهن العاهل نابوليون وقد جسم تلك الفكرة بغتة حادث ظاهره تافه الا انه عجل في حمل العاهل على تقرير رأيه هذه المرة ففي حفلة اقامها رفقاء اوجين بوهرنه في الجندية هتفوا له مطلقين عليه اسم خليفة نابوليون ولما درى هذا بالامر فار فائره وجاهر في مساء ذلك اليوم عينه لجوزفين برغبته في تطليقها وقد شهدت هرتنس ذلك المشهد فكان له وقع سيء في نفسها لم تنسه طول حياتها .

وتزوج نابوليون بماري لويز النمسوية بعد اشهر فنالت هرتنس محنة شديدة حين تلقت الامر بحمل وشاح الامبراطورة الجديدة في حفلة العرس . وكانت تأمل ان تكافأ على ذلك بنيلها من الامبراطور الترخيص بالطلاق الا ان نابوليون لم يبد رضى به فاضطرت الى الشخوص مرة ثانية الى هولندا قاصدة زوجها . ولكن حدث لحسن حظها وحسن حظ تلك البلاد ان ذلك الملك الغريب

الاطوار عزم فجأة على التنازل عن العرش فهجره وانطلق من دون ان يخبر أحداً حتى ولا زوجته بالمكان الذي أمه فادارت هرتنس الشؤون نائبة عنه حيناً من الزمان ريثما ضمت مملكة هولندا الى الامبراطورية الفرنسوية .

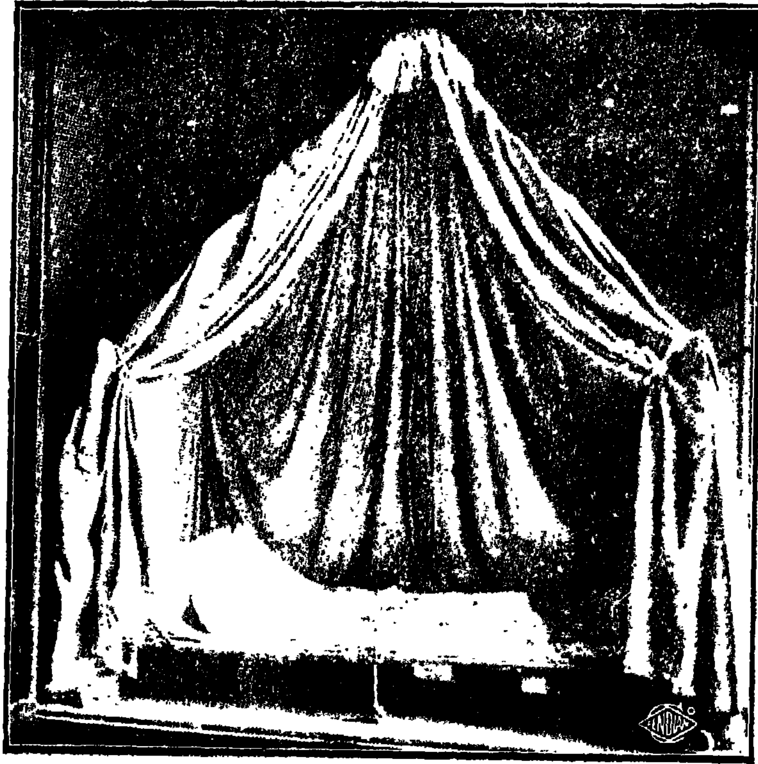
وتملصت هرتنس في هذه المرة من مملكتها وزوجها معاً فقرر الامبراطور اجازة الطلاق وعين لها مرتبا قدره مليونا فرنك فتنفست الصعداء وجعلت مقامها في باريس حيث عاشت بابهة عظيمة وعلى هواها وأصبحت دارها مثابة رجال العلم وأرباب الفن .

وكانت الحوادث تتعاقب بسرعة في تلك الاثناء وكان صرح الامبراطورية يميل الى التداعي وبقي في فرنسا الحلفاء المنتصرون وأجبر الامبراطور على التوجه الى جزيرة البا .

واطالت هرتنس لسان الثناء على الملوك المتحالفين لحسن معاملتهم لها فكان قيصر الروس يجيء تقريبا في كل يوم الى المالميزون لمشاهدتها وقد قال : « اتيت الى هذه البلاد للاقتصاص من نابوليون ومن غرائب الامور اني لا أجد لذة الا بمعاشرة اسرته » . ونالت هرتنس بمساعدته مرتبا يبلغ اربع مئة ألف جنيه ودوقية انشئت لاجلها مع ابقائهم لها عقاراتها في سان لو .

ولكن ما عتمت ان انتشرت فجأة اخبار رجوع الامبراطور فبهت الناس وخفت هرتنس لملاقاة معبودها العائد من منفاه ولكنه لم يكرم وفادتها واتهمها بمالأة اعدائه عليه فكبر الامر على ابنة جوزفين ودافعت عن نفسها بقوة فاضطرته الى اغضاء الطرف على ما أتته في اثناء غيابه .

ثم ان نابوليون بعد ما قهر في واترلو احتاج الى شخص فرج كربته فاستقبلته هرتنس في المالميزون استقبالا محفوفا بجميع مجالي الاحترام وطلبت منه ان يقبل منها عقداً من الالماس تبلغ قيمته مليونا من الفرنكات . ولم يكد الامبراطور يغادر البلاد حتى أمرت بترك باريس في مدى اربع وعشرين ساعة فاخذت ولديها وتوجهت بهما الى طرغوفيا بسويسرا ثم الى كنستانس حيث ابتاعت قصر ارنمبرغ ولم تجد في معتزلها هذا الراحة التي كانت تنشدها . فلما نشبت ثورة سنة ١٨٣٠ صارحها كبير نجليها برغبته في الاشتراك في الفتنة الايطالية فأنكرت عليه ذلك ولكنه لم يتحول عن عزمه فسار الى فلورنسة وفي السنة التالية توفي فيها .



سرير نابوليون النقال

ولم يبق لتلك المرأة المنكودة الطالع سوى ولد واحد فصممت على انقاذه من غائلة الاحداث مهما كلفها ذلك الامر من الضحايا والمشقات وبذلت المجهود لابقائه على مقربة منها في ارغنبرغ الا أن لويس نابوليون كان ذا مطامع كبيرة فعالج تلك الحركة المعروفة بحركة ستراسبورغ خفيةعن والدته فكان من أمر تلك الحركة وتبعتها الوخيمة عليه ما كان . فتصدع قلب تلك الام وخافت عليه من نزول النوازل والمام الملمات وخفت الى باريس وانطرحت على قدمي لويس فيليب طالبة منه العفو عن المجرم فمنحها الملك سؤلها مشترطا عليها ان تبرح فرنسا في مدة ٢٤ ساعة . وكانت تلك الحوادث شديدة الوطأة على صحتها فكتبت في ٣ اغسطس سنة ١٨٣٧ الى ابنها نزيل اميركا ماخلاصته « تعال يالويس تعال لتغمض عينيّ . » فبادر الامير لتلبية نداء أمه ووصل قبل تقطع انفاسها المعدودة بزمان قصير ففاضت روحها في سويسرا في ٣ اكتوبر من تلك السنة . وأقام لها الامير لويس نابوليون ضريحا في كنيسة روايل الى جانب ضريح والدتها لايزال رفاتها فيه

وكانت الملكة هرتنس موصوفة بالذكاء والدهاء كما يستدل من كلامها الموجه الى نجليها بمثابة وصية ومشكاة يستنيران بها وهذه خلاصته :

« يعتبر حظ البونابرتيين من اغرب الحظوظ في الازمنة الحديثة فهم الآن مستهدفون للنكبات الشديدة من دون أن تتيسر لهم المجاهرة بكلمتهم الاخيرة فيمكنكما بواسطة اسمنا أن تصبحا ملحوظي المكانة في اوربا القديمة وفي العالم الجديد على السواء وفي كل مكان وكل زمان لم يطرأ تغير على البشر فهم على الرغم منهم يحترمون ذرية اسرة هادنتها الاقدار والاسم المشهور اول نصير يجود به القدر على من يبتغي الوصول به الى مدى بعيد . ان نابوليون منشىء شهرتنا سحق الشعوب تحت اثقال مطامعه الا انه احيا موات الآمال الجسيمة عند جميع الصعاليك وحرك عوامل الاعجاب في كل قطر فأنا عرفته في حالتي القوة والضعف ولا أصوره لكما كمثال كامل فكثيراً ما كانوا يشبهونه بقصبة مطلية بالحديد . وقد تسلطت عليه نقيصتان : الضعف وعدم التكتم . ولما كان من طبعه الاكثار من الكلام كانوا يستدرجونه الى كشف الغطاء عن جميع أسراره فالملك مقضي عليه بان يصمت او ان يتكلم من دون ان يقول شيئا وكثيرا ما يستعينون عليه بنقيصته ليبلغوا أوطارهم منه . وكان نابوليون في غالب الاحيان

ينقاد للاصدقاء الاقدمين او المتملقين الجدد فتجنبا الانقياد لشخص يصعب عليكما فيما بعد التملص منه . على انه يجب ان ترعيا حق الامانة لاصدقائكما فذلك يستميل اليكما تعلق الناس بكما . انما في النكبة الحالية الحالة بنا تجهلان مصيركما ومع ذلك لاتقفلا باب قلبيكما في وجه الامل وافتحا اعينكما وترصدا الفرص الملائمة . وان افلتت فرنسا إفلاتا نهائيا من ايديكما ففي ايطاليا والمانيا وروسيا وانكلترا اسباب تتسببان بها للمستقبل وفي كل مكان تطرأ بوادر افكار ترفع الى اوج السؤدد وارث اسم مجيد . فلك ولاخيك الحق بان تكونا بعد ملك رومية وارثين لنابوليون اذ ان عمكما يوسف ليس له سوى بنات وعمكما لوسيان جعلته اطواره الغريبة يفلت من يده فرصة كان يستطيع فيما مضى انتهازها ليجلس على اقرب درجة من العرش وهو على ما أعرفه رجل لا يخلو من المقدرة العقلية فهو جريء ومحتال الا ان حدته جعلته يضيع فوائد مشروعات كان الاقدام هاديا له في معالجتها وهو البطل الحقيقي ليوم ١٨ برومير بعد ما نال الضعف والتردد والجبن من نابوليون في ذلك اليوم . وابدى لوسيان بعد واترلو كثيراً من الشجاعة لما قلبت الاحداث ظهر المجن لاسرته فنسج على منوال نبلاء ايطاليا في القرن الخامس عشر مجاهداً بهمة عالية لمبايعة نابوليون الثاني . ولو جرى نابوليون على رأي اخيه منقادا الى ذوقه السليم لقذف انصاره الى نهر السين اولئك المشاغبين المؤلف منهم مجلس النبلاء والمجلس الاشتراعي وتمكنوا باشارة واحدة من اجراء ذلك الامر بمناصرة البقية الباقية من الجيش واستطاعوا فيما بعد ان ينازعوا الاعداء ارض فرنسا قدما فقدماً وكان من الممكن ان تكون الحكومة المطلقة سببا لخلاص الاسرة الامبراطورية ولكن لسوء حظ تلك الاسرة لم يكن زعيمها في ذلك الحين الا خيال نفسه . وقد ابصرته عند منتصف الليل صاعدا الى العربة ليوافي جيشه عند حدود بلجيكا فعانقني مبتسماً الا ان وجهه كان منقبضا انقباضاً تؤلم رؤيته فكانت نفسه مريضة كما كان جسمه وقد نهكه ما بذله من الجهد في الحرب التي أجج سعيرها في أثناء الشهور الثلاثة . ومنذ ذلك الحين أعادت اليه الراحة في جزيرة القديسة هيلانة شيئا من صفاء ذهنه ولما كان ذا عقل راجح وكان تام الخبرة باخلاق البشر نظم هناك حياته ودفاعه وبجده بلباقة الممثل في الملعب حين يتقن الفصل الاخير من مأساته .

ان الفتنة استنزفت قوة البحث بادلاء الحجج عند الفرنسويين لكنهم لم يسدوا آذانهم عن سماع الصوت البشري ففي الحركات المؤثرة وطلاقة اللسان ما يستطيع ان يوقظ الهمة في الشعب ولكن لاتدوم تلك اليقظة مدة طويلة فحذار ان تنخدعا بها وتجنبا الفرص التي ينتهزها المتربصون بالحكومة لايقاظها فالبوربون الذين استولت عليهم الحماقة ضلوا عن سواء السبيل بترك العناصر المتطرفة تفعل ماتريد في ديارهم وباغضاء الطرف عن خطباء الندوة النيابية الذين يشعلون نار تلك العناصر وربما نجم عن ذلك حريق هائل .

لاتنسيا انكما اميران ولكن لاتنسيا ايضا الاحكام المتفشيين انتما في ظلها فلقبكما حديث العهد فاذا ابتغيتما ان تصيراه رفيعا ومكرما وجب عليكما ان تبينا انكما تستطيعان النفع . فان انتما رأيتما ان ذوي الاموال يخشون على اموالهم من الضياع فعداهم بان تكونا ضمينين لها واذا شكا الشعب من مظلمة فأظهرا له انكما انتما ايضا تشكوان من تلك المظلمة وأقنعاه بان خلاصه لايكون الا على ايديكما . واقول بالايجاز ان مهمة البونابرتيين هي المجاهرة بالصداقة لجميع الناس فمن مهمتهم ان يكونوا وسطاء ومصلحين . واعلما انه لايتعذر عليكما ان تصبحا كمعبود او كفاد او كوسيط بين الاقدار السماوية العنيفة ومصالح البشر فالبشر يميلون الى الالتجاء الى عناية منظورة فلا اسهل من امتلاك مودة الشعب فهو في بساطة الاحداث واذا رأى انهم يعنون بأمره استنام اليهم ولكنه ان هو آنس منهم الاستبداد والعبث بحقوقه قلب لهم ظهر المجن وخرج عليهم وهو لايصدقهم ان هم تجملوا معه في الكلام واغلظوا في القول لاعداء وهميين يصورونهم له عاملين على ايذائه .

تهيأا لكل خطب مفاجيء ريثما تتيسر لكما تهيئة الحوادث ولا تسيئا الى احد ولا تستسلما الى اي كان وأكرما وفادة الجميع حتى الفضوليين واصحاب الاغراض والمستشارين فيمكنكما ان تجنيا ثمار الفوائد من جميع هذه الامور وارصدا الفرص لتغتنماها فلا تحدث مهزلة او مأساة من دون ان يكون لكما مغنم من ورائهما . وكونا في كل مكان ولازما جانب التعقل والحرية ولا تجاهرا بوجودكما الا في الحين الملائم »

الكردينال فش

لم تكن اسرة بونابرت معسرة وانما لم تكن موسرة وكان الاب بونابرت عم نابوليون يعيش على شيء من الرخاء مما كان يصيبه من المال بصفة كونه رئيسا لشمامسة كاتدرائية اجاكسيو وكان لنسيبه ابن وهو يوسف فش اخو لاتيسيا الرضيع وقد ولد هذا في اجاكسيو في سنة ١٧٦٣ وارسل الى مدرسة اكس الاكليريكية لما بلغ السادسة عشرة من عمره ولما سيم كاهنا دعاه نسيبه اليه وعينه في مركز يعود عليه بشيء من المال وبعد أشهر توفي الاب بونابرت وخلفه الاب فش في مركزه مع صغر سنه . وكان متحليا بالصفات الكريمة ومحافظا على اقامة الفروض الدينية ونوافلها في مواعيدها ولم يدع سبيلا للالسن لانتقاده ولكنه لم يكن شديد الذكاء .

ولما اشتعلت نيران الثورة وقررت الجمعية الدستورية ان تطلب من جميع رجال الاكليروس ان يقسموا يمين الامانة للدستور ابى الاب فش الطلب وهو يقصد تجنب الاختلاف مع السلطة وشهرت الحرب الاهلية في كورسيكا ونهض باولي لمناوأة فرنسا والقى الرعب في قلوب السكان فهربت لاتيسيا بونابرت واولادها واخوها الاب فش في سنة ١٧٩٣ وذهبوا الى مرسيليا ولم يكن معهم شيء من المال .

فنزع الاب فش ثوبه الاكليريكي وطلب منصباً مدنيا في جيش الالب وكان ثلاثة من اولاد اخته قد دخلوا في خدمة الحكومة فعين يوسف سكرتيرا لموظف كبير وجعل نابوليون كابيتان في المدفعية واسندت الى لوسيان وظيفة ناظر لمخازن الجيش في سان مكسيمان في الفار . ونال الاب فش المنصب الذي طلبه بما كان لاسرته من العلاقات باصحاب المكانة العالية وقضى أيامه من ذلك العهد في الجيش نابذا ما كان مركزه الديني يقضي به عليه ولحق بجيش الجنوب متنقلا منه الى جميع الاماكن التي كان ينتحيها .

وجاء الوطني فش الى باريس في أواخر عهد حكومة الديركتوار وكان باقيا في منصبه المدني في الجيش وكان يقضي حياة شديدة الاضطراب فكان على اتصال

ودي دائم بمشاهير رجال الثورة ولم يكتف بمرتبه الذي كان ينفق القسم الاكبر منه على اسرته وقد كانت تشعر بالضيق بل زاول نوعا من التجارة فكان ينتاب محال المصورين ويشتري الصور منهم ثم يبيعها

وكان نابوليون في اثناء ذلك يتدرج في المناصب حتى اصبح قنصلا اول فحينئذ نصح الوطني فش لابن اخته ان يتقرب من رومية ويفاوضها في عقد وثيقة معها (كونكوردا) لاعادة الديانة الكاثوليكية الى ما كانت عليه في فرنسا ولما ابرمت الوثيقة تذكر الوطني فش انه كان قسا فطلب من رومية ان تحله من التأديبات التي استوجبها لما حلف الايمان المذكورة آنفا فبادر البابا الى اجابة طلبه وعاد الاب فش الى السلك الاكليريكي والى مزاولة فروض المذهب الكاثوليكي ونوافله وأراد البابا بيوس السابع في سنة ١٨٠٢ ان يرضي بونابرت القنصل الاول فوافق على تعيين الاب فش رئيسا لاساقفة ليون ورقاه في السنة التالية الى درجة الكردينالية وارسلته الحكومة الفرنسوية سفيرا لها في رومية فسافر الى مركزه الجديد واختار شاتو بريان سكرتيرا له وكان للكردينال فش في ذلك الحين تسع وثلاثون سنة من العمر .

ولما انشئت الامبراطورية طلب الامبراطور الجديد من البابا ان يأتي الى باريس ليرأس حفلة تكريسه وبعد ماتردد بيوس السابع في الامر رضي أخيرا بالانطلاق الى باريس وتقدمه الكردينال فش ليعد كل شيء على الطريق ليلقى الحبر الاعظم احتفاء عظيما في جميع الاماكن التي يمر بها وانتظر البابا في ابرشيته بليون واقيمت للحبر الاعظم احتفالات دينية ومدنية فيها في ١٩ نوفمبر و٢٠ و٢١ منه من سنة ١٨٠٤ وقامت في باريس قبل حفلة التتويج بيوم واحد عقبة لم يكن بد من تمهيدها وهو ان زواج نابوليون وجوزفين كان مدنيا فقط ولم يشأ البابا ان يكرس الامبراطور الجديد الا اذا اثبت هو وزوجته ان قسا كاثوليكيا بارك قرانهما فحل الكردينال فش هذه العقدة ونصب مذبحا في ردهة مجاورة لغرفة جوزفين وبارك والابواب موصدة زواج نابوليون بأيم بوهرنه في الساعة الرابعة بعد الظهر . وذهب الكردينال بعد ساعتين لمواجهة البابا فسأله بيوس السابع : هل تمت حفلة الزواج الدينية يا ابني العزيز . فاجابه الكردينال نعم تمت أيها الاب الاقدس .

فقال البابا بناء عليه اری ان کل شيء حسن وسأرأس الحفلة غدا في كنيسة نوتردام .

وعين الكردينال فش المستشار الديني الاكبر في الامبراطورية وعين له مرتب كبير وعهد اليه علاوة على ذلك في تولي الرئاسة الدينية في جميع القصور الامبراطورية التي لم تكن خاضعة لسلطة الاساقفة في الابرشيات المشيدة فيها وفوض اليه نابوليون أيضا توزيع الصدقات ومنحه سلطة تكاد تكون مطلقة لتمييز الذين يراهم ملائمين لكراسي الاسقفيات الفارغة .

وللكردينال فش الفضل في اتيان عمل كان كبير الفائدة لفرنسا وهو انشاء الرسالات الاجنبية

وكان الكردينال فش في عهد الامبراطورية كله وفي أحرج الاوقات حين سجن نابوليون بيوس السابع والحق به غضاضة وسيطا بين ابن اخته والحبر الاعظم وكان مرنا في سياسته فانه مع خدمته لمقاصد نابوليون ومطامعه ومع تجنب قطع علاقات الامبراطور بالحبر الروماني ظل حاصلا على ثقة البابا به وكان يستوجب الثقة باعماله هذه ولم تكن هذه الاعمال تعارض سياسة الامبراطور مع أن هذه السياسة كانت في غالب الاحيان عنيفة وموسومة بسمة الظلم .

وكان من أشد الصعوبات التي لقيهانابوليونمسألة فسخ زواج أخيهجيروم بالآنسة باترسن وقد اقترن بها جيروم في بلتيمور وهو في التاسعة عشرة من عمره فلما عاد الى باريس وعرف نابوليون بامر زواجه ابرق وارعد وقام وقعد واجبره على الانفصال عن زوجته وبادر الى ارسال الكتاب الآتي الى البابا بيوس السابع :

« ارغب في ان تصدر قداستكم براءة بالغاء زواج اخي جيروم بالآنسة باترسن من بلتيمور في الولايات المتحدة وانه ليسهل عليّ فسخ هذا الزواج في باريس ولكنني افضل ان يتم ذلك في رومية ليكون ذلك عبرة رادعة للأسر الكاثوليكية المالكة عن تزوج ابنائها ببنات الاسر البروتستانتية فارجو من قداستكم أن تفعلوا هذا الامر بلا ضجة وحين ينتهي الي أن قداستكم تريدون ان تفعلوه ابادر الى فسخ الزواج من الوجهة المدنية . »

وبعد مادقق بيوس السابع في هذه القضية ونظر فيها من جميع وجوهها أجاب انه لايسعه الغاء هذا الزواج فحينئذ جمع نابوليون كبار اللاهوتيين

الفرنسويين واوعز اليهم بان يعقدوا مجمعا مستندين في ذلك الى قرارات المجمع التريدنتيني وخولوها احتفاظ الملوك بحقهم في الغاء زواج افراد اسرتهم فعقدوا المجمع وقرروا الغاء زواج جيروم بونابرت بالآنسة باترسن لان الامبراطور نابوليون زعيم الاسرة البونابرتية يقيم النكير على هذا الزواج فبادر العاهل الى وضع قرار المجمع موضع الاجراء أما الكردينال فش فلم يشأ التدخل تدخلا علنيا في هذه القضية مخافة أن يستهدف لنبال التبعة وتجنبا لاغضاب البابا من جهة ونابوليون من جهة أخرى ولكنه كان وهو وراء الستار يبدي رأيه في المسألة ويوفق بين النظريات المتضاربة ويجعل اعضاء المجمع يسلسون مقادتهم للامبراطور ويقضون لبانته .

وبذل الكردينال فش مجهوده لتسهيل رجوع الرهبان الى فرنسا وكان رجال الثورة قد مزقوا شملهم واكرهوهم على الجلاء عن البلاد فاستقبلهم في ابرشيته بليون وساعدهم على لم شعثهم وقد كان هذا الامر في غاية الصعوبة بعد ما كانوا قد تشتتوا تحت كل كوكب من سنة ١٧٩٢ ونال الكردينال من الامبراطور مرسوما يجيز لجميع الرهبان الرجوع الى فرنسا بملابسهم المعروفة وكانت هذه الملابس قد زالت من فرنسا من عهد بعيد وأعيد اليهم كثير من حقوقهم وامتيازاتهم المسلوبة منهم فاقبل الرهبان بهمة ماضية على انشاء المدارس المجانية في جميع انحاء البلاد لتعليم الفقراء وقد كانت المدارس « العلمانية » في تلك الايام قليلة وغير وافية بالحاجة ولم يكونوا يحسنون ادارتها . وكان الخلاف يشتد بين رومية وفرنسا وتزداد المسائل الطارئة بينهما تعقدا فانحاز الكردينال فش الى ابن اخته واضطر بحكم الضرورة الى الاختلاف مع البابا وطلب اقالته من منصبه كسفير واستأذن من بيوس السابع بالانصراف في مقابلة تجاوز فيها حدود ما يجب عليه من الاحترام لرئيسه الاكبر وعرج على ابرشيته في ليون وهو عائد الى باريس ونظم في اثناء اقامته فيها شؤون رهبان « الشارتروز »

ولما وصل الى باريس اغلظ له الامبراطور الكلام وعنفه على ما ابداه من الضعف في الدفاع عن سياسته وتأييدها في الفاتيكان ولكن لم تطل مدة استياء الامبراطور من خاله فانه لما وزع نابوليون التيجان والمناصب السامية والعوارف السنية على اشقائه وشقيقاته وانسبائه ونسيباته في سنة ١٨٠٦ لم ينس الكردينال فش فانه عينه مساعدا لرئيس اساقفة راتسبن كبير اساقفة المانيا بحيث يخلفه في

منصبه بعد موته وكان في هـذه الابرشية مليون نفس ومن حقوق رئيس اساقفتها ترؤس الجمعية الدينية الجرمانية في فرنـكفورت على الماين

ومنح الـكردينال ايضا لقب صاحب السمو ولـكنه كان يؤثر على كل ذلك الريع السنوي البالغ ثلاث مئة الف فرنك وكان يقبضها من دخل المكس في بلاد الرين ووافق البابا على جميع هـذه الامور ببراءة خاصة خلافا للاصول التي كانوا يجرون عليها قبل ذلك العهد ومن غرائب الامور ان ذلك الموظف البسيط في مصلحة تموين الجيش اصبح في اقل من عشر سنوات كردينالا ورئيسا لاساقفة ليون وكبير اساقفة غاليا والمرشد الديني الاكبر للامبراطورية وعضوا في مجلس الشيوخ ومن الحائزين لنشان جوقة الشرف من درجة « غران اوفيسيه » ونشان « الجزة الذهبية » ومعاونا لصاحب السمو الامير كبير اساقفة المانيا وقد كان في جميع هذه الالقاب مايجعله يرزح تحت اعبائها ولـكنه اضطلع بها كل الاضطلاع وكان له في باريس قصر فخم في شارع « مون بلان » يستقبل فيه ويأدب فيه المآدب التي لم تكن تقل في التأنق عن مآدب الامراء والملوك .

ولما حضرت الوفاة الكردينال دي بلوى رئيس اساقفة باريس في ١٠ يونيو سنة ١٨٠٨ اراد نابوليون ان يعين الكردينال فش خلفا له بحيث يجعله في وقت واحد رئيسا لاساقفة باريس ومساعدا لرئيس اساقفة راتسبن ورئيسا لاساقفة ليون فامتثل الديوان الاسقفي في باريس لاوامر الامبراطور ولم يرفض الكردينال فش ترشيحه لرئاسة اساقفة باريس ولـكن البابا شدد النكير على ذلك فآثر الكردينال فش البقاء في كرسي ليون وعين لـكرسي باريس الكردينال موري مع نفور بيوس السابع من تعيينه .

واستمر العراك بين البابا والامبراطور وقد انتهى الامر باعتقال الحبر الاعظم وارساله الى دير الشارتروز في فلورنسة في بدء الامر ومنه ارسل الى سافون ففنتنبلو.

وكان البابا بيوس السابع يعتبر نفسه محروما السلطة الادبية اللازمة في معتقله ولذلك ابى تثبيت الاساقفة الذين عينهم نابوليون اخيرا تثبيتا قانونيا وكان في جملتهم الـكردينال موري وقد رضي الـكردينال فش بان يتولى رئاسة المجمع الذي عقد وقرر ارسال رسالة الى البابا يطلب بها منه التسليم بما يقترحه نابوليون



قبر نابوليون فى جزيرة القديسة هيلانة

فاجاب بيوس السابع انه لا يقرر شيئاً في هذا اذا لم ترجع اليه حريته ويرجع بكرامة الى رومية .

ونشأت مصاعب دينية جديدة لما اراد نابوليون تطليق جوزفين في سنة ١٨٠٩ وكان الامبراطور قد عقد له على زوجته عقد ديني قبل حفلة التتويج بيوم واحد ولذلك لم يكن نابوليون يستطيع ان يعقد زواجا جديدا قانونيا في نظر الكنيسة قبل أن يلغي زواجه الاول . وكان موقنا على التقريب ان البابا يرد طلبه فصمم على الاستغناء عنه وطلب من هيئة مجمع ابرشية باريس الديني ان يقرر فسخ زواجه بجوزفين واورد شاهدا يؤيد ذلك فسخ زواج شارلمان بالاميرة ايملتروود وزواج فيليب اوغسطس بالاميرة انجلورج وشهد الكردينال فش بان زواج جوزفين وقد باركه هو تم بغير شهود فاستند المجمع الى هذه الشهادة وقرر ان هذا الزواج عقد خلافا لمقررات المجمع التريدنتيني وابطله وكان عمل الكردينال فش موصوما بوصمة الضعف فانه اذعن لقرار استبدادي وسخر ضميره لمشيئة جائرة ولم يكتف بذلك بل اقدم بلا تأثم ولا تحرج على عقد زواج ابن اخته بالارشيدوقة ماري لويز

ولا نفيض في الكلام عن سني الامبراطورية الاخيرة حين كان الامبراطور في عراك دائم مع البابوية وحين كان الكردينال فش يعالج تجنب الاختلاف مع ابن اخته مع بقائه متعلقاً بالكنيسة ففي ٢٠ مايو سنة ١٨١١ منح سر العماد لملك رومية الصغير نجل الامبراطور وولي عهد الامبراطورية . ولما ابى الكردينال فش الموافقة في السنة التالية على تعقب بعض الاساقفة واعتقالهم امره الامبراطور بالذهاب الى مركزه في ابرشيته . ولما نقل بيوس السابع من سافون الى فنتنبلو ومر بليون ليلا لم يجرؤ الكردينال فش على الخروج للقائه بل اقتصر على كتابة رسالة اليه يؤكد له بها اخلاصه

وقد ضبط رجال الشحنة هذه الرسالة وارسلوها الى نابوليون حين كان في روسيا .

وانتهى الامر بسقوط نابوليون في سنة ١٨١٤ فعاد بيوس السابع الى رومية وشخص اليها أيضاً الكردينال فش بعدما نفته حكومة لويس الثامن عشر فاستقبله البابا ولم يذكر الا الخدم التي خدمه بها خال الامبراطور ورخص له بالاقامة في رومية مع اخته لاتيسيا .

وطلب لويس الثامن عشر من الـكردينال أن يستقيل من رئاسة اساقفة ليون فرفض الـكردينال رفضا شديدا ما طلبه منه الملك مستندا في رفضه هذا الى الحق القانوني ولم يتمكن البابا لاون الثاني عشر خليفة بيوس السابع من اقناع الـكردينال فش بالاستقالة مع شدة الحاحه عليـه وسويت المسألة أخيراً بمحافظة الـكردينال على لقبه وتسمية السيد دي برني رئيس اساقفة البي السابق وكيلا لادارة شؤون الابرشيه .

ولما جلس الملك لويس فيليب الاول على عرش فرنسا في سنة ١٨٣٠ سعى الكردينال فش الى العودة الى كرسيه حتى أنه اعد العدة للسفر ولكن عرضت مصاعب حالت دون ذلك وقد اتت من جانب الكرسي الرسولي . فبقي الكردينال فش في رومية يعيش عيشة الكبراء حتى حضرته الوفاة في ١٣ مايو سنة ١٨٣٩ فقضى بالداء الموروث في اسرة بونابرت اي بسرطان المعدة وقد نقل رفاته بحسب رغبته في وصيته الى اجاكسيو في سنة ١٨٥١ وضم الى رفات اخته لاتيسيا في كنيسة القديس يوسف .

وفي اجاكسيو شارع اطلق عليه اسم الكردينال فش وفي المدينة مدرسة كبيرة بشارع غرانفال بنيت على اسمه ايضا وقد ادى خدما جليلة لمسقط رأسه وهم يدخرون له عرفان الجميل في تلك المدينة

نابوليون الحقيقي

كما وصفه كاتبه دي بوريان

لما كانت شهادة الشاهد العياني تفوق في القيمة شهادة النـاقل صممت على نشر فصل أخذته من كتاب وضعه دي بوريان كاتب نابوليون الخاص وهـذا الرجل لم يكن يضمر حبا شديدا خالصا لمولاه . وقد لازمه مدة طويلة في روحاته وغدواته حتى كان واقفا على خافيه وباديه ومطلعا على عجره وبجره .

وكان في كل يوم يدون في مذكراته الحوادث التي يشـاهدها موجها اليها ملاحظاته وانتقاده وما تستوجبه من مدح أو قدح وكان يفعل ذلك منقاداً الى ذوقه التاريخي ولم يخطر له قط أنه سينشر يوما من الايام هذه المفـكرات .

وكان نابوليون يعد كاتبه في مستواه ويتخذه أمينا على أسراره ويوليـه

ثقة غير محدودة . وقد كان دي بوريان صديقا للعاهل في أيام الدراسة وكان هذا يوقفه على جميع مقاصده وتدابيره وخططه ويدعوه اليه مرات كثيرة في الليل ويطلب منه أن يأتيه في الساعة السابعة من صباح كل يوم . وكانت ذاكرة دي بوريان عجيبة وكان يحسن التكلم والكتابة بعدة لغات وقد امتاز بسرعة خاطره في معالجة الاساليب الكتابية . وكان أيضا واسع الخبرة في الادارة والقانون العام وشديد الصريحة ومحصنا للاسرار . ومع كل هـذا لم ينج دي بوريان من مطاعن خصومه الذين حسدوه على منصبه فلجأوا الى جميع ضروب الدهاء لـكي يسقطوه في عين مولاه ويفقدوه الحظوة عنده . وما زالوا يستنفدون مواردهم جميعها حتى عرفوا أن دي بوريان يضارب مضاربات مالية رجاء الكسب فاتهموه بانه يستفيد من وجوده في منصبه العالي ليحشد الثروة وكان القنصل الاول يستاء كل الاستياء من الذين يتوسلون بوسائل غير مشروعة لجمع الاموال . فناول نابوليون في ذات ليلة دي بوريان كتابا جاءه به سراً رجل مجهول وقال له اقرأه ثم قال له : يا صديقي الحميم لا بد لنا من الافتراق فانت تعلم سبب ذلك كما أعلمه أنا ولم يسع دي بوريان لبراءة نفسه مما اتهموه به ففارق رفيقه القديم في مدرسة بريان بعدما تعانقا

وزعم بعضهم ان الامبراطور أوصد بابه فيما بعد في وجه كاتبه القديم فهذا الزعم فاسد لان دي بوريان بقي يكثر من التردد على سان كلو وعلى المالميزون حيث كانت جوزفين تـكرم وفادته

وكان بعد ذلك أن دي بوريان أقبل على المضاربات المالية فـكان النحس حليفه ويقال أن اقباله عليها حال دون عودته الى خدمة الامبراطور

وانتخب دي بوريان بعد سقوط الامبراطورية عضواً في مجلس النواب ثم جعل كاتبا للمسيو دي فيلال رئيس الوزارة في عهد الملك لويس الثامن عشر .

وساقته الاقدار في سنة ١٨٢٨ الى بروسل عاصمة بلجيكا وجيبه فارغ والديون متراكمة عليه ففـكر في الانتحار ليتخلص من شقاء هذه الحال وقد بلغ التاسعة والخمسين من عمره ولـكن حظه ساعده في هذه المرة على التخلص من الضيق فأنه تعرف برجل اسمه لدفوكا يعنى بنشر الـكتب فجاءه هذا وطلب منه أن يدفع اليه المفـكرات التي كتبها عن نابوليون لـكي يطبعها فيعطيه ستين الف فرنك في مقابل

ذلك فرضي بعد التردد باجابة طلب لدفوكا . وبرزت هذه المفكرات من خدرها في سنة ١٨٢٩ فكان اقبال الناس عليها عظيما . وقيل أن ناشرها كسب بنشرها مبلغا لايقل عن مليون فرنك في ذلك العهد .

ملامح نابوليون

قال دي بوريان

« اني لكي أجعل جميع الناس يقفون على حقيقة حال نابوليون بونابرت عقدت العزم على كتابة فصل خاص أضمنه كل ماشهدته من حياته المادية والادبية وما عرفته من ذوقه وعاداته وطباعه وأهوائه . أجل ان المصورين والنقاشين رسموا صورته على النسيج أو صنعوا له تماثيل من الرخام ومع أن بعضهم أصاب في تمثيله فلابد من القول أنه ليس ثمة من صورة شديدة الشبه به

أنهم استطاعوا تصوير جمجمته بشكل ناتئ وصوروا جبينه مصعرا ووجهه مصفراً كثير التفكير إلا أن نظره الكثير التحرك لم يقدروا أن يصوروه تصويرا صحيحا فان هذا النظر كانت تحركه ارادة أسرع من البرق ففي الدقيقة عينها كان نظره الحاد الثاقب يتحول من اللين الى الشدة ومن الارهاب الى المجاملة فتبدو له هيئات مختلفة تعبر عن الافكار الهائجة في نفسه .

وكانت له يدان ناعمتان يفتخر بهما ويخصهما بعناية فائقة وينظر اليهما بارتياح واعجاب وهو يتكلم .

وكان يزعم أن له أسنانا جميلة ولكنه ماأصاب في زعمه هذا كما أصاب في زعمه عن يديه .

عادته في التنزه والاستحمام

واذا تنزه وحده أو مع غيره في البيت أوفي الحديقة مشى وظهره محني قليلا ويداه وراء ظهره وأكثر من اجراء حركة غير اختيارية في كتفه اليمنى برفعه اياها واجراء حركة أخرى في الوقت عينه في فمه من اليسار الى اليمين والذي لايعلم أن هاتين الحركتين من قبيل العادة يتوهم انهما من قبيل الحركات التشنجية وقد كانت

هاتان الحركتان في واقع الحال تنبئان عن إجهاد عقلي شديد واضطراب فكري عظيم بحوم حول خواطر كبيرة .

وكان بعد رجوعه من التنزه يكتب او يملي على مايجول في خاطره وكان صلب العود فلا يشعر بالتعب وهو على صهوة جواده في ميادين القتال وكان كثيرا مايسير ماشيا خمس ساعات أو ست ساعات من دون ان يشعر بتعب .

وكان من عادته وهو يتنزه مع أحد يأنس به ان يتأبط ذراعه مستندا اليها وكان يقول لي كثيرا حينما كان قنصلا اول : « ترى يابوريان كم أنا قليل الاكل والشرب ونحيف الجسم وكأني بالنفس تناجيني بانه حين يمضي من عمري اربعون سنة اصير فاحش الاكل مترهل الجسم واني مع ذلك اكثر من الرياضة البدنية ولكنه حدس لا بد من وقوعه . »

وكانت هذه الفكرة تعذبه وحيث لم تكن عندي من الدلائل ما يجعلني أوافقه عليها كنت أقول له أنه مخطىء في حدسه .

وكان شديد الولوع بالاستحمام ويعده من الضرورات وقد تعود أن يقيم في حمامه ساعتين متتاليتين في كل يوم وكنت في أثناء ذلك أقرأ له خلاصة الجرائد أو بعض مقالات جديدة متضمنة هجوا قبيحا موجها اليه فانه كان يريد أن يسمع كل شيء ويعرف كل شيء وينظر الى كل شيء بنفسه . وكان في أثناء مقامه في الحمام يفتح دائما حنفية الماء الساخن فترتفع الحرارة الى درجة تجعل القراءة صعبة علي من جراء البخار الكثيف المتصاعد والحائل بيني وبين الصحف التي اتدبرها فاضطر حينئذ الى فتح الباب .

استقامة طبعه

وكان بونابرت معتدلا في كل شيء متجنبا الافراط والتفريط ولم يفته ما يذيعونه عنه من الأخبار السيئة وكان في بعض الاحيان يعيل صبره لمعرفتها .

أو لم يستفض بين الناس أنه كانت تنتابه نوب صرع تشبه نوب « النقطة » ففي السنين الاحدي عشرة التي قضيتها معه بلا افتراق عنه لم يبد لي أدنى أعراض تدل على هذا المرض فقد كان سليم الجسم متين البنية .

وهب توهم أعداؤه أنهم يحقرون من شأنه باذاعتهم عنه أنه مصاب بهذا

المرض فان أنصاره ومريديه الذين يظنون أن النوم لا يتفق مع العظمة لم يكونوا صادقين في زعمهم بأنه يحيي لياليه ساهرا فان بونابرت كان يكلف غيره السهر حين يغوص هو في لجة الكرى وكان يريد أن أوقظه في الساعة السابعة صباحا من كل يوم فكنت أسبق غيري الى دخول غرفته وحينما أوقظه يقول لي في غالب الاحيان وهو متناعس : يابوريان أرجو منك أن تتركني أنام أيضاً قليلا .

واذا لم يكن شيء مهم كنت أعود اليه في الساعة الثامنة وبالاجمال كان ينام سبع ساعات في كل يوم ويقيل بضع دقائق بعد الظهر . وقد أوعز الي بألا أكثر من الدخول عليه ليلا وألا أوقظه حين يكون عندي خبر سار أبلغه اياه فلا شيء يدعو الى الاسراع في ذلك ولكنه كان يود أن أوقظه في الحال اذا كان ثمة خبر رديء .

نابوليون في الصباح

وعند استيقاظه يبادر خادمه الخاص الى حلق لحيته وتسوية شعره وبينما الخادم يجري له ذلك اقرأ له الجرائد مبتدئا بجريدة « المونيطور » ولكنه لم يكن يهتم الا بالجرائد الانكليزية والالمانية فيقول لي وأنا أقرأ الجرائد الفرنسوية « انتقل الى غيرها فانا أعرف مافيها فهي لاتكتب الا ما أريده . .. »

وكثيرا ما كنت أتعجب من نجاته من الجرح حينما يلتفت بغتة وخادمه يحلق له ذقنه .

وحينما يفرغ من لبس ثيابه — وكان شديد التأنق في الملبس مبالغا في النظافة — ينزل الى مكتبه فيوقع العرائض الخطيرة التي أكون قد طالعتها في مساء اليوم السابق وكان في أيام الاستقبالات والاحتفالات يوقعها حينما كنت أذكره بأن أصحابها ينتظرونها أمام مكتبه وفي المواضع التي يمر بها . وكنت أكفيه مؤونة العناء بقولي لاصحابها قبل خروجه مامنحهم اياه وماحبسه عنهم .

ثم يقرأ الكتب المفتوحة على منضدته بعد أن أكون قد رتبتها بحسب أهميتها فيكل الي المجاوبة عليها وكان في بعض الاحيان يجاوب عليها بيده ولكن هذا كان نادرا لان المجاوبة على الكتب المرسلة اليه كان مجلبة لضجره . ويأتي

خادم المائدة في الساعة العاشرة ويخبره ان طعام الصباح مهيأ فننزل . وكان الصبوح دائماً بسيطاً .

وقد يطلب في الصباح لحم دجاج معالجاً بالزيت والبصل ويشرب قليلا من الخمر وكان يؤثر خمر بوردو ولاسيما خمر برغونيا ويتناول فنجانا من القهوة القوية بعد الغداء والعشاء .

ولم يكن يتناول شيئا بين الوجبات ولا ادري لماذا نسب اليه بعضهم شدة الولوع بالقهوة ومن المرجح ان الذين نسبوا اليه هذا الامر يتوهمون انه يأرق في الليل وان الاكثار من تناول القهوة يسبب له هذا الارق

وكان اذا اضطر الى اطالة السهر من جراء بعض الشواغل لا يجرع القهوة بل يتناول الشكولاتا ويجعلني أجرع معه فنجانا منها ولا يفعل ذلك الا حينما يتمادى بنا السهر الى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل . وقالوا أيضاً أنه كان مفرطاً في التدخين فقولهم مردود لانه كان يتناول التبغ نشوقا بمقادير قليلة موضوعة في علبة وعنده عدد كبير من العلب .

علو همته وحبه لفرنسا

وكان بونابرت شديد الميل الى أمرين : المجد والحرب ولم ير مشرق الجبين الا في الحرب أو مقطب الجبين الا في وقت الراحة وكان يروقه اقامة الانصاب ويملأ فؤاده نموذج اقامة الابنيـة الفخمة ولم يفته ان الانصاب جزء من تاريخ الشعوب وان بقاءها مدة طويلة دليل على مدنية هذه الشعوب بعد انقراضها بعهد طويل وتدل الاجيال المتأخرة على حدوث هذه الفتوح الممـدودة في بعض الاحيان من الاساطير .

وقد خدع من الطريق الواجب عليه سلوكها للوصول الى الغاية التي يؤمها فعلاماته واعلامه موضوعة على الانصاب المرفوعة في عهده ولـكن لماذا ينسبون قصر اللوفر القديم الى عهد ملكه بوضعهم عليه احرفا كاذبة فان حرف N المحفور في كل مكان لم يكن ليقوى على محو حوادث التاريخ فوضعه بدلا من الاحرف المحذوفة لايغير ترتيب الازمنة ولـكن لا بأس من ذلك فان نابوليون كان موقناً أن الفنون الجميلة تزين الاعمال العظيمة بشهرة واسعة وتخلد ذكر الملوك الذين احاطوها بعنايتهم وشجعوها

وقال لي بونابرت مرة : « ان الشهرة العظيمة ضجة كبيرة وكلما عمل الناس في سبيلها كثر امتدادها الى مدى بعيد فالشرائع والانظمة والانصاب والامم تسقط ولـكن الضجة تبقى ويكون لها دوي في الاجيال الآتية » هكذا كان يفـكر في مثل هذه الامور .

وكان يقول لي : « ان قوتي تتعلق بمجدي ومجدي يتعلق بالانتصارات التي اصبتها وهي تسقط ان لم اجعل قاعدتها المجد والانتصارات الجديدة وقدجعلني الفتح على ما أنا عليه والفتح دون سواه يحفظني كما أنا »

هذا هو الفـكر المتسلط عليه وقد جعله دائم التفـكير في حروب جديدة

وكان يزعم انه اذا بقي جامدا في مكانه لايأمن السقوط وهذا ما كان يجعله ميالا الى التقدم الى الامام وعنده ان العمل بلا عظمة ولا قوة لايعد عملا وهذه الحاجة الشديدة متعلقة بالانظمة التي وضعها وكان يقول : « الحكومة المولودة في السناء محتاجـة الى أن تبهر الانظار وتدهش الناس وحالما تفقد اللمعان تسقط . »

ولم يكن في الحقيقة مستطاعا ان تطلب الراحة من شخص كان الحركة بعينها وكانت عواطفه نحو فرنسا تختلف عنها لما كان حدثا فقد بقي مدة طويلة ضيق الصدر عند تذكره فتح كورسيكا التي كان يعتبرها موطنا له دون سواها ولـكن مالبثت هذه الذكرى ان امحت وصار يحب فرنسا محبة عظيمة وكان جنانه ملتهبا بتشوقه لرؤيتها عظيمة وأولامة في العالم تخضع جميع الامم لشرائعها

وكان يرى اسمه مرتبطا باسم فرنسا بارابطة لاتنفصم عراها ويسمع الناس يرددونه في الازمنة المتأخرة . وفي جميع اعماله كان الحاضر يمحى أمام المستقبل كما أنه كان في جميع الامكنة التي تقذفه اليها الحرب ينظر ماتلالدى فكره الرأي العام الفرنسوي .

وكما كان الاسكندر الـكبير في اربل يعلق اهمية على استمالة الرأي العام اليه في أثينا اكثر مما يعلقه على قهره دارا لم يكن بونابرت في مارنغويني عن التفكير في ماعساهم أن يقولوا في فرنسا . وكان قبل اضرام المعركة يهتم بما يجب عليه أن يفعله في حالة الانـكسار اكثر مما يهتم بما يفعله في حالة الانتصار



اوجين بوهرنه ولد فى سنة ١٧٨١ وتوفى فى سنة ١٨٢٤

وكانت مطامعه الشديدة تدفعه نحو السلطة الا أن السلطة التي أصابها زادته طمعا على طمع ولم يفقه احد في الاعتقاد بهذه الحقيقة وهي أن أعظم الحوادث تكون في غالب الاحيان نتيجة لامور تافهة وهذا هو السبب الذي من اجله كان يتوقع تلك الحوادث ولا يستنزلها فيشاهدها تتهيأ وتنضج فيثب اليها مفاجئاً ويسيرها على هواه

رأيه في الناس

ولم يكن بونابرت ميالا بطبيعته الى احترام الناس بل كان يحتقرهم كلما طال تعرفه بهم ورأيه هذا في الناس ناشيء عن الاختبار ومؤيد عنده ببعض الامثلة الظاهرة ويعد عنفه نتيجة لهذا المبدأ الذي كان يكرره دائما وهو : «مخلاان يحركان العالم : الخوف والمصلحة »

وأي احترام يشعر به بونابرت لطالبي الرفد من صندوق الاوبرا فهذا الصندوق الملقى فيه مبلغ كبير من عائدات الالعب ينفق قسم منه لتسديد ما يريد من النفقات على الملعب والقسم الباقي ينفق في طرق سرية فكان بعضهم يقبض مبالغ كبيرة بورقة يوقعها دوروك وكثيرا ما كانوا يبصرون اشخاصا لابسين أزياء مختلفة يدخلون من الباب الصغير من جهة شارع رامو وان صديقة مصر التي كان البريطانيون قد اطلقوا سبيل زوجها المسكين اكثرت من التردد على ذلك الصندوق وكم من مرة اجتمع امامه في وقت واحد العالم والممثل والخطيب المصقع والموسيقي المشوه . وفي يوم واحد جاء ذلك الصندوق كاهن ثم محظية فكردينال (فش) .

وكان من اكبر مصائب بونابرت انه لم يكن يصدق بوجود الصداقة وانه لم يكن يشعر بالحاجة الى الحب وكم من مرة قال لي : « ليس الحب سوى كلمة ... انا لا أحب احدا ... انا لا احب اخوتي وقد اشعر بشيء من الحب ليوسف وذلك من قبيل العادة لكونه اخي البكر ... احب ايضا دوروك . ولماذا احبه . لان طباعه تعجبني . . . فهو بارد وجاف الخلق وصلب المكسر . . . ولا يذرف الدموع ابداً ... ولا يهمني هذا الامر البتة فانا ادري انه ليس لي اصدقاء حقيقيون ... انظر يا بوريان لندع النساء يبكين فهذا امر يعنيهن ... اما انا فلا

شيء يجعل فؤادي يرق ... فينبغي للانسان ان يكون ثبت الجنان والا فليتجنب الحرب والترس بالحكم »

وكان بونابرت في علاقاته مع الهيئة الاجتماعية يحب التحرش بالناس لتفتيق بنائق صبرهم على صورة ينفرون منها وحينما كان يفور فائره كان يظهر ذلك بما يفوه به من الكلام فان اهاناته الشديدة ولواذع كلماته وتحدم غيظه كانت مدبرة بتصميم سابق .

واذا اراد اظهار استيائه من احد كان حضور الشهود يشجعه على ذلك فيوجه اليه كلاما قاسياً حادا محقراً على انه لم يكن يكثر من سورات الغضب هذه فلا تحدث الا حينما يتحقق جرم الموجه اليهم كلامه .

واذا اراد توبيخ احد على حدة كان يبتغي ان يحضر ذلك المشهد شخص ثالث وقد لاحظت كثيرا انه يجد في ذلك مايزيد في جرأته على انه كان حينما يخلو بالانسان وحده وهو يعرف طباعه يتأكد انه يتغلب عليه برباطة جأشه وصدقه وقد قال لاحد أصدقائه وهو في جزيرة القديسة هيلانة انه لم يكن يدعو شخصا ثالثا الى الحضور الا ليجعل لتلك الضربة صدى بعيدا وعندي ان ذلك لم يكن غرضه لانه لوكان صادقا في قوله هذا لسهل عليه توجيه توبيخه جهاراً وانما كانت له اغراض اخرى .

وقد لاحظت في اثناء المدة التي قضيتها معه انه لم يكن يحب الاختلاء باحد فكان حينما ينتظر أحداً يقول لي : ابق هنا يابوريان . وحينما يخبرونه بقدوم شخص ينتظره كوزير او جنرال مثلا اهم بالخروج فيقول لي بصوت منخفض ابق هنا والحق يقال ان بقائي في ناديه لم يقصد به انتشار ما أسمعه من الحديث بين الملأ فليس من طبعي ولا من الواجب علي ان اذيع مثل هـذه الاخبار .

وكان بونابرت ينظر بمقلة الاحتقار الى رجال الثورة المشهورين بسفك الدماء والملطخة أيديهم بدم الملك فيسأم من اضطراره الى اظهار خلاف مايبطن في حديثه معهم وكان كلامه عند تحديثه إياي عنهم مقترنا بالتقزز .

وقال مرات كثيرة لكمباساريس وهو يعرك أذنه بلطف : ياعزيزي كمباساريس لااستطيع شيئا فمسألتك واضحة كالشمس في رائعة النهار فلو قدر وعاد البوربون لكان الشنق من نصيبك . فكان كمباساريس يتبسم عند سماعه هـذا الكلام

تبسما مكرها عليه وقال له ذات مرة : دع عنك مثل هذا الهزل القبيح في حضرتي

بعض عاداته

وكان لبونابرت عادات غريبة وذوق فريد في بابه فكان يغني كلما لقي مقاومة أو شغل خاطره فكر مزعج ولكن صوته كان قبيحا . فكان يجلس إلى مكتبه ويستلقي الى الوراء حتى يكاد يقع . وقد نبهته الى ذلك مرارا . وحينما يكون في هذا الموقف يفرغ غضبه على ساعد كرسيه ويمزقه بسكين لم يكن يستخدمه لغير هذا الامر . وكنت دائما أهيء له أقلاما صلبة لانه كان مقضيا علي بسبب مهمتي لديه أن أقرأ كتابته فيهمني والحالة هذه أكثر من غيري أن يكتب كتابة تسهل قراءتها .

وكانت أصوات الاجراس تؤثر فيه تأثيراً غريباً لاأدري سببه فيصغي اليها بلذة وارتياح . وحينما كنا نتنزه في المالميزون في الطريق المؤدي الى سهل روايل كانت أصوات الاجراس في هذه البلدة تقطع حديثنا فيقف لئلا يجعله وقع اقدامنا يفقد شيئا من هـذه الاصوات التي يفعم سماعها فؤاده بهجة . وكثيرا ما كان يستاء مني لانني لم أكن أشعر بمثل مايشعر به من هذه الجهة . وكانت حواسه تتأثر كل التأثر فيقول لي بصوت متهدج : « ان هذا يذكرني بالسنين الاولى التي قضيتها في بريان حينما كنت سعيدا . . . » وحينما تصمت الاجراس يعود الى تأملاته الكبيرة ولم أشاهد بونابرت في غير مواقع القتال مسرورا بقدر ما كنت أشاهده مسرورا في حدائق المالميزون .

وكنا نذهب في أوائل عهد القنصلية الى المالميزون في كل يوم سبت عنـد المساء فنقضي فيه يوم الاحد ويوم الاثنين في بعض الاحيان . وكان بونابرت يهمل العمل قليلا في المالميزون لـكي يتمكن من التنزه ومراقبة أعمال الاصلاح والتزيين التي يعملها فيه وكان في بدء الامر يزور الاماكن المجاورة إلا أن تقارير رجال الشحنة جعلته يعدل عن هذه الزيارات فان انصار الملكية كانوا يترقبونه ليختطفوه .

وكان في الايام الخمسة الاولى التي قضاها في المالميزون يتسلى في بعض الاحيان بتحرير حساب ريع أراضيه ولم ينس شيئا من أمر العناية بالحديقة والبقول فبلغ

ريعها ثمانية آلاف فرنك وكان يقول ان هـذا لايستهان به ولـكن يجب على الانسان الذي يسكن هـذا المـكان ألا يقل دخله عن ثلاثين الف جنيه . وكان يبهج فؤاده في خلال مقامه فى هذا المـكان أن يبصر امرأة ممشوقة القوام مرتدية ثوباً أبيض تتنزه في ظل الاشجار الملتفة الاغصان الـكثة الاوراق ولم يكن يطيق أن يبصر النساء يلبسن ثيابا ملونة وخصوصا الثياب القاتمة اللون . وكانت عينه تقذى برؤية النساء البادنات وتنفر من رؤية النسـاء الحوامل فيندر أن يدعو أمثالهن الى الحفلات والولائم .

وكان حاصلا على كل مايحتاج اليه الانسان ليدعى في الهيئة الاجتماعية رجلا لطيف المعاشرة ولـكن كانت تنقصه الارادة ليكون كذلك .

ولم يكن يتظاهر بالعظمة الا طمعا باستمالة الناس اليه وكان الذين لايعرفونه يشعرون في حضرته بعاطفة تهيب تفوق ارادتهم .

وكان الانسان يشعر عند جوزفين الفاضلة في أثناء غياب المولى ببهجة وغبطة يزيدها بهاء لطف هذه السيدة الممتازة بمكارم أخلاقها ولين جانبها وكان كل شيء يتغير عند وصوله فتتحول الانظار اليـه ليتمكنوا من قراءة مايبدو على صفحة جبينه مما يجول في جنانه ويروا هل هو راغب في الصمت أو ميال الى الـكلام وهل هو مسرور أو مكتئب . وكان في غالب الاحيان يكثر من الـكلام راوياً الحوادث بشكل يخلب الالباب وقلما دارت أحاديثه على أمور بهجة أو تافهة بل على المباحثة والمجادلة وكان عند احتدام الجدال يستدرج الى كشف ما يريد تخبئته في صدره وكان يسر أحياناً بأن يسرد لجلسائه حوادث تدل على اعتقاده بما يقع في المستقبل أو حوادث عن عودة الارواح ويروي ذلك دائما وقتما يجن الليل ويهيء الحاضرين لسماع ذلك بايراده وبعض عبارات رصينة . وكانت جميع أحاديثه مفعمة لطفاً خلاباً وأموراً ونـكات مستملحة ويكثر في اسفاره من مثل هذه الاحاديث ومن علامات البهجة عنده ان يصفر بابهامه وسبابته أو يعرك طرف اذن جليسه بلطف وكان يقول في الاحاديث المرفوعة فيها « الـكلفة » بينه وبين من تعودوا مجالسته : « أنت بليد . أنت مغفل . انت غر . أنت أحمق . أنت أبله » وما شاكل ذلك ولـكنه لم يكن يستعمل قط هـذه الالفاظ بصورة جدية وكانت لهجته في استعمالها تدل على الغاية المقصودة من ورائها .

نابوليون والطب والشعر

ولم يكن نابوليون يعتقد بفعل الطب ولا بتأثير الادوية التي يصفها الاطباء فيتكلم عنه كما يتكلم عن فن يكثرون فيه من الافتراضات والمزاعم ولا يزعزع شيء اعتقاده من هذه الجهة فقد كان ذا عقل قوي لا يعتقد الا الحقائق المقررة .

وهو ذو ذاكرة ضعيفة من جهة الاعلام والالفاظ والتواريخ ولكنه ذو ذاكرة عجيبة من جهة الحوادث والامكنة واذكر أنه ونحن ذاهبون من باريس الى طولون نبه فكري الى عشرة أمكنة تصلح لان تضرم فيها نار القتال ولم ينس ذلك قط .

ولم تكن محاسن الشعر تستهويه ولم تكن أذنه ماعدا ذلك متعودة التمييز بين أوزان الشعر صالحها وفاسدها ولم ينشد شعرا من دون ان يختل الوزن الا أن الافكار السامية كانت تبهجه وقد اكبر كورنايل كثيرا وقال لي ذات يوم بعد حضوره تمثيل رواية « سنا » : « لوكان رجل ككورنايل يعيش في أيامي هذه لاتخذته وزيري الاول فانا لا أعجب باشعاره فقط بل أعجب بذوقه السليم ومعرفته الواسعة لقلب الانسان وعمق سياسته »

وقال وهو في جزيرة القديسة هيلانة : «لوكان كورنايل في عصري لرقيته الى مرتبة الامراء » ولكنه لم يكن في الحين الذي حدثني عنه يفكر في عمل ملوك وامراء

نابوليون والنساء

أما التأدب مع النساء فلم يكن من طبع بونابرت وقد ندر أن خاطبهن بكلام سار وكثيرا ما أساء اليهن من حيث لا يريد كقوله لهن مثلا : « ما أشد احمرار ذراعك . ما أقبح تصفيف شعرك . ما بالك تلبسين هذا الثوب الوسخ ، أولا تغيرين ثيابك . لقد أبصرتك أكثر من عشرين مرة لابسة هذا الثوب . . . »

وكان قليل الشفقة يحب أن يجعل الناس ينفقون أموالهم من دون أن يبالي بذلك وكان يهتم بملابس زوجته وهي من جهتها كانت ذات ذوق ممتاز وهذا

ماجعله ينتقدغيرها من النساء ومن صفاته حب التأنق وصار يحب البهرجة والزينة فيما بعد الا أنه لم يحب قط أن تخرج النساء عن دائرة الحشمة وتذمر غير مرة في مفتتح عصر القنصلية من زي الاثواب العارية فيها الاذرع والاعناق والصدور

كرهه للمقامرة

ولم يكن يحب المقامرة وهذا من حسن حظ الاشخاص المدعوين الى ناديه وحينما كان يضطر الى الجلوس على مائدة اللعب كان يبدي التذمر والتأفف وحينما كان يتنزه مع ضيوفه كان يبهجهم جميعاً بما يخاطبهم به على أنه كان يؤثر محادثة العلماء ولاسيما الذين رافقوه الى مصر كمونج وبرتولاي ويسر بمحادثته لشبتال ولاسيبيد وليرسياي .

وأقول بالايجاز ان من يريد أن يحكم حكما صائبا على بونابرت ويقدره حق قدره يجب عليه أن يبصره في طليعة جيشه وليس في ردهة من رده قصره . أما لباسه فالعسكري منه يوافقه أ كثر من أجمل لباس مدني وقد قيل لي أنه لما ارتدى اللباس المدني المرة الاولى بقي لابسا اربة سوداء فلم يظهر ذلك متلائما مع ثوبه فلما أبدوا له ملاحظة بهذا الشأن قال : « لا بأس من ذلك فاني لا أحب أن أفقد الهيئة العسكرية تماما » .

وكان القنصل الاول يدفع نفقاته الشخصية الا أنه لم يشأ أن يجعلهم يدفعون ثمن الاشياء العامة الناتجة عن مساومات سابقة مع الوزراء لبعض دوائر الحكومة فكان يؤخر هذه المبالغ بالتجائه الى حجج شتى وأسباب غريبة وهذا مادعا فيما بعد الى تعيين لجنة للنظر في حساب المبالغ المتأخرة وكان عنده مبدأ ثابت وهو أن جميع ملتزمي تقديم الحاجات للحكومة لصوص .

وكلما قلل وزير من دفع ماهو مقرر في موازنته نظر اليه بونابرت بلاحظة الرضاء فديكريس وزير البحرية أصاب حظوة عنده لانه جرى على نهج اقتصاد يجر الخراب في بعض الاحيان على ملتزمي تقديم الحاجات للبحرية .

نابوليون والدين

أما من جهة الدين فقد كانت له افكار مبهجة وقد قال لي في ذات يوم : « ان عقلي يجعلني أنكر بعض الامور الا أن ما بقي لي من تأثيرات حداثتي يلقيني في وهدة الشك . »

وكان يحب الاسهاب في الكلام عن الدين وقد أبصرته مرات كثيرة ونحن في مصر أو على متن السفينة « الشرق » والسفينة « موبرون » يتدخل بعناية في أحاديث دائرة بحدة على هذا الموضوع فيسلم مختاراً بكل ما يبرهنون له عليه ولكنه لا يحب أن يسمعهم يتكلمون عن المذهب المادي فاذكر اننا بينما كنا ذات ليلة ونحن على متن السفينة « الشرق » وحولنا أشخاص يتباحثون في هذه العقيدة المنكرة رفع بونابرت عينيه الى السماء ودلهم على الكواكب وقال لهم بسكينة : « تحاولون البحث في هذا الموضوع على غير جدوى يا حضرة السادة فمن صنع جميع هذه الاشياء . » وكان كثير التساهل من جهة الدين فلم يطق أن يرى أحدا مضطهداً بسبب معتقده الديني .

وها أنذا أذكر عادة من عادات بونابرت الغريبة وهي جلوسه نصف جلسة على المنضدة التي أمامه فكان مثلا يجلس على هذه الصورة على منضدتي ساندا ذراعه اليسرى الى كتفي اليمنى وهازا ساقه التي لا تصل الى الارض ويملي علي وهو يهز المنضدة فيزعجني كثيرا في الكتابة .

صلابة عزمه

وكان يأنف من الرجوع عن قرار أصدره مع اعترافه بأنه مخالف للعدالة فلم يكن شيء من الاشياء يجعله يعود الى الوراء سواء كان في الاشياء الصغيرة أو في الاشياء الكبيرة لانه كان يعتبر أن في التقهقر مهلكة وقد شهدت حادثا يدل على تصلبه في حال لا أنساها أبدا وهو حادث الجنرال لاتور دواساك وكان القنصل الاول يظهر أنه متأثر من الضرر الذي سببه له ولكنه أراد أن يترك الزمان يمر قبل اصلاح هذا الضرر وقد قام خلاف بين قلبه وتصرفه فتأثر من ذلك ولكن

جودة قلبه صمتت أمام ما كان يعده من مقتضيات السياسة .

ان بونابرت لم يقل قط «أخطأت» بل كان يقول «ابتدأت أظن أن ثمة شرا»

على أنه مع هذا المبدأ الذي يلائم الفيلسوف أكثر مما يلائم رئيس الحكومة لم يكن بونابرت بغيضا ولا منتقما ولا ميالا بطبعه الى سفك الدم . أجل اني لا استطيع أن أدفع عنه معرة جميع الملام الذي جرته اليه شريعة الحرب السائدة ومقتضياتها القاهرة وانما أقول أنهم تحاملوا عليه كثيرا من هذا القبيل .

وأؤكد أن بونابرت كان يعدني ما عدا دائرة سياسته رقيق الشعور جيد القلب كبير الشفقة شديد المحبة للاولاد . ويندر أن تجد رجلا شريرا يميل الى الاولاد . وكان بونابرت في حياته الشخصية على جانب عظيم من البساطة متساهلا أمام الضعف البشري لانه يعرفه حق المعرفة ويقدره حق قدره .

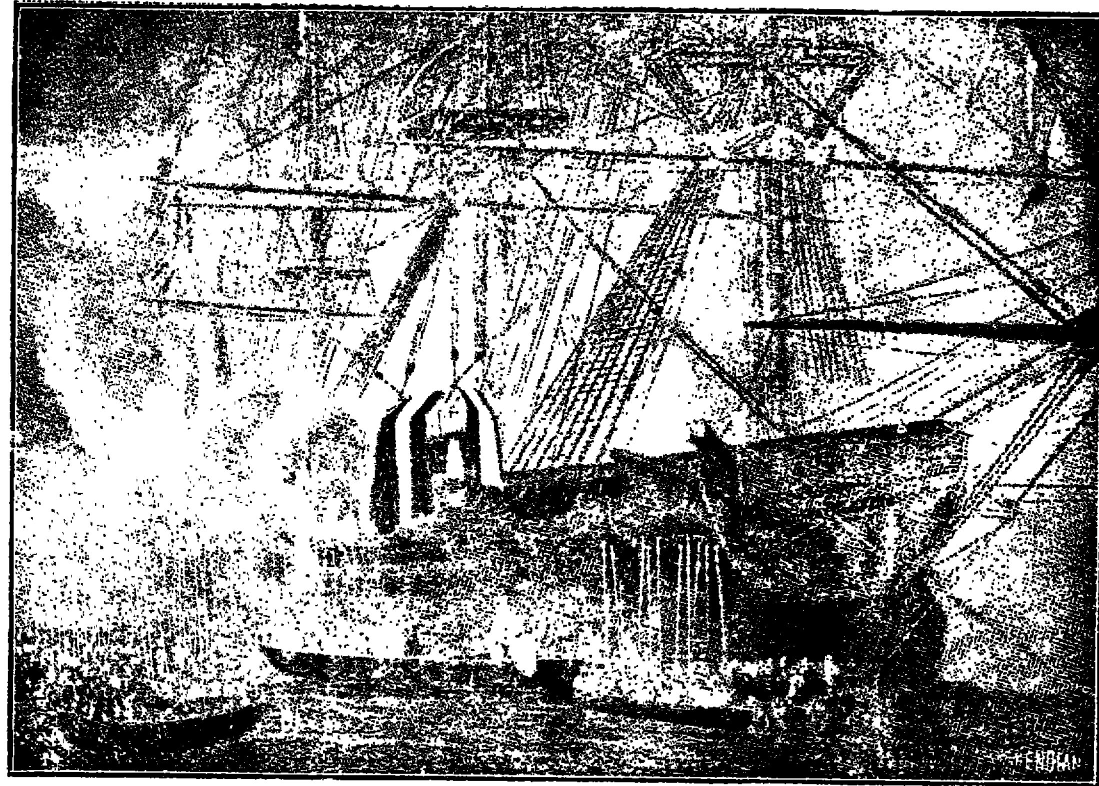
انا أعلم أنه ستقوم علي قيامة المعارضين ولكنني أوجه كلامي الى ناشدي الحقيقة ومحبيها فقد عشت مع بونابرت واطلعت على جميع خفايا حياته ولا القي الكلام على عواهنه وعلى كل حال أفلا يجب علينا أن نراعي حصة الزمان والاحوال التي تؤثر جد التأثير في الانسان . أفلا يجب علينا أن نميز بين طالب العلم وقائد الجيش والقنصل الاول والامبراطور اذا رغبنا في ان يعد الناس الحكم الذي نبرزه عليه صادرا بنزاهة وبلا تغرض . »

رأي اللورد روزبري

في نابوليون بونابرت

كان سائح بريطاني عائداً من رومية الى بلاده في صيف سنة ١٨٦٣ فعرج على باريس ليقضي فيها يومين وكان هذا السائح من طلبة مدرسة ايتون وقد صحبه احد اساتذة هذه المدرسة في رحلته كدليل يرشده وكان اهم شيء لفت انظار هذا الشاب ضريح نابوليون وقد كتب استاذه عنه انه كان من اكبر المعجبين بنابوليون واسرته وكان هذا الاعجاب مبنيا على التروي لان هذا الشاب نال قسطاً وفيراً من الذكاء والفراسة وكان الشاب الذي نحن في صدد الكلام عنه يدعى اللورد دلمني وهو الذي عرف فيما بعد في العالم كله باسم اللورد روزبري .

وانتقل اللورد دلمني من مدرسة ايتون الى جامعة اكسفورد وقبل ان



السفينة « بل بول » التى جلبت رفات نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا فى سنة ١٨٤٠

ينجز دروسه فيها توفي جده فانتقل اليه اسمه واصبح من ذلك اليوم معدوداً من أعيان المملكة ولكنه قضى عشر سنوات لم يسمع احد صوته في اثنائها في مجلس الاعيان . ولما كان في الرابعة عشرة من عمره قال له احد وطنييه في احدى المآدب انه سيصبح يوماً رئيساً للوزارة ولكن اللورد روزبري الشاب لم يكن شديد التسرع لاصابة ذلك المنصب الرفيع بل سار اليه بطريق طويل . وكان الناس يكثرون من الكلام عن جياده المطهمة وتأنقه في ملبسه وميله الى الفنون والملاذ العالمية وكان مشهوراً عنه انه لطيف المعاشرة محباً للمجون وانه يستطيع كل شيء حتى الشغل نفسه حين يروقه ذلك وكان اقرانه يأنسون بعشرته والذين دونه منزلة يتعشقونه لانه كان يهتم بحاجاتهم وينفس كربتهم وينيلهم امانيهم

واقترن اللورد روزبري في سنة ١٨٧٨ باغنى فتاة في بريطانيا العظمى وهي الآنسة حنة دي رتشيلد كريمة البارون والبارونة ماير دي رتشيلد المشهورين باحسانهما في بلادهما وقد اثار هـذا القران عاصفة انتقاد شديد وحرك عوامل الحسد في قلوب كثيرين من الاعيان ولكن مالبثت هـذه العاصفة ان هدأت وهذه العوامل ان سكنت لما عرف الناس حقيقة خلق الزوجة الكريمة الجريئة المخلصة الامينة التي انتقاها اللورد روزبري وقد كانت لها اليد الطولى في معونته في الانتخابات العامة في سنة ١٨٨٠ واعيد على أثرها فتح ابواب قصر وستمنستر على مصاريعها في وجه داهية السياسة البريطانية الاكبر المستر غلادستن وكان اللورد روزبري العامل الاكبر لفوزه فكان قصر دلمني مركز تلك الحركة السياسية ولا يخفى أن تنظيم المعركة يكون في بعض الاحيان اصعب من نيل النصر وكان اللورد روزبري يستطيع ان يصيب كل شيء بعد ذلك الفوز الباهر وبعد قبض حزب الاحرار على ازمة السلطة ولكنه لم يقبل شيئا . ولما اسندت اليه وكالة وزارة الداخلية بعد ثمانية عشر شهرا عرف الجميع اي عضد متين نالته الوزارة . ولما تقلد المستر غلادستن وزارته الثالثة عين اللورد روزبري وزيراً للخارجية فاشتهر فيها باقدامه وتيقظه وبراعته ولكن الاحرار المتحدين ناوأوا الوزارة بقضية الحكم الذاتي في ارلندا وزعزعوا اركانها . ولما خلا اللورد روزبري الجو ركب مركب الرحيل الى البلدان المؤلفة منها الامبراطورية البريطانية وقد صحبته قرينته في رحلته هذه فطاف حول الارض في سنتي ١٨٨٢ و ١٨٨٣ وغشي

كندا واستراليا ودرس بذهنه الثاقب وحكمه الصائب ماكان من العلاقات بين بريطانيا العظمى ومستعمراتها البعيدة وذهب في سنة ١٨٨٧ الى الهند وبعد ماقضى فيها حينا من الزمان عاد الى بلاده وحقيبته مماؤة معلومات خطيرة كانت له عدة عند الحاجة ولم يكن الاستعمار مبدأ انتحله اللورد روزبري وجعله مسيطرا على جميع اعماله بل كان يراه امراً من الامور العادية يقتضيه اتساع نطاق العلم والصناعة على ماكان مشهوراً في اواخر القرن الماضي فالبخار والكهرباء بتقريبهما الابعاد وتقصيرهما المسافات اوجدا مساواة حقيقية في الحقوق والواجبات التي لم تكن في الماضي سوى نظرية وهمية وقد وضعا حداً نهائيا للصلات القديمة التي كانت البلاد البريطانية مرتبطة بها بمستعمراتها وقد كان للورد روزبري ومريديه شأن عظيم في تسكين مخاوف اوربا من مرامي الاستعمار واقناعها بانه لم يكن المراد به الاعتداء والفتح بل كان ذلك مسألة تنظيم ائتلافي لا يقصد به تهديد أحد أو النيل من كرامته .

ولما عاد اللورد روزبري الى بريطانيا العظمى عين عضوا في مجلس ولاية لندن فرئيسا له وقد انشيء هذا المجلس بموجب قانون جديد فهذا المنصب أبقى أثرا خطيراً من آثار حياته السياسية بقطع النظر عن المناصب السامية التي انتدب لها فيما بعد فان تمرسه الشخصي واليومي بالديمقراطية في أكبر مدينة حديثة جعله يفهم ما كان غامضا عنه وأطلعه على أسرار التصرف بعواطف الناس واستمالتهم وقد كان هذا الامر من مميزاته الطبيعية فصانع أشخاصا كانوا يدعونه « المستر روزبري » واستمال اليه على هذا النمط المشتغلين بالسياسة من عامة الشعب ولم يفعل ذلك بتملقه اياهم بل بمعاملته اياهم معاملة الند للند وبرزانة وجد وكان وهو جالس على منصة رئاسة ذلك المجلس — وكانت زوجته توافيه اليه في بعض الاحيان — يجعل الجلسات أشبه باجتماعات « عائلية » يسودها الود والاخلاص والاهتمام بالشؤون من وجهة المصلحة والاعمال العملية واستطاع بما أوتيه من سعة الحيلة ورحابة الصدر وشدة الشكيمة من رد تهجم الكائدين لمجلسه وكان شديد المحافظة على قانون تعيين مدة الخطابة وقد جعلت ١٥ دقيقة للخطيب بحيث كان يذكر الخطيب بهذا القانون حين ينقضي ربع الساعة ويظل الخطيب ماضيا في الخطابة وكان همه منصرفا الى حل المسائل حلا عمليا نابذا كل ما كان من شأنه اقحام النظريات السياسية في المسائل البلدية الصرفة وقد كان من نتيجة

أعمال هذا المجلس الذي أصبح لسان حال المدينة ان محافظها قصرت يده في كثير من الاعمال واجتزىء بالقليل من الفخفخة التي كانت تحيط بموكبه الرسمي وكانت تحاكي الحفلات التي يقيمونها في « المرافع » ومعظم الفضل في هـذا التعديل والاصلاح يرجع الى اللورد روزبري .

ونزلت باللورد روزبري بلية كبرى في خريف سنة ١٨٩٠ فانه فجع بزوجته الفاضلة وقد اضطر من جراء ذلك الى هجر السياسـة والشؤون العامة ولـكنه عاد اليها في سنة ١٨٩٢ لما عاد المستر غلادستن الى تقـلد الوزارة ولم يكن له في البرلمان الا أقلية ضئيلة ولم يقبل ذلك الزعيم تقلد السلطة الا لمعالجة تحقيق المشروع الذي كان يصرف اليه همامة النفس وهو استقلال ارلندا الاداري وقد وافق عليه مريدوه « ونفسهم حزينة حتى الموت » واغتنم مجلس الاعيان هذه الفرصة لاستعادة مافقده من ميل الامة اليه بقيامه على هـذا المشروع وقد لقي اللورد روزبري سبيل الوصول الى تأييد المشروع مفروشـة بالاشواك وكاد يكون منفردا في مجلس مخاصم له وقد قضت عليه الحال بأن يتخذ خطة الهجوم في كل يوم ولـكنه كان وهو كالقائد الاعزل الذي لم يكن له جيش يعول عليه لا يلقى مندوحة عن مناجزة أكثرية هائلة ولم تـكن الحال مقصورة على انتقاد الموقف الحـالي بل كانت تقتضي مصادمة المبدأ الثابت المبني عليه ذلك المجلس الاعلى والسعي للقضاء على الوراثة وهو المشترع النائل لسلطته بالوراثة وكان يجب عليه أيضا أن يحمل المجلس على التساهل معه والاصغاء اليه والتصفيق له وقصارى الـكلام أن يكون ثوريا بلباقة ووقحا بحنكة ومهدداً من دون أن تشم في كلامه رائحة الاهانة . وقد قضى لبانته وكانت خطبه الرنانة في ذلك العهد من آيات البلاغة تدخل الآذان بلا استئذان وتهدم بمعول التهكم ماشـيده خصومه من صروح المعارضة وكان يتحاشى كلام التهكم الجاف البارد ويستبدل به كلاما مقنعاً مؤثرا في العواطف ولذلك لم ينقم عليه خصومه لبذاءة لسانه كما ينقمون على غيره فـكان اليوم الذي يحمل فيه اللورد روزبري عليهـم سالقا اياهم بلسانه الحاد يوما مشهودا كأنه يوم عيد .

وكان شرف بريطانيا العظمى وسلام العالم يقتضيان توقف الشمس عن مسيرها كما كان الاقدمون يزعمون أو توقف الارض عن دورانها كما نعتقد نحن لامتداد

أسباب عمر المستر غلادستن ولكن لم يتم ذلك . ولم تحدث هذه الاعجوبة فانه لما بلغ المستر غلادستن من العمر عتيا وجعل الضعف يلم بكل عضو من اعضائه وبكل حس من حواسه الواحد تلو الاخر لم يلق مناصا — وهو في معظم قوته السياسية والعقلية — من القاء اعباء السلطة عن عاتقه والتنازل عنها للورد روزبري وزير الخارجية في وزارته وقد تحققت حينئذ النبوءة التي تنبأوا بها له من ثلاثين سنة أي أنه يتربع في دست رئاسة الوزارة .

وكان عبء الميراث الذي ورثه اللورد روزبري من المستر غلادستن ثقيلا ينوء به غيره ولا يرضى بقبوله لان حزب الاحرار كان في ذلك العهد قد هبط الى درجة لم يهبط الى مثلها منذ مئة سنة فانه فقد ما كان يربطه من الصلة بعضه ببعض وأصبح نظامه اسما لغير مسمى ورق جانبه وبات برنامجه حبرا على ورق وكان اعضاؤه متدابرين ينظر الواحد منهم الى الاخر شزرا ولا يفعلون الا ما تدعوهم المصلحة الخاصة الى فعله لان الانانية كانت متسلطة عليهم بحيث لم يكن زعيمهم يعول عليهم في آونة الشدة وكانت مسألة استقلال ارلندا الذاتي كحجر ثقيل علق في عنق كل فرد من افراد حزب الاحرار

وهل وفق اللورد روزبري الى اعادة الوحدة والحياة الى حزبه المتفكك الاوصال الموشك القضاء المحتوم أن ينزل به ? الجواب على ذلك بالنفي وقد يكون اللورد روزبري الرجل القادر على ذلك الامر ولكن الفرصة لم تكن مؤاتية له فقد يكون حين لا ينبغي لاحد ان يعارض القوة الهادمة عملا بما فاه به أحد معاصري كرومول وهو : «يجب على الامور أن تبلغ غايتها من الفساد لكي يمكن اصلاحها»

ولم يكن في استقالة اللورد روزبري ما يجعل الناس ينسونه فان ميلهم اليه ازداد بعد اعتزاله المناصب . وها قد مضت اعوام على زيارته لقصر «الانفاليد» في باريس وقد قال ان ذكرى هذه الزيارة لم تفارق ذهنه قط في جميع ادوار حياته على مثال ظهور ارواح الموتى للاحياء طلبا لصلواتهم لكي ينجوا بها من العذاب وكانت تلك الذكرى تقتضي وضع كتاب تنجلي به الحقائق ولكن وضع مثل هذا الكتاب يلزمه فسحة من الوقت فوجدها اللورد روزبري في سنة ١٨٩٥ لما تفككت اوصال حزب الاحرار وتضعضعت احواله . ولم يكن مندوحة عن عرض تلك الصورة عرضا واضحا بعد ما كان الابهام والغموض يحفان بها وكان بعضهم

يحاول أن يجعل سيرة الامبراطور العظيم من نوع الحكاية أو من باب اساطير الاولين ففي سنة ١٨٩٩ نشر الفيكونت دي غروشي والمسيو غيلوى مذكرات غورغو القيمة فاماطا النقاب عن حقيقة تلك السيرة وحينئذ استطاع اللورد روزبري أن يستند الى هذه المذكرات ليضطلع بمهمة كان يحلم بها من عهد بعيد ،

ويستطيع القراء أن يتحققوا صحة هذا الكلام بمطالعتهم الكتاب الذي وضعه اللورد روزبري في هذا الصدد فيروا فيه ما يحرك سا كنات الابتهاج في قلوبهم ويثير الدهش من مربضه ويبعث على التأثر الشديد ويعلموا في الحال أن المؤلف طالع وفهم جميع الاسانيد البريطانية والفرنسوية التي يستند اليها المؤرخون الذين كتبوا تاريخ نابوليون والامبراطورية الاولى وانه بعد ما محصها كمؤرخ نظر اليها بعقلة السياسي المحنك الخبير باظهار دقائق الامور للعيان بايراده اعتبارات فلسفية يتصيدها القارىء من سرد حوادث تلك المأساة الاليمة الذكر ويذكروا كلمة استاذ مدرسة ايتون وهي ان تلميذه الشاب « كان من اكبر المعجبين بنابوليون واسرته وكان هذا الاعجاب مبنيا على التروي . . . »

ولكتاب اللورد روزبري شأن عظيم في تاريخ نابوليون الكبير ويزعم فريق من المؤرخين انه كان لنابوليون يد في بعض الحوادث والاسانيد الملفقة التي اذاعها لاس كاس فبعد ما اقام النكير على مؤتمر فينا من جراء قضائه المبرم على نابوليون عاد وايد بلا مسوغ نظرية التأمين العام التي جعلت الحلفاء يحصرون نابوليون حصرا لا نهاية له مع انه لم يكن متمردا ولا اسير حرب ولا جانيا حكمت عليه محكمة قانونية . واسترشد اللورد روزبري بفكرة محمودة وهي تبرئة ذمة ابناء وطنه من مقتل نابوليون واستعان بنتيجة تشريح جثمان الامبراطور على اصابة غرضه فان الرجل العظيم لم يمت في جزيرة القديسة هيلانة بداء الكبد الكثير الانتشار بين سكان تلك الجزيرة وكان الامبراطور يدعي انه مصاب به ولكن أولا يتلخص من سياقة الحوادث ان الاحوال الجوية في تلك الصخرة الصماء عجلت في ظهور السرطان الموروث فيه وقصرت عمره عشر سنوات أو عشرين سنة . انها مسألة طبية من خصائص الاطباء تقرير حقيقتها .

واللورد روزبري من طبقة الكتاب الذين ولدوا وملكة الكتابة فيهم فهو

من امثال لاروشفوكولد وهاملتن وسان سيمون فانه وهو يتوخى المجاهرة بالحقيقه يجمع اشياء كثيرة في جملة واحدة يخيل للقارىء ان الموازنة مفقودة منها من جراء ذلك وحين يبلغ منه التأثر او حين يسبح فكره في فضاء الخيال يخرج عن دائرة الانشاء التقليدي ويكتب بلهجة عالية وكلام واسع النطاق يستفز العواطف ويثير الاذهان واستقبل البريطانيون كتاب اللورد روزبري بحماسة شديدة لانه اوقفهم على حقائق قاسية بكلام صريح وتلقاه الفرنسويون بارتياح لانه يعبر عن عواطفهم الصادقة ولا يسعهم ان يقرأوا بلا تأثر مثل هذه العبارة « كان وراء نابوليون فرنسا ولها مقدرة على بذل جهود تدل على الشجاعة والاقدام وعلى تحمل الشدائد بصبر لاتنفصم عراه ولها ايضا مقدرة على كل شيء ماعدا المستحيل . »

وسننشر شيئا من كتاب اللورد روزبري لاطلاع القراء على رأيه في نابوليون داهية فرنسا الاكبر .

النفي

قال اللورد روزبري :

كنا نود لو كان بالامكان ان نجهل كل ما كتب في هذا الصدد لان قراءة مثل هذا الامر يتمعض لها البريطاني ولا يسعه الا التأسف على انبراء حكومته لخفارة نابوليون وعلى القيام بهذه المهمة قياما يبعث على تجليبها بجلباب الصغارة وعلى اختيارها اشخاصا لاخلاق لهم لاجراء اوامرها واذا كانت ذكرى القديسة هيلانة تثير الاشجان في قلوب الفرنسويين فان هذا الاسم يثير ما لايقل عن ذلك عندنا نحن البريطانيين .

وقد لا نكون قادرين اليوم على ابراز الحكم بالنزاهة على موقف الحكومة البريطانية في سنة ١٨١٥ فان هذه الحكومة كانت زعيمة للمحالفة التي اسقطت نابوليون مرتين عن العرش وقد انفقت بريطانيا العظمى على ذلك اكثر من ثماني مئة مليون جنيه لارسال نابوليون الى جزيرة البا كما جاء في احصاءات تلك الايام وهو مبلغ لايستهان به وكلف رجوعه بريطانيا العظمى ملايين اخرى علاوة على الرجة التي اصيب بها جهاز اوربا العصبي وليس بالسهل تقدير عدد الرجال الذين اغتالتهم الحروب النابوليونية لان عددهم يحصى بالملايين وكان غرض الحلفاء —

اي ما يجب عليهم نحو الشعوب التي نكبت بالنكبات الفادحة ـ ان يحولوا دون فرار نابوليون مرة ثانية من منفاه. ونحن نعتقد انه كيفما كان الامر لا يستطيع نابوليون ان يقهر اوربا بعد ماقهرته في واترلو لان معين عزيمته نضب ونفدت ايضا وسائل قوة فرنسا ولا يرجى نهوضها من عثارها في السنوات الباقية من حياة عاهلها ولكن الحلفاء لم يشاؤوا الوقوف عند هذه الاعتبارات ولو وقفوا عندها لاستهدفوا لنبال الملامة . . . فان نابوليون سواء كان مريضا او معافى عاملا او خاملا يصبح حين يكون طليقاً قطباً تدور عليه جميع القوات الثورية في اوربا ونحن والحالة هذه نوافق على وجوب منع نابوليون عن البقاء متمتعاً بحرية الحركة والعمل . أجل ان هذا الامر شاق عليه ولكنه كان هو في نوبته شديد الوطأة على العالم ويعتبر ذلك من بعض الوجوه اعظم اكرام تستطاع تأديته له

استسلم نابوليون مختاراً الى بريطانيا العظمى وقد طلب الحلفاء منها ان تتخذ تبعة المحافظة على شخصه ولا ندري كيف رضيت حكومتنا بالقيام بهذه المهمة وكتب اللورد ليفربول الى اللورد كاسلري وزير الخارجية في ذلك العهد : « ياليت ملك فرنسا يامر باطلاق النار على بونابرت او بتعليقه على عود المشنقة فذلك افضل حل لهذه المعضلة المعقدة » . واليك المنهاج الذي تحداه للافصاح عن نظريته وبسطها للورد الدن وزير الحقانية : « يجب علينا ان ننظر الى المسألة من احد وجهيها فاما ان يعود نابوليون الى التابعية الفرنسوية كفرد بسيط واما ان يكون عياراً ساق البعوث وهو من الذين ينكر القانون اعمالهم وتلفظهم الهيئة الاجتماعية وتتبرأ منهم الشريعة » وكأن اللورد ليفربول كان يريد ان يقول : يسلم نابوليون الى لويس الثامن عشر بصفة كونه واحداً من رعيته ليعامله معاملة المتمرد الذي يشق عصا الطاعة او ينبذ من الهيئة الاجتماعية ويعامل معاملة الحيوان المؤذي . وقد كتب الى اللورد كاسلري كلاما في هذا الصدد تشم منه رائحة التأسف وفحواه « انه اذا لم يأنس ملك فرنسا من نفسه مقدرة على معاملة نابوليون كمتمرد فنحن نقوم بابقائه معتقلا . »

ويقول والتر سكوت ان كثيرين من الناس في بريطانيا كانوا يرون في سنة ١٨١٦ انه يجب ان يدفع نابوليون الى لويس الثامن عشر ليعاقبه معاقبة الشاق

لعصا الطاعة ولحسن حظ وزرائنا الذين لم يقدموا لناموضوعات تستوجب الثناء عليهم كفانا هؤلاء الوزراء مؤونة عاريلصق بنا لو كانوا قددفعوا نابوليون لملك فرنسا ليقتله رميا بالرصاص كما فعل بالمرشال ناي .

ونرى والحالة هذه ان عمل حكومتنا في تلك الحال لم يكن فيه شيء من الكرامة ولكن نهض احد الاعيان وهو دوق سسكس واتفق مع اللورد هولند على الاحتجاج جهاراً على عمل الوزارة فان نابوليون الذي فكر في ريق الامر في عستوكل ثم في حنيبعل لو لم يكن واثقا بعزة نفس بريطانيا العظمى لما استضافها وقد كان يأمل انه اذا ما اتخذ اسم الكولونل مويرون صديقه القديم وقد صرع في اركول الى جانبه حين دفع عنه سهم الردى بتغطيته اياه بجسمه يأذنون له بان يقيم في انكلترا ويعيش عيشة القرويين فيها ولكن ما كان نابوليون يبتغيه لم يكن من الامور الممكن الموافقة عليها لان انكلترا لم تكن بعيدة عن فرنسا ولان عرش البوربون كان قد اصبح لسبب يصعب ادراك كنهه قطبا تدور عليه سياستنا ولا يكون هذا العرش وطيد الاركان مادام الشعب الفرنسوي يعلم ان كولونيلا بين العمرين يدعى نابوليون يقيم في مكان لايبعد اكثر من عشرين ميلا عن شواطىء فرنسا ولم تكن قوة من القوات تحول دون وصول التوسل او الشفقة الى قلب ذلك الجبار الشديد الحول والطول لان نابوليون كان في اوربا داهية زعزعة العروش وانظمة الهيئة الاجتماعية ومع بقاء الكولونل مويرون ساكنا في مقره ومتجنباً لاحداث اي قلق لايستطيع احد ان يمحو التقاليد والذكرى وحوادث الماضي وقد كشف نابوليون الغطاء عن الحقيقة من هذا القبيل لحاشيته الصغيرة فانه لما انهيت اليه رسالة تنبئه عن تحول الرأي العام في فرنسا قال : «ياليتنا كنا في انكلترا . . . » وعلاوة على ذلك كان مقامه في انكلترا باعثا على انواع كثيرة من القضايا الحقوقية — من دون ان يكون له شأن فيها — مما يخلق للحكومة مشكلات شتى . ومما جعل الوزراء البريطانيين يمضون في عزمهم خوفهم من عطف الامة البريطانية عليه واعجابهم به لان بريطانيا العظمى مع ما اصابته من الظفر المبين لم تكن مرتاحة اليه وحين نعيد في الذهن ذكرى السنوات الست التي انقضت بين واترلو ووفاة نابوليون يسهل علينا ان نفهم ان وجود ربيب الثورة الفرنسوية في بريطانيا العظمى لايكون مؤاتيا بوجه من الوجوه



شارل بونابرت والد نابوليون ولد في سنة ١٧٤٦ وتوفي في سنة ١٧٨٥

لمصلحة حكومة المحافظين ولا يؤيدها ابداً وقد كتب اللورد ليفربول الى اللورد كاسلري في هـذا الصدد مايأتي : « لا تخفى عليك عواطف القوم في هـذه البلاد ونخشى من أن يصبح في وقت قصير موضوعاً للتطفل وحب الاستطلاع ومثيراً للعطف في الافئدة » وكان اقبال الناس على بليموث لرؤية الامبراطور مصداقا لقول اللورد ليفربول وقد كان العاهل الهاوي عن عرشه متكنفاً بهالة من المجد يسطع بهاؤها ولم يكن هـذا الامر يخفى عليه نفسه فقد قال وهو في جزيرة القديسة هيلانة إنه لو عاش في انكلترا لاستمال اليه قلوب الانكليز وكان قد فتن مايتلند الذي ذهب به الى انكلترا كما كان قد فتن قبلا اوشر الذي سار به الى جزيرة البا . وبعد ماترك نابوليون السفينة بلروفون تسقط مايتلند بحارتها عن رأيهم في الامبراطور فقالوا له : «دعهم يغلطون الكلام عنه ماشاؤوا ولكن لو عرفه الشعب البريطاني كما عرفناه نحن لما مسّوا شعرة واحدة من شعر رأسه » وهذا رأي بحارة السفينة نرثمبرلند فيه ايضا فقد قالوا عنه : « انه رجل شديد الصريمة لا يستوجب ما نزل به من البلاء » وكان بحارة السفينة التي اقلت مونشنو يرون مثل هـذا الرأي عنه ولما غادر نابوليون السفينة «اندنتد» التي نقلته الى جزيرة البا خاطبه الربان باسم البحارة متمنيا له « عمراً طويلا وراحة في أثناء مقامه في الجزيرة وحظا اسعد في المستقبل » وبعد اجتماع الاميرال هوثام والربان سنهوس بالامبراطور مرتين رأيا ان ماكانا يشعران به من النفور منه زال وقد كتب سنهوس من هـذا القبيل : «شعرت انا والاميرال بان بغضاءنا القديمة أمحت » وكان ثمة خوف اعظم فقد قال اللورد كيث :« ويحا لهذا الرجل فلو تمكن من مواجهـة سمو الامير وصي المملكة لاستطاع بعد نصف ساعة ان يصير صديقا حميما له .» وابلغوا نابوليون اخيراً مايحاذرونه من بقائه في انكلترا وقد قال له أحد السياح ان الحكومة البريطانية لا يسعها ان تتجاوز عن اقامته في بلادها مخافة أن يهب الناقمون عليها ويقلدوه الزعامة عليهم وقال له غيره انه سمعهم يقولون للورد ليفربول واللورد كاسلري ان الباعث على ارساله الى جزيرة القديسة هيلانة خوفهم من اتحاده مع الحزب المعارض للكيد للقابضين على ازمة السلطة ونجتزىء بما بسطناه في هذا الشأن ونقول ان في اقامة نابوليون في انكلترا خطراً على الحكومة الفرنسوية والحكومة البريطانية معاً .

ومن المحتمل انه لايمكنه أن يقيم في القارة الا في حصن حصين وقد يكون مقامه في بعض البلدان مثيراً للعواطف اثارة تحكي ثوران البركان وقد يستهدف في غيرها لنبال الاهانة أو القتل . ولو وافقوا على ارساله الى الولايات المتحدة لكان فيها بعيداً عن رقابة الدول له وقد كان لهن مصلحة خطيرة في تقليم اظافر دهائه وشل حركته وقد قال هو نفسه انه لوفسح له في النزول في الولايات المتحدة لما اكتفى بما اكتفى به شقيقه يوسف من تشييد المباني وزراعة الارض بل كان قد استنفد المجهود لانشاء دولة . وأكد لنا منطولون ان المكسيكيين عرضوا عليه تاج امبراطوريتهم بعد وصوله الى جزيرة القديسة هيلانة ولكن تأكيد منطولون من هذه الجهة يفتقر الى الاثبات ففي مثل الاحوال التي بسطناها لايستغرب إيثار جزيرة القديسة هيلانة على غيرها لتكون مقرا لنابوليون وكان مؤتمر فينا قد فكر من سنة ١٨١٤ في اختيار جزيرة القديسة هيلانة معتقلا لمليك جزيرة البا السجين وقالوا ان تلك الجزيرة بمثابة «فردوس» في الاقاليم الاستوائية وقد قال اللورد ليفربول ان الجزيرة بعيدة وفيها منزل جميل لاقامة نابوليون اجل انه كان يسهل عليه الاقامة فيه براحة لولم يصدر اللورد ليفربول امره بالضن عليه بذلك المنزل وقال اللورد ولنتن نفسه ان حالة الجو في تلك الجزيرة بديعة ولكنه لم يذهب اليها للاقامة فيها وكان ينظر بعين التفاؤل الى حظ نابوليون ويرى أن مبدأ عيشته واعماله لمصلحة غيره لم يكن شيئا مذكوراً ولم يكن في جزيرة القديسة هيلانة سوى مرفأ واحد ضيق جداً فكانوا يبصرون عن بعد السفن التي تدنو منها وكان يحق للسلطة فيها الامتناع عن الترخيص للسفن المحايدة بغشيان الجزيرة .

وكانوا يلقون لهم مسوغا لاختيار الجزيرة وتفضيلها على غيرها للغرض الذي توخوه ومع ذلك كان اختيارها ضربة شديدة على نابوليون ورفاقه وكان قد جرى في وهمهم ان شر شيء يتوقعون وقوعه هو اعتقالهم في قلعة دمبرتن أو في برج لندن فالفرنسوي القح لايطيب له المقام طويلا في خارج بلاده وقد خيل اليهم ان جزيرة القديسة هيلانة في طرف المعمورة وقال نابوليون لما بلغه أنهم صمموا على ارساله اليها انه لايصل اليها حيا ولكنه ماعتم ان ثابت اليه رباطة جأشه وظهر بمظهر الانفة وعزة النفس وذاق طعم عذاب شديد في بدء

الامر فانهم حظروا عليه اخذ سافاري ولالمـان معه ويقول شاهد بريطاني جامودي الفؤاد ان التفريق بين نابوليون ورفيقيه المذكورين أثر فيه تأثيرا عظيما فاخذوهما وأخذوا معهما فريقا من حاشيته واركبوهم سفينة أقلتهم الى جزيرة مالطة وقد اختاروها معتقلا لهم ودفعوه الى كوكبرن فـكاد هـذا يطير فرحا من المهمة التي انتدبوه لها وصاروا من ذلك الحين يطلقون على نابوليون اسم الجنرال بونابرت ويؤدون له الاكرام الذي يؤدونه لجنرال بريطاني متقاعد أي محال الى المعاش ومالبث ان عرف ان الجنرال البريطاني المتقاعد ليس له منزلة يغبط عليها فاعطوه قمرة في السفينة طولها اثنتا عشرة قدما وعرضها تسع أقدام ولما أراد أن يستعمل القمرة المجاورة لقمرته مكتبا له قالوا له انها مشاع لجميع الضباط « فتلقى ذلك التبليغ باذعان ورحابة صدر » ولما خرج الى متن السفينة حاسر الرأس ظل الضباط البريطانيون لابسين قبعاتهم كأن لسان حالهم يقول : لاحاجة لنا الى الظهور بمظهر التأدب مع قائد متقاعد . وكان من عادة نابوليون ألا يبقى على مائدة الطعام اكثر من عشرين دقيقة فـكان يتضايق من طول مكث البريطانيين على هذه المائدة وكان هو بعد ان يتناول القهوة يصعد الى متن السفينة وقد قال عنه الاميرال كوكبرن من هـذه الجهة : « انه كان يفعل ذلك خلافا لقواعد الآداب المرعية واظن ان الجنرال لم يقرأ كتاب اللورد تشسترفلد في قانون الآداب » فلم يغمض الفرنسويون رفاق نابوليون العين على ذلك الانتقاد المقرون بالتهكم المر فان احدى السيدات الفرنسويات اجابت على الاثر جوابا في محله بلهجة شديدة وكان فحوى جوابها ان الاميرال نفسه لم يقرأ كتاب اللورد تشسترفلد كما يجب عليه ان يقرأه لان صاحب هـذا الـكتاب اسهب في انتقاد الذين يطلبون القعود على المائدة لشرب الخمرة . وقال الاميرال بعد ذلك : « لا يخفى علي ان الجنرال بونابرت يميل في بعض الاحيان الى الظهور بمظهر الامبراطور ولـكنني لايسعني ان اوافق على ذلك » وصمم على المضي في عمله تنفيذا للخطة التي اختطها وقد كتب بعد أيام في هذا الصدد مايأتي : « لم انظر الجنرال بونابرت كثيرا اليوم فاني لما رأيت انه يحاول ان يظهر بمظهر عظمة غير لائقة به اضطررت ان افهمه ان يخلي عنه مثل هذا الامر . » أو لايتوهم القارىء

ان الاميرال كوكبرن يبتغي ان يتصير مروض الاسود فنحن لسنا في عهد «الامير الاسود» حينما كان أحد ملوك فرنسا اسيرنا.

وكان «منشنو» نفسه المندوب الفرنسوي يرى انهم يتطرفون في اساءة معاملة أسيرهم مع كون هذا المندوب من الذين يقولون بوجوب التشديد في معاملة نابوليون وقد أورد الكلام الذي فاه به نابوليون ن هذا القبيل وهو: «فليقيدوني بالقيود اذا شاؤوا ولكن يجب أن يعاملوني بما استحقه من الاكرام»

وكان كوكبرن كرجل من الاعيان البريطانيين الزاعمين انهم خبيرون بقانون الآداب يجد ان اخلاق نابوليون ينقصها الكياسة وان ماهو عليه من التأدب محدود بحسب طبيعته وقد تنازل الاميرال في يوم ذكرى مولد نابوليون ان يشرب نخبه وقد قال عن ذلك: «اظهر الجنرال بونابوت انه متأثر من هذه الكياسة» وقال الاميرال فيما بعد وهو يلمح بلطف الى مابينهما من الفرق في الموقف: «اني مستعد دائما للسير اليه نصف الطريق حينما أراه يتصرف بما يجب عليه من رقة الجانب التي تليق به ويعرف حقيقة موقفه الحالي.» واخيرا تصرف نابوليون تصرفا مبنيا على التعقل حتى ان الاميرال نفسه قال عنه: «انه اظهر في اثناء السفر سعة صدر من جهة الريح وحالة الجو اكثر مما اظهره رفاقه.» وكان له مالهم من بواعث الشكوى فانهم كانوا في السفينة مزدحمين وكانت الحكومة البريطانية قد اوقفت السفينة نرثمبرلند في حال وصولها من الهند لتنقل اليها نابوليون وترسله فيها الى منفاه ويؤكدون ان ماكان فيها من ماء الشرب أصبح غير صالح وقليلا وكانوا ينظرون الى المستقبل بعين الخوف والجزع ولو أبدت السيدتان الفرنسويتان شيئا من الجزع في مثل تلك الحال لاغضي الطرف على تبرمهما ولكنهما تجلدتا لئلا تصيبهما قوارص كلام كوكبرن وانتقاده المر.

ولم يكن الاميرال نفسه ساكن الخاطر فان بحارته كانوا يضمرون ثورة عواطف تحت ظاهر هادىء فأبوا في بدء الامر رفع المرساة في بورتسموث وقضت الحال بان يجلبوا الى السفينة قوة عسكرية كبيرة لاجبارهم على الاذعان للنظام ويتعذر وصف احاديثهم وموقفهم في اثناء السفر فكانوا يشبعون رؤساءهم

ضرباً ولكما ووضع خفير على باب قمرة الامبراطور ليحول دون اتصاله بالبحارة ويزعمون ان نابوليون قال لكوكبرن انه متأكد ان كثيرين من هؤلاء البحارة ينتصرون له وكان مقضيا على السر جورج كوكبرن ان يقوم بمهمة شاقة وهي تعويد نابوليون الاذعان لمقتضيات موقفه واكراه البحارة على الامتثال لمقتضيات النظام .

ووصل نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة بعد انقضاء ثلاثة اشهر على تسليمه لمايتلند ولكن بقي الاميرال معهوداً اليه في القيام على خفارته ريثما يصل محافظ الجزيرة الجديد لانهم رأوا أن المستر ولكس الذي كان محافظا لها في ذلك الحين لم يكن — علاوة على كونه من موظفي شركة الهند — قادراً على الاضطلاع بالمهمة الجديدة التي شاؤوا اسنادها الى محافظ الجزيرة اما ولنتن فكان يرى غير رأيهم ولذلك بقي كوكبرن متوليا خفارة نابوليون الى شهر ابريل سنة ١٨١٦ وحينئذ خلفه السر هدصن لو

نابوليون والديمقراطية

تنبثق حقيقة ناصعة من الاحاديث التي دارت على واترلو ونتائجها ومع ذلك قل من اكترث لهذه الحقيقة فلا بد من جلاء الغامض بشأنها ولما كان نابوليون يدير رحى الحديث على الحوادث الماضية ويقول انه كان ينوي بعد معركة واترلو ان يرأس حركة ثورية فانا نظن انه كان مغرورا او انه كان يبتغي تضليل افكار السامعين وقد قال في جزيرة القديسة هيلانة « ان ذكرى حداثتي تقذف الذعر على فؤادي » وقد اصاب كبد الحقيقة في قوله هذا فانه شاهد الثورة عن كثب ووقف على جميع حوادثها وكان صديقا لشقيق روبسبيار ولكنه بعد ما حكم فرنسا واصاب سلطة مطلقة عليها صار يشعر بنفور شديد من كل ما يشبه الثورة والاضطراب ولم يشعر احد من الذين شهدوا عصر الرعب باكثر مما كان يشعر به نابوليون من النفور من الثورة فان المشاهد التي وقعت عينه عليها ابقت في نفسه ذكرى سيئة لتلك الفوضى ورغبة شديدة في المحافظة على النظام وتعزيزه وقد كان ميسوراً له ان يفوه بمثل الكلمة المأثورة عن خلفه في الامبراطورية اي « انا ضمين للنظام » ولكنه لم يتسن له القيام بهذا الامر حتى النهاية .

ولم يكن ذلك سرا مكتوماً عن أحد من الذين كانوا يخالطونه ويقفون على عجره وبجره وقد قال شبتال ان نابوليون كان يخاف من الامة فان أقل استياء يبديه الشعب وايسر هياج يثور وابسط فتنة ينفتح بابها تؤثر فيه اكثر مما تؤثر فيه اعظم معركة يندحر فيها ولذلك كان دائم التيقظ من هذه الجهة فكان يدعو اليه وزراءه ويقول لهم انه ليس للشعب عمل يعمله وانه يخشى من اصغاء ارباب الصناعة لسماع اصوات المحرضين المحرشين وانه يحاذر حدوث ثورة بين العمال من جراء حاجتهم الى الطعام اكثر مما يحاذر نتيجة معركة يقاتل فيها جيشاً مؤلفا من مئتي الف مقاتل فكان يوصي على مقادير من المنسوجات والرياش ويسلف اصحاب المصانع والمعامل الكبيرة مبالغ من المال وحدث انه اضطر مرة الى انفاق خمسة وعشرين مليون فرنك لتسكين معضلة صناعية من هذا النوع وقد كتبت عقيلة دي ريموزا في هذا الصدد ما يأتي : حينما اسمع احدهم يقول انه لا اسهل من جعل الناس يحترمون ارادته بالقوة اذكر ما كان يقوله الامبراطور عن المصاعب التي كانت تتصدى له ... حينما يضطر الى استعمال القوة مع ابناء بلاده واذكر ايضا انه كان يقول لوزرائه حينما كان مجلس الوزراء يقرر استعمال الشدة في بعض الاحوال : وهل تؤكدون لي أن الشعب لا يثور وقد شهدوه يصف بارتياح المعارك التي يوقد نيرانها أو يسمع الناس يروونه له ولكنه يمتقع وجهه حينما يسمعهم يقصون عليه اخبار الحوادث الفظيعة التي يرتكبها الشعب الثائر . »

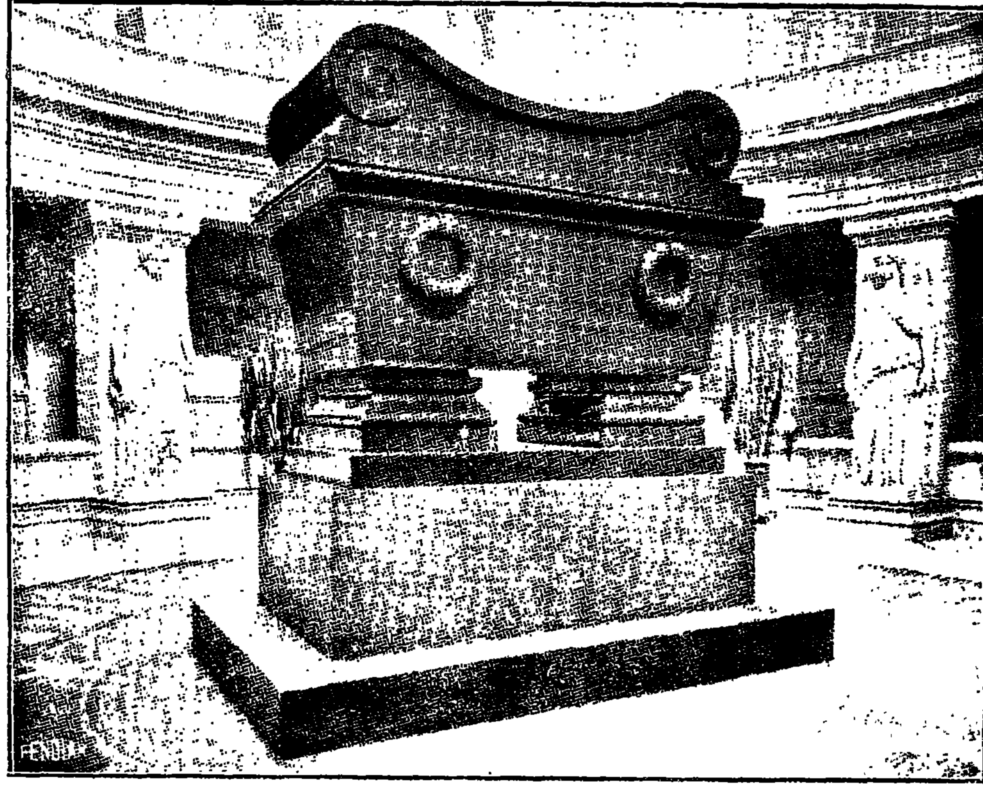
وكانت الثورة قد بصمته بخاتمها بصمة لم ينسها كل حياته فكان ممثلها وقد تجسمت فيه ولكنه لم يكن يني عن مكافحتها سراً مع معرفته ان هذه المكافحة عقيمة وكان يقول :

« ليس بين الهيئة الاجتماعية والثورة سواي فانا استطيع الحكم كما اشاء ولكن ابني سيضطر الى انتحال مبادىء الاحرار » وقد اصاب في قوله هذا لان قرن الثورة اخذ يذر في الشهور العشرة التي قضاها في جزيرة البا وكان نابوليون يفكر دائما في هذا الامر ولم يكن تفكيره به للاسترشاد بل كما يفكر في امر يجب عليه تجنبه أجل انه كان ابن الثورة ولم يكن لهذا الابن من هم الا خنق امه .

وكان يخشى من فكرة اطلاق النار على الشعب وظل يتأسف كل حياته على العمل الذي عمله للضرب على ايدي الثائرين في فنديميار وكان يخاف من نقمة الشعب عليه من جراء ذلك ولم يكن يحجم عن شيء من شأنه ان يسكن هياج الشعب حينما يكون هذا الهياج ناجماً عن الحاجات المادية فكان ينفق المال عن سعة في هـذا السبيل الا ان كرهه للثورة واستياءه من أعمال الثائرين كانا يفوقان المظاهرات الشعبية العظيمة لانه لم يكن يبتغي التمرس بالثورة وكان من ورائها خلاصه وخلاص عرشه ولم يكن من مزيد على نفوره منها ولوكان قد ابصر باحتقار وتأفف لويس السادس عشر يحيي الجماهير من قصر التويلري وهو لابس القبعة الحمراء على رأسه ولم يكن نابوليون يشاء قط أن يلبس مثل هـذه القبعة دقيقة واحدة ولوكان في لبسها ضمان حريته وخلاص اسرته في المستقبل واحتشدت الجماهير (اي الغوغاء كما كان يسميها نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة) بعد معركة واترلو حول قصره وطلبوا منه أن يسير في مقدمتهم للقاء العدو لانهم كانوا يعتبرونه الحاجز الوحيد في وجه اصحاب الاقطاعات الذين كانوا يبتغون استرداد اموالهم وفي وجه الاجانب الذين كانوا يطمعون في الاستيلاء على فرنسا ولما سمع نابوليون صخبهم قال كلاماً يفصح به عن حقيقة الحال : « ماذا تبتغي مني هـذه الجماهير اني وجدتها في حالة الشقاء لما قبضت على ازمة الحكم وها انذا اتركها في حالة الشقاء نفسها » وقد حفظ منطولون ذكرى ذلك اليوم الخطير فقال جاء الى الامبراطور « الايان » وجمع غفير من جهة دسكرة سانت انطوان وطلبوا منه ان يقودهم الى مصادمة العدو ولمح احد الخطباء الى ١٨ برومير فاجابه نابوليون « كانت الامة متفقة في ١٨ برومير على احداث تغيير في حالها في ذلك العهد اما اليوم فالحالة تقتضي اجراء غدران من الدم الفرنسوي وانا لا اسفك قطرة دم ابداً للدفاع عن مصلحتي الخاصة » ولما انصرف الجمع خاطب الامبراطور منطولون بصراحة قائلا له : « لو استخدمت قوة الغوغاء الوحشية لانقذت باريس ولا مراء وضمنت بقاء التاج على مفرقي من دون أن الجأ الى الحرب الاهلية ولكن هـذا الامر لا بد من سفك غدران من الدم الفرنسوي لاصابته فاي قوة تستطيع التسلط على العواطف والبغضاء والانتقام حينما ينفجر بركانها ولا يسعني ابداً ان انسى انهم جاؤوا بي من « كان » في وسط الهياج والصياح وقول القائلين : « فليسقط

الكهنة فليسقط الاعيان وانى اؤثر فقدان التاج على ابقاء آثار التأسف في قلوب الفرنسويين » وبينما كان يزحف الى باريس كانت عودة البوربون الى الحكم تثير عواصف الحنق في أفئدة الشعب ولو شاء نابوليون مجاراة الشعب الناقم على البوربون لخوفه من انتزاع الارض والامتيازات من يده بعد ما كان قد أحرزها في الثورة لزحف معه مليونان من الفلاحين الى العاصمة ولكنه لم يشأ أن يكون « ملك الغوغاء » فان مثل هذه الفكرة كانت تقيم عواطفه وتقعدها .

وحدث في اثناء اقامته في لونوود في جزيرة القديسة هيلانة انه فاه بكلام يشم منه ما يناقض هـذه الفكرة فقال حينئذ : « كنت استطيع مقاتلتهم باليعقوبيين فاليعقوبية بركان يهدد الهيئة الاجتماعية بثوران دائم ويسهل تحريك هذا البركان في بروسيا فيتداعى به عرش برلين وقد كان يسهل علي في مثل تلك الحال أن اخطو خطوة واسعة لتعزيز الدولة الفرنسوية فان بروسيا اصبحت بعد فريدريك وستصبح في المستقبل اكبر عقبة في سبيل القيام بمشروعاتي الخطيرة في فرنسا . وحينما ترفع القبعة الحمراء في برلين تصبح جميع القوة البروسيانية في ايدينا ويتسنى لنا استخدامها لسحق روسيا والنمسا ... ولا يبقى مايحول ... دون اعادة ... حدود الامبراطورية الى مكانها الطبيعي أي نهر الرين وجبال الالب وبعد هـذه الخطوة الاولى اشرع في اتمام عمل الامبراطورية الفرنسوية العظيم واغتنم جميع الفرص والاحوال اما بقوة اليعقوبية واما بقوة جيوشي لانشيء محالفة كبيرة من بلدان القارة الاوربيـة يكون امبراطور الفرنسويين زعيمها واجعل حدود هـذه الامبراطورية في النيمن ولا يبقى الاسكندر الا عاهلا للبلاد الروسية الاسوية ويحطم التاج الامبراطوري في النمسا وتنشيء المجر مملكة وتصير بوهيميا مملكة ايضا وتصبح النمسا المملكة الثالثة المؤلفة من تمزيق اوصال امبراطورية ماري تريز . » يروي منطولون هذا الكلام الغريب ويقول ان نابوليون فاه به في ١٠ مارس سنة ١٨١٩ قبل وفاته بنحو سنتين ولا شيء فيه يشبه رأيه في بروسيا واليعقوبية وقد يلوح لنا أن هـذا الكلام ضرب من الهذيان يراد به السعي لانتحال سياسة اخرى وقد تكون تجربة « الايام المئة » قد جعلته يعتقد انه لا يكون لديه سوى تلك



ضريح نابليون فى الانفاليد بباريس

الوسيلة للبقاء في منزلته اذا عاد الى فرنسا وقد لمح الى ذلك في الحديث الذي دار بينه وبين مترنيخ في درسد ومما قاله حينئذ: « قد يتداعى عرشي ولكني اهدم العالم تحت انقاضه . »

وادرك تاليران بقوة ذهنه ورباطة جأشه من ابتداء « الايام المئة » ان النجاح الوحيد الذي كان نابوليون يتوخى اصابته هو جعل تلك الحرب حربا وطنية فلم يكن جيشه كافيا لذلك الغرض وكانت الحال تقضي عليه بان يعول على الحزب الذي خرج منه واتخذ انقاضه موطئا لقدميه ونال من كرامته مدة طويلة ولم يغرب هذا الموقف الخطير عن علم الاسكندر فاشار على اللورد كلانكرتي بالتفريق بين نابوليون واليعقوبيين . أجل ان مثل هذا العمل كان شاقا على امبراطور روسيا ومع ذلك كان بين الملوك المجتمعين في فينا واحد مطلع جد الاطلاع على حقيقة الامور وعالم بان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع نابوليون التوسل بها لقضاء لبانته هي الرجوع الى ما كان عليه في بدء حياته الجندية أي ربيب الثورة التي تجسمت فيه .

وقد قال لافالت الحقيقة في عبارة فاه بها في هذا الصدد : « ان الاحد عشر شهراً التي قضاها لويس الثامن عشر على العرش عادت بفرنسا القهقرى الى سنة ١٧٩٢ » وقد تحول نفور الناس في هذه المدة القصيرة الى شكل مؤامرات ولكن الناس كانوا ينوون ان يجلسوا لويس فيليب على العرش كملك دستوري ولم يكن يهجس في ضمائرهم ان يعيدوا الى العرش الطاغية الذي أبعد عنه . ولما عاد الامبراطور الى باريس ذعر من رؤيته التغير الذي نشأ فيها . فان احترام الناس ومحبتهم له ضعفا ضعفا ظاهرا وقد قال انه لو عرف وهو في جزيرة البا ماطراً على فرنسا من التغير لبقي في الجزيرة وكان يدعو اليه لافالت مرتين أو ثلاث مرات في النهار ويبحث معه ساعات طويلة في حالة البلاد الجديدة . وقال لافالت : ولو أصاب الامبراطور النصر وعاد الى عاصمته وهو يجر ذلاذله لتصدت له مصاعب داخلية كثيرة لم يكن يسهل عليه تذليلها وقد ظهر فيما بعد ان رغبة البلاد في رجوع الامبراطور كانت أقل من رغبتها في ذهاب البوربون وحالما تقلص ظل هؤلاء عنها سكنت الحماسة في الحال وشعر نابوليون بذلك بما أوتيه من قوة الملاحظة وقال لوزير هنأه باتيانه اعجوبة حقيقية في العودة الى الاستيلاء على

فرنسا : « مهلا ياصاح فقد انقضى عهد الاطراء ولايخفي علي انهم تركوني اجيء كما تركوا غيري يذهب . »

ويكفي أن نورد مثالا واحدا للاستدلال على حرج الموقف فان نابوليون استعاد لقبه القديم « امبراطور بنعمة الله ودستور الامبراطورية » فكان هذا اللقب مثيرا للاستياء عند الكثيرين في البلاد وقد أجاب مجلس الشورى على ذلك باعلان عقيدة « سيادة الشعب » فكان عمله هذا قذى في عين الامبراطور ولكنه اغمض عينه على القذى وتجاوز عن غطرسة مجالسه وبذاءة رجالها وظهر بمظهر السكينة التامة. وكان يدري ان الانتصار يمهد في وجهه سبيل الرجوع الى ما كان عليه في الماضي وان الانكسار يبعث اصحاب الافكار الجديدة على قلب عرشه اذا لم يستطع ان يلجأ الى قوة اعظم من قوة المبادىء الحرة أي قوة الثورة ولكن لماذا لم يتخير أمرا من هذين الامرين ولماذا لم يستثر فرنسا الثورية ويتولى زعامتها . ان ادارة هذه الحركة كانت تستفز مطامعه في شبيبته فحينما كان قنصلا أول لم يكن يتردد في مثل هذا الامر ولكنه بعد ماصار امبراطورا أصبح ابعد نظرا وعرف انه اذا فعل ذلك جعل مسألة وراثة العرش هدفا للخطر فتصبح الدكتاتورية « شخصية » وحينئذ يكون موقفه كموقف سيلا او ماريوس وليس كموقف اوغسطس قيصر وشارلمان ومما يلفت النظر من هذا القبيل كلامه لمنطولون وقد تقدم بيانه وهو : « وضمنت بقاء التاج على مفرقي » ولم يدر ذكر الخلافة في كلامه لاتلميحا ولا تصريحا فان قبوله مثل ذلك الموقف بعد ما كان صاحب المقام الاعلى في البلاد يعتبر انحدارا عن عرش مجده وعلاوة على ذلك كان كما ذكرنا آنفا ينفر من كل ماتشم منه رائحة الثورة وقد كان مستحيلا ان يصبح نبي ثورة جديدة أو بطلها بعد معركة واترلو ومع ذلك لو أتيح له ان يعرف الغيب ويفتح مغالق المستقبل ويدرك ما كان ينتظره في جزيرة القديسة هيلانة من الشقاء المبرح وغطرسة سجانيه وشظف تلك المعيشة المحاكية للموت لكان قد نبذ دبر اذنيه جميع الاعتبارات التي بسطناها ولذلك اذعن لتصاريف الاقدار واقام يتوقع ما يأتيه به الغد وحدثته النفس بأن معيشة الزراع الاميركي افضل من رئاسة لجنة الامن العام .

ونشأت بين نابوليون ومجلس النواب عداوة لم يكن يسهل ابقاء نارها

مطبونة تحت رماد الكتمان في اليوم الاول بعد رجوعه ومع ما كان من التمويه على الناس في مثل هذه الحال كانت الساطتان تعملان كل منهما من جهته من دون أن تلقي احداهما ستار المواربة على اعمالها ومن دون أن تنخدع الواحدة منهما باعمال الاخرى فكان البرلمان ينوي ان يستخدم نابوليون ـ بصفة كونه قائداً مجربا ـ لدفع غزوات الاجنبي والحيلولة دون رجوع البوربون وكان يطمع بأن يذلله او ان يتملص منه بعد خروجه من الحرب ظافراً وقال فوشه في هذا الصدد : « حالما ينطلق الى ساعة الروع تملك ناصية الموقف ويباليته يصيب النصر في معركة أو معركتين ولكنه سيفشل في المعركة الثالثة وحينئذ يأتي دورنا للعمل . » هذه الفكرة كانت تجول في اذهان رجال البرلمان في ذلك العهد ولكنهم كانوا كالآدمي المذكور عنه في حكايات الجن انه يستنجد بالجن لقضاء اغراضه ولكن لايبقى فيما بعدقادرا على التخلص منهم . امانا بوليون فانه أسلس مقادته للبرلمان وغرضه من ذلك أن يقدم للعالم ضمانا على حسن نيته وان يأمل الحصول بواسطته على الرجال والاموال اللازمة له وكان قد قرر في ذهنه ان يتملص من البرلمان بعد ما يحرز النصر المبين وقد صمم بعد «ليني» على العودة الى باريس واستعادة السلطة المطلقة بعد مايقهر البريطانيين وكان كل من الخصمين العنيدين مطلعاً على اسرار سياسة الآخر وكان روح النفور من حكومة نابوليون قد ساد البرلمان حتى ان كثيرين من الاعضاء كانوا ميالين الى اندحار الجيوش الفرنسوية ولم يكتموا ابتهاجهم حينما انتهت اليهم اخبار معركة واترلو وحيث ان نابوليون كان واقفا على حقيقة اميال رجال البرلمان ومجاهرتهم بالعداوة له فقد شعر بضرورة العودة الى باريس بعد النكبة التي حلت به وقد انحى عليه بعضهم باللوم لانه لم يخيم على الحدود ويسعى لضم فلول جيوشه ولكن لم يكن له فائدة من وراء ذلك لان البرلمان نفسه كان يناوئه ويتعمد خلعه والاعراض عن شد ازره وكان الجميع واقفين على مقاصد البرلمان وما كانوا ينوون عمله لما وصلت اليهم اخبار واترلو ولما رأى نابوليون ان اوربا جمعاء قامت عليه وان بلاده تعمدت خذله علم انه يتعذر عليه العودة الى القتال ولو كان عنده قوات تفوق القوات التي كان يتيسر له حشدها .

ويفضي بنا هذا الاستطراد الى موضوع آخر فانه مع معرفة الجميع لما كان

بين الامبراطور وبرلمانه من النفور والعداوة يصعب على الانسان ان يفهم كيف أن اسم نابوليون بقي ثلاثين سنة علامة الاتحاد لجميع الاحرار في القارة الاوربية معما كان قائما من النضال الشديد بين نابوليون والحزب الدستوري فان نابوليون لم يكن يميل قط الى الحرية ولا الى الراغبين في توطيد اركانها وكان يتهكم على هؤلاء باطلاقه عليهم اسم «الفكريين» فان هدفه الاسمى في حكومته كان قوامه النظام والعدالة والقوة والاستقامة ولم يكن يدخل عليها ما يعدلها الا ما يراه ملائما باستعانته بدهاة الرجال ولا يفسر معنى حكاية الحرية المنسوبة اليه الا بتواري الذين سنوا دساتير سنة ١٨١٥ بعد رجوع البوربون وقد قابلهم الناس باحتقار وبعد نسيان حادثة « الايام المئة » ولم يذكر الناس الا كون نابوليون ربيب الثورة وانه حقر الاسر المالكة القديمة الاوربية وشوهها من دون ان يرعى حرمة قدميتها او تقاليدها او القابها وكان الشعب يرى فيه ممثل الثورة والجيش يرى فيه المجد ولم يذكر أحد او لم يهتم أحد بان يذكر انه تنازل عن عرشه مختارا وآثر الاستسلام لاعدائه على ترأسه ثورة شعبية .

ولو ذكر الشعب هذا الامر لرأوا معاملة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة تكفيرا عنه ولم يجهل نابوليون ما كان لاعتقاله من الفائدة لذكراه وقضيته فان موته في المنفى بعيدا عن الناس محا جميع اغلاطه وجميع معايبه وقد نسي الناس استبداده الشديد الوطأة واستنفاد موارد مال فرنسا ودم ابنائها وغزوة الاجانب لها مرتين بما ارتكبه من الخطأ وأصبحت ذكراه موضوعا لحكاية عجيبة بعد ما تطهرت من جميع هذه التذكارات وكان الفلاحون في فرنسا عضدا له بعد الجند لاعتقادهم انه خير واق لهم من عودة اصحاب الاقطاعات الى مظالمهم القديمة وحاجزا حصينا دون عودة شكل الاحكام السابق واستعادة النبلاء ورجال الدين لاموالهم المحجوزة في ابان الثورة ولذلك كانوا شديدي الحرص على مجده وقد عاشت بين ظهرانيهم ذكرى الاعمال العجيبة التي عملها وقد استطاع بيرانجه ان يحصر الفكرة الشعبية في قصة فلاحة لم تذكر نصرا واحدا من الانتصارات التي اصابتها واليك ترجمة ماقاله في هذا الشأن :

« سيتكلمون عن مجده في الاكواخ حينا طويلا ولا يبحث سكانها بعد خمسين سنة الا في تاريخه . »

هذا ما ذكره هذاالشاعر في قصيدته البديعة وذكر في قصيدة أخرى ما يأتي :

« يا أولادي إنه مرّ في هذه القرية والملوك وراءه »

ويتمادى بنا الكلام إذا قلنا أن نابوليون أصاب تكريم الاجيال التي جاءت بعده ولكن مهما كتب الانسان في هذا الموضوع فلا يركب مركب الغلو والشطط فانه أحرز تكريماً عظيما لم يحرزه أحد من البشر فلم يكن معروفاً في فرنسا بلقب جنرال أو قنصل أو امبراطور أو مشهوراً باسمه العظيم فقط بل كانوا يسمونه « الرجل » وابنه كان معروفاً باسم « ابن الرجل » والحق يقال إنه كان رجل « التصور الشعبي » وأصبح الاحرار لا يحلفون إلا باسمه فان شخصيته الهائلة جعلته ملكا مطلقاً أكثر من نفوره من الفوضى ولكن هذا الرجل المعروف بربيب الثورة ومحقر مكانة الملوك كانت هالة من المجد تحدق باسمه وقد أرضى الذين يعتصمون بمبدأ المساواة بانشائه أسرة مالكة رابعة وهو الذي نشأ من العدم واضطر البوربون الى الجلاء عن فرنسا والاقامة في البلدان الاجنبية وقد سحق زعماء تلك « المحالفة المقدسة » التي كانت شديدة الوطأة على أوربا وحقرهم وحاول أن يخمد آخر شرارة من الثورة الفرنسوية الكبرى وكان يظهر إنه يمثل بغض الحرية ولا بدع إذا كانت صورة نابوليون تصبح كمعبود للاحرار في القارة حينما ينظرون اليها من ذلك الوجه وقد بصمت فيما بعد بمثل هذه البصمة الظاهرة فان الديمقراطية صاحبة السلطة أو الدكتاتورية الديمقراطية التي نشأت عنها في فرنسا فكرة انشاء الامبراطورية الثانية وجدت ارتياحاً اليها في البلدان الاخرى وكانت بمثابة تراث سياسي تركه نابوليون أو وصية نهائية خلفها للاجيال التي جاءت بعده .



احاديث نابوليون

ليس من الصواب ان تجمع جميع كلمات الرجل العظيم بعد تواريه عن ملعب هذه الدنيا فالذهن المتعود المثابرة على العمل اذا انقطع فجأة حكى قاطرة سكة حديد لاتدري الى أين تذهب وحيث لايكون للكلام غاية مقررة فلايكون من سيطرة عليه فالرجل العظيم يخطر له ان يتكلم وحده وحينئذ تنفجر في صدره مراجل الشهوات والموجدة والاحتقار ولم يكن هذا الامر يخفى على نابوليون فكان يقول : « اصبتم بوضع حد لكلامي فانا أقول اكثر مما أريد حينما أفيض في الكلام في موضوعات تهمني كثيراً . » ولكن لم يكن في أحاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة مثل ذلك الاندفاع في الكلام . أجل انه كان في بعض الاحيان يهيج هائجه على حاكم الجزيرة أو يفور فائره عند رؤيته التضييق الذي كانوا يعاملونه به أو يقذف الجزيرة نفسها بلواذع الالفاظ ولكنه كان على الغالب ساكن الجأش كثير التفكير وكانت افكاره تجري على أسلة لسانه بصوت عال وكثيرا ما كان كلامه ينتهي باستنتاجات متناقضة . وقد لاحظ لافالت ذلك التشتت في فكره عند رجوعه من جزيرة البا وقال في هذا الصدد :«لم أشاهده قط ثبت الجنان كما شاهدته في ذلك الحين فلم يكن يخاطب أحدا بكلام قارص ولم تكن بنائق صبره تتفتق بل كان يصغي الى كل شيء ويناقش في كل شيء بذكائه النادر وسمو افكاره وكان يعترف بخطأه بصراحة مؤثرة أو يبرهن عن موقفه بفراسة لايضاهيه فيها اعداؤه . »

وليس في ما جمعوه من أحاديث نابوليون مايشفي الغليل فبعد سنتي القنصلية الاولين ندر ان يبوح بما يكنه ضميره في أحاديثه والذين كان يبوح لهم بمكتومات صدره في بعض الاحيان — كبرتيه ودوروك وبرتران — حبسوا لسانهم عن الافضاء الى غيرهم بما كانوا يسمعونه منه . وما من أحد يمري في انه كان يحسن الكلام في الجمهور ولكنه حينما كان يتكلم في الجمهور لم يكن يعرب عن حقيقة فكره بل كان يفصح عما يريد هو أن يجعل الناس يتوهمون ان كلامه يترجم عن أفكاره . ولنا من امثال ذلك كثير من الاحاديث في جزيرة القديسة هيلانة لانه كان يحيط به رجال يدونون الحوادث يوما فيوما وكان

يعرف ذلك . وحينما كان قابضا بيده على ناصية السلطة كان يفوه بكلام صريح فصيح بليغ في الجمهور ويورد فيلمان امثلة كثيرة من ذلك مما اتصل اليه من تربون . ولا يخلو كلام فيلمان من التعمل . وفي جميع المفكرات المكتوبة عن عهد الامبراطورية أمثلة من أحاديث نابوليون . ولكن اذا أردنا ان نقف على الحقيقة في الاحاديث المنسوبة اليه وجب علينا أن نبحث عنها في غير تلك المفكرات وعندي أن رودرر أصدق من سواه في بيان حقيقة كلام نابوليون فهو يورد لنا أمثلة من الانشاء الاصلي في عهد القنصلية حينما كان نابوليون جمهوريا في الظاهر مع كل ما يحيط به وكان يتدرب على فن الحكم المدني قبل طموحه الى عصب جبينه بالتاج فهي شذرات من خطبه في مجلس الدولة ومن أحاديثه في المالميزون وسان كلود وهي أحاديث مسهبة دارت بعد ذلك ونقلت حرفا لحرفا بالتدقيق . وحسبنا ان نقرأ خلاصة الاحاديث بين رودرر ونابوليون في يناير وفبراير ١٨٠٩ وفي سنة ١٨١١ ولاسيما في سنة ١٨١٣ وهي اظهر ما لنابوليون من الحديث فكلامه فيها مختصر وصريح وعنيف في بعض الاحيان ولكنه جم الفائدة فكان له تأثيرا فتانا له سر يجعله يحرك جميع عوامل قواه العقلية ويحصرها في أمر واحد ويجلوه بما يورده من الشواهد والمقابلات التاريخية مما توحيه اليه سعة حيلته الطبيعية ومعرفته بالجنس البشري اجمالا وبالذين تمرس بهم بنوع خاص

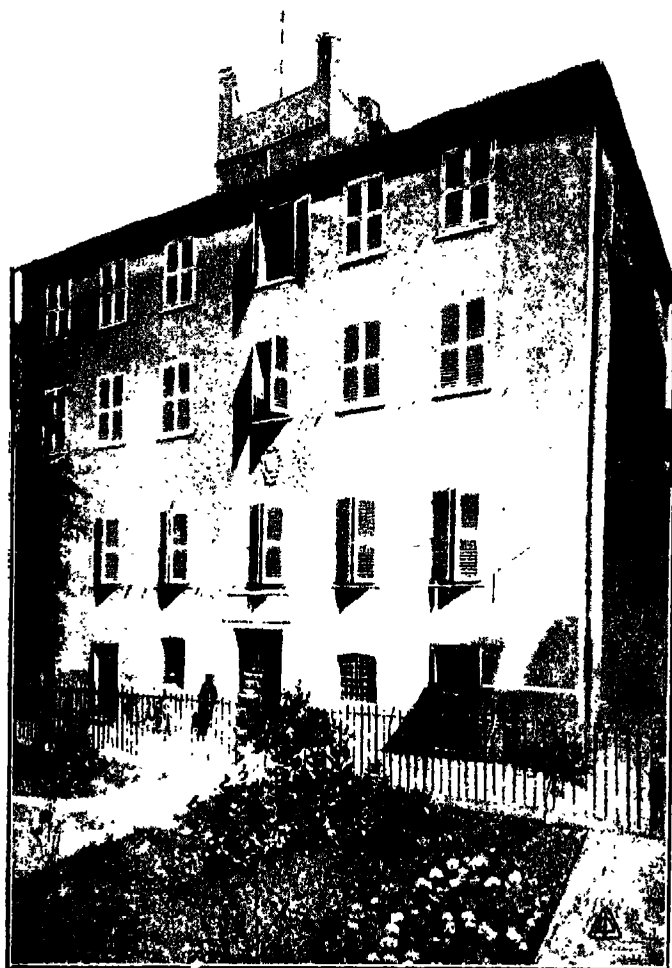
ويتعذر حصر أحاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة فهي موزعة في نحو عشرين كتابا يختلف بعضها عن الآخر في عدم تماثله في الصحة والثقة به . ومعلوم انه لا يسهل فصل الزوان عن القمح فبعض تلك الكتب املاه نابوليون فالكلام الذي املاه له أهمية وقيمة خاصة به ولكنه لا يعد من باب الاحاديث واذا بحثنا عن الرجل كما يظهر من حديثه فيكون مانقله غورغو اصدق مما نقله غيره فمنطولون لا يماثله في الذكاء ولا يبعث كلامه على الاعتقاد بهولاس كاس يختلق ويركب واوميرا يترجم الى الانكليزية احاديث بلغة ايطالية وهي أحاديث ممزوجة بالحدة خطيرة الشأن ولكنها ليست موضع الثقة فغورغو يروي لنا رواية صحيحة ويصور لنا صورة حقيقية يمحو منها ما تحاول عواطف الوجوم والحسد الصاقه بها

ان للحوادث التي يرويها اهمية كبيرة ولـكن اظهر شيء فيها هو الحقيقة البادية بها بشـكل طبيعي خال من التزويق والتنميق فهي ليست تذكارات عن ادوار حياته في أوج مجده بل هي رسوم وقتية وحينما نجد فرقا بينها وبين الحوادث التي يرويها لاس كاس ومنطولون فلا نتردد طرفة عين في تصديقها فهما يحاولان في الاحوال العصيبة ان يجللا بطلهما بمطرف فاخر ضاف أما غورغو فيصوره بالشـكل الذي يجده فيه سواء كان في حمامه أو في سريره في ثوب الصينة أو في مباذله في حالة السرور او في سورة الغضب ونذكر حادثين على سبيل التمثيل وهما مصرع ناي ومصرع مورات :

كـتب منطولون ان الامبراطور قال في ٢١ فبراير « انـ قتل ناي جريمة لاتغتفر لان دمه كان مقدسا عند فرنسا ولم يكن لتقهقره بانتظام في روسيا من مثيل وقد كان يجب ان يلقي عمله هذا ستارا على جريمة الخيانة العظمى اذا كان ثمة خيانة عظمى قد ارتـكبها المرشال ناي ولـكن ناي لم يخن مليـكه قط . . . » وقد كان الناس يتوقعون مثل هـذه العواطف من نابوليون ولـكنهم لم يتوقعوها منه في ٢١ فبراير لان خبر مصرع ناي لم ينته اليـه الا في اواسط مارس .

وتختلف رواية غورغو عن رواية منطولون فأنه قال ان نابوليون غير رأيه من هذا القبيل فقـد قال ذات يوم انهم « قتلوا » ناي وقال في يوم آخر : « ان المرشال لقي مايستحقه فيجب على الانسان ألا ينـكث بكلامه وانا احتقر الخونة . . . فناي لطخ بردة كرامته وأنا أتأسف على ذلك لان ناي بطل مجرب في ساحة القتال ولـكنه اخفق في مسعاه لجنوحه عن الجادة القويمة . » وقال انه اخطأ بمنحه اياه عصا المرشالية وكان يجب عليه ان يبقيه قائد فرقة لانه كما قال كافارلي كان جريء المقدم عالي الهمة . وقد سلك مسلك الخائن في سنة ١٨١٤ وتصرف تصرف السافل كما لوف عادته فاذا قابلنا هذا الـكلام بكلام دوقة انغوليم لما قرأت كتاب دي سيغور وجاهرت بما تشعر به من وخز الضمير حينما قالت : « لو عرفنا في سـنة ١٨١٥ مافعله المرشال في معركة روسـيا لما نزلت به صرعة المنية »

ونورد ايضا الـكلام الذي فاه به نابوليون في روسـيا عن ناي لـمـا قال :



بيت بونابرت فى اجاكسيو بجزيرة كورسيكا

«ما اعظم هذا الرجل وما اشجع هذا الجندي . عندي في اقبية التويلري مئتا مليون من الفرنكات وأفضل أن اعطيها فداء عن المرشال ناي »

ونستنتج من كلام نابوليون الدال على تغيير رأيه في ناي انه لم ينس اجتماعه به في فنتنبلو في سنة ١٨١٤ ولم يصفح عن تصلفه في سنة ١٨١٥ لما جاهر على رؤوس الاشهاد بانه عاد بالامبراطور في قفص ولم ينتدبه نابوليون الى قيادة جيش الا قبل معركة ليني بيوم واحد وكان ذانك البطلان قد اصبحا عدوين .

ولما وصل نبأ مقتل مورات الى نابوليون وقد جاءه به ثلاثة أشخاص الواحد بعد الآخر . ولما قرأ له لاس كاس نعيه قبض العاهل على ذراعه وقال له : «كان الكالبريون اكثر شفقة من الذين ارسلوني الى هذا المكان وا كرم منهم » ثم صمت .

وحمل اليه اوميرا ايضا خبر مصرع مورات فتلقاه بسكينة وسأله : هل قتل مورات في ساحة الحرب فتردد في بدء الامر في القول له ان خنته نفذ فيه حكم الاعدام كما ينفذ في المجرم ولما كرر عليه السؤال اوقفه على واقع الحال فاصغى الى كلامه من دون ان تتغير هيئة وجهه .

ونقل اليه غورغو في نوبته خبر مقتل مورات فسمعه من دون أن تبدو عليه علامات التأثر ثم قال : لابد من أن تكون الحماقة قد دفعت مورات على ركوب مثل ذلك المركب الخشن . ويؤلمني أن اعرف ان اولئك الاجلاف قتلوا شجاعا كمورات واجه الموت مرات كثيرة في ميادين الوغى فقتله أمر فظيع . ولما انكر بعضهم عمل فرديناند وقال : لم يكن ينبغي له أن يقتله على تلك الصورة قال الامبراطور : «ان امركم غريب ايها الشبان فقد فاتكم أن مسألة العرش لا تحتمل المزاح فهل كانوا يعتبرونه قائدا فرنسويا بعد ما انقضى وقت طويل على تركه لقيادة الجيش الفرنسوي وهل كانوا يعدونه ملكا ولم يعترفوا به ملكا قط فانه أمر بقتله بالرصاص كما أمر بشنق كثيرين غيره » وقال غورغو ان علامات التألم كانت تبدو على محياه حينما كانوا يقرأون له الجرائد المنشور فيها ذلك الخبر

ولا ندري في الحقيقة من من الثلاثة كان أول من ابلغه نعي مورات ولكن نشعر أن رواية غورغو منسوجة على منوال الحقيقة وقد قال له نابوليون

فيما بعد : « ان مورات لقي ما يستحقه وانا المخطىء في ذلك فقد كان يجب علي أن ابقيه مرشالا والا اجعله دوق دي برغ وملك نابولي »

ويعلم القارىء لماذا نؤثر الاعتماد على رواية غورغو عند اطلاعه على الامثلة التي سنوردها عن احاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة وفضلا عن ذلك كان نابوليون يكرر الكلام الذي يفوه به ولذلك نرى في كلامه مايؤيد أقواله السابقة في المفكرات التي كتبت عنه في منفاه .

وكان الدين من أهم الموضوعات التي كانت رحى الحديث تدور عليها في جزيرة القديسة هيلانة وكان نابوليون يسر بان يقرأ التوراة بصوت عال عند اجتماع رفاقه في ناديه ولم تكن قراءته لها في كل حين ناجمة عن روح ديني وقد رأوه في ذات يوم يبحث في سفر صموئيل وسفر الملوك عن النصوص المؤيدة للملكية الشرعية ومع ذلك كان يقرأها في بعض الاحيان لغرض ديني . ويقال أنه كان كثير الاعجاب بالقديس بولس وكان في تلك الايام المدلهمة في حياته يوجه افكاره الى مسائل الايمان من دون أن يكون في عمله هذا ما يبعث على اعطاء القدوة الحسنة . وقد قرأنا أنه كان يشير بيده الى الفلك ويفوه بكلام يشف عن اعتقاده بوجود الله مع انكار الوحي . وذكر نيبومان ماكان من اعتقاد نابوليون بالدين وهو في جزيرة القديسة هيلانة فقد كان يقابل مجد قيصر والاسكندر الباطل بقوة المسيح الحية ويقول : « وهل يمكن ان يكون ادنى من اله » ولكن كلام نابوليون الحقيقي يختلف عن هذه الزعم . وكان غورغو يتكلم عن الكواكب والخالق بكلام يعبر عما كانوا ينسبونه الى نابوليون في ذلك الصدد ولكن الامبراطور أوقفه عن التمادي في الكلام .

ويقال أن نابوليون كان شديد الميل الى الدين الاسلامي وكان ينتقد الدين المسيحي لعدم قدميته ويقول لو كان هذا الدين قد نشأ منذ انشاء العالم لاعتقدت به وان النصرانية لولا صلب المسيح واكليل الشوك لما بقيت الى أيامنا هذه وكان يزعم أنه لايقبل دينا يشجب افلاطون وسقراط والانكليز وقال ما هو الباعث على القضاء على الانسان بالعذاب الابدي واعترف ايضا بان براهين الائمة المصريين أثرت فيه فهم يزعمون ان الانسان حينما يعبد ثلاثة آلهة يكون ولامراء من عبدة الاوثان

وقال ان الدين الاسلامي ابسط من الدين المسيحي واسمى منه فقد انتشر في نصف الكرة الارضية في عشر سنوات اما الدين المسيحي فقد انقضت ثلاثمئة سنة لتوطيد اركانه . وقال مرة اخرى ان الدين الاسلامي هو أجمل الاديان وقد تمادى به الكلام ذات مرة الى القول « نحن المسلمين » واذا كان يفضل الاسلامية على النصرانية فقد كان يفضل المذهب الكاثوليكي على المذهب الانكليكاني وعلل ذلك بقوله ان الذين يدينون بالمذهب الكاثوليكي لا يفهمون معنى صلاة الغروب التي يصلونها ويجب الازال عن بصيرتهم الستار المضروب عليها . ومن رأيه أن الكهنة يجب أن يتزوجوا ولكنه قال انه يتردد في الاعتراف لكاهن متزوج لئلا يبوح هذا الكاهن بسر الاعتراف لزوجته وتمادى به الغرور الى القول بانه بصفة كونه « ممسوحا بالزيت المقدس » يستطيع ان يسمع اعتراف الناس ولم يكن يحب سلسلة المناصب في الكنيسة ولا الطقوس وكان معارضا للباباوية ومن جملة أقواله ان بريطانيا العظمى وشمال اوربا حسناً صنعا بتحررها من نيرها . ومن السخافة الا يكون رئيس الدولة رئيساً روحيا لها أيضا ولذلك تأسف لان الملك فرنسيس الاول لم يتحرر ويحرر شعبه بانتحاله مذهب الاصلاح الديني كما كان ينوي أن يفعل . ولما تبرم نابوليون من مناضلة الباباوية ندم على عدم انتحاله لذلك المذهب بدلا من عقد تلك الوثيقة (الكونكوردا) فكانت الامة تحذو حذوه وتتخلص من نير رومية . وكلما تقدم في العمر جاهر بمعاداة النصرانية وحسر اللثام في آخر الامر عن فكره من ذلك القبيل فقال : « لقد قر رأيي فلا اعتقد ان يسوع (كاله) وجد فكانوا يشنقونه ككثيرين من المتهوسين الذين كانوا ينتحلون النبوّة ويزعمون أنهم مسحاء وكان كثيرون يزعمون مثل هذا الزعم في كل سنة »

وانتقل في الكلام من العهد الجديد الى العهد القديم فقال : « ان موسى داهية وكان اليهود ساقطين وجبناء وقساة » وقال أنه ينبغي أن يدون مآرك موسى وكان قليل الايمان بالمخلص .

اما من جهة العواطف الانسانية فكان يجاهر بانه على مذهب الماديين ويزعم ان الانسان ولد في حيز تكتنفه حرارة جوية عالية . وزعم مرة اخرى انه صنع من التراب كما كان يقول هيرودس ان طين النيل كان يتحول الى جرذان

في عهده . ولما دبت حرارة الشمس في ذلك التراب خلق منه الانسان باتحاد التيارات الكهربائية : فليقل الناس ماشاؤوا أن يقولوه فكل شيء مصنوع من مادة يختلف شكل تنظيمها . وقال : « أمرت بان يشقوا الظباء امامي فوجدت باطنها يحكي باطن الانسان ولكنه كائن اكمل من الكلاب أو الاشجار وهو يعيش عيشة أفضل من عيشتها . فالنبات أول حلقة من السلسلة التي تنتهي بالانسان ولا يخفى علي ان هذا الامر يخالف الدين ولكنه رأيي فلسنا جميعنا الا مادة » وكان يقول ايضا : « ماهي الكهربائية والمغنطيسية . هما سران عظيمان من أسرار الطبيعة واظن ان الانسان نتاج تياراتهما ونتاج الجو وان الدماغ يخرج تلك التيارات ويعطي الحياة وان النفس مركبة من التيارات المذكورة وهذه تعود بعد الموت الى الاثير ومنه تنتقل الى ادمغة اخرى »

وقال مرة لغورغو : « ياعزيزي غورغو حينما نموت نتوارى من الوجود فما هي النفس . وحينما ينام الانسان أو حينما يصبح مختل الشعور اين تكون نفسه . » وقال مرة اخرى : « لو خيرت في اتخاذ دين لعبدت الشمس فانها تحبو كل شيء الخصب وهي اله الارض الحقيقي . »

وزعم بعضهم انه كان يخاطب غورغو بمثل ذلك الكلام بقصد المزاح معه لان غورغو كان شديد التدين . ونظن انه كان يفوه بذلك ليجمل النظرية الارثوذكسية تبدو بكل قوتها . لكنه كان في غالب الاحيان يقول انه لا يؤمن باله منتقم ومجاز « لان خيار الناس يكونون تاعسي الجد وشرارهم ميموني الطالع وسترون ان تاليران وامثاله سيموتون في اسرتهم . »

وقال غورغو ان برتران كان يتصور ان الامبراطور « متدين » ونحن نعتقد ان نابوليون كان متدينا بخلاف ما كان يظهر في احاديثه من الالحاد ولكنه كان يجب عليه أن يرجع الى الدين بعد ما كان قد ابتعد عنه كثيرا فهو ربيب الثورة التي جحدت الدين ومع ذلك وجد في نفسه قوة كافية لاتيان اعظم عمل في حياته يدل على الشجاعة وهو اعادة الكنائس في فرنسا الى ما كانت مخصصة له وعقد الوثيقة مع البابا واجبار رفاقه في الجندية الى مرافقته الى الكنيسة لسماع القداس مع نفورهم من ذلك واستهزائهم به

وكيفما كانت الاسباب التي بعثته على ذلك فلابد من كونها قوية لحملها اياه

على الخروج على جميع التقاليد في سن الرجولية لان الايمان ومزاولة الدين — وكانا يزاولان في الخفاء بين الشعب المدني في فرنسا — لم يبق لهما أثر بين الجنود وقال لافالت في عرض كلامه عن حملة مصر : « كان الجنود الفرنسويون قد نبذوا كل فكرة دينية . »

وروى لافالت ايضا نكتة غريبة عن ضابط فرنسوي كان معه في سفينة مشرفة على الغرق ان ذلك الضابط تلا الصلاة الربيسة من أولها إلى آخرها ولما زال الخطر خجل الضابط من نفسه واعتذر قائلا : « لي من العمر ثماني وثلاثون سنة ولم اصل من اثنتين وثلاثين سنه ولا اعلم كيف استطعت تذكر تلك الصلاة وأؤكد لكم انه يتعذر علي الآن ان اتذكر منها كلمة ما. » ودام هذا النفور من الدين الى آخر حكم نابوليون رغما من عقد الوثيقة مع البابا . وقال لافالت انه لما احتفل بالقداس بحضور الامبراطور في «الايام المئة» ولى جميع الحاضرين المذبح ظهورهم

ولا يخفى ان الزمان الذي قضاه مع الجنود في المعسكرات وعلاقته بالثائرين وخلافه مع البابا أبعدته عن الدين الذي ولد فيه وقال تاليران لهنري غريفيل ان لويس الثامن عشر لما وصل الى باريس دهش لما رأى ان المكتبة التي كانت الى جانب مكتب الامبراطور كان معظمها مؤلفاً من كتب اللاهوت وكان نابوليون يكثر من تدبر تلك الكتب وسأل غرانفيل تاليران هل يظن ان نابوليون كان متدينا فاجابه تاليران : « اظن انه كان متديناً وكان ميالا الى معالجة الموضوعات اللاهوتية . » وكل مانقوله في ذلك ان اعتقاد نابوليون الديني لم يكن يقل عن اعتقاد خلفه على العرش ووزيره تاليران

وكل مايقال في هذا الصدد ان المسائل الدينية كان لها شأن عظم في احاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة فكان تارة يشك وتارة يتردد ويستدل على حالة نفسه الحقيقية من ملاحظة ابداها بالكلام التالي : « ان الاحمق يقول انه يموت بلا اعتراف فهنالك اشياء كثيرة نجهلها ولا نجد سبيلا الى التعبير عنها . » وماقاله عن اسرار الديانة نطبقه على ما كان يشعر به عن تلك الاسرار اي : « هنالك اشياء كثيرة نجهلها ولا نجد سبيلا الى التعبير عنها . »

والى جانب تلك الموضوعات الكبيرة التي تضيع فيها الافكار موضوعات

كثيرة عالجها نابوليون معالجة تعرب عن اخلاقه وتهمنا بقطع النظر عن تذكاراته المختلفة وآرائه في المستقبل وهـذه الآراء على ما يرويها لاس كاس ومنطولون تشبه برامج سياسية عامة اكثر مما تعبر عن افكاره الخاصة ولم يكتما ما كان يجول في خاطرهما من هذا القبيل في بعض الاحيان واخرج منطولون مرة من محفظته ورقة كتب عليها مشروع دستور املاه عليه نابوليون للامبراطورية الفرنسوية ليعمل به فيهـا في عهد نجله . ولا ندري هل ذلك الدستور حقيقي ولكن نعلم ان ناشري مؤلفات نابوليون اغفلوا نشره . ونميل الى التصديق ان هذا الدستور وضع في أثناء عزلة «هام» لاعادة حكومة البونابرتيين وقد اعيدت بعد حين قصير . على ان الناشرين الرسميين نشروا « التعليمات التي املاها لابنه » في ١٧ ابريل ١٨٢١ قبل وفاته بايام على ماأشار اليها منطولون ويظهر ان تلك التعليمات حقيقية .

وغني عن البيان أن نقول ان كل ما قاله الامبراطور عن البريطانيين هو في غاية الخطورة فانه في جميع حياته حارب بريطانيا العظمى على اشكال شتى ومع ذلك كان يجهل كل الجهل حقيقة امرها ولما كان في عنفوان مجده كان مترنيخ في انكلترا وقال « ان نابوليون كان يظن عن بريطانيا العظمى كل ما كان يروقه ان يظنه عنها وكانت افكاره عنها تخطىء المرمى وهـذا يبعث على العجب لان انتصاراته التي كان يحرزها كان معظمهـا يرجع الى تعمقه في معرفة حقيقة احوال خصومه وكان في ابان حكمه يتدبر الصحف الانكليزية ويراقب السياسة البريطانية بعين يقظى . وكان المقربون منـه يعرفون مقدار مايؤثر فيه انتقاد الصحف الانكليزية له ولم يكن يكترث الا لانتقاد تلك الصحف . وكان يحب ان يترجموا له جميع العبارات المتضمنة سبابا وشتما له وكان يفور فائره عنـد اطلاعه عليها ومع ذلك لم يكن يتكلم عن البريطانيين وهو في جزيرة القديسة هيلانة من دون ان ينم عن جهل لاخلاقهم وعاداتهم ومما قاله عنهم : « لو قيض لي الذهاب الى لندن (سنة ١٨١٥) لاستقبلوني استقبال المنتصر وجاهرت سوقة الناس بعواطفي واستملت الي امثال غراي وغرانفيل . » وكأنه كان يظن انه ولو دخل لندن دخول الفاتح لكانت النتيجة نفسها وقال للاس كاس : « كانت اربعة أيام تكفيني لدخول لندن وما كنت لادخلها دخول الفاتح بل دخول المحرر

وكنت جددت عهد وليم الثالث وفقته بالكرم والنزاهة وكانت جيوشي في غاية النظام تتصرف فيها كما تتصرف في باريس وما كنا نطالب من الانكليز تضحية ولا اتاوة وما كنا نجعلهم يعدوننا فاتحين بل اخوانا قدموا عليهم ليعيدوا اليهم الحرية وحقوقهم المسلوبة وكنت اقول لهم ان يضموا متفرق شملهم وان يعملوا في سبيل نهضتهم وانهم اخواننا الكبار من وجهة التشريع السياسي وانه ليس لنا مطمع الا برؤية هنائهم ويسرهم وكنت صادقا في قولي هذا فلا تنقضي بضعة اشهر حتى تصبح تانك الامتان المتعاديتان متحدتين بمبادئهما ومصالحهما.»

والحق يقال انه لم يكن يصدق شيئا مما اعرب عنه في كلامه السابق ولم يفه به الا لانه كان يجهل كل الجهل اخلاق الشعب الذي كان يزعم انه يستطيع التصرف به على هواه. وكان يسر بان يسمع لاس كاس يروي له النكات التي سمعها في خلال اقامته في انكلترا وفضائح البلاط البريطاني وكارلتن هوس. فساله الامبراطور: « وماذا كنت تعمل هناك » ولم يكن رفاقه قادرين على تعريفه بالاخلاق البريطانية فكان غورغو مثلا يظن ان « الشعب » الذين كانوا يكثرون من الكلام عنه في انكلترا هو فرقة سياسية اوكما كان يظن الذين نشروا مفكراته ان «الشعب» كان من طلائع حزب الاحرار.

وماذا كان نابوليون يفتكر عن البريطانيين. إنه مع إغلاظ الكلام عنهم في غالب الاحيان كان يحترمهم وقد قال عنهم ما يأتي: « لو كان عندنا نصف ما عند البريطانيين من الروح الوطنية لقصرت الامة البريطانية عن اللحاق بنا.» وكان في بعض الاحيان يتمثل بقول باولي: « الامة البريطانية أمة تجار» وكان أيضاً يستهزىء بالامة التي قبلت مهمة اعتقاله بعد ما كانت من ألد أعدائه ولكنه كان يؤدي لها في بعض الاحيان ما تستحقه من الا كرام كقوله مثلا: « إن البريطانيين أشد صريمة منا وهل يتصور فرنسوي إن مثل روميلي وهو زعيم يشار اليه بالبنان لحزب كبير ينتحر وهو في الخمسين من العمر من جراء وفاة زوجته. وهم أشد اعتصاماً منا باهداب المبادىء العملية في كل شيء فيهجرون وطنهم ويتزوجون وينتحرون بسهولة تفوق السهولة التي نذهب فيها الى الاوبرا وهم أشجع منا ويمكن القول إن نسبتهم الينا في الشجاعة كنسبتنا فيها الى الروس وكنسبة الروس فيها الى الالمان وكنسبة الالمان فيها الى

الايطاليين . ولو كان عنـدي جيش بريطاني لفتحت به العالم ودرت حوله من دون أن تهي عزيمته ولو كنت مختار البريطانيين كما كنت مختار الفرنسويين في سنة ١٨١٥ لامكنني أن أنكسر في عشر معارك كمعركة واترلو من دون أن أفقد صوتاً واحداً في المجالس وجنديا واحداً في الجيش . . . ولانتهى بي الامر الى امتلاك ناصية الحال .» فاذا فكر القارىء في صاحب هذا الكلام وفي الظروف التي فاه بهافيها نظم عقود الثناء على أخلاق البريطانيين الوطنية ووفاها حقها من المديح .

ولما كان في أبان سطوته سنحت له فرصتان وفى فيهما بريطانيا العظمى حقها من الثناء في أحاديث خاصة فحدث مرة ان أوغست دي ستال قال له إنه لا يستطيع خدمة الحكومة الفرنسوية من جراء اضطهادها لوالدته فقال له نابوليون: « بناء عليه ينبغي أن تذهب الى انكلترا إذ لا يخفى عليك إنه ليس في العالم سوى أمتين عظيمتين وهما الامة الفرنسوية والامة البريطانية ولا يستحق غيرها أن يقام له وزن .» وحدث مرة أخرى في أثناء حروب اسبانيا ان الجنرال فوى يمم باريس واجتمع بالامبراطور ثلاث مرات فقال له نابوليون : « قل لي هل يقاتل جنودي قتال الابطال ؟ » فقال الجنرال : « نعم يا مولاي إنهم يقاتلون كالاسود .» فقال نابوليون : « وهل يخافون من الجنود البريطانيين ؟ » فقال الجنرال : « إنهم يقدرونهم حق قدرهم يا مولاي ولـكنهم لا يخافون منهم . » فقال نابوليون : « ولـكن البريطانيين غلبوهم دائماً . . . كريسي وازنكور ومارلبورو . . . » فقال الجنرال : « ولـكن معركة فنتنوى يا مولاي . . . » فقال نابوليون : « إن تلك المعركة فسحت في أجل الملـكية أربعين سنة . »

وفي أثناء إقامة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة توهم أن اللادي ملكولم قالت انه يبغض البريطانيين فقال لها بشدة إنها مخطئة فهو لا يبغضهم بل يحترم أخلاقهم ومما قاله لها : « خانوني وأدت تلك الخيانة الى وجودي على هذه الصخرة الصماء في عرض المحيط وأنا معتقد ان في بريطانيا العظمى كراماً أكثر مما في غيرها من البلدان ولـكن فيها أيضاً من اللئام طائفة لا يستهان بها فبريطانيا العظمى تجمع النقيضين . والبريطانيون من جنس يختلف عن جنسنا فهم شرسو الاخلاق يميلون الى سفك الدم وخوفهم من الموت أقل من خوفنا منه ولـكنهم يعنون بحاضرهم أكثر مما يعنون بمستقبلهم . »

وكان يحكم حكما صائبا على احكام البريطانيين الحصار البحري ولكنه كان ينتقد انتقادا مرا خطة ساستهم وقال انه لا يفهم — ونحن نشاطره نظريته — كيف انهم لم يستفيدوا فائدة كبرى من حروبهم الطويلة وانتصاراتهم ويظن ان ما اتهموا به بكونهم امة من التجار اثر في شعورهم وساءهم كثيرا وقد شاؤوا ان يظهروا للملأ ماطبعوا عليه من الانفة وعزة النفس « وقد ينقضي الف سنة قبلما تسنح لهم فرصة للبلوغ ببلادهم الى قمة العظمة . وفي الحالة التي صاروا اليها لاسبيل الى الضن عليهم بشيء » وقال ايضا : « انه من خرق الرأي ان تترك باتافيا للهولنديين وبوربون وبند يشيري للفرنسويين . » اما هو فلا يعطي فترا منها لولا تعليل النفس بطرد البريطانيين من الهند وقال : « كان يجب على وزراء بريطانيا ان يحتكروا التجارة في بحار الهند والصين وألا يسمحوا للفرنسويين او لغيرهم ان يتخطوا حدود رأس الرجاء الصالح والآن يستطيع البريطانيون ان يملوا شرائعهم على العالم طرا ولاسيما اذا اخرجوا جيوشهم من القارة الاوربية وارسلوا ولنبن الى اراضيه ليقيم فيها واقتصروا على مد لواء سيادتهم على البحار فحينئذ يتسنى لبريطانيا العظمى ان تجري كل ماتبتغيه . » وقال في ذات يوم « يحتاج البريطانيون ان يكون عندهم وزيرا كبر كاللورد تشاتام الشيخ . »

وقال ايضا : « فرض البريطانيون على فرنسا غرامة قدرها سبع مئة مليون وفرضت على بلادهم غرامة تزيد على عشرة مليارات فهم فرضوها بقوة حرابهم اما انا ففرضتها بقوة برلمانهم . »

واقبل نابوليون على تعلم اللغة الانكليزية على يد لاس كاس وظل مقبلا على ذلك من شهر يناير الى شهر ابريل من سنة ١٨١٦ وكان تارة يبدي رغبة شديدة في ذلك وتارة يبدي تبرما منه ثم ترك تعلمها . وكان قبلا قد حاول درس تلك اللغة في اثناء السفر من انكلترا الى جزيرة القديسة هيلانة ولكنه ضجر من ذلك وقال لاس كاس في هذا الصدد ان تلميذه نجح نجاحا باهرا في تعلم اللغة الانكليزية حتى صار يفهم مايقرأونه له فيها ولكن لفظه كان رديئا جدا . وكان يقرأ تاريخ بريطانيا العظمى بامعان ولم يكن قبلا قد اهتم به منذ خروجه من المدرسة وقال : « ارى في مطالعتي لتاريخ « هيوم » ان الامة البريطانية شرسة فما اكثر الجرائم في تاريخها فان هنري الثامن اقترن باللادي سيمور في غد اليوم الذي قطع فيه رأس

أن بولن فنحن لا نفعل مثل هذا الامر ونيرون نفسه لا يرتكب مثل تلك الفظائع والملكة ماري ... ان قانون العقوبات الذي يسيرون بمقتضاه عندهم غريب في بابه . » وكان أهم شيء في مطالعته لذلك التاريخ وضع مقابلة بينه وبين كرومول وقد قال ان بين عهد الملك شارل الاول والثورة الفرنسوية تشابها ولكن تتعذر المقابلة بين موقف كرومول وموقفه (اي نابوليون) فالامة الفرنسوية انتخبته ثلاث مرات بملء حريتها ولم تحارب الجيوش الفرنسوية الا الاجانب . وكان كرومول متحليا بصفة خطيرة وهي كتمان افكاره وكانت له مواهب سياسية كبيرة ونظر صائب في الامور ولم يأت في حياته عملا يدل على خرق الرأي . أما من جهة كونه قائدا عظيما فلم يكن نابوليون يعرف عنه كثيرا من هذا القبيل ليبدي رأيه فيه

وابدى ملاحظتين خطيرتين مدهشتين عن تاريخ فرنسا فقال : « ان القديس لويس كان مغفلا » وقال للادي ملكولم : « ان هنري الرابع كان ولامشاحة أعظم ملك جلس على عرش فرنسا . » ولكنه كان يقول هذا الكلام للاجانب وكان يقول خلاف ذلك للمقربين اليه : «لم يعمل هنري الرابع عملا عظيما قط وقد حاول فلتير بملحمته ان يجعله في مكانة عالية وذلك ليحقر منزلة لويس الرابع عشر لانه كان يبغضه واضحك حينما اقرأ ان رجلا يدعى ماسون قال لفريدريك ملك بروسيا ان هنري الرابع كان اكبر قائد بين المتقدمين والمتأخرين . لاانكر ان هنري الرابع كان رجلا كريما شجاعا يكر على اعدائه والسيف بيده ولكنه كان احمق . اما لويس الرابع عشر فقد كان أعظم ملك ظهر في فرنسا . . وكان جيشه مؤلفا من اربع مئة الف مقاتل . والملك الذي يستطيع أن يحشد مثل هذا العدد من الجنود لا يكون رجلا عاديا ولم يكن لسواي وسواه مثل هذه الجيوش الجرارة » . ويزعم نابوليون انه لو كان في عهد الملكية القديمة لرقي الى درجة المرشالية لانه لفت اليه الانظار حينما كان ملازما في الجندية ولا يصعب عليه الترقي حتى يصل الى درجة كولونل وحينئذ ينتظم في سلك اركان الحرب تحت امرة مرشال فيعمل أعمالا تمهد في وجهه سبيل التقدم .

وله وجهة نظر في تاريخ فرنسا الحديث لايسعنا أن ننظر اليها نظرة جدية فقد قال في مارس سنة ١٨١٥ : « ياليت الملك والامراء لايزالون باقين فالجنود

ينحازون الي ويبطشون بالملك والامراء ولا يبقى من وجه لبقاء لويس الثامن عشر على العرش » وكان في بعض الاحيان تثور فيه سورة الغضب فيفرغ كأس سخطه على فرنسا نفسها ويقول « لقد انتهكوا حرمة فرنسا واصبح الشعب الفرنسوي مثلوم الشرف ومتجلببا بجلباب اللؤم والجبن وهو يستوجب ذلك لانه بدلا من ان يلتف حولي ولاني ظهره »

وكان يتكلم عن اسرته من دون ان يزن كلامه بميزان التحذر ومن دون ان يجد غضاضة في بيان خمول أصلها وربما كانت حرية افكاره من هذا القبيل هي التي جعلته متميزا عن العاهل الذي يولد في مهد النعمة ولم يذكر أحد شيئا عن العاهلين معاصريه الاسكندر وفرنسوى بانهما يتحدثان مع حاشيتيهما عن شؤون اسرتيهما الخاصة ومن هنا تعرف العلامة التي يفرقون بها بين الدعي والاصيل وكانت القيصرة كاترين تتكلم عن اصلها وفصلها بمثل الصراحة التي يتكلم بها نابوليون لانها لم تولد بجوار درجات العرش

وكان نابوليون يقول ان اسرته من الاسر التي يشار اليها بالبنان في كورسيكا وانه لايزال له عدة انسباء في الجزيرة وقد قال في هذا الصدد : « لي نحو ثمانين نسيباً ... وانا موقن ان الذين انضموا الى مورات في سنة ١٨١٥ كانوا من انسبائي . » وقد اخطأ نابوليون بقوله هذا لان انسباءه لم يكن لهم علاقة بمورات ولم يشتركوا معه في الحملة التي غرر فيها بنفسه وطوح بها الى المهالك ولم يكن يهم نابوليون ان يعدوه كورسيكيا لانه كان يعتبر نفسه فرنسوياً قبل كل شيء وقد قال من هذا القبيل : « ولدت في سنة ١٧٦٩ بعد ما ضمت كورسيكا الى فرنسا . » ويتهمه خصومه بانه استبدل صك ولادته بصك ولادة شقيقه يوسف الذي ولد في سنة ١٧٦٨ قبل ضم الجزيرة الى فرنسا . وحدث أن أحد محافظي ليون كان قد سمع بهذا الامر ، ولم يكن من اصحاب الكياسة والنباهة فقال في خطبة خطبها امام الامبراطور : « ومما يقضي بالعجب العجاب ياصاحب الجلالة ان تحب فرنسا محبة عظيمة وتضحي بكل شيء في سبيلها وانت لست فرنسوياً . » فقال الامبراطور : « لما سمعت منه هذا الكلام وليته ظهري ... » وبقطع النظر عن جنسيته الفرنسوية كان يفضل انتماءه الى ايطاليا أو تسكانيا على انتمائه الى كورسيكا وكان يقول . « كانت اسرتي في تسكانيا من

نحو مئتي سنة فلي رجل في ايطاليا واخرى في فرنسا . » ولا يشق على القارىء معرفة مقدار فائدة تينك الرجلين له لانه كان صاحب الامر والنهي في فرنسا وايطاليا كاتيهما . ولم يكن انتسابه الى اصل كورسيكي يجديه نفعا ولذلك كان يحب أن يتبرأ منه بقدر مايستطيع .

وكان يبدي ملاحظات غريبة عن نسبه وقد خطر لاحدهم ان يجعل ذلك النسب متصلا بصاحب . « الكمامة الحديدية » فقال ان حاكم بينيارول — وكان السجين المجهول معتقلا في قلعتها — كان يدعى بومبار فزفّ كريمته الى السجين (وكان نابوليون يزعم ان ذلك السجين شقيق للملك لويس الرابع عشر) وساعدها سرا على الذهاب الى كورسيكا تحت اسم بونابرت . وقد قال نابوليون عن هذه الاشاعة : « كان تصديق هذه الحكاية الملفقة منوطا بكلمة واحدة مني »

ولما دارت المفاوضات على اقترانه بالارشيدوقة ماري لويز اهتم والدها الامبراطور فرنسوى بنسب صهره وارسل اليه ملف اوراق يشير الى انه متحدر من دوقات فلورنسه فضحك الامبراطور عند اطلاعه عليها وقال لمترنيخ « اوهل تظن اني اهتم بهذه السخافات وهب كان ذلك صحيحا فما فائدتي منه : ان دوقات فلورنسة كانوا ادنى مقاما من عمال المانيا فلا ارضى بان تكون منزلتي ادنى من منزله حمي . واظن ان مكانتي مساوية لمكانته وشرفي لايتجاوز منتينوت فاليك عني هذه الاوراق . »

وهنالك قرابة أخرى رفيعة الشأن قد لاينبذ الانتساب اليها فانه قال ان بونابرت هو بوناروتي نفسه فهل كان يعتقد انه نسيب لميخائيل انجلو . وقد تأسف لانه لم يتركهم يذيعون قداسة نسيبه بوناونتورا او بونيفاشيوس بونابرت فكان اخوانه الرهبان يباهون بهذا الشرف ولو انفقوا لنيله مليون فرنك ولما ذهب البابا من رومية الى باريس اقترح عليه ذلك الامر واوشك نابوليون ان يوافق على اقتراحه وقال حينئذ : « ان ذلك يستميل الي جميع الرهبان الكبوشيين » ولكنهم فكروا فيما بعد ان ذلك العمل يبعث على الهزء وهو وخيم المغبة في كل مكان ولاسيما في فرنسا .

ولم يكن نابوليون يكتم عن اصدقائه شيئا من اسرار اسرته فقال ذات يوم عن والده انه توفى في منبلياي في الخامسة والثلاثين من عمره وقال مرة أخرى

انه مات وله تسع وثلاثون سنة من العمر وانه كان منغمساً في الملاذ مسرفا يتصيد الاعيان وانه لما حضرته الوفاة لم يكن حوله رهبان كثيرون ومع ذلك كانت آخرته صالحة بحيث كان جميع الناس في منبلياي يزعمون انه مات قديساً» وخدم الحظ عم والد نابوليون فاعاد الى الاسرة ما فقدته من الثروة ومات غنياً ومما قاله نابوليون حينما تكلم عن وفاته « ان بولين اخذت كيس نقوده من تحت وسادته بينما كان يجود بنفسه . »

وكان الامبراطور يتكلم بسكينة عن الاراجيف التي انتشرت عن كون باولي والده وكان يدحضها بادلائه بحجة مقنعة بيد انها لم تكن مما يليق أن تذكر ومع ذلك كان باولي يعتني به اعتناء الاب بابنه ومما كان يقوله له : « انت يابونابرت من الرجال الذين يذكرهم بلوطرخس المؤرخ اليوناني ولست من المتأخرين . » وكان حينما يتكلم عنه امام الناس يقول : « لهذا الشاب رأس كرأس قيصر على جسم كجسم الاسكندر وفيه عزيمة تعادل عشرة اضعاف عزيمة سيلا . » وكان والدا نابوليون جميلي الصورة . وقال نابوليون : « لما كانت والدتي حبلى بي كانت ترافق والدي في الحرب المتقدة نارها في كورسيكا فشفق عليها القواد الفرنسويون ونصحوا لها بان تلد في بيتها واقول انها حبلت بي قبلما ضمت كورسيكا الى فرنسا ولكن لما ولدتني امي كانت الجزيرة قد خضعت لفرنسا . » وكانت النقطة الاخيرة تهمه وتهم اسرته كثيرا

وهنا مجال لان نذكر ما كان لنابوليون من العلاقة بكورسيكا فانه ولد فيها وعاش فيها حتى بلغ التاسعة من عمره وعاد اليها في أول رجوليته . وقضى فيها ثلاث سنوات وشهرين بين اول يناير سنة ١٧٨٦ ويونيو سنة ١٧٩٣ ثم قضت عليه الاحوال بمغادرة الجزيرة ولم يعد اليها فيما بعد الا عند رجوعه من مصر فانه قضى فيها حينئذ مدة قصيرة وابصرها مرة اخرى عن بعد وهو سائر على طريق جزيرة البا ومع ذلك لم تفارقه كورسيكا قط وكان لها في حياته تأثير شديد وكان في السنوات الاولى التي قضاها في الجزيرة انه خاصم بوتزو دي بورغو خصاما شديدا كانت له عواقب وخيمة عليه لانه كانت لبوتزو دي بورغو يد في سقوط نابوليون في المرة الاولى .

وبعد ما غادرت والدة نابوليون جزيرة كورسيكا ووصلت الى مرسيليا اصبحت في حالة ضيق شديد فلم يكن معها شيء من المال وكان معها اولادها الصغار اما نابوليون فلم يكن في جيبه الا ورقة قيمتها خمسة فرنكات فصمم على الانتحار وبينما هو واقف على ضفة السين وهو على تلك الحال وافاه صديق له وأمده بمبلغ من النقود واخرجه به من ذلك المأزق الحرج . وكان يقول : ولدت والدتي ثلاثة عشر ولداً وكنت انا ثالثهم فهي امرأة ولود . وانتهى اليه كتاب من والدته وهو في جزيرة القديسة هيلانة فأثر فيه ذلك الكتاب تأثيراً شديداً حتى مزقه فانها مع تقدمها في السن وفقد بصرها كانت تبتغي الذهاب الى جزيرة القديسة هيلانة ومما قالته في كتابها : « انا طاعنة في السن ويشق علي أن اقطع الفي ميل في البحر وقد اموت في اثناء الطريق ولكن لا بأس من ذلك فاني اموت قريبة منك . » اما مرضعه فانها عاشت مدة طويلة بعد وفاته وترك لها في وصيته مبلغاً من المال وقد ذهبت الى باريس لتشهد حفلة تتويجه واظهر البابا عطفا شديداً عليها هاج كامن غيرة والدته واصبح نجل تلك المرأة ربانا في احدى السفن البريطانية

وكان نابوليون يكثر من الكلام عن زوجتيه ويكشف اسرار حياتهما البيتية ويتساءل هل أحب في حياته حبا حقيقيا ثم يقول ان المرأة التي أحبها قليلا هي جوزفين ومما قاله عنها : « انها كانت تكذب دائما على التقريب ولكنها كانت تتفنن في أساليب الكذب وحين كان الكلام يدور على سنها كانت تتلعثم وتحاول كتمان الحقيقة والذين كان يهمهم رضاؤها كانوا يمالئونها على مزاعمها بحيث كانت نتيجة متابعتهم لها على قولها تبين ان اوجين نجلها ولد وهي في الثانية عشرة من عمرها ... ولم تطلب مني شيئا لنفسها ولا لاولادها رأسا بل كانت تحملني دينا يقدر بالملايين . » وكانت نقيصتها الكبرى غيرتها المستمرة ومع ذلك لم تكن تغار من ماري لويز بل هذه كانت تغار منها ولما حاول الامبراطور ان يأخذ زوجته الثانية لزيارة زوجته الاولى اجهشت ماري لويز في البكاء وتذرعت بجميع ذرائع الدهاء للحيلولة دون ذهابها لزيارة جوزفين .

وقال نابوليون : « ان ماري لويز كانت متناهية في بساطة القلب وكانت

تحبني ولو كان لها مستشارون صادقون ولو لم يكن الى جانبها منتبلو اللئيم وكورفيزار الوغد لـكانت ولامراء قد ذهبت معي الى جزيرة البا وعلاوة على ذلك عين لها والدها نيبرغ السافل ليلازمها في روحاتها وغدواتها . » وهذه هي المرة الوحيدة التي لمح فيها نابوليون الى خيانة زوجته وقد كان قبلا يحاول ان يلقي الستر على ذلك الامر ومع ذلك كان لافالت قد اطلعه على كل شيء من هذا القبيل في أثناء الايام المئة وشاع ذلك عند الجميع في البلاط . وظل الامبراطور يحسن الظن بماري لويز واليك ما كان يقوله عنها : « انها امرأة صغيرة حيية يروعها وجودها بين الفرنسويين الذين قتلوا عمتها ولم تـكن تـكذب قط وكانت كثيرة التحفظ وتبش في وجه الجميع حتى الذين كانت تمقتهم وكانت اذكى من والدها ولم تـكن تطيق زوجة ابيها وحينما كانت تحتاج الى المـال كانت تطلبه مني وتسر حينما اعطيها عشرة آلاف فرنك وكان الانسان يستطيع ان يستودعها اسراره . وقال لها والدها قبل مغادرتها لفينا : حينما تختلين بالامبراطور اظهري له الطاعة في كل شيء . وكانت فتاة فتانة وجيدة القلب وقد خلصت حياتي ومع ذلك اظن اني مع حبي لها كنت احب جوزفين اكثر منها فاني اخترت هـذه بنفسي وقد صحبتني في السراء والضراء وارتقيت معها في سلم المجد وكانت معدن اللطف ولم يكن يثبطها شيء عن مرافقتي الى جزيرة البا ولو ولدت لي ولدا لمـا افترقت عنها قط ولو تم ذلك لـكان من يمن طالعها ويمن طالع فرنسا . فالنمسا قضت علي ولولا اقتراني بماري لويز لما حاربت روسيا » ثم قال انه صمم على عدم التزوج اذا ماتت ماري لويز وحينما يفكر الانسان في الحالة التي صار اليها في جزيرة القديسة هيلانة يرى في كلامه هذا مزيجا من المهزلة والمأساة

ولمح تلميحا مؤلما الى نجله لما قدم له غورغو في يوم عيده في ١٥ اغسطس باقة ازهار زعم انها مرسلة من ملك رومية فقال بخشونة : « ان ملك رومية لا يفكر في ولا فيك » ولـكن وصيته واحاديثه كانت تدل على ان فكره كان دائما مع ولده وكان ينوي لو رزق ولدا ثانيا ان يعطيه ايطاليا كلها مملـكة له وان يجعل رومية عاصمة لها .

وقال نابوليون ان كارولين زوجة مورات كانوا يعدونها بلهاء حينما كانت صغيرة ولـكنها لما كبرت أصبحت ذكية وحسناء ولم يستطع كظم غيظه لما انتهى

اليه خبر زواجها الثاني ولم يصدق هذا الخبر في بدء الامر فانها بعد ماقضت مع
مورات عشرين سنة وبعد مصرعه بخمسة عشر شهرا تزوجت في فينا وكان لها
اولاد كبار . وقال نابوليون عنها . « ان هذا الامر لمن اعجب الامور التي مرت
علي . .. ماأغرب أطوار البشر . . . . فالحب كان المحرك لعواطف هذه الخبيثة
في جميع ادوار حياتها . »

وبعد ماتلقى نابوليون نبأ زواج كارولين جلس على المائدة لتناول الطعام
والغضب يغلي في صدره ولا يستطيع تسكينه فافرغ جام سخطه على الطاهي زاعما
انه لم يحسن طبخ الطعام وقال غورغو ومنطولون انهما لم ينظرا الامبراطور قبلا
على مثل تلك الحال من الغضب فامر بالطاهي ان يجلد ويطرد . اجل ان ذلك
المشهد مؤلم ومضحك معا ولم يصدر الخطأ عن الطاهي بل عن كارولين . ولم يكن
زواج شقيقته الباعث الوحيد على فوران غضبه والراجح ان ذلك الخبر اعاد على
ذهنه ذكر يوم في سنة ١٨١٤ علم فيه ان مورات خانه وحارب فرنسا بجنوده
وقد شعر الامبراطور في ذلك الحين باحتقار لمورات وقد رفعه من حضيض
الخمول الى ذروة العرش ولكنه وجه غضبه الى كارولين لعلمه انها هي المتسلطة
على ارادة زوجها .

ولم يسهب في الكلام عن اخوته فقال عنهم : « ان اخوتي اضروني كثيرا
وقد اخطأت باجلاسي يوسف الغر على عرش اسبانيا فقد كان يجب ان اجلس
عليه ملكا حزوما عزوما ولم يكن هم يوسف وهو في مدريد الا اصطياد
النساء . . . وهو لا يعرف شيئا من الشؤون العسكرية وان يكن يزعمان له خبرة
واسعة فيها . . : وليس له قلب . » ولما وهنت قوى نابوليون في جزيرة القديسة
هيلانة اصبح شديد الشبه باخيه يوسف .

ولما انتهى اليه ان شقيقيه لوسيان ولويس ينظمان الشعر الركيك في مدح
البابا قضى العجب من تلك الاطوار الغريبة . وقال نابوليون ان لوسيان كان
يرغب في الاقتران بملكة اتروريا بعد ١٨ برومير وقال انه يقترن بامرأة ساقطة
اذا حالوا دون اقترانه بالملكة وقد انجز ما هددهم به وقال الامبراطور ان
لوسيان لم ينفع شيئا في اثناء الايام المئة ولكنه طمحت نفسه الى الدكتاتورية
بعد واترلو وقال ان ما كان بينه وبين الحزب الجمهوري من العلاقات من خمس

عشرة سنة يضمن له ميل حزب المعارضة فيتولى الدكتاتورية ويسند قيادة الجيش الى نابوليون ولما سمع الامبراطور ذلك الكلام الغريب التفت الى كارنو فقال له هذا بلا تردد معبرا عن عواطف الجمهوريين : « مامن احد منهم يرضى بان يستبدل دكتاتورية دهائك بدكتاتورية رئيس مجلس الخمس مئة . »

وكان يتكلم قليلا عن اليزا وهي دون سواها من جميع افراد الاسرة تشبهه بطباعها واخلاقها وسمو مداركها وقد يكون ذلك باعثا له على قلة محبته لها .

ولم يتكلم كثيرا عن بولين الفتانة المحاسن المستعبدة للشهوات وعلاوة على ذلك يظهر ان الناس لم يكترثوا لتلك الاسرة فقد كانت غريبة في اطوارها وقد نشأت في الفاقة والخمول وترعرعت فيهما فانتحلت الحق الالهي بلباقة عظيمة ولم تفاخر اسرة البوربون ولا اسرة هبسبورغ بسمو مكانتهما الملكية بمثل ما فاخر به اولئك الملوك الذين لم تمتد أسباب حكمهم كثيرا فيوسف كان يعتقدانه يستطيع ان يثبت قدمه في اسبانيا لو اخرج نابوليون جنوده منها وكان لويس يعتقد الاعتقاد نفسه وهو في هولندا وهذا ايضا كان اعتقاد كارولين ومورات في نابولي . وماعتم جيروم ان انشأ بلاطا في وستفالي يحاكي بلاط لويس الرابع عشر في العظمة والمحافظة على « الرسميات » وكانوا جميعهم مكابرين ومتصلبي الرأي بيد ان ما امتازوا به من المزايا الحسان والنقائص الفاضحة كان عاديا . وكانت شقيقات العاهل يظهرن بمظهر العظمة وقدامتازت كارولين واليزا بمواهبهما النادرة وكان لاخوة نابوليون واخواته ما كان له من صلابة العود وشدة الشكيمة والاعتداد بالنفس وكثيرا ما كانوا يزدرون به ولم يستنكف بعضهم من المجاهرة بعداوته وحاولت شقيقتاه صاحبتا المقام الملكي ان تصرما حبال العلاقة به وان تفاوضا العدو بصفة كونهما صاحبتي سلطة مستقلة وكان لوسيان يزعم أنه يليق بمنصب اسمى من منصب نابوليون . وقال « باسكيه » ان العهود المقطوعة وعواطف المودة المقدسة كانت عراها تنفصم في تلك الاسرة العجيبة حالما يلوح لهم تدبير سياسي

ولم يقتصر نابوليون في احاديثه على شؤون أسرته بل كان يتطرق الى الكلام عن عشقه وغرامه وقال انه كان له سبع عشيقات في حياته وان هذا العدد

كبيروكان يتكلم بخفة عن عقيلة فالفسكا وقد كان حين اشتد هيامه فيه بها مع اعتقاده بأن البولونيات شديدات الميل الى دس الدسائس وقال ان تاليران سهل له السبيل الى الوصول اليها . وقال ذات يوم لغورغو انه لما كان ناقما عليه اراد قبل سفره الى جزيرة القديسة هيلانة ان يزوجه بها ولـكنه لا يفعل ذلك الآن لان عواطفه نحوه تغيرت

وقدسر باقترانها بالمسيو دورنانو وقال : « انها غنية ولا بد من ان تكون قد ادخرت واني سخوت بالعطاء على ولدها » فقال غورغو : « بقيت جلالتك مدة طويلة تجري عليها رزقا شهريا قدره عشرة آلاف فرنك » فاحمر الامبراطور وقال له : « وكيف عرفت ذلك » فقال غورغو : « لم اكن بعيدا عن جلالتك وكان أهل البلاط جميعهم يعرفون ذلك »

وقال نابوليون ذات يوم ان من البواعث على سخطه على مورات هو ان الملك يواكيم حجز في سنة ١٨١٤ اموال عقيلة فالفسكا في مملكة نابولي

وتكلم بصراحة عن علاقته بالآنسة جورج وعقيلة غراسيني وعقيلة دوشاتل وعقيلة فاليانو وعقيلة بلابرا ولمح غورغو الى امرأة اخرى من دون ان يذكر اسمها وهي عقيلة فوراس وقد قال عنها نابوليون « كانت في السابعة عشرة من عمرها وكنت قائداً اكبر للجيش » ووقت ما كان جالساً على العرش ظن الناس انه عرض عن معاشرة النساء وكان الامر كذلك وقـد علل هو ذلك بقوله انه من طابعه شديد الشعور وقد خشي من تسلط النساء عليه وتأثيرهن فيه ولذلك تحاشى عشرتهن ولـكنه جاهر فيما بعد بأنه اخطأ من هذا القبيل وقال : « اذا عدت الى العرش فسأخصص ساعتين في كل يوم لمحادثتهن وساتعلم أشيـاء جمة منهن . » وحاول في الايام المئة أن يصلح ماارتكبه من الخطأ بعـدم الاكتراث لهن في الماضي وكيفما كان موقفه في فرنسا تجاههن فانه افاض في الكلام في هذا الموضوع في جزيرة القديسة هيلانة فحينما كان الحديث يجره الى ذكريات مؤلمة كان يقول « دعونا من هـذا ولنتحدث الآن عن النساء . » وحدث مرة وهم على المائدة لتناول الغداء ان الجدال احتدم بينهم لمعرفة اي النساء اجمل السمينات ام الرقيقات وكان يدلي بالبراهين ليؤيد رأيه في تفضيل المرأة الشقراء على المرأة السمراء وكان يقول لابد من قتل الوقت

وكان من الطبيعي ان يفضل الكلام عن معاركه على جميع الموضوعات ولم تكن تلك المعارك تقل عن ستين فكان يتكلم عنها بصراحة تامة ويقول : «الحرب فن قائم بنفسه واؤكد لكم اني اضرمت نار ستين معركة ومع ذلك لم اعرف عنها اكثر مما عرفته عن اول معركة وكان قيصر يحارب في آخر معركة كما كان يحارب في اول معركة من معاركه »

واخذ على عاتقه تبعة معركة روسيا فقال : « كنت صاحب السلطة وعلي وقع الخطأ (ولم يشأ ان يعترف بمثل هـذا الاعتراف بعد معركة واترلو) ولما عرفت وانا في درسد ان اسوج وتركيا لاتجاهران بمناصرتي كان يجب علي إلا اظل ماضيا في حملتي . . . أجل اني مع كل ذلك ظفرت بالروس في موسكو ... وقد ارتكبت خطأ كبيراً باطالة مكثي في تلك المدينة ولولا ذلك لكلل مشروعي بالنجاح وكان ينبغي لي ألا اقيم فيها سوى خمسة عشر يوماً وان اقضي بعد دخولها على فلول جيش كوتوزوف والذهاب الى مالوجاروسلافتز والزحف الى تولا وكالوغا والاقتراح على الروس اذا اجلو عن بلادهم من دون ان أدمر فيها شيئا » ولم يكن يني عن القول : « ان زواجي بالارشيدوقة بعثني على محاربة روسيا . »والحق يقال انه توهم انه يستطيع الاعتماد على النمسا وقال أيضا : « ان بروسيا تطمع بتوسيع نطاقها » ولذلك ظن ان تينك الدولتين تشايعانه على التنكيل بروسيا وانه يستغني بهما عن سواهما وقال بعد ذلك :«لقد تسرعت فكان يقضي علي بان اقضي سنة على ضفاف النيمن وفي بروسيا لكي يتسنى لي القضاء عليها» ومما لا بد من الاشارة اليه هو انه كان يبغض بروسيا بغضاً شديداً فكأن حدسه كان ينبئه بما تدبره له بروسيا من المعاطب .

وقال مرة أخرى : « كان اكبر خطأ ارتكبته في تلست فقد كنت استطيع خلع ملك بروسيا عن العرش ولكنني ترددت في ذلك حينا من الزمان وانا موقن ان الاسكندر لم يكن ليقيم النكير علي ذلك بشرط ألا استولي على مملكة بروسيا وجاءني امير شاب من اسرة هوهنزولرن كان في جملة الضباط في اركان حرب برتيه وطلب مني ان اجلسه على عرش بروسيا ولو كان متحدرا من فريدريك لبادرت الى اجابة سؤله ولكن الفرع الذي كان ينتمي اليه كان قد انفصل من نحو ثلاث مئة سنة عن الارومة وصدقت ما كان ملك بروسيا يعالنني به من تأكيد ولائه لي»

واعترف بانه ارتكب خطأ مشؤوما بعد تقهقره في روسيا بعدم ارجاعه اسبانيا الى فردينان ولو فعل ذلك لكان جيشه قد زاد مئة وثمانين الفا وذلك من الجنود الذين يخلون اسبانيا وكان تهوره في اسبانيا قد ابتدأ حينما اشتد الخلاف بين ملك اسبانيا ونجله وحينما قال هو : « لنطردهما فلا يبقى البوربون على العرش » وكانه نسي بوربون نابولي .

ويزعم نابوليون ان النمسا كانت سبب سقوطه وقد قال: « لولا معركة اسلنغ لقوضت اركان امبراطورية النمسا ولكنني خسرت خسارة كبيرة في اسلنغ ولذلك عدلت عن ذلك الامر فالنمسا عدوة فرنسا الحقيقية . » وقد ندم على ابقائه عليها وخطر له مرة ان يثير فيها الثورة من ربضتها وفكر مرة أخرى في تقسيمها الى الى ثلاث ممالك : النمسا والمجر وبوهيميا .

واي معركة يعدها اعظم معاركه . هل هي استرلتز . فجوابه على ذلك :« ربما كانت كذلك » ولكنه يميل الى تفضيل معركة بورودينو على جميع معاركه فقد كانت معركة عظيمة بعيدة عن أرض الوطن وقال عن معركة استرلتز : « ان الجيش الذي توليت قيادته فيها كان أقوى جيش سقته الى ساحة القتال . ومن ذلك الحين صارت جيوشي تفقد شيئا فشيئا مما امتازت به من المزايا الحربية . » وكان جيشه في معركة وغرام اكثر عددا من الجيوش التي حارب بها وكان ينوه دائما بالخطة الحربية التي رسمها في معركة اكهل ويباهي بها قائلا : « ان الخطة التي رسمتها فيها كانت أحسن خطة رسمتها فاني قاتلت بخمسين الف مقاتل مئة وعشرين الفا وانتصرت عليهم . » ولو غاص في لجة الكرى في الليلة السابقة للمعركة لما استطاع قهر اعدائه فيها وقد قال في سياق الكلام عنها : « ايقظت لان برفسه برجلي لانه كان مستغرقا في النوم . » فلا ينبغي لقائد الجيش ان ينام في الليل لان الليل وقت عمله ولذلك كان يركب مركبة في النهار لئلا يلم به التعب على غير جدوى وقد انكسر يوسف في معركة فيتوريا لان النعاس استهواه .

وكان نابوليون يقول : « ليس القائد الكبير رجلا عاديا ولم اعرف من قواد الثورة من يستطيع التفوق سوى ديزه وهوش وكانت المعركة التي اذكى دموريه سعيرها في شمبانيا من أشد المعارك هولا وصعوبة وكان دموريه الرجل الوحيد المشهور في القتال بين الرجال الذين تحدروا من

الاعيان . » وابدى نابوليون ملاحظة غريبة عن كليبر فقال عنه : « انه كان محرزا لمعايب الرجال الطوال النجاد ومزاياهم العالية . » وقال عن تورين :« هو اعظم قائد فرنسوي وكان يزداد جرأة واقداما كلما تقدم في السن وذلك خلافا للمألوف بين الناس ... وقد فعل ما كنت افعله لو كنت في موقفه ... وهو رجل لو كان معي في وغرام لادرك في الحال مرمى الخطة التي رسمتها وكان كنده يدركها ايضا اما قيصر وحنيبعل فلا ... ولو وفقت برجل كتورين يعينني في معاركي لملكت العالم ولكن لم يكن معي أحد وحيث لم أكن كان قوادي ينهزمون . ان كنده قائد بطبيعته وتورين قائد بخبرته و اعتبره قائدا يفضل فريدريك البروسي ولو كان في موقفه لفاقه في اعماله ولما ارتكب ما ارتكبه فريدريك من الهفوات فان ذلك الملك مع كونه رجلا عظيما لم يدرك حقيقة منافع المدفعية »

وقال في حديث له : « كنت في المعارك التي انتصر بها انسب لنفسي نصف الفضل وابقي النصف الآخر للقواد الذين يمتازون فيها بابلائهم البلاء الحسن والحق يقال ان الجيش هو الذي ينتصر . » وكان ينصف القواد بقوله :«الجيش المتوافرة فيه شروط التنظيم هو الذي يعرف كل قائد فيه ما يجب عليه ان يعمله طبقا لمقتضيات الاحوال فافضل جيش هو الذي يقرب اكثر من غيره من هذا الغرض الاسمى . »

أما رأيه في قواد جيوش اعدائه فقد كان محتفظا به في ابان حروبه معهم . وقال أحد رفاقه المقربين اليه في عهد حروبه ان نابوليون كان يعد الفيزي افضل قائد ناهضه في ايطاليا ولذلك لم يذكر اسمه في نشراته الرسمية بيد انه كان يكيل المديح جزافا لبوليو وورمسر والارشيدوق شارل الذين لم يكن يرهب جانبهم . والراجح انه صار فيما بعد يرى غير هذا الرأي من جهة الارشيدوق . وابى فيما بعد أن يبوح لواردن برأيه في دوق ولنتن . ولم يكن من وجه ـ وهو في جزيرة القديسة هيلانة ـ لاظهار رأيه فيه من دون ميل مع الهوى ولكنه لما كان جالسا على العرش قرن اسم ولنتن الى اسمه بشكل غريب لما اكتسح ولنتن بلاد البرتغال في اثناء تقهقره الى ليشبونة فقال : «لا يعمل مثل هذا العمل إلا ولنتن وانا . » ثم عقب على ذلك بقوله « : ان اكتساح اقليم البلاتينا اعظم عمل اضطلع به لوفوى . »

وكان يأسف على جزيرة البا فقال بكآبة : كنت من سنة في جزيرة البا ... وكان مستطاعاً لي ان أرتع في بحبوحة الرغد والهناء في تلك الجزيرة مع ما كان معي من المال الوافر ومع ما كانوا يظهرونه لي من مجالي الاكرام ومع مقامي بين ظهراني علماء اوربا وتأليفي منهم نواة لا يستهان بها ... وكان ميسوراً لي أن اشيد صرحا شاهقاً استقبل فيه على الرحب والسعة جميع الذين يزورونني.» وكان يتسنى له ايضا ان يفتح ثغور الجزيرة في وجه التجارة . وكان لوسيان — وقد كان يجهل حقيقة شقيقه — يبتغي ان يمنحوه استخراج المعادن من الجزيرة مجانا

وقال برتران لغورغو أن جزيرة القديسة هيلانة افضل من جزيرة البا لانهم كانوا في هذه الاخيرة يلقون ضروبا شتى من نكد العيش . وما من احد يمتري في أنه من اكبر نكبات الدهر ان ينحدر الانسان عن اعظم عرش في الدنيا لينزوي في جزيرة صغيرة من دون أن يتحقق انهم يكرمون وفادته فيها ولذلك كانوا يشعرون بانهيار صرح عزائمهم في خلال الاشهر الاربعة الاولى في ابان اقامتهم فيها . اما في جزيرة القديسة هيلانة فلا يشعرون شعوراً شديداً بذلك السقوط لانهم ألفوه . وكان نابوليون يبدي آراء متناقضة من هذا القبيل فكان تارة يتأسف على جزيرة البا وتارة يلعن جزيرة القديسة هيلانة ولكنه أخذ ذات يوم يمتدح منها من جهة راحة حاشيته فيها وبما قاله عنها : « نعيش فيها عيشة راضية فنستطيع ركوب الخيل فيها وقد توفرت لنا الوان الطعام والشراب على المائدة ونستطيع التجويل فيها ايان وانى شئنا وهم يكرموننا ويجلون مقامنا.» هذا الكلام رواه غورغو عن نابوليون .

وكان الامبراطور يسهب في الكلام بالتفصيل حينما يتكلم عن جزيرة البا ، فانه لما فصل عن فنتنبلو في سنة ١٨١٤ لم يكن له كبير مطمع في العودة الى فرنسا . واول فرصة سنحت له واعادت اليه شيئا من ذاهب آماله كانت لما انتهى اليه انهم دعوا نساء الاعيان الى المأدبة التي ادبت في دار البلدية .

ومن الموضوعات التي كان يحب الخوض في مجال البحث فيها — وكانت طريقة البحث فيها تعرب عن دهائه العملي — موضوع نفقاته البيتية فكان يناقش الحساب عليها ويقول في بعض الاحيان : لنفرض أن لدينا ميزانية منزل

هولندي يبلغ دخله السنوي مئتي الف فرنك .:. ولـكنه كان يعني بكلامه هذا ميزانية فرنسوي لان الهولندي لا ينفق من ذلك الدخل الا ثلاثين الف فرنك .

وكان يوماً آخر يبحث في نفقة رجل ارصد لنفقته خمس مئة الف فرنك في السنة ويقول انه يؤثر على كل شيء حالة ذلك الرجل بشرط أن يعيش في الارياف ويكون له منزل صغير في باريس على مثال المنزل الذي كان له في شارع شنترين . وأكد لرفاقه انه « يستطيع أن يعيش عيشة حسنة جداً في فرنسا باثني عشر فرنكا في اليوم فيكفيه فرنك ونصف فرنك للعشاء ويمكنه انتياب المعاهـد الادبية والمـكاتب العامة وملاعب التمثيل ودفع جنيه واحد اجرة لغرفته في الشهر . » وانتبه بعـد ذلك الى حاجته الى خادم لأنه لم يكن يحسن لبس ملابسه وحده فاضاف مبلغاً آخر الى ميزانيته وقال « يستطيع الانسان ان يقضي عيشة سعيدة اذا خصص جنيها لنفقته اليومية بشرط أن يقدر على كبح جماح رغائبه بشكيمة ارادته ويتمتع بضروب الملاهي بمعاشرة اترابه ونظرائه . »

***

من مفكرات الدكتور انطومرخي

لما اضطر الدكتور اوميرا الى مغادرة جزيرة القديسة هيلانة من جراء ما كان هدصن لو يتعمده من التضييق عليه رضيت الحـكومة البريطانية بارسال طبيب الى الجزيرة يعني بصحة نابوليون ووافقت على ارسال الدكتور انطومرخي الـكورسيكي الاصل وقد طلبت والدة نابوليون وشقيقها الـكردينال فش من حكومة لندن الترخيص لذلك الطبيب بالاسراع في السفر .

واليك مااستهل به الدكتور انطومرخي مفكراته :

« تلقيت وانا في رومية تقرير الدكتور اوميرا عن مرض الامبراطور وهذه خلاصته :

« ظهرت في أواخر سبتمبر اعراض تنبىء عن خلل في وظيفة الـكبد وكان نابوليون قبل ذلك الحين يصاب بنزلات ويشكو من الصداع ونوب الرثية وقد اشتدت تلك الاعراض يوماً فيوماً وظهر انتفاخ في الساقين والقدمين واتخذت اللثة شكلا اسفنجياً مقروناً بحفر الاسنان ومصحوبا بأعراض التخمة .

اول اكتوبر سنة ١٨١٧ — اشتد الالم وارتفعت درجة الحرارة وصار الامبراطور يشعر بثقل في خاصرته اليمنى وبعسر الهضم

ولم يقف المرض من ذلك الحين بل كان يتقدم تقدما بطيئا مستمرا وكان الالم خفيفا في بدء الامر ولكنه أخذ في الازدياد حتى صرنا نخشى من حدوث نوب كبدية حادة وكان اشتداد المرض ناجما عن النزلات الشديدة المتوالية

ونخرت ثلاث اضراس من اضراسه فاعتقدت انه كان لها شأن في التهاب عضلات فيه واغشيتها وخيل الي ايضا ان النزلات ناشئة عنها فقلعتها في فترات ملائمة ومن ذلك الحين قلت النوب . ووصفت له لشفاء الحفر الذي كانت اللثة تئم عليه الا كثار من اكل البقول وتناول الحوامض فأصبت بغيتي بذلك وشفي الحفر بالوسائل التي توسلت بها

وعادت ساقاه الى حالها الطبيعية باستعمال المسهلات والتغميز على انه شعر بالم فيهما بعد حين من الزمان ولكنه كان خفيفا وكانت المسهلات والحمامات الحارة والعرق الغزير تخفف آلام الخاصرة من دون ان تزيلها تماما وازدادت في خلال شهري ابريل ومايو واصبحت غير منتظمة ونشأ عنها امساك البطن فالاسهال فاستفراغ مقدار كبير من المواد الصفراوية والمخاطية وصار يشعر بنوب مغص ورياح باطنية وفقد الشهوة للطعام واصبح يشعر بثقل وقلق وضيق صدر وشحب وجهه واصفر وصار بوله حامضا وملونا وبات يشكو من وهن الفكر والصداع ولم يبق قادرا على النوم على جنبه الايسر وصار يشعر بحرارة في خاصرته اليمنى وغثيان وقيء في بعض الاحيان تصحبه صفراء حامضة ولزجة. وكان ذلك يزداد مع اشتداد الالم وهجره النوم او كاد وصار يشعر بتعب وضعف .

وعاد الالم الى ساقيه ولكنه كان اخف مما كان عليه قبلا وعاد ايضا الصداع والقلق والاضطراب والثقل في الشراسيف والى جانب القلب من الامام وكانت الحرارة ترتفع عند دخول الليل وتلتهب البشرة وكان يشعر بعطش وألم في القلب ويسرع النبض في الحركة ثم تعود اليه السكينة ويعرق عند تباشير الصباح وكانت تلك الحالة ثابتة عند المريض . ومن خصائص العرق الغزير عنده اخماد حرارة الحمى وكان في جهة الخاصرة اليمنى خراج يشعر به من الخارج حينما يضغط عليه وكان لسانه ابيض دائما على [illegible]ريب وصار نبضه ينبض ٨٨ نبضة في الدقيقة

وكان قبل مرضه ينبض ٥٤ نبضة الى ٦٠ نبضة وصار يشكو من الالم فوق عظم الكتف ووصف له مسهلان لتحريك الكبد والبطن واعادة افراز الصفراء فشعر براحة وقتية وكان تأثير ذلك يسيرا ووقتيا في أواخر مايو وأوائل يونيو واقترح اعطاؤه الزئبق ولكنه ابي استعماله باي صورة كانت واشير عليه بركوب الخيل للتنزه وبفرك الخاصرة بشعرية كل يوم وبلبس الفلانلا وبالاستحمام بالماء السخنان وباستعمال الادوية وبترويح الخاطر وملاحظة الحمية في الطعام والشراب وتجنب التعرض للتقلبات الجوية . وكان قد أهمل أمرين خطيرين الرياضة البدنية والسلوى واستطعنا التغلب على عناده في ١١ يونيو فاقنعته باستعمال الزئبق فاخذ حبوباً زئبقية وظل يستعملها حتى ١٦ منه وكنت اعطيه تلك الحبوب في المساء والصباح واعطيه مسهلات من حين الى آخر لمقاومة الامساك وغيرت الوصفة بعد ستة أيام واستبدلت الزئبق بالكالوملِ اوالزئبق الحلو ولكن نشأ عنه ألم في القلب وقيء ومغص واضطراب عام في جسمه فعدلت عن اعطائه اياه ولكن عدت الى وصفه له في ١٩ منه فنجم عنه الاعراض نفسها فرجعت الى العلاج الزئبقي الاول واعطيته اياه ثلاث مرات في النهار ووقفت العلاج في ٢٧ منه . والمنزل الذي يقيم فيه شديد الرطوبة وكان نابوليون قد اصيب بنزلة شديدة واشتدت عليه الحمى فعاد الى استعمال العلاج نفسه في ٢ يوليو حتى ٩ منه ولكن لم يأت بالفائدة المطلوبة وكانت الغدد اللعابية على حالها وازداد الارق والتهيج وتوالت نوب الدوار وقد تألبت عليه الاحوال الجوية القاتلة في الجزيرة والجمود مدة سنتين وسوء تهوية المنزل الواطي المقيم فيه وسوء المعاملة والانفراد والاهمال وكل مايهيج ساكنات العواطف . وهل من عجب بعد ذلك اذا ألم الاضطراب بالكبد فلم تقم بوظيفتها واذا كان ثمة من وجه للعجب فهو بطء تقدم المرض وماذلك الا لصلابة نفس المريض ومتانة بنيته فانها لم تستهدف قط للافراط .

(التوقيع) باري اوميرا

جراح وطبيب الخ

ان هذا التقرير جعلني اصمم على السفر الى جزيرة القديسة هيلانة فركبت البحر في دبتفور طبقا لاوامر الوزارة البريطانية في ٩ يوليو في سفينة تجارية مشحونة دقيقا ولما وصلنا الى رأس بالم دنونا من الشاطىء فاسرعت الينا

الزوارق وجاؤونا بألوان الطعام الكثيرة وسألنا أحدهم الى أين تذهبون فقلت الى جزيرة القديسة هيلانة . ولما سمع ذلك لبث جامدا ثم قال بصوت متهدج : انتم ذاهبون الى جزيرة القديسة هيلانة ولكن هل مايقال عن وجوده فيها صحيح فسأله الربان ومن تعني بكلامك هذا فنظر اليه ذلك الافريقي نظرة احتقار ودنا منا والقى علينا السؤال نفسه فاجبناه بانه لايزال فيها . فرنا الينا وهو صامت ثم هز رأسه وقال : ان هذا من المستحيل . فصار الواحد منا يتطلع في الآخر ولم نعرف ذلك الهمجي الذي كان يتكلم بالانكليزية والفرنسوية وكان شديد الاعجاب بالامبراطور فقلنا له : وهل تعرفه . — من عهد بعيد ـ وهل ابصرته ـ في عنفوان مجده . ـ واين ابصرته ـ في القاهرة وفي الصحراء وفي ساحة القتال . ـ وهل انت مرتاب في المصاب الذي نزل به . ـ ان ذراعه قوية ولسانه عذب ولاشيء يقوى على الوقوف في وجهه . ـ وقد بقي ردحا من الدهر يتصرف بمقدرات اوربا . ـ لاتستطيع اوربا ولا العالم قهر هذا الرجل العظيم فالمماليك والباشاوات كانوا يفرون امامه وهم لايلوون على شيء فهو رب الحرب ـ . واين عرفته . ـ قلت لكم اني عرفته في مصر . ـ وهل انتظمت في سلك جيشه . ـ كنت في الفصيلة الحادية والعشرين وقضينا مدة في سمنود والقصير وغيرها من الاماكن وماذا جرى للجنرال بليار . ـ لايزال حيا يرزق وقد اشتهر باعماله الحربية في اكثر من عشرين معركة فهل تعرفه ؟ ـ كان قائدا للفصيلة الحادية والعشرين وكان يضرب في اجواز الفلاة كأنه من سكان البادية ولم يكن يصده حاجزما عن التقدم . ـ وهل تتذكر الجنرال ديزه . ـ لاينساه أحد من الذين كانوا في حملة الوجه القبلي فانه كان شجاعا وجريئا وكريما وقد خدمته مدة طويلة . ـ وهل كنت جنديا . ـ لم أكن جنديا في بدء الامر بل كنت عبدا لاحد انجال ملك دارفور فارسلوني الى مصر واساؤوا معاملتي ثم باعوني وساقني الحظ الى خدمة حاجب من حجاب ديزه العادل فالبسوني الملابس الاوربية وعهدوا الي في القيام ببعض الاعمال البيتية فنهضت بها خير نهوض وقد سر السلطان (الاسم الذي كانوا يطلقونه على الجنرال بونابرت) مني وامر بان اتقيد بخدمته وكنت ابتهج بسفك آخر قطرة من دمي في سبيل خدمته ولكن يستحيل ان يكون بونابرت في جزيرة القديسة هيلانة . ـ ان نكبته حقيقية فالخيانة والمؤامرة ....ـ ان كل

شيء كان يذل ويخضع له وكانت كلمة لطيفة منه تقيل عثارنا وتنيلنا سؤلنا ولم نكن نرهب شيئا حينما كانت طلعته تشرق علينا . — وهل حاربت تحت رايته . — جرحت في احدى المعارك فارسلت الى الوجه البحري وكنت في القاهرة لما ظهر مصطفى فتحرك الجيش وسرت معه ووصلنا الى ابي قير فما كان أشد سداد رأي بونابرت وما كان اجرأه في الهيجاء ومن المستحيل ان يظفر به أحد ولا اصدق انه في جزيرة القديسة هيلانة .

واصر على انكاره وجود نابوليون في الجزيرة فلم اشأ ان نمحو من ذهنه ذلك الوهم العزيز عنده واشترينا منه تبغا وبارودا وملابس واشياء أخرى تافهة ثم غادرنا راضيا ومسهبا في الكلام عن الفصيلة الحادية والعشرين وقواده واستحالة وجود رجل عظيم كنابوليون في جزيرة القديسة هيلانة واقلعت السفينة بنا وقاسينا اهوالا في البحر ووصلنا أخيرا الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٨ سبتمبر ولما ابصرنا الجزيرة عن بعد في وسط تلك اللجة بدت لنا صخرة صماء موحشة فناجيت النفس قائلا : على هذه الصخرة القوا الامبراطور وقد تألبت الملوك عليه للانتقام منه ونسوا مكارمه حينما كان يظفر بهم في الحروب . وكنا موشكين ان نطأ تربة تلك الجزيرة ونستنشق الهواء نفسه الذي يستنشقه الامبراطور ونشاطر سيد العالم مصيره . ولم يتركونا ننزل الى الجزيرة حين وصول السفينة اليها بل أخروا نزولنا الى غد ذلك اليوم فسألت مندوبي الحاكم عن صحة نابوليون فقالوا لي : « ان صحته جيدة جدا وهي افضل من صحتنا . »

. . . .

وبعد ما فحصوا امتعتنا وبحثوا في جيوبنا اخذونا الى مقر الحاكم هدصن لو فأحسن استقبالنا ودعانا الى الغداء على مائدته وكان يكثر من الكلام عن كورسيكا ويسألنا عن امور شتى عنها وقال انه قضى مدة في اجاكسيو . واطنب الحاكم في حسن الاحوال الجوية في جزيرة القديسة هيلانة وجودة هوائها واعتداله .

ثم اننا توجهنا الى لونود مقر الامبراطور ولما وصلنا اليه ذهبنا توا الى الجنرال برتران وهو يقوم بتصريف الامور ويكفي نابوليون مؤونة الاهتمام بها وكان جلالته قد تلقى جرائد لندن وأخذ يقرأ في جريدة « المورننغ كرونيكل » ما كتبته تلك الجريدة عني فانها اسهبت في الثناء علي بصفة كوني عالما نباتيا

مشهورا ولم تذكر كلمة ما عني كطبيب . فقام في ذهنه اني لم اكن بارعا في الطب ولذلك لم يثق بي وتنكر مني . ولما اخبروه بوصولي كان يفتكر عني بمثل ماتقدم بيانه فقال للمرشال الاكبر : « اذهب وانظر وقل لي من هو هذا الرجل الذي ارسلوه الي وتحقق قبل كل شيء عن مقدرته الطبية . »

ودعاني الجنرال برتران مع الاب فينيالي الى الغرفة المجاورة ولما جلسنا سألني عن الوقت الذي تركت فيه رومية وهل اعرف أسرة الامبراطور وكيف حال والدة جلالته والكردينال فش ولوسيان وبولين وغيرهم . وكيف اختاروني للسفر الى جزيرة القديسة هيلانة وبأي صفة قدمت اليها واين زاولت الطب وهل كان معي رسالة لنابوليون من ذويه توصية بي واي سبب حملني على ترك ايطاليا للمجيء الى تلك الجزيرة القفراء ومن رأيت في أثناء سفري من رومية الى لندن ومن الذين خالطتهم في لندن وماذا قالوا لي فيها . فجاوبته على جميع الاسئلة التي القاها علي ثم قدمني الى قرينته الكونتة فاحسنت استقبالي وسألتني بعض اسئلة عن البلدان التي مررنا بها وبعدما طرحوا اسئلة من نوع اسئلتي على الاب فينيالي دعونا الى العشاء ودلونا على الغرف التي اعدوها لنا وبينما انا اخلع ثيابي دخل علي الجنرال برتران وطلب مني ان اذهب معه الى الجنرال منطولون فانه يبغي التحدث معي فسرت معه اليه وانا لاأدري سبب تلك الحركة وقلت له : ان الانفة دون سواها حملتني على انتجاع جزيرة القديسة هيلانة ولم يكن لي مطمع الا في خدمة اعظم رجل في عصرنا ولم أدخر وسعا للقيام بتلك المهمة حالما علمت انها تتعلق بالامبراطور واني مستعد لتضحية جديدة اذا نبذت خدمتي فاعود في الحال الى اوربا . ثم عدت الى غرفتي وطار النوم من عيني ولم اشعر بشيء من التعب الذي كنت اشعر به قبلا وعرفت من الطباخ شنندليه الذي رافقنا الى الجزيرة انهم القوا عليه اسئلة كثيرة عن سفرنا والاشخاص الذين خالطناهم وماسمعناه من الاخبار وان الامبراطور دعاه اليه وسأله عما قالوه في رومية عن اختيار الطبيب والكاهنين وعن اشياء أخرى كثيرة ففهمت من ذلك ان الامبراطور كان شديد التحفظ مني ولم ادر سبب ذلك .

ولما طلع الفجر انتظرت بصبر حل تلك العقدة وجلاء الغامض فدخل علي الكونت برتران وطلب مني ان اقدم تقريرا مكتوبا بالتفصيل عن محل ولادتي

وسني واسرتي والمدة التي درست فيها وسألني عن المكان الذي زاولت فيه الطب وعن المدة التي قضيتها في مزاولته وأي فرع من الطب تخصصت له فاخبرته بالايجاز في الحال عما طلب معرفته مني واريته شهاداتي واوراقي وكتاب الكردينال ودعي الابوان فينيالي وبونافيتا الى بيان حقيقة حالها وتقديم البراهين المؤيدة ذلك .

ولم تكرم وفادتنا في لونود وكان الباعث على ذلك انه لم يكن معنا مكتوب توصية فالكردينال فش لم يتيسر له ان يكتب ذلك المكتوب من جراء وفرة اشغاله للامبراطور او للمرشال الاكبر ولم ينتبه احد من أفراد الاسرة الى سد ذلك النقص فارسلتنا الحكومة البريطانية ومعنا توصية من الوزارة فرحب بنا حاكم الجزيرة وكان ذلك كافيا لتحذر الفرنسويين منا . وبعد اخذ ورد قبلونا لاننا فرنسويون وكورسيكيون فمثلت في حضرة الامبراطور في غرفته الصغيرة ولم يكن النور الكثير يدخلها وكان في سريره فدنوت منه باحترام وخشوع ولما رآني على تلك الحال خاطبني بلطف وقال لي بالايطالية ادن مني أنت الذي من رأس كورسيكا وكان يخاطبني فيما بعد باللغة الايطالية في جميع احاديثه معي . ادن مني لكي استطيع رؤيتك وسماعك لان اذني ثقلتا على هذه الصخرة الصماء فاقتربت منه ورماني بنظرة عطف وقال : كنت قريباً من بلادك في حداثتي الاولى ونزلت الى البر قراب مورسيايا في ميناء ماسينايو وذهبت من هناك الى روليانو وقد ابصرت فيها منزلا جميلا ثم واصلت السير الى تومينو فبورتيسيولو ومن هناك شخصت الى باستيا ووجدت مشقة كبرى لوجود جواد ورجل يرافقني وقد وفقت الى ذلك اخيرا . وكان الجواد عاري الاشاجع كانه هيكل عظام ولكنه كان متعودا السير في تلك الطرق الوعرة ووصلت الى باستيا وقد سررت من دليلي وسر هو ايضا مني .

ولكن حسبنا ما تكلمناه عن تلك البلاد التي لا مطمع لي برؤيتها مرة أخرى فقل لي الآن كم من الزمان انقضى عليك بعد ذهابك الى كورسيكا للمرة الاخيرة . ــ سنتان ياصاحب الجلالة . ــ كم لك من العمر . ــ نحو ثلاثين سنة . ــ وكم لوالدك من العمر . ــ نحو سبعين سنة . ــ تقول انه كاتب عدل ولكن هل

يحذو حذو زملائه في تزوير الصكوك في بعض الاحيان . ـ ان والدي محترم عند وطنييه وقد احرز ثقة الجميع . ـ بناء عليه لاسبيل الى الشكوى منـه وهل تذكر فتحي لايطاليا في المرة الاولى . ـ احفظ لذلك ذكرى مهمة . ـ كان الجميع متحمسين وكانوا يهتفون هتافا يطبق الفضاء ويزدحمون محتشدين في الاماكن التي أمر بها ويكرموني اكرامهم لمعبودهم . وظلوا مقيمين على عهد الامانة والاخلاص لي وانت لاتستطيع تذكر ذلك لانك كنت حدثا في ذلك الحين وبعد عودتي من مصر نزلت في اجاكسيو ثم في فريجوس وكانوا يبالغون في تكريمي واكرام وفادتي . ـ اذكر يامولاي ظهورك غير المنتظر وقد غير وجه اوربا وكنت اسمع باعجاب ما كانوا يروونه عن اعمال الجنرال بونابرت الخطيرة وكان الناس يشربون نخبك ياصاحب الجلالة ويتمنون لك التوفيق . ـ وكم كان لك من العمر لما فصلت عن كورسيكا . ـ نحو خمس عشرة سنة . ـ في ليفورنو كثيرون من وطنييك الاغنياء . ـ نعم يامولاي وقد اصبح كثيرون منهم معدودين من الاعيان وهم يلقون رعاية لدى الغرندوق . ـ وهـل درست في بيزا . ـ ابتدأت بدروسي في ليفورنو واكملتها في بيزا وفلورنسة ثم اتخذت فلورنسة محلا لاقامتي ولبثت فيها ازاول التطبيب حتى سافرت الى هنا ـ وهل كان أهل تسكانيا يحبون الغرندوقة اليزا . ـ كانوا يحبونها ويخافون منها في وقت واحد . ـ وهل كانت تعمل شيئا لاستمالة رعيتها اليها . ـ كانت تعزز الفنون وتظلل العلوم بكنفها وتتولى الحـكم لخدمة مصلحة الجميع . ـ انها انشأت في لوك معاهد فخمة ومفيدة واظن انها غنية . اولا تظن ان التسكانيين سروا برؤية حاكمهم السابق . . .

ثم قال له نابوليون : ما هو الباعث على قبولك المجيء الي لمشاطرتي المنفى ـ اؤكد لجلالتك اني لا اطمع بالذهب ولا بجر مغنم ما ولم أساوم في الشروط لمجيئي فقد اقترحوا علي أن أقدم عليك وحسبي ذلك فخرا ومجدا وليس لي مطمع في سوى ذلك . ـ ولمـاذا لم تقرر مرتبا بالاتفاق مع اسرتي قبل تلبية دعوة صديقك كولونا . ـ ليس في المنافع المادية مايعادل التضحية ولم يحملني على تقرير القدوم عليك الا حب المجد وحده . ـ المجد حسن ولـكن لو كانوا قد اجبروك على الرجوع من حيث اتيت فماذا كنت تصنع وماذا كان مصيرك . ـ

إن الاستقبال الذي استقبلوني به كسف بالي ومما زادني الما هو الارتياب في — انت كورسيكي وهذا الامر شفع فيك ولا بد من أن يكون الغرندوق مسرورا من رؤيته أحد رجاله يأتيني بمعونته الطبية على هـذه الصخرة الصماء . — اظن ذلك ياحضرة صاحب الجلالة فقد كنت شديد العطف عليه. — عرفته معرفة حقيقية وكانت ماري لويز تحبه وكان مفتونا بمحاسن ملـكة نابولي وكنت أعده أميرا كريم الاخلاق. وهل اطلت اقامتك في رومية . — نحو شهرين . — لقد سنحت لك الفرصة لزيارة أهم معاهدها ويسؤني ألا اكون قد شاهدتها وقد صممت على اعادة عظمتها القديمة اليها وجعلها عاصمة ايطاليا ولكن الاقدار لم تشأ ذلك ... ويقيم الآن فيها فريق من أسرتي فالبابا شيخ جليل وقد رعيت حرمة مقامه السامي في كل حين . . . والآن . . . . كلمني بصراحة وقل لي ما تعرفه عن أسرتي وابتديء بالسيدة الوالدة لاتيسيا . — لم تقو النكبات على هدم صرح عزيمتها فهي تناهض الخطوب بما أوتيته من الشجاعة وهي راموز الاذعان وعلو الهمة . — وهل تستقبل الناس وهل تخالط الناس في الهيئة الاجتماعية وما هو نوع معيشتها . — اعتزلت معاشر الناس ولا تستقبل إلا أفرادا تمنحهم من ذات نفسها واولادها الذين في رومية يلتفون حولها ولـكن جميع افـكارها وأمانيها موجهة الى جزيرة القديسة هيلانة وهي تنتظر كلمة واحدة لتركب البحر غير مبالية باللجة لتضمك الى صدرها . — لقد كانت امرأة فاضلة في جميع أدوار حياتها واما فاقدة النظير واحبتني في كل حين أو لم تغادرها في حالة أسى شديد . — كانت في بدء الامر تحاول اخفاء تأثرها ولـكنها مالبثت أن ثابت الى نفسها وأبدت شجاعة أدبية تفوق طوق الانسان — انا متحقق أنها لاتحجم عن اقتحام المخاطر التي اقتحمتها ولـكن هل تخالط الناس . — تزور في بعض الاحيان أولادها ونيافة الـكردينال . — وهل يشاهدها الـكردينال كثيرا . — عدة مرات في اليوم . — وأولادها . — كل يوم على التقريب . — وبولين . — أقل منهم لان توعك صحتها يحول دون ذلك . — ومارأيك في مرضها . — لا أعرف حقيقته . — وهل تعرف جميع أفراد أسرتي المقيمين في رومية فـكيف خالهم وماذا يقولون عني . — جميع افـكارهم متجهة الى جزيرة القديسة هيلانة ولامطمع لهم الا في خلاصك من الاسر . — قل لي بالتدقيق كل ماقاله لك كل منهم بان تبلغنيه فماذا قالت

لك والدتي . — هي واولادها يقفون جميع أموالهم في سبيل خلاصك وراحتك وعند أول اشارة تتعري من كل شيء ولو اضطرت الى المعيشة في الشقاء والفقر المدقع . — وماذا قال البرنس دي كانينو . — قال أنه اتفق مع يوسف على أن يأتي كل منهما في نوبته لقضاء ثلاث سنوات عند جلالتك اذا لم ترفض ذلك. —وماذا قالت بولين . — قالت انها تنتظر أوامرك لتسرع في المجيء الى جلالتك . — سننظر في ذلك . ثم ابتسم وقال بعد ماصمت هنيهة : لا أطيق أبدا أن يأتي أحد من أفراد أسرتي الى هـذه الجزيرة ويتجرع كؤوس الاهانة من الانـكليز ولا أريد أن يشهد أحد منهم ذلك حسبي أن أتجرعها وحدي . ثم انتقل الى موضوع آخر وقال : أو لاتزال السيدة لاتيسيا متمتعة بنضارتها . — انها لاتزال على ما كانت عليه من حسن الصحة . — أو لاتزال بولين فتنة للناظرين . — لاتزال كما تعهدها . — أنها لم تعن بغير التأنق في ملابسها وارتشاف كؤوس الملاذ والمسرات وهل يجتمع لويس بلوسيان . — انهما يجتمعان مرات كثيرة عند السيدة الوالدة . —وهل يستقبلان الناس في بيتهما . — ان البرنس دي كانينو يستقبل بعض الـكبراء الذين يركن اليهم أما لويس فيعيش في عزلة . — أو هل تظن انه يقضي وقته في التعبد لله . — كذا يقولون ويزعم بعضهم أنه شديد التعبد . فضحك الامبراطور وقال : وماذا تعرف عن صحته . — انها في حالة يرثى لها ولم يبق للادوية من تأثير فيه . — ما كان أجمل شبيبته لما أخذته معي في حماتي الاولى على ايطاليا ولـكن خجله كان وخيم المغبة عليه ومن نـكد طالعه اني لم أقف على ذلك في الحين الملائم ولو اطلعت على حقيقة حاله لـكان الآن سليم الجسم ولاضطلع بما اسند اليه من المهام خير اضطلاع ولما قضى عليه السقم بنبذ المجد والفخار ولـكان شاطرنا عظمتنا . وكم للبرنس كانينو من الاولاد . فقلت لم أر عنده إلا بنات . — ومن رأيت لما كنت في رومية . فسميت له الاشخاص الذين كنت اجتمع بهم . وقال : أو لايزال الـكردينال من هواة التحف الفنية وهل يعنى دائما بالصور . — يأتونه بمركبات مشحونة صورا في كل يوم فيفحصها في مكتبه ويشتري منها مايروقه ويرجع مالايروقه منها وهو ينفق على شرائها مبالغ طائلة من المال . — متى غادرت رومية . — في ٢٥ فبراير . —وهل دفعت لك السيدة لاتيسيا مبلغا كبيرا من المال . — مئتي ذهب وتحويلا بأثني عشر الف فرنك على

مدير مصرف في لندن لها عنده نقود . ـ اظن انها اغنى فرد في الاسرة وقد كنت الومها على الاقتصاد في نفقاتها وهل شاهدت ماري لويز عند مرورك بيارم .ـ كانت غائبة عنها وكان الامر قد صدر لي بألا ادع احداً يدري حقيقة مهمتي .ـ هل عرفت ان لها صلة بوالدتي او بغيرها من اسرتي . ـ كتبت السيدة الوالدة لها مرتين من دون ان تتلقى جواباً منها .ـ اظن أنهم لا يرخصون لها بالكتابة اليها ومن هم الذين لقيتهم في اثناء سفرك .

فذكرت له اسماءهم واخبرته بكل ماقالوه لي ثم انه قال لي: وهل رأيت الاميرة جوليا في فرانكفور . ـ استقبلتني بما امتازت به من مكارم الاخلاق .ـ وكيف حال كريمتيها . — انهما كبرتا وبدتا للانظار فتاتي المحاسن وناضرتين كأنهما وردتان . — اظن ان احداهما ستقترن باحد انجال لوسيان او لم تسمع شيئاً عن ذلك .ـ القت علي الاميرة طائفة من الاسئلة عن البكر فشعرت بانها ميالة اليه . ـ ان قرانهما يسرني ولكن هل اكرموا مثواك ـ نعم ياصاحب الجلالة . — انها ارق امرأة عرفتها ولها قلب كريم يندر أن يكون لغيرها مثله . وهل ابصرت لاس كاس . ـ نعم ياصاحب الجلالة . ـ وكيف حاله . ـ انه مصاب بعلة ناهكة .ـ وهل رأيت نجله عمانوئيل . ـ كان في ستر اسبورغ ـ اظن ان الابوين رفيقيك قالا لي انكم لم تلقوا ادنى مشقة في سفركم من رومية الى لندن . ـ كان سفرنا ميسراً ياصاحب الجلالة . ـ متى وصلتم الى لندن .ـ في ١٩ ابريل .ـ وكم من الوقت قضيتم فيها .ـ فصلنا عنها في ٩ يوليو . ـ من هم الذين خالطتهم اكثر من غيرهم . ـ الاطباء ورجال الفن ولا سيما الذين زاولوا التطبيب فى البلدان الحارة.ـ ومتى مثلتم في حضرة اللورد باترست . ـ في غد اليوم الذي وصلنا فيه .ـ وماهي الاسئلة التي القاها عليك . ـ سألنا عن رومية وعن الكردينال والسيدة الوالدة والبرنس دي كانينو وسألنا هل يعتقدون انك مريض. ـ وماذا اجبته .ـ انهم لايشكون في ذلك وان تقارير اوميراوستوكو لاتبقي لهم مجالا للريب . ـ وماذا قال لك بعد ذلك.ـ قال ان تلك التقارير غير صحيحة وانه تلقى اخباراً رسمية فحواها انك متمتع بصحة تامة واننا نستطيع ان نكتب الى رومية ونخبرهم بذلك . ـ وكم مرة اجتمعت به . ـ ثلاث مرات أو اربع مرات. ـ وهل قابلت اللورد هولند ٠ ـ اعطاني البرنس دي كانينو كتابا الى سعادته يوصيه بي

.ـ وهل اكرم وفادتك وهل رحبت بك اللادي هولند .ـ لم تدخر شيئا من اللطف في استقبالي . ـ وهل يقيم اللورد هولند في لندن أو في الارياف . ـ يقيم في مكان يبعد عن العاصمة .ـ أو لم تشاهد اوميرا مرات كثيرة . ـ كنت اجتمع به في كل يوم .ـ وماذا قال لك عني وعن مرضي .

فسردت له بالايجاز ماتضمنه تقرير الدكتور اوميرا فقال لي : وهل هو مسرور مني . ـ انه مسرور جدا منك ياصاحب الجلالة ـ اخبرني بالتفصيل عما شاهدته في لندن وعما كنت تعمله في ابان اقامتك فيها.

فقصصت عليه كل ما كان يبتغي معرفته ثم عاد الى القاء الاسئلة علي فقال ان لندن مدينة كبيرة فكيف وجدتها . ـ انها واسعة وكثيرة السكان . ـ وهل ذهبت الى باريس . ـ لم اشاهد فرنسا قط . ـ والآن اذهب لرؤية الجنرال منطولون وادع الطبيب الذي يطببه وباحثه في الامراض التي تصيب الناس في هذه الجزيرة فلابد لك من استشارة الذين درسوها .

ودعاني الامبراطور اليه بعد ساعات وكان في الردهة ولم يكن فيها سوى شمعة ضئيلة تنيرها فطرح علي عدة اسئلة لها صلة بالموضوعات التي دارت عليها رحى الحديث بيننا قبلا ثم أخذ يتكلم في علم التشريح والفيزيولوجيا وظاهرات الجنس وكان يبحث فيها بحثا يدل على معارف دقيقة فيها وعلى سداد رأي واصابة نظر واطلاع على الحالة التي صار اليها العلم في ذلك العهد وقد جعلني اقدم امتحانا بشكل حديث دار بيننا من دون أن يظهر انه يفعل ذلك عمدا وامتدت اسباب الحديث بيننا نحوا من ساعة في تلك الموضوعات العلمية واسعدني الحظ بان اجاوبه اجوبة مرضية فصرفني بعد ماجاملني في الحديث مجاملة حسنة بكلام رقيق عذب وكان الكونت برتران حاضرا المقابلة .

ودخلت على الامبراطور في ٢٣ منه فوجدته مستلقيا على سريره وكانت الغرفة منارة جيدا فاستطعت هذه المرة أن ابصر تأثير الداء فيه وبينما انا افحصه والاحظ الاعراض فيه كان يوالي القاء الاسئلة علي في موضوعات شتى فقال لي : ماذا ترى ياحضرة الدكتور هل أظل وقتا طويلا سببا لتخمة الملوك .ـ ستعيش بعدهم يامولاي .ـ أظن ذلك فانهم لايمكنهم أن يبعدوا عن اوربا اخبار

انتصاراتنا فستجتاز العصور وتحدث عن الغالبين والمغلوبين وعن كرام القوم ولئامهم وستبرز الاجيال الآتية احكامها لكنني لا اخشاها . — ان هذه الحياة ملك لك ... ولكنك لم تنته بعد الى غايتها فلديك مجال واسع تجري فيه . — كلا ياحضرة الدكتور ان البريطانيين قضوا لبانتهم مني ولااستطيع ان اعيش عمرا طويلا في هذا الاقليم الوبيل الهواء . — ان بنيتك القوية تقوى على جميع المحن — ولكنها لاتقوى على قوة النفس التي جادت بها علي الطبيعة فالانتقال من حياة نشيطة الى حياة الخمول التام قضت على كل شيء في فقد فقدت عزمي ووهنت قواي .

فلم احاول ان اقنعه بخلاف ما كان يرتئي فغيرت مجرى الحديث فاخبرني عن نوع معيشته وقال لي : في اثناء حروبنا في ايطاليا كنت اضع ورائي على السرج خمراً وخبزا ودجاجة مقلية وكان ذلك يكفيني سحابة نهاري وكثيرا ما كنت ادعو رفاقي الى مشاطرتي طعامي وشرابي ... ثم اني اسرع في الاكل فلا اضيع الوقت على المائدة وانا مصاب بالتهاب مزمن في الكبد وهو مرض البلدان الحارة ولا بد لي من تحمل عواقبه الوخيمة ومن التكفير على هذه الصخرة الصماء عن المجد الذي جللت فرنسا به والضربات التي ضربت بريطانيا العظمى بها وأنت قد ابصرت بعينيك طرق معاملتهم لي ...

. . . .

ونظم نابوليون وصيته واضاف اليها الذيل الآتي نصه :—

«١ — ارغب بان يثوي رفاتي على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسوي الذي احببته كثيرا

٢ — اترك للكونت برتران والكونت منطولون ومرشان المال والجواهر والآنية الفضية والخزفية والرياش والكتب والسلاح وبالاجمال كل ما لي في جزيرة القديسة هيلانة .

وهذا الذيل كتبته كله بيدي ووقعته وبصمته بشعاري .

نابوليون»

ولما توفي نابوليون اطلع الذين عينهم لتنفيذ وصيته حاكم الجزيرة عليها فانكرها عليهم وقال انه لايسلم البتة بنقل الجثة وانه يجب ان تدفن في الجزيرة

وبعد الثتيا والتي لم يتمكنوا من اقناعه بتركهم ينقلون الجثة الى فرنسا فلم يروا بدا من الاذعان .

وطلبت ان يأتوني بجبس لكي اصنع به قالبا لاخذ صورة الامبراطور فلم يجدوا جبسا ولكن الدكتور برتون هداهم الى مكان فيه معدن من الجبس فجاؤوا به وصنعت منه القالب الذي اردت صنعه وبعد ما اخذت به صورة وجه الميت اشرت تشريح الجثة .

وحضر التشريح الجنرال برتران والجنرال منطولون ومرشان منفذا وصية العاهل وحضر ايضا السر توماس ريد وضباط من هيئة اركان الحرب وثمانية اطباء .

وكان الامبراطور قد اوصى بشعر رأسه لاعضاء اسرته واليك ملاحظاتي على الجثة :

١ — هزل الامبراطور هزالا شديداً بعد وصولي الى جزيرة القديسة هيلانة واصبح يزن ربع ما كان عليه قبلا

٢ — كان الاصفرار قد علا وجهه وجسمه من دون ان يغير شكلهما ومن دون ان يجعلهما بشكل جثث الموتى وبقيت طلعته جميلة وكانت عيناه مطبقتين فكانه لم يمت بل كأنه مستغرق في النوم وكان على ثغره شيء من الابتسامة وقد انقبضت الجهة اليسرى كانه يضحك ضحك التهكم

٣ — كان اثر كي على ذراعه اليسرى وعدة ندوب منها ندب في رأسه وثلاثة في ساقه اليسرى وواحد في كعبه للجهة الوحشية وآخر على طرف بنصر اليد اليسرى وكثير غيرها على الفخذ اليسرى

٤ — كان مجموع الطول من ام رأسه الى اخمص قدميه خمس اقدام وبوصتين واربعة خطوط

٥ — وكانت المسافة من طرف الاصبع الوسطى في احدي يديه الى طرف الاصبع الوسطى في اليد الثانية خمس اقدام وبوصتين

٦ — وكانت المسافة من غظم العانة الى قمة الرأس قدمين وسبع بوصات واربعة خطوط

٧ — ومن العانة الى العقب قدمين وسبع بوصات

٨ — ومن قمة الرأس الى الذقن سبع بوصات وستة خطوط

٩ — وكان محيط الرأس عشرين بوصة وعشرة خطوط وكانت الجبهة مرتفعة والصدغان هابطين قليلا وجهة اليأفوخ قوية ومنبسطة

١٠ — وكان شعره خفيفاً ذا لون كستنائي فاتح

١١ — والرقبة قصيرة قليلا بيد انها عادية .

١٢ — والصدر واسعا حسن التركيب

١٣ — والبطن منتفخا وكبير الحجم

١٤ — ويداه وقدماه صغيرة قليلا ولكنها جميلة حسنة التركيب

١٥ — والاعضاء ممتدة ومشتدة

١٦ — وكانت جميع اجزاء الجسم الاخرى على التقريب متناسبة تناسباً عادياً واليك اظهر علامات رأيتها في جمجمته .

١ — عضو الكتمان

٢ — عضو الفتوح

٣ — عضو العطف والجودة

٤ — عضو التصور

٥ — عضو المطامع وحب المجد

ووجدت العلامات التالية من جهة القوى العقلية :

١ — عضو الذاتية أو الفردية أو معرفة الافراد والاشياء

٢ — عضو وضع الشيء في محله والعلاقات بين الجنسين

٣ — عضو التدقيق في الحساب

٤ — عضو التشبيه

٥ — عضو السببية وروح الاستدلال والرأس الفلسفي

وكان قد انقضى عشرون ساعة وثلاثون دقيقة على مفارقة الروح للجسد فأخذت في التشريح مبتدئا بفتح الصدر واليك أهم ماوجدته :

كان الجانب الاكبر من غضاريف الخاصرتين متحجرا كالعظام

وكان في الكيس المؤلف من البليورا الى جهة الخاصرة اليسرى نحو ملء قدح من ماء بلون عصير الليمون

وكانت طبقة خفيفة من الليمفا القابل التجمد تغطي جانبا من وجه البليورا الجنبية والرئوية المقابلة للجهة نفسها

وكانت الرئة اليسرى مضغوطة بالانصباب وتجمع الاخلاط وقد التصقت باربطة كثيرة بالاجزاء الخلفية والجنبية من الصدر والتامور فشرحتها بعناية وتدقيق فوجدت في القسم الاعلى منها درنا وحفرا تدرنية صغيرة

وكانت طبقة خفيفة من الليمفا القابل التجمد تغطي جانبا من وجه البليورا الجنبية والرئوية المقابلة للجهة نفسها .

وكان كيس البليورا الجنبية الى جهة الخاصرة اليمنى يحتوي على نحو قدحين من ماء بلون عصير الليمون .

وكانت الرئة اليمنى مضغوطة بالانصباب وتجمع الاخلاط ولكن نسيجها كان في حالة عادية وكانتا تقرقعان ولونهما طبيعي وكان الغشاء المخاطي في قصبة الحنجرة والشعب الرئوية شديد الاحمرار وقد لصق به مقدار كبير من البلغم الكثيف اللزج

وكانت عدة غدد في الشعب الرئوية والحجاب المنصف قد تضخمت قليلا وكاد الفساد يعبث بها وتكون فيها الصديد .

وكان التامور عاديا وفيه نحو أوقية من الماء الذي يشبه لونه لون عصير الليمون وكان القلب ضخما ومع أنه سليم كان عند اسفله مقدار من الشحم لايستهان به . وكانت البطينتان الوريديتان والرئويتان والاذينتان المقابلتان لهما في حالة طبيعية ولكنها كانت مصفرة وخالية من الدم ولم يظهر على الفتحتين علامات تدل على مرض خطير وكانت الاوردة والشرايين القريبة من القلب خالية من الدم وفي حالة طبيعية .

أما البطن فكان فيه ما يأتي .

تمدد الصفاق (البريتون) من جراء وفرة مقدار الغاز فيه .

رشح رخو شفاف لين يمتد الى الجزئين الملاصقين عادة لوجه الصفاق الداخلي

وكان الثرب (الشحم الرقيق الذي يغشي الكرش والامعاء) الكبير في حالة طبيعية وكان الطحال والكبد متحجرين ومتضخمين ومملوئين دما ولم يكن يظهر على نسيج الكبد الاحمر الضارب الى السمرة ادنى تغير مهم في تركيبه

وكانت حوصلة الصفراء مملوءة من الصفراء الغليظة على شكل جلطات وممددة من جرائها وكانت الكبد المصابة بالتهاب مزمن ملتصقة التصاقا شديدا بالحجاب من جهة وجهها المحدب وكان الوجه المقعر من الفص الايسر ملتصقا بالقسم المقابل له في المعدة ولاسيما على طول الانحناء اليسير فيها والثرب الاصغر وكان الفص سميكا ومنتفخاً ومتحجرا في جميع المواضع الملتصق فيها .

وظهرت المعدة في حالة سليمة في بدء الامر وخالية من اثار التهيج والورم وظهر ايضا غشاء الصفاق سليما ولكن لما دققت في فحصه اكتشفت على وجهه الامامي عند الانحناء اليسير وعلى بعد ثلاث اصابع عن البليورا احتقانا خفيفا كانه ورم سرطاني محصور في مكان ضيق وكانت المعدة مثقوبة في وسط ذلك الموضع الصغير المتصلب وكان التصاق هذا القسم بالفص الايسر في الكبد يسد فتحته . وكان حجم المعدة اصغر مما هو عليه عادة .

ولما فتحت المعدة على طول انحنائها الكبير وجدت جانبا كبيرا منها مملوءا مقدارا كبيرا من مواد متجمدة قليلا وممزوجة بكثير من مادة مخاطية كثيفة يشبه لونها لون ثفل القهوة وانبعث عنها رائحة لاذعة نتنة ولما استخرجت تلك المادة منها ظهر غشاء المعدة المخاطي في حالته الطبيعية من اصغر عطفة مسدودة الى اكبر عطفة مسدودة فيها باتباع اتجاه الانحناء الكبير وكانت قرحة سرطانية تغطي السطح الداخلي لسائر المعدة وكان مركز القرحة في القسم الاعلى على طول انحناء المعدة الصغير اما اطرافها غير المتساوية وهي على شكل الاصابع واللسان فكانت تمتد امام ذلك السطح الداخلي ووراءه من فتحة المعدة المرئية الى مسافة اصبع عن البليورا وكان قطر الفتحة المستديرة والمنحرفة الى جانبها نحو اربعة خطوط الى خمسة خطوط من جهة الداخل ونحو خطين ونصف خط من جهة الخارج وكان طرفها الدائري متناهيا في الرقة وقليل التضريس وضاربا الى الاسوداد ومؤلفا من غشاء صفاق المعدة فقط وكان سطح مقرح رمادي اللون املس يؤلف جدران تلك القناة التي كانت لتصل بين تجويف المعدة وتجويف البطن لولم يحل دون ذلك التصاقها بالكبد . وكان طرف المعدة الايمن على بعد قيراط عن البواب محاطا بورم أو تصلب سرطاني على شكل دوائر بعرض بعض خطوط وكانت فتحة البواب عادية وظهر حول القرحة انتفاخ فطري باد للعيان

وكانت قاعدته الجاسية والكثيفة والمتصلبة تصلبا سرطانيا تمتد على كل السطح المصاب بذلك المرض الخبيث .

وكان الثرب متقلصا ومنتفخا وشديد الصلابة وقد ألم به الفساد وكانت الغدد الليمفاوية في طية الصفاق وهي التي على طول انحناء المعدة والغدد المجاورة اقوائم الحجاب قد تورم جانب منها وتصلب تصلبا سرطانيا وكان في بعضها صديد .

وكانت القناة الهضمية متمددة من كثرة الغازات فيها وابصرت على ظاهر الصفاق وطياته بقعا صغيرة حمراء يختلف حجمها وقد تفرقت وبعدت الواحدة منها عن الاخرى . وظهر غشاء تلك القناة في حالة طبيعية وكانت مادة ضاربة الى السواد لزجة تلتصق بجدران المعى الغليظ

وكانت الكلية اليمنى في حالة طبيعية اما الكلية اليسرى فكانت في غير موضعها ومقلوبة على العمود الفقري واطول من الاولى واضيق منها ومع ذلك كانت سليمة . وكانت المثانة الفارغة والمتقلصة تحتوي على مقدار من الحصى وكانت بقع حمراء كثيرة تظهر على غشائها المخاطي متفرقة فيه وكانت جدران المثانة في حالة طبيعية .

وأردت فحص الدماغ لان معرفة حالته في رجل كالامبراطور من أهم الامور ولكنهم منعوني عن ذلك بشدة فاضطررت الى الاذعان .

وفرغت من تشريح الجثة واخذت القلب والمعدة ووضعتهما في اناء من الفضة ملىء كحلا ثم جمعت الاجزاء المتفرقة وخطتها وغسلت الجسمان وافسحت مجالا للخادم ليلبسه ثيابه كما كان يلبسه اياها في حياته وهي : الكاسون وسراويل من الجوخ الابيض وصدري ابيض واربة بيضاء فوقها اربة سوداء مربوطة الى الوراء وبذلة كولونل صيادي الحرس والوشاح الاكبر من نشان جوقة الشرف ونشان التاج الحديدي وحذاء طويل فيه مهاميز صغيرة وقبعة مثلثة الزوايا . وبعد ذلك نقل نابوليون الى ردهة اخرى فدخلها الجمهور .

ولم تحنط الجثة لانهم لم يجدوا المواد اللازمة لذلك فغطوها بالرداء الازرق الذي كان نابوليون يلبسه في معركة مارنغو ووضعوا سيفه الى جنبه الايسر ومصلوبا على صدره . ووضع الاناء الذي فيه قلبه ومعدته الى جانب السرير

المسجى عليه . ونصب مذبح خلف رأسه ليقف الكاهن عليه ويتلو صلاة الموتى ووقف الى اليسار جميع أفراد حاشية نابوليون بملابس الحداد وأقام الدكتور ارنولت على حراسة الجثة بمقتضى الاوامر التي تلقاها .

وفتحت الغرفة التي عرضت فيها جثة الامبراطور فدخلت الجماهير الغفيرة المحتشدة في لونود بخشوع واحترام لرؤية الميت وازداد تقاطر الناس في غد ذلك اليوم ليشاهدوا جثمان الامبراطور للمرة الاخيرة ولم يكترثوا للاوامر التي اصدرها الحاكم بمنعهم عن غشيان لونود .

ولما جاؤوا بالتابوت اضطررت الى ان اضع فيه القلب والمعدة وكنت قد عللت النفس بأخذهما معي الى اوربا ولكن الحاكم منعني عن ذلك منعا باتاً فلم ألق بدا من النزول على ارادته التي لم يكن مرد لها فابقيت القلب في الاناء الذي وضعته فيه ونقلت المعدة الى اناء آخر من الفضة اسطواني الشكل كان نابوليون يضع فيه اسفنجته وملأت الانائين كحلا وختمهما ووضعتهما في زاوية التابوت ثم وسد الامبراطور فيه على فراش ووسادة وكفن بنسيج من الحرير الابيض وحيث انهم لم يستطيعوا وضع قبعته على رأسه لضيق التابوت وضعوها على رجليه ووضعوا الى جانبها اعلاماً مرسوماً عليها النسر وقطعا من جميع النقود التي سكت في عهده ونقشت عليها صورته وادوات مائدته وسلاحه الخ ثم اقفل التابوت ووضع فى صندوق من الصفيح ولحمت جميع اطرافه ووضع في ضمن صندوق آخر من الرصاص وهذا وضع في صندوق رابع من خشب الكابلي فأقفل وختم وسمر ووضع في الموضع الذي كان الجثمان معروضافيه وغطي بالرداء الرمادي المشهور.

وجاء هدصن لو لتعزيتنا وقال انه يشاركنا في مصابنا وان حكومته ابلغته ان يفهم الجنرال بونابرت ان الوقت دنا لاخلاء سبيله وان جلالة ملك بريطانيا العظمى لايكون آخر من يوافق على ذلك وحيث أن الجنرال بونابرت قضى نحبه فقد انقضى كل شيء وسنقوم غدا بما يجب علينا نحوه وقد أمر الجنود بأن يلبسوا ملابس الحداد غدا ويؤدوا له التحية العسكرية .

وقام الجنود في اليوم التالي بالمهمة التي فوضت اليهم وحضر الحاكم والاميرال وجميع اصحاب المناصب المدنية والعسكرية الى لونود للاشتراك في المناحة

وكانت الجماهير تزدحم في الطرقات والموسيقى تصدح بالالحان المحزنة . وبعد الظهر بنصف ساعة حمل الجنود التابوت الى المركبة وسارت الجنازة وفقا للبرنامج الذي وضعه الحاكم وكان الاب فينيالي يسير في المقدمة وهو لابس ملابسه الكهنوتية والى جانبه هنري برتران الحدث حامل اناء الماء المقدس . وكنت اسير وراءهما والى جانبي الدكتور ارنولت . وكان يسير الى كل جانب من جانبي المركبة اثنا عشر جندياً بلا سلاح وقد عهد اليهم في أن يحملوا التابوت على مناكبهم حينما يجدون أن وعورة الطريق تحول دون سير المركبة

وجاء بعدهم نابوليون برتران الصغير ومرشان ماشيين وكان الكونت برتران والكونت منطولون يسيران وراء المركبة راكبين جواديهما ووراءهما فريق من حاشية الامبراطور

وكانت الكونتة برتران وكريمتها هرتنس في مركبة يجرها جوادان يقودهما خدام الكونتة .

وتلاها جواد الامبراطور يقوده خادمه ارشمبو

وجاء بعده ضباط البحرية مشاة وفرسانا فضباط اركان الحرب فرسانا فاعضاء مجلس الجزيرة فرسانا فالجنرال كوفين والمركيز دي منشنو فارسين فالاميرال والحاكم فارسين فسكان الجزيرة

وخرجت الجنازة من لونود على الشكل الذي تقدم بيانه ومرت امام المخفر حيث كانت حامية الجزيرة وعددها نحو الفين وخمس مئة جندي وقد اصطفوا على يسار الطريق وكانت اجواق من الموسيقيين تصدح بالحان الحزن وقد وقف الواحد منها بعيداً عن الآخر ولما مرت الجنازة سارت الجنود وراءها الى المكان المعين لدفن الجثة ولما دنوا من ذلك المكان وقفت المركبة فدنا الجنود منها وحملوا النعش على اكتافهم وساروا به الى المدفن فترجل حينئذ جميع الفرسان وانحدرت السيدات من المركبات وسار الجميع وراء الجنازة وكان الكونت برتران والكونت منطولون ومرشان ونابوليون برتران الصغير يحملون بساط الرحمة ولما وصلوا الى القبر انزل الجنود النعش عن مناكبهم ووضعوه على حافته وقد اثار مشهد الحفير الحزن من رقدته فانقبضت الصدور ووكفت

العبرات وفتح التابوت فصلى الاب فينيالي الصلوات المألوفة ثم اقفل التابوت وأنزل الى اللحد وكانت رجلا الميت متجهتين الى الشرق ورأسه الى الغرب وحينئذ اطلقت المدافع ثلاث دفعات متوالية وفي كل دفعة خمس عشرة طلقة وكانت سفينة الاميرال تطلق في أثناء سير الجنازة مدافعها فاطلقت خمساً وعشرين طلقة بين الطلقة وأختها دقيقة .

ولما انتهت الحفلة الدينية وضعوا حجراً كبيراً فوق النعش من دون أن يمسه وهالوا التراب عليه . واندفع الجمهور في أثناء ذلك على أشجار الصفصاف التي كانت الى جانب القبر وتنازعوا اوراقها وغصونها واخذوها ليحفظوها ذخائر عندهم وذكرى لتلك الحفلة المؤثرة التي شهدوها وحاول الحاكم والاميرال أن يمنعاهم عن ذلك ولكنهما لم يفلحا فانتقم الحاكم منهم بمنعهم فيما بعد عن الدنو من القبر فاحاطه بحاجز واقام خفيرين الى جانبه ونقطة عسكرية فيها اثنا عشر جندياً وضابط .

ويبعد مدفن الامبراطور ميلا عن لونود وهو مربع الزوايا وعمقه نحو اثني عشرة قدماً وفيه وضع التابوت على خشبتين كبيرتين متينتين ولم يكن يمسه شيء حوله ولم يرض الحاكم بأن نضع عليه بلاطة نكتب عليها شيئا كأن تينك البلاطة والكتابة تعرفان الناس بأكثر مما يعرفونه عن الامبراطور .

ولما انزل هدصن لو نابوليون الى القبر انتهت مهمته فلم يبق عليه الآن يحرز شيئا مما خلفه الامبراطور فدخل منزل لونود وبحث فيه عن كل شيء وفتح رزماً كان الامبراطور قد ختمها بيده قبل وفاته ولكن ذهب بحثه سدى ولم يجد الغرض الذي كان يريده ولم يزده ذلك الا اصراراً ورغبة في الاستقصاء في البحث ولم يبرح المنزل الا بعد مافرغ رجاله من تنظيم بيان بالاثاث ورزم الكتب . وكنا نبتغي أن نحرز شيئا مما تركه الامبراطور تذكاراً نفيساً فضن علينا الحاكم بذلك وبادر الى ابلاغنا ان نهيء الاهبة للسفر بمركب من مراكب الحكومة وعلى نفقتها

وقبلما غادرنا جزيرة القديسة هيلانة ذهبنا لزيارة ضريح الامبراطور ورؤيته للمرة الاخيرة فرويناه بدموعنا ونثرنا عليه الازهار وودعناه وداعاً اخيرا .

ولما وصلنا الى جيمس تون كان الحاكم وزوجته ينتظراننا ودعوانا الى مأدبة انيقة ادباها لنا وبالغا في اكرامنا .

ولما ركبنا المركب المعد لنا في ٢٧ مايو سنة ١٨٢١ وجدناه قذرا وضيقا فقد كانوا ينقلون فيه البقر والغنم والخنازير وكل ماتحتاج اليه الجزيرة من المؤونة وقاسينا اشكالا والوانا من العذاب والشقاء في اثناء سفرنا وطالت مدة السفر وكاد ما في المركب من الطعام والشراب ينفد واصيب الركاب بالزحار وكان معنا مئتا جندي من البريطانيين ارسلوا من الجزيرة الى انكلترا فتوفي بعضهم في خلال السفر .

ووصلنا الى انكلترا فاخذت جوازا من سفارة فرنسا للسفر الى رومية وسافرت في الحال الى دوفر ومنها سرت الى باريس مارا بكاله فذهبت الى سفارة النمسا وطلبت « التأشير » على جوازي فابت علي ذلك ولكنني لم اعبأ برفضها فواصلت سفري الا انني لقيت مشقة كبرى في الطريق فكان الموظفون النمسويون يشددون في مراقبتي وتفتيش امتعتي واتهمت بالتآمر على الحكومة ووصلت اخيرا الى بارم وكان لي فيها صديق يدعى الكافاليار روسي فقدمني الى الكونت نيبرغ فاحسن الكونت استقبالي والقى علي طائفة من الاسئلة عن مرض الامبراطور ووفاته وكنت ابتغي ان افضي بمثل تلك الاخبار المفصلة الى الامبراطورة ماري لويز واسلمها كتابا خطه اليها الكونت برتران والكونت منطولون وطلبت من الكونت نيبرغ ان يرجو من جلالة الامبراطورة ان تأذن بمثولي امامها فقال لي لااستطيع ذلك لان خبر وصولك اثار اشجان الارشيدوقة فهي تندب سوء حظها وتنتحب ولا تستطيع ان تستقبلك ولكنني اعرض عليك ان اكون وسيطا بينك وبينها فابلغها ماتقوله لي واسلمها الكتاب اذا لم تحاذر ان تسلمنيه . فلم يسعني ان ارفض تسليمه الكتاب فدفعته اليه فتركني وبعد هنيهة عاد الي وقال لي : ان جلالتها اطلعت عليه وهي تأسف على عدم تمكنها من استقبالك وهي توافق على ارادة نابوليون الاخيرة فيما يتعلق بك ولكنها لاتلقى مندوحة قبل تنفيذها عن عرض الامر لجلالة والدها .

واليك صورة الكتاب الذي ارسله الكونت برتران والكونت منطولون الى الامبراطورة ماري لويز :

لندن في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٢١

ياصاحبة الجلالة

ان الدكتور انطومرخي الذي يتشرف بتقديم هذا الكتاب الى جلالتك اعتنى بزوجك المظيم في اثناء مرضه الذي قضى فيه نحبه

وقد عهد الينا الامبراطور في اواخرحياته في ان نبلغ جلالتك ان تخصصي للدكتور انطومرخي مرتبا سنويا مدى حياته قدره ستة الآف فرنك مكافاة له على ماقام به من الخدم في جزيرة القديسة هيلانة وقد رغب في ان تتخذيه طبيبا وجراحا في قصرك وان تتخذي ايضا الاب فينيالي مرشدا ريثما يبلغ نجلك سن الرشد فحينئذ ينتقل الى خدمته .

ونحن ياصاحبة الجلالة نقوم بما يجب علينا نحو الامبراطور بابلاغ جلالتك ارادته الاخيرة التي كررها علينا مرارا .

خادما جلالتك المطيعان

الكونت برتران والكونت منطولون

وابلغني الكونت نيبرغ عطف الامبراطورة علي وارتياحها الى ماقمت به نحو زوجها ثم اعطاني خاتما ارسلته الي جلالتها .

وكان الجميع في القصر يلبسون ملابس الحداد على الامبراطور فقال لي الكونت نيبرغ ان الارشيدوقة لما تلقت نعي زوجها من البرنس مترنيخ شعرت كأن صاعقة انقضت عليها وقد شاءت ان يشرك معها جميع البلاط في حزنها والاسف على الراحل الذي تبكيه وقررت ان يلبسوا الحداد عليه ثلاثة اشهر وان تقام حفلة دينية كبرى للصلاة عن نفسه وقد شهدت الحفلة بنفسها وارادت ان تؤدي لنابوليون في وفاته الاكرام الذي كانت تؤديه له في حياته . وسألته عن الامير نجلها فاجابني انه بصحة جيدة وانه متوقد الذهن وقد فوض امر العناية به الى اشخاص من ذوي الكفاءة وبعد ما دار الحديث بيننا على موضوعات شتى ودعته وانصرفت .

وعرجت على فلورنسة في اثناء سفري الى رومية فحظيت بمقابلة الغرندوق فالقى علي اسئلة كثيرة عن جزيرة القديسة هيلانة وبعد ذلك سافرت الى رومية

. وسرت تواً لمواجهة الكردينال فش ثم ذهبت لمواجهة الاميرة بولين وقد ارادت ان تعرف كل شيء فتأثرت كل التأثر مما سمعته مني عما قاساه شقيقها نابوليون من الاهانة والعذاب . وكان تأثر السيدة الوالدة شديدا لما استقبلتني فتحفظت في الكلام معها ولم اطلعها الا على جزء يسير من الامور التي شاهدتها ولما عدت الى مواجهتها مرة ثانية وجدت انها ملكت ناصية حزنها وقد اضطررت الى سرد بعض حوادث بالتفصيل فنكأ ذلك كلوم فؤادها وسالت مدامعها وعلت زفراتها فوقفت عن الكلام ولكنها مسحت دموعها وعادت الى القاء الاسئلة علي وقد نشب كفاح بين شجاعتها وحزنها . وحظيت بالمثول بين يديها مرة ثالثة فابدت لي علامات العطف والرضاء وانعمت علي بالماسة احتفظ بها احتفاظا شديدا

وشخصت الى فلورنسة وكان البرنس كانينو (لوسيان بونابرت) يقيم في بيت بضواحيها فاكرم وفادتي وانهالت علي الاسئلة منه وكان لمصرع شقيقه نابوليون تأثير شديد فيه .

وعدت الى بارم وواجهت الكونت نيبرغ فكرر علي ان الامبراطورية ترمقني بلاحظة العطف وسلمني كتاباً منها الى سفير النمسا في فرنسا اعربت فيه عن رضائها عن طبيب زوجها وقالت انها مستعدة لتنفيذ ارادته الاخيرة

ولكن قامت اعتراضات شتى على وصية نابوليون وعينت لجنة للنظر فيها ولما رأى الكونت منطولون ان تنفيذ الوصية سيكون موضوعاً للاخذ والرد وباعثاً على القيل والقال كتب الى اللجنة وقال لها انه يتنازل عن حقوقه المبينة في الوصية وحذا حذوه رفاقه وعدت الى عيادتي الطبية فذلك خير من رفع القضايا في المحاكم .



وصية الامبراطور نابوليون الاول

في دار خزائن الاوراق بباريس خزانة حديدية وضعت فيها الوصية التي نظمها الامبراطور نابوليون الاول في شهر ابريل سنة ١٨٢١ بجزيرة القديسة هيلانة وقد صنعت هذه الخزانة في سنة ١٧٩١ لحفظ قرارات الجمعية الوطنية ويشاهد زائر هذه الدار الوصية المشتملة على ارادة نابوليون الاخيرة والمكتوبة بيده والمذيلة بتوقيعه . وهذا الصك المنظم في المنفى جاء به الى اوربا الاشخاص الثلاثة المعهود اليهم في وضع وصية الامبراطور موضع الاجراء وهم الكونت برتران والكونت منطولون ومرشان خادم الامبراطور الخاص وقد اودع منطولون الوصية في انكلترا زيادة للتحفظ وأخذت عنها نسخة أرسلت الى فرنسا لاجراء المعاملات القانونية بشأنها

وفي سنة ١٨٥٣ طلبت الحكومة الفرنسوية الوصية من الحكومة البريطانية طلباً رسميا وكانت مودعة في خزانة بلاط كنتربري فدفعها اللورد كلارندن مستشار جلالة الملكة فكتوريا الخاص الى الكونت كولونا فالفسكي سفير الامبراطور نابوليون الثالث في ١٦ مارس من تلك السنة . وقد ذكر ذلك في احدى صفحات الوصية وقد صادق المسيو دبليم رئيس محكمة السين الحقوقية عليها وعلى خمسة ذيول وثلاثة جداول تحتوي على بيان الاشياء التي خلفها الامبراطور الكبير . وذكر أن عدد صفحات الوصية ٤٠ ولكنها لا تشتمل في الحقيقة الا على ٣٨ صفحة . ووضعت الوصية المنظمة بموجب الاصول القانونية في مكتب كاتب عدل في باريس يدعى نويل وأخذت الوصية بعد ذلك من هذا المكتب بموجب أمر امبراطوري وأودعت في دار خزائن الاوراق الوطنية . وهنالك علاوة على الصفحات التي تقدم بيانها والتي ذيلت بتوقيع رئيس محكمة السين وهي تتضمن وصية الامبراطور ذيل منفصل عنها بتاريخ ١٦ ابريل فصل فيه توزيع امتعة الامبراطور والمال الذي كان معه في جزيرة القديسة هيلانة وقد كتب على غلاف الذيل انه لا يفض الا بعد وفاة الامبراطور وهو كالذيل الآخر الذي نظم في اليوم عينه وذكرت فيه كيفية الدفن . وكان مع الوصية كتابان املاهما الامبراطور

ووقعهما بتاريخ ٢٥ ابريل وقد وجه احدهما الى الصيرفي لافيت والآخر الى البارون دي لابويليبري مدير الاملاك الخاصة وملاحظات لمنفذي الوصية املاها على مرشان في ٢٦ ابريل وكتب الامبراطور بيده في آخر صفحة منها : « هذه ملاحظات لمنطولون وبرتران ومرشان منفذي وصيتي . وقد نظمت الوصية والذيول المودعة عند مرشان في ٢٧ ابريل .   نابوليون »

ولا يخفى أن متصفح الوصية والذيول لايجد الا خمسة ذيول في المتن المكتوب في الصفحات المزعوم انها اربعون وذيلا في غير هذه الصفحات ومع ذلك يذكر الامبراطور سبعة ذيول ومن المحتمل انه كان يعتبر القسم المختتمة به الوصية بخصوص الاملاك الخاصة والملاحظات التي املاها ووقعها ذيلين . ويقولون أن الامبراطور حاول في ٢٤ ابريل أي قبل وفاته بعشرة ايام نسخ اربعة ذيول مكتوبة في ثلاث عشرة صفحة كبيرة وكان آخر ما كتبه ووقعه مؤرخا في ٢٧ منه . وقد قال لمنطولون في ذلك اليوم : « أو لا يكون من بواعث الاسف يا ابني ألا يموت الانسان بعد أن يكون قد نظم أحواله . »

ولما قرب الامبراطور من النهاية اراد أن يملي على مرشان تدابير جديدة ويوصي لابنه بعقارات في اجاكسيو بجزيرة كورسيكا يبلغ ريعها السنوي خمسين الف فرنك ولكن هذه العقارات لم يكن لها من وجود في الحقيقة فان دماغ الامبراطور كان قد ابتدأ يلم به الخبل .

واليك وصية الامبراطور :

— ١ —

الصفحة الأولى

هذه وصيتي اوصك ارادتي الاخيرة لظمتها في لونود بجزيرة القديسة هيلانة في هذا اليوم الخامس عشر من شهر ابريل سنة ١٨٢١ :

أولا — أموت على الديانة الكاثوليكية التي ولدت فيها من اكثر من خمسين سنة .

ثانيا — ارغب في أن يدفن رفاتي على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسوي الذي أحببته كثيراً :

ثالثا — كنت اثني دائما على زوجتي العزيزة ماري لويز فانا أدخر لها ارق العواطف حتى آخر نسمة من حياتي وارجو منها ان ترعى ابني بمقلة العناية وتدفع عنه المكايد المحدقة بحداثته .

رابعا — أوصي ابني بألا ينسى أبدا أنه ولد اميرا فرنسويا وبألا يرضى بان يكون آلة بأيدي الحكام الثلاثة الذين يرهقون شعوب أوربا . فلا ينبغي له ان يحارب فرنسا أو يسوق اليها المضرة ويجب عليه أن يضع نصب عينيه مبدأي هذا : « كل شيء للشعب الفرنسوي » .

خامسا — اموت قبل يومي مقتولا بيد حكومة الاعيان البريطانية وسفاحها المأجور ولكن لايلبث الشعب البريطاني ان ينتقم لي.

سادسا — ان ماوصلت اليه فرنسا من النتائج الوخيمة في الغزوتين الموجهتين اليها وقد كان لايزال عندها موارد كثيرة يرجع الى خيانة مرمون واوجيرو وتاليران ولافايات فانا اصفح عنهم وياليت الاجيال الآتية في فرنسا تحذو حذوي من هذا القبيل .

سابعا — اسدي الشكر لوالدتي الفاضلة الكريمة وللكردينال واخوتي يوسف ولوسيان وجيروم وشقيقتي بولين وكارولين وجولياوهورتنس وكاترين

الصفحة الثانية

واوجين عما ادخروه لي من الاهتمام بشأني واصفح عن لويس الذي اذاع في سنة ١٨٢٠ نشرة مفعمة حججا مختلقة ومستندات ملفقة .

ثامنا — اشدد النكير على مخطوط القديسة هيلانة وغيره من المؤلفات الصادرة تحت عنوان « مبادىء وحكم » وقد راق بعضهم ان ينشرها في خلال السنوات الست الاخيرة . فلم تكن القواعد دستوراً سرت عليه في اثناء حياتي أجل اني القيت القبض على الدوق دنغان وأمرت بمحاكمته لان سلامة الدولة ومصلحة الشعب الفرنسوي وكرامته كانت تقتضي ذلك حين كان الكونت درتوى يتولى المفاوضات ـ بحسب اقراره ـ مع ستين سفاحا في باريس واني لو قدر لي وعدت الى سرير الامبراطورية لما ترددت في عمل ماعملته في مثل الحال التي مرت علي .

— ٢ —

١ ـ اترك لابني العلب والاوامر وغير ذلك من الاشياء كالآنية الفضية وسريري وسلاحي وسروجي ومهاميزي واواني كنيستي وكتبي وملابسي التي كنت استعملها وذلك بموجب الذيل (١) وارغب في أن تكون هذه التركة اليسيرة عزيزة عنده فتذكره بوالده الذي تحدثه الدنيا عنه .

٢ ـ اترك للادي هولاند الايقونة القديمة التي اهدانيها البابا بيوس السادس في طوانطينو

٣ ـ اترك للكونت منطولون مليوني فرنك دلالة على رضائي عما ابداه نحوي من الاعتناء البنوي من ست سنوات وتعويضا له عما اصابه من الخسارة في ابان مقامه بجزيرة القديسة هيلانة .

٤ ـ اترك خمس مئة الف فرنك للكونت برتران .

٥ ـ اترك اربع مئة الف فرنك لمرشان خادمي الخاص الاول

٦ ـ اترك مئة الف فرنك لسان ديني

٧ ـ اترك مئة الف فرنك لنوفار

٨ ـ اترك مئة الف فرنك لبيارون .

٩ ـ اترك خمسين الف فرنك لارشمبو

١٠ ـ اترك خمسة وعشرين الف فرنك لكورسو

١١ ـ اترك خمسة وعشرين الف فرنك لشاندلياي

١٢ ـ اترك مئة الف فرنك للاب فينيالي وارغب في أن يبني بيته قرب بنتي نوفودي روستينو .

الصفحة الثالثة

١٣ ـ اترك مئة الف فرنك للكونت دي لاس كاس

١٤ ـ اترك مئة الف فرنك للكونت دي لافالت

١٥ ـ اترك مئة الف فرنك للاري رئيس الجراحين وهذا افضل رجل عرفته

١٦ ـ اترك مئة الف فرنك للجنرال برايار .

١٧ ـ اترك مئة الف فرنك للجنرال ليفيفر دينوات

١٨ ـ اترك مئة الف فرنك للجنرال دروو .

١٩ ـ اترك مئة الف فرنك للجنرال كمبرون
٢٠ ـ اترك مئة الف فرنك لاولاد الجنرال موتون دوفرناي
٢١ ـ اترك مئة الف فرنك لاولاد لابيدويار الشجاع
٢٢ ـ اترك مئة الف فرنك لاولاد الجنرال جيرار الصريع في ليني
٢٣ ـ اترك مئة الف فرنك لاولاد الجنرال شرتران
٢٤ ـ اترك مئة الف فرنك لاولاد الجنرال ترافو الفضيل
٢٥ ـ اترك مئة الف فرنك للجنرال لالمان الاكبر
٢٦ ـ اترك مئة الف فرنك للكونت ريال
٢٧ ـ اترك مئة الف فرنك لـكوستا دي بستليكا في كورسيكا
٢٨ ـ اترك مئة الف فرنك للجنرال كلوزل
٢٩ ـ اترك مئة الف فرنك للبارون دي منيفال
٣٠ ـ اترك مئة الف فرنك لارنول مؤلف ماريوس.
٣١ ـ اترك مئة الف فرنك للكولونل بو واطلب منه أن يوالي كتاباته في سبيل الدفاع عن مجد الجيوش الفرنسوية لخزي الوشاة والنامين .
٣٢ ـ اترك مئة الف فرنك للبارون بينيون واطلب منه أن يكتب تاريخ السياسة الفرنسوية من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨١٥

الصفحة الرابعة

٣٣ ـ اترك مئة ألف فرنك لبودجي دي تالافو
٣٤ ـ اترك مئة ألف فرنك للجنرال اميري
٣٥ ـ هذه المبالغ تؤخذ من الملايين الستة التي وضعتها في المصرف حين غادرت باريس في سنة ١٨١٥ ومن الفائدة الناتجة عنها بمعدل ٥ في المئة من شهر يوليو سنة ١٨١٥ فما بعد وهذا الحساب يصدره الكونت مونطولون والكونت برتران ومرشان مع الصيرفي .
٣٦ ـ وكل ما ينتج عن المال الموضوع في المصرف المذكور ويزيد على خمسة ملايين وست مئة ألف فرنك المبينة أعلاه يوزع كهبة على جرحى واترلو وضباط وجنود فرقة جزيرة البا بموجب قرار يصدره منطولون وبرتران ودرو وكمبرون والجراح لاري .

٣٧ ـ وبعد الموت تدفع هذه الهبات الى الايامى واليتامى وعند عدم وجود هؤلاء تعود الى الامة .

— ٣ —

١ ـ لما كان ملكي الخاص يخصني ولا تستطيع أي شريعة فرنسوية أن تنتزعه مني فيطلب من البارون دي لابويلييري ناظر الخزينة الخاصة أن يؤدي الحساب عن ذلك ولا بد من أن يكون قد بلغ مالي من الاموال ٢٠٠ مليون فرنك موزعة كما يلي :

أولا ـ ما اقتصدته من المال في أثناء أربع عشرة سنة وذلك من المرتب المخصص لي وهو يزيد على ١٢ مليوناً في السنة على ما أذكر .

ثانياً ـ نتاج هذا المال .

ثالثاً ـ رياش قصوري على ما كانت عليه في سنة ١٩١٤ وهذه القصور في رومية وفلورنسة وطورينو وقد اشتريت جميع هذا الرياش بمالي الخاص.

رابعاً ـ تصفية بيوتي في مملكة إيطاليا كالنقود والاواني الفضية والمجوهرات والاثاث والكتب ويؤدي الحساب عنها البرنس أوجين وكبانيوني قيم التاج .

الصفحة الخامسة

٢ ـ اترك نصف ملكي الخاص للضباط والجنود الباقين من الجيش الفرنسوي وقد حاربوا من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨١٥ في سبيل مجد الامة واستقلالها ويكون التوزيع بنسبة المرتبات التي يتقاضونها في أثناء الخدمة . واترك النصف الآخر للمدن والقرى التي في الالزاس واللورين وفرانش كونتاي وبرغونية وجزيرة فرنسا وشامبانيه وفورست ودوفينه التي نالتها خسارة من جراء الغزوات ويخصص مليون فرنك من هذا المبلغ لمدينة بريان ومليون لمدينة ميري .

واقيم الكونت منطولون والكونت برتران ومرشان منفذين لوصيتي .

وهذه الوصية كتبتها كلها بيدي ووقعتها باسمي وبصمتها بشعاري

نابوليون»

نظرت للمصادقة في باريس في المكتب الثاني في اليوم السادس والعشرين من شهر مارس ١٨٥٣ رقم ٣٩ وقد قبض رسم قدره فرنك وخمسون سنتيما وسجل في اليوم عينه في السجل الثلاثين الخ وقبض خمسة فرنكات وخمسون سنتيما

سوراي

وقعته باسمي انا رئيس المحكمة بموجب قرار صادر في هذا اليوم . باريس في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣

دبليم

ضم الى مسودة صك مودع عندي انا كاتب عدل باريس ووقع في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣

نويل

أما الصفحات من ٦ الى ١٣ فانه يتخللها بضع صفحات بيضاء وهي تحتوي على بيان بالموجودات . وقد كتب الامبراطور بيده في الصفحة الرابعة عشرة ماياتي : « هذه وصيتي كتبتها كلها بيدي . نابوليون »

وثمة كتابة تدل على دفع هذه الوصية رسميا الى فرنسا وكتابان وخمسة ذيول:

« ان الوصية والذيول الخمسة والكتابين المنضمة اليها والتي كانت موضوعة حتى اليوم في خزائن اوراق بلاط كنتربري دفعها حضرة اللورد كلارندن المستشار الخاص لجلالتها البريطانية الى حضرة الكونت كولونا فالفسكي سفير جلالة الامبراطور نابوليون الثالث لدى جلالة الملكة فكتوريا في هذا اليوم السادس عشر من شهر مارس سنة ١٨٥٣

واشعارا بذلك وقعت كما يلي ا . فالفسكي

نظم في لندن في ١٦ مارس سنة ١٨٥٣

ويلي ذلك عبارة التسجيل في فرنسا في سنة ١٨٥٣

سجل في باريس في الدائرة الثانية في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣ الخ وقبض رسم عن ذلك قدره فرنكان وخمسة وعشرون سنتيما . سوراي

وكتب في الصفحة الخامسة عشرة الذيل الاول المطلوب اجراؤه بالحاح ومفاده تكرار رغبة الامبراطور بان يدفن في فرنسا :

« لونود في ١٦ ابريل سنة ١٨٢١

هذا ذيل لوصيتي :

١ ـ ارغب بان يثوي رفاتي على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسوي الذي احببته كثيرا

٢ ـ اترك للكونت برتران والكونت منطولون ومرشان المال والجواهر والآنية الفضية والخزفية والرياش والكتب والسلاح وبالاجمال كل مالي في جزيرة القديسة هيلانة وهذا الذيل كتبته كله بيدي ووقعته و بصمته بشعاري . نابوليون »

ضم الى مسودة صك استيداع دفع الي انا كاتب العدل في باريس ووقعته في هذا اليوم السادس والعشرين من شهر مارس من سنة ١٨٥٣ . نويل

وقعناه وختمناه نحن رئيس المحكمة بموجب قرار هذا النهار

باريس في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣ دبليم

نظر للمصادقة في باريس في الدائرة الثانية في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣ رقم ٣٩ وقبض الرسم وقدره فرنك وخمسون سنتيما سوراي

اما الصفحتان السادسة عشرة والسابعة عشرة فلم يكن فيهما كتابة ما ولم يكتب في الصفحة الثامنة عشرة إلا هذا السطر :

« هذا ذيل لوصيتي كتبته بيدي ـ نابوليون »

ولدان طبيعيان لنابوليون الاول

يقال انه كان لنابوليون الاول اولاد طبيعيون غير نجل الكونتة فالفسكا والغلام لاون وقد ذكره العاهل في جزيرة القديسة هيلانة في الاحاديث التي كانت تدور بينه وبين المرشال الاكبر برتران فقد نشرت جريدة الطان في ٥ فبراير سنة ١٩٢٩ رسالة ارسلها الاب مس خوري الرعية في قرية بمقاطعة اللوار العليا في سنة ١٨٣٣ الى والدة الامبراطور في رومية وقد اصابت الجمعية النمسوية السوداء في فلورنسة نسخة عنها وهذه النسخة محفوظة في دار « محفوظات » الحكومة في فينا . واليك نص هذه الرسالة :

« باريس في ٢٥ يناير سنة ١٨٣٣

اسمحي لكاهن بسيط من كهنة الارياف بان يقضي مايجب عليه ويذكرك بامور عزيزة قد تكون غابت من ذهنك فانا راع للنفوس في قرية البوشه في مقاطعة اللوار العليا في ناحية كاير . وقد طلبت مني زوجة فلاح غني في القرية

(توفي زوجها وهي ستقضي نحبها قريبا) ان ابلغك المعلومات التالية واستحلفتني بفروض ديني أن ابلغك ذلك وقد استودعتني جميع مايكنه ضميرها من الاسرار ومما قالته لي مايأتي :

« ولدت ولدين من الرجل العظيم (وهي تعني بالرجل العظيم نابوليون نجلك) احدهما ابني فكتور (هذا الشاب مملوء فطنة وهيئته تماثل هيئة ابنك) والآخر هنريت صغرى بناتي . وقد اسعد الحظ ابني فكتور كما اسعدني انا ايضا بان يشاهد الرجل العظيم فانه لما كان حدثا ناعم الظفر ذهبوا به الى باريس وقد ابصر فيها والدة الرجل العظيم وكانت تبتغي على ماقيل لي أن تعنى بامر الغلام ولولا زوجة العاهل الثانية لبقي الغلام في باريس مع الرجل العظيم ويجهل الولدان والدهما الحقيقي فابنتي لم تدر شيئا من واقع الحال وابني نسي ماقالوه له حينما كان غلاماً حديث السن ومع ذلك لا اشاء أن أموت من دون أن أبوح لكليهما بسري العظيم وعلاوة على ذلك ترك لي الرجل العظيم ورقة يعترف فيها بان ابني فكتور هو ابنه ولكن لم تبق هذه الورقة في حيازتي وقد يستخدمها بعض العيارين المحتالين لابتزاز المال من اسرة الرجل العظيم »

هذا كلام المرأة الكريمة الاخلاق وهي منزهة عن المطامع والمصالح في ماقالته لي (وربما لا تطول أسباب حياتها اكثر من شهرين) وقد افضت الي بهذا الامر لكي ابلغك اياه

وقالت لي ايضاً : ولكن أفراد اسرة باسكيه خانوا الرجل العظيم (لا ادري عمن تعني بقولها افراد اسرة باسكيه) فانهم بعدما جلس لويس الثامن عشر على العرش جاؤوني وهددوني بهدم البيت وقتل ابني اذا ابيت أن ادفع اليهما كل ما كنت احفظه من الرجل العظيم فرأيت أن ادفع الغوائل عن ابني (ولم يكونوا يعلمون ان ابنتي كانت ايضاً ابنة ذلك البطل العظيم) بتسليمهم الورقة الآنفة الذكر

ولا مندوحة لي عن القول لك بانها تلعن افراد اسرة باسكيه لزعمها انهم حرموها عشرين مليون فرنك وهبها اياها الرجل العظيم لتكون ارثا للولدين . وقد استحلفتني هذه المرأة بأن اطلعك على امرين الاول ألا تعتبري لا انت ولا احد من أسرتك الورقة التي كتبها الرجل العظيم واخذوها منها بالا كراه فلم تبق

هذه الورقة في اليد التي كان يجب أن تبقى فيها فليس الذي يحرزها الآن سوى لص منافق . والثاني ترجو منك ان تخبريها هل تتذكرين انك ابصرت ابنها في التويلري وقد كان سنه في ذلك العهد يتفاوت بين ٤ سنوات و٧ سنوات وكان يرتدي ملابس اولاد الفلاحين وكان كثير الشبه بنابوليون حينما كان حدثا نظيره فان تصريحك من هذا القبيل يجرها على البوح لنجلها بما يجب عليها ان تبوح له به .

ياحضرة السيدة انا كاهن فاذا كان تأكيد نفس دينية يكفي لان يجعلك تعتقدين صحة ما اكتبه اليك الآن فصدقي باني لا اقول الا الحقيقة واعلمي انك لاتخطئين موقع الصواب في تصديق كلامي .

انك لاتعرفينني والتروي يقضي عليك بالاتشرفيني بجواب مسهب ولكنني ارجو منك — لاجل راحة ضمير تلك المرأة التائبة — ان تقتصري على كتابة هاتين الكلمتين : « اذكر اني شاهدت هذا الغلام في التويلري او لا اذكر اني شاهدته فيه » وحينما يقف هذا الشاب على سر ولادته يرى بعد الاطلاع على جوابك هل يذهب اليك او لايذهب . واظن أنه في كل حال ينبغي أن يشاهد جدته قبل أن يموت وقد جاء المرشال سولت من نحو عشر سنوات الى القرية لرؤية الغلام ولم استطع حينئذ أن أعرف الباعث الذي حمله على المجيء أما وقد اطلعتني هذه المرأة على ما بسطته لك فاني حللت هذا الطلسم وقد قال لها المرشال ان الرجل العظيم كتب اليه من جزيرة القديسة هيلانة يوصيه خيرا بالغلام ولكنه مع ذلك لايزال وحيدا لايكترث له أحد .

فتكرمي يا حضرة السيدة بان تشرفيني باقرب مايمكن بجوابك الموجز الذي التمسه منك فانا باق في باريس مدة قصيرة واحب أن اتمكن حين رجوعي من اعطاء جواب مرض للمرأة المحترمة التي اخبرتك عنها .

وسواء اسرعت في ارسال جوابك الموجز او تأخرت فارجو ان ترسليه على العنوان الآتي :

الى حضرة الاب مس رقم ٩ بشارع سانت كروى دنطان »

ففي هذا الشارع أخ للولدين من امهما وهو يدفع الي كتابك »

وكتبت عقيلة دي سارتروفيل قارئة «السيدة الوالدة» جوابا للاب مس في

٩ فبراير قالت له فيه : « ان حضرة «السيدة الوالدة » عهدت الي في ان أكتب اليك واؤكد لك انها لاتعرف شيئاً مما كتبته اليها وعليه ترجو منك الا تعود الى الكتابة اليها في هذا الصدد . »

وارسلت نسخة عن هذا الجواب الى فينا بعناية « الجمعية النمسوية السوداء» في فلورنسة فضمت الى رسالة الاب مس المحفوظة في دار « المحفوظات ».

ولا يمكن الجزم بصحة ماتقدم بيانه ولا نعلم هل قصد أحد العيارين بانتحاله اسم الاب مس ان يمثل دورا سياسيا أو ان يبتز شيئا من المال من والدة الامبراطور وقد يحدث مثل هذا الامر في الاسر المالكة واسر عظماء الرجال .

كلمات مأثورة

لنابوليون الأول

مثيرو الفتن ـ لايحسن التساهل مع مثيري الفتن ولا التعامل معهم .

المحالفات ـ ان الحلفاء الذين نصيبهم بموالاة الاقدار لنا ونيل الانتصار يسلبنا اياهم مجافاة النصر لنا ويجعلهم ينقلبون علينا

أما المصاهرة بين الملوك فلا قبل لها بمقاومة المصالح السياسية.

المطامع ـ المطامع الكبيرة خلة من خلال الاخلاق الكريمة فالمتحلي بها اما ان يعمل اعمالا جميلة واما أن يأتي امورا سيئة فذلك منوط بمقدار الشرف الذي يسيره .

الصداقة ـ الصداقة كلمة فارغة من المعنى

الحب ـ شر الحب يفوق خيره . والفرار هو الوسيلة الوحيدة للانتصار على الحب . فالدقيقة التي نفترق فيها عن الحبيب هائلة فهي تفصلنا عن كل شيء في العالم ولا يشعر الانسان شعورا شديدا بأنه يحب الاحين الاجتماع بمحبوبه او حين الابتعاد عنه وان المرأة التي يحبها الانسان تكون في نظره أجمل امرأة

انكلترا ـ اذا اتفقت دولتان كفرنسا وانكلترا حكمتا العالم .

الارسطقراطية ـ الديمقراطية ترفع السلطة والارسطقراطية تؤيدها وتحفظها وتمتاز الارسطقراطية بحصر اعمال الحكومة في ايد يقل الخطر منها عن ايدي

جمهور غفير جاهل يكون أقل دربة . ونلقى الارسطقراطية عند جميع الشعوب وفي جميع الثورات فاذا نزعت من الاعيان انتقلت في الحال الى الاغنياء واصحاب الكلمة المسموعة من عامة الشعب واذا نزعت من هؤلاء لجأت الى أصحاب المصانع والمعامل ولاذت بكنف الشعب . وفي كل مكان يحرك اصحاب المطامع الشعب يقضى على هذا الشعب بان يعود الى الوقوع في قبضة الارسطقراطية

الجيش ـ حين تدفع الامة عادية أمة أخرى عليها لاتفقد ابدا رجالا بل تفقد جنودا في غالب الاحيان .

تدل التجارب على ان الجيوش لاتكفي دائما لخلاص الامة وان الامة التي يدافع عنها الشعب لاتقهر .

التجنيد أصل الامة ومخها ومطهر أدبياتها وواضع الاساس الحقيقي لجميع عاداتها . ويكون التجنيد مؤسسة وطنية حين يصبح نقطة من نقط الشرف يحسدها الجميع فحينئذ تصبح الامة عظيمة ومجيدة وقوية وتستطيع أن تهزأ بالنكبات والغزوات والعصر .

ويركن الامبراطور الى جنود وطنيين ولا يعول على جنود مأجورين

وليس اكبر من الوطنيين الا الشجعان الذين شهروا في خدمة الوطن .

وحيث تكون الحكومة ضعيفة يقبض الجيش على أزمة السلطة

وحيثما تتناقش النصال تفلت السلطة من أيدي الحكام

الفنون والعلوم ـ ان العلوم التي تشرف العقل البشري والفنون التي تجمل الحياة وتنقل الاعمال الكبيرة الى الاجيال الآتية يجب ان تكون مكرمة تكريما خاصا في الحكومات الحرة .

وللفنون في كل عصر ميراث وهو الكذب فهي تزهر في هذا الوسط وتشتهر

الجمعيات الدستورية ـ تتألف الجمعيات الدستورية من أصحاب دسائس أو من اشخاص غير متساوين في الكياسة والمعرفة وهؤلاء الاخيرون ينخدعون دائما على التقريب ويصبحون آلات للاولين وشركاء لهم .

السلطة والقيادة ـ حيثما ينكرون على صاحب الامر والنهي سلطته يقضى على كل شيء أصدر الامر او اصمت .

الانسان المخلوق للاعمال والسلطة لاينظر أبدا الى الاشخاص بل الى الاشياء واهميتها ونتائجها .

يحتاج الانسان الى كثير من التحفظ والى أخلاق مجربة شديدة ليتولى قيادة من يكبرونه عمراً

ينشأ عن الانتصارات والانكسارات ارتباطة لاتنفصم عراها بين الجيوش وقوادها

المستقبل — يعجز الناس عن تأمين المستقبل ولا يعين خطأ الامم الا الانظمة

لا ينبغي الملك ان يقوم بعمله كأنه ليومه بل يجب عليه ان ينظر فيه الى المستقبل

السعادة — ليس في المطامع واحراز المناصب السامية سعادة الانسان العظيم واصابة امانيه فهو يدع ذلك الى حكم غيره والى احترام الاجيال الآتية .

والسعادة الحقيقية في الهيئة الاجتماعية هي في تساوق لذات كل فرد ومزاولتها وليس الوجود سعادة بل لعنة .

الجودة والرحمة — يجب على الانسان ان يصم اذنيه عن سماع صوت جودة القلب حينما يكون ذلك مجلبة للسوء على الشعب

تشبه مرحمة الملوك مبلغا من المال يدفع في اليانصيب فالكسب يأتي عن طريق الصدفة والحظ

وان حق العفو وهو أجمل صفة من صفات السيادة وانبلها لا ينبغي أن يمنح إلا حينما لا تكون المرحمة الملكية باعثا على تحقير عمل العدالة

والعفو العام يمنح للذين ضلوا عن سواء السبيل .

ويجب على الانسان ان يدري كيف يصفح وألا يبقى في حالة عدائية تجرح عواطف القريب وتجرحه نفسه ولا بد من معرفة الضعف البشري والاذعان له بدلا من مقاومته .

الوشاية — لو كانت الوشايات السياسية معدودة جريمة في نظر الخالق لما وجد الملوك نعمة في عيني الحق سبحانه وتعالى .

الاخلاق — الاخلاق الحقيقية تظهر دائما في الحوادث الكبيرة

يجب على الانسان أن يكون صاحب اخلاق في مزاولة ادارة الشؤون ومزاولة الحرب ليدرك ضالة النجاح .

يغير العمر وتعود مزاولة الشؤون والاختبار أخلاق الناس .

السقوط — الحظ يعين سقوط الامم

المدني والعسكري ـ من خصائص العسكري انه يريد الحصول على كل شيء بطريق الاستبداد ومن خصائص المدني انه يريد أن يخضع كل شيء للمناقشة والعقل والحقيقة .

والمدني الافضلية الاجتماعية على العسكري

يجب أن يصمت صوت مجد الوطني وسعادته وقت ماتدعوه مصلحة الدولة والخير العام .

الغضب ـ يخطىء الملك حينما يتكلم وهو محتدم غضبا .

ويجب على الانسان ان يترك الليل ينقضي على الاهانة التي تجرع غصصها في امسه

وينبغي للانسان ان يعرف كيف يسكن ثائر غضبه

المؤامرات ـ تعرقل المؤامرة المادية حالما تغل اليد التي تقبض على المدية أما المؤامرة الادبية فليس لها حد تقف عنده فهي تنفجر كالبارود .

ولا يعرف الفرنسويون كيف يتآمرون .

الدستور ليس من دستور في العالم يسيرون طبقا لمعناه ومبناه . ويجب أن يسن الدستور على نمط لايعرقل الحكومة في عملها ولايضطرها الى خرق حرمته

لاينبغي ان يتقيد الانسان بانظمة الحكومة بالتفصيل فالانظمة يضعها الزمان وقد لايسمح الانسان ان يترك مجالا واسعا للتعديل .

حينما تهب العواصف يكون دستور الامة نجمها القطبي الذي تهتدي به

التناقض — لا استاء ممن يناقضني بل أطلب جلاء الغامض

قلب الحكومة — الاستيلاء على الحكومة بعمل فجائي يخالف حقوق الانسان

البلاط — من الخطأ الفاضح للانسان ألا يستطيع التصدر في البلاط

الشجاعة — ليس للشجاعة العسكرية علاقة بالشجاعة المدنية

الاجرام — يضطر الملك الى ارتكاب الاجرام في بعض الاحيان ولكنها اجرام تلازم مركزه

القساوة — لاينبغي ان يظهر الانسان القساوة والشدة بلامسوغ

الاخطار — لاشيء يحرك الشجاعة والهمة في شعب عظيم الا استهدافه للخطر للمحافظة على استقلال بلاده المقدس .

القرارات — لا ينبغي للانسان أن يكابر في السعي وراء تذليل الاحوال العارضة فالاولى به ان يخضع لها فللانسان في الحياة مشروعات كثيرة وقرارات قليلة

تعرف الحكمة الحقيقية بالاجمال من الجزم بحزم في الامور

وفي الاحوال غير العادية يجب أن يكون للانسان عزيمة غير عادية

وللصدفة شأن كبير في تقرير عزائمنا

التدابير غير الكاملة — تكون التدابير غير الكاملة مضرة دائما ولا تستميل العدو الينا .

يفقد الانسان كثيرا في مزاولة نصف العمل فيجب الا يبصر أو اذا شاء ان يبصر ان يعرف كيف يبدي رأيه

العار — التاج المحفوف بالعار حمل ثقيل على صاحبه

يسهل على الامة أن تلقى رجالا اكثر مما يسهل عليها أن تستعيد شرفها

الاستبداد — لايكون الاستبداد مطلقا بل يكون نسبيا

الاستبداد العسكري يناوىء العواطف الكريمة واستبداد رجال الدين يخنقها

ان تحويل الطاغية الى مستبد اسهل من خلع نير جميع الشعوب المتحدة

لاشيء أشد ظلما من حكومة تزعم انها بمثابة الاب للرعية

التفصيل — ان الاشخاص الملقاة على عواتقهم اعباء التبعة الادبية والسياسية هم غير الذين يوافق ان تسند اليهم ادارة حساب بالتفصيل .

الله — كل شيء في العالم يذيع وجوده تعالى

حينما يبدي حكمه ذلك الذي يقيس مقدار الحياة لاتكون عنده جميع المعارف البشرية الا تجارب لافائدة من ورائها .

السياسة — الحرف يقتل الروح في السياسة ويصيب حسن الذوق والكياسة نجاحا لاتصيبه الحيلة .

اذا استطاع الانسان التكلم بصراحة وبصوت عال فما هي الفائدة من احتياله

الكهانة — جميع انواع الكهانة كذب ونتيجة للاحتيال والحماقة أو التعصب. ان مهنة المتكهن عند المتأخرين لاتزال كما كانت عليه عند المتقدمين.

بضاعة الساحر الحقيقي الوقاحة والثرثرة والجسارة وتوقدالذهن توقدا يسهل له ابراز الحكم من أول وهلة على الذين يؤمونه للاستشارة

الطلاق — الطلاق قانون يلائم مصلحة الزوجين

الاسرة المالكة — ان سياسة الملك ومصلحة شعبه وحاجته ومايجب ان يكون هادياً له في كل حين في اعماله تقتضي ان يخلف اولادا يرثون محبته الشعبية

الاسرة المالكة التي تنشأ لمحافظة على جميع الحقوق وجميع الاموال تعتبر وحدها بالطبع شرعية وتحرز الثقة والقوة:

تصيب الامة على أثر الثورات مصالح جديدة وانظمة جديدة ومجدا جديدا ولايضمن لها ذلك إلا أسرة نشأت في أحوال جديدة

اخفاق المسعى — حينما أخفق سعيا يكون ذلك ناجما عن خطأي وهذا شيء عادل.

البهرجة — في الجيش تكون البساطة في محلها اما في المدينة الكبيرة وفي القصر الفخم فيجب أن يلفت رئيس الحكومة الانظار اليه بجميع الوسائل الممكنة ولكن يجب السير على مهل

تحتاج الحكومة الحديثة النشأة الى بهر العيون وتحريك سا كنات العجب وهي تسقط حالما يبطل انبعاث البهرجة منها

مخاطبة العيون تؤثر في الشعوب

التهذيب — يجب على الحكومة ان تنظم شؤون التهذيب تنظيما يسنى لها مراقبة الرأي العام السياسي والادبي.

المساواة — يجب أن تكون المساواة الركن الاول لتهذيب الناشئة.

الامبراطور — لقب امبراطور لفظة كغيرها من الالفاظ فيجب على حامله ان تكون له حقوق ليست لغيره ليمكنه المثول امام الاجيال الآتية.

لقب الامبراطور لايفقد

العدو — حينما يقبض الانسان على ناصية عدوه يجب عليه ان يصيره عاجزاً عن ايذائه

يجب على الانسان ان يتقدم للقاء اعدائه بقدم ثابتة وعزيمة شديدة لئلا يتوهموا انه يخاف منهم فيتجرأوا عليه .

مديح العدو مشتبه فيه فهو لا يتملق رجلا كريما الا حين يبذل هذا التملق بعد زوال العداوة

خير للانسان ان يكون له عدو معروف من أن يكون له صديق مكره على الصداقة

أوربا — تكون طريقة التحالف الاوربي الكبير افضل من سواها التقدم التمدن

لم تنشأ ممالك عظيمة وثورات كبيرة الا في الشرق المأهول بست مئة مليون من البشر وليست أوربا بالنسبة اليه شيئا مذكوراً .

الضعف — لا ينبغي للانسان أن يكون شديد الصريمة وضعيفا في وقت واحد

اذا كانت الحكومة القوية معرضة للمحاذير كانت الحكومة الضعيفة أكثر تعرضا لها فانها تضطر في كل يوم الى خرق حرمة الشرائع الموضوعة والا تعذر عليها السير .

ليس احتقار الشرائع وتزعزع النظام الاجتماعي إلا نتيجة ضعف الملوك وترددهم

الملك الضعيف مصيبة على شعبه فاذا هو جعل الاشرار والخونة يظنون أنه لا يستطيع المعاقبة فقدت الدولة والملك الامن

الجوع — لا استكانة ولا خوف للمعد الفارغة

الاسرة — لا يشتق نظام الاسرة من الحق الطبيعي بل يتخذ شكله من الاخلاق والعادات والدين في كل شعب

حب الرجل لاولاده ولزوجته عاطفة ودية حلوة تستعبد النفس بطريق القلب والعواطف بطريق الحنان

القضاء والقدر — ليس القضاء والقدر مذهباً يسهل تأييده فما هو إلا كلمة فاما أن يسلم بحرية الفكر وإما أن ينبذها فاذا سلم بها فما هي النتيجة التي يمكن تقريرها سلفاً ويستطيع أقل شيء أن يغيرها . واذا نبذ حرية الفكر كان ذلك أقبح وأشر وعليه اذا جئت الى هذا العالم فلا يكون لك إلا أن تضطجع على سريرك من دون أن تعنى بأمرك واذا قدر أن تعيش فلا حاجة لك الى التغذية فانك تعيش في كل حال

الخطأ — الموت يكفر عن الخطأ ولكن لايصلحه
النساء — يجب على رجال السياسة ألا يدعوا امرأة تدنو من مكاتبهم
افضل مرب للفتاة أمها والتهذيب العام لايلائمها
المرأة مصنوعة للزوج والزوج للوطن والاسرة والمجد
ان كثيرين من الرجال لايرتكبون جرما الا من جراء ضعفهم مع نسائهم
الويل لمن يدع زوجته تتسلط عليه فلا يبقى حينئذ هو نفسه ولا يصير هو زوجته بل يصبح لاشيء .
عند اشتداد الخطوب يكون من مهمة المرأة تخفيف شدائدنا .
في الخمسين من العمر تموت الشهوات أو تكاد ويتثلم حد الرغبات ويكثر الغرور وحينئذ لا يبقى للرجل من ملجأ الا حنان زوجة طاهرة ومتساهلة فهي بمثابة قوس قزح بعد العاصفة
لا ينبغي أن تخاطب المرأة بلغة لاتفهمها
يجب على المرأة أن تشتغل بالتطريز
الحوادث المفجعة مأساة المرأة
خطف المرأة من زوجها والولد من والده عمل ممقوت لايليق بشعب متمدن
الثبات ـ يجب على الانسان ان يكون ثابت العزيمة وذا قلب جريء والا وجب عليه الا يتدخل في الحرب ولا في شؤون الحكومة .
الموظف ـ يجب ان يعطي موظفو الدولة مثالا كبيرا في بعض الاحيان
القوة ـ الاقوياء لايفاوضون بل يملون الشروط فيذعن لها غيرهم
على الانسان أن يستعمل القوة حينما لايكون له سبيل لاستعمال سواها وحينما يكون الانسان صاحب السلطة تكون العدالة أفضل .
في الناس طائفة لاندحة عن استعمال القوة لتسييرها
يكون الانسان قويا حينما يعقد عروة العزم على الموت
القوة مبنية على الرأي
الحصن — يكون حظ الامة في بعض الاحيان منوطاً بموقع الحصن الذي يحميها
الثروة ـ كانت الثروة في كل حين أول وسيلة للاحترام

الثروة كالمرأة اذا فقدتها اليوم فلا تطمع باصابتها غداً

الثروة متقلبة فكم من اناس هادنتهم وكانت باعثا على اضافة بعض سنين الى عمرهم

السخاء — يجب على الانسان أن يعرف كيف يعطي لكي يأخذ

الدهاء — الصناعة الحقيقية لاتقوم بالعمل بجميع ما للانسان من الوسائل المعروفة والمعطاة فالفن والدهاء يقومان بعمل الشيء رغما من المصاعب وبوجود اشياء مستحيلة أو بعدم وجودها

ان الذين غيروا وجه العالم لم يفعلوا ما فعلوه باستمالة الزعماء اليهم ولكن بتحريك عامة الناس فالشق الاول من هذه المسألة يبنى على الدسائس ولا يكون له الا نتائج ثانوية والشق الثاني هو سير الدهاء وفيه تغيير وجه العالم

المجد — خير للانسان الا يعيش من أن يعيش بلا مجد

الشهرة العظيمة دوي شديد فكلما اكثر الانسان منها زاد امتدادها . أن الشرائع والانظمة والانصاب والاعمال تزول جميعها ولكن المجد يبقى له دوي في الاجيال الآتية .

يشبه حب المجد الجسر الذي مده الشيطان فوق وهدة العدم ليجتاز عليه من الجحيم الى الفردوس والمجد يضم الماضي الى المستقبل وبينهما وهدة عميقة .

ان الانظمة التي يسنها الملك وما يجود به من الاحسان والانتصارات التي يصيبها تعد أسبابا حقيقية للمجد

لايدري أحد الغاية التي يصل اليها الانسان الملتهب رغبة في نيل الشهرة

الحكومة — يجب على الانسان أن يسعى للتوفيق بين اعلى مستوى للحرية السياسية والامن الشخصي والقوة وما يلزم من حصر السلطات في الحكومة لحمل الناس على احترام استقلال الامة وكرامة صاحب التاج .

تقتضي مزاولة الشؤون العامة والادارية والعسكرية فكرا حادا وتحليلا عميقاً ومقدرة على تثبيت الامور مدة طويلة من غير ما تعب .

يجب على ولي الحكومة أن يكون عزوماً بلا تعصب وذا مبادىء لا تثير افكار الشعب وان يكون قوي العزيمة بلا قساوة ولا ينبغي له أن يكون ضعيفا رعديدا أو ان يخجل من القيام بما يجب عليه .

يجب أن يكون للحكومة اعضاد ووسطاء والا لم يكن لها منزلة عند الامة ولا وسيلة لمخاطبة الشعب أو معرفة رغائبه .

الحكومة الجديدة تلتقط الحظ كما يبدو لها وتسخره لخدمتها

الامة العظيمة تحتاج الى حكومة ثابتة لا يزعزعهـا تخرم القابض بيده على ازمتها .

الحكومة المتفيئة في ظل حماية الاجنبي لا ترضى بها أمة حرة

الرجال العظام — الرجال العظام يعرفون كيف يتسلطون على السعادة والحظ

يندر أن نرى الرجال العظام يخفقون في أشد المشروعات خطرا .

يكفي ان يكون في الامة طائفة من الرجال العظام لتدبير حظها الادبي

في الازمنة العصيبة يظهر الرجال العظام والامم الكبيرة شدة الصريمة ويصبحون موضوعا لاعجاب الاجيال الآتية .

مكافأة الرجال العظام في ذمة الاجيال الآتية ورأيها

العظام في الخير والشر يتشابهون اولا يكون من باب السفسطة ان نقول ان نفس خرطوش (رئيس عصابة من اللصوص) تشبه نفس « كونده » الكبير من بعض الوجوه .

لا يكون الملك عظيما الا في طليعة جيشه .

الحرب ـ الحرب شديدة الوطأة على الشعوب وهائلة على المغلوبين

ان منظر ساحة القتال بعد نشوب المعركة يجعل الملوك يحبون السلم ويستفظعون الحرب

ما افظع منظر تقاتل الشعوب عند الذي يحملهم على التقاتل

حينما نتقاتل في أي بلاد كانت نضرم نار الحرب الاهلية

حينما يتجاوز الملوك حدود الحقوق التي تخولهم اياها ثقة شعوبهم بهم ويجلبون عليهم ويلات الحرب يحق للشعوب ان تنزع هـذه الثقة منهم .

في مصانع الوطن يدبرون حرباً منظمة ومأمونة العواقب يشهرونها على العدو وهي على الاقل لا تكلف قطرة واحدة من الدم .

ان شؤون الحرب وحظ المعارك ومصير الممالك معلقة بخيط كخيط العنكبوت .

في الحرب كما في الحب يجب ان ينظر الناس بعضهم الى بعض عن كثب ليمكنهم أن يقرروا نتيجة .

البغض ـ الرجل كل الرجل لايبغض ابداً
لاينفع ابداً ان تضرم البغضاء او أن يصبح الانسان ممقوتاً بسببها
تحذر من البغضاء وأصخ الى كل شيء ولا تبرز الحكم قبل التروي التام .
اخذ الثأر امر محزن
الصدفة ـ الصدفةعنايةالعيارين
التاريخ والمؤرخون ـ الحقيقة ارث التاريخ الموروث وهو من هذا القبيل معتبر مكرما وجديرا بأن يكون عبرة خالدة للبشر في التعليم
يجب على من يصنف التاريخ ان يكون فوق درجة البشر لان الكاتب الذي يحمل القلم لكتابة هـذا الـكتاب الذي توزن فيه اعمال البشر بميزان العدالة السامية يجب أن يتجرد من أي اهتمام بالمصلحة أو بالعجب .
يلقى الانسان عبرة في الحوادث العصرية كما يلقى في الحوادث التاريخية ولـكن لا يلقي فيها أبدا مثالا ينسج على منواله
الصفحات التي لاتمحى في تاريخ الممالك العظيمة هي المعارك والاعمال الكبيرة وفيها يبحث المؤرخون عن مادحهم
حين يبلى الملوك ببلية اهمال مداراة عواطف المؤرخين أو بجرحها يعضون بنانهم ندما .
الرجال — لايكون الرجل بمنجاة من الخطر سواء كان على طرف صخرة شاهقة او تحت سقف قصر فخم فهو هو في كل مكان .
من الامور الحقيقية انه تصعب معرفة كنه الانسان ولـكي يأمن المرء الانخداع يجب عليه ان يقصر ابراز حكمه على اعمال الانسان في الوقت الحاضر
لان نضحك من البشر خير من ان نبكي عليهم
ليس الرجال في الغالب الا أولادا كبارا
لايحكم على الانسان بمجرد النظر الى وجهه فهو لايعرف الا بالتجربة
إن أعمال الناس تسيرها الوشاية والحسد وجميع عواطف البغض .
حياة الانسان مرآة ينعكس عليها ما يقرأونه فيها ويستفيدون منه .
الرجال نادر وجودهم .
المعالي ـ انشاء الرتب والنياشين يؤثر في الشعب

يسيرون البشر بألعاب صبيانية

لكل دور من أدوار الحياة ألعاب

لا يمنح الجميع الشعور بقيمة المعالي وإن قليلا من المال لا يفسد شيئاً

الجهل ـ الذين يتعمدون خداع الناس ويتولون الاحكام لفائدتهم وحدهم يريدون أن يبقوا الناس متسكعين في ظلام الجهل لانه كلما تنور الناس زاد عدد الذين يقتنعون من بينهم بضرورة وجود الشرائع .

فساد الاخلاق ـ فساد الاخلاق أشأم خلة في صاحب السلطان فهو يجعله أمراً مألوفاً ويبالغ الناس في إطرائه ليبهجوه وهو يقوي جميع الرذائل ويفسد جميع الفضائل وهو آفة تنزل بالامة .

الصناعة والتجارة والزراعة — الزراعة روح المملكة وأساسها الاول والصناعة منشأ الغنى والهناء في الامة والتجارة الخارجية راموز زيادة اليسر وحسن استعمال الصناعة والزراعة .

المالية المؤسسة على الزراعة المتقنة لا تنضب مواردها أبداً

التجارة الحرة تفيد جميع طبقات الامة وتحرك جميع الافكار وتثير الامة كلها وهي مماثلة للمساواة وممهدة السبيل للاستقلال.

نكران الجميل ـ ليس الناس ناكرين الجميل كما يتهمونهم واذا شكوا منهم في بعض الاحيان فما ذلك إلا لان المحسن يطلب منهم في الغالب اكثر مما يعطيهم.

التعليم العام ـ يعد التعليم العام أول اداة من أدوات الحكومة .

اذا كان النور يؤذي الجمهور فلا يكون ذلك إلا حينما تعارض الحكومة مصالح الامة وتحصره في حيز محدود وتجعل آخر طبقة من الامة حليفا للشقاء وحينئذ يكثر عدد أصحاب الافكار التي تدافع عن ذمارها أو تأتي الجرائم .

الاحكام ـ تصدر الاحكام في الدرجة الاخيرة بمقابلتها بامثالها .

العدالة ـ لا تكون قوة بلا عدالة .

اذا فقدت العدالة اشتد ساعد الاحزاب والطغاة وكثر عدد الضحايا من الظلم والاستفظاع وفقدان الادب معاقبة الابن بجريرة والده وتجريده من ميراثه .

الحرية ـ الحرية والمساواة لفظتان خلابتان .

الوجدان ملجأ لا يستباح ذماره تلجأ اليه حرية الانسان .

الحرية الحقيقية المدنية تأمين للتملك .

الملك ينزع الحرية حين تعرقل سيره .

علم الادب والكتاب ـ الادباء أشخاص نافعون يستوجبون أن يميزوا عن غيرهم لانهم يشرفون وطنهم

اذا برز الفكر الجميل الصحيح بحلة الشعر البديع وصل الى مستقر النفس باسرع مما يصل اليه اذا برز بحلة النثر المنمق .

المأساة تجعل الحرارة تدب في النفس وترفع القلب وتبتدع الابطال وتقضي بهذا الابداع

ان أفضل وسيلة لتشجيع علم الادب هو اسناد منصب الى الشاعر في خطط الحكومة

يجب على الشعر والتصوير والنحت ان تكذب ولكن يجب ان يكون هذا الكذب ساميا فاتنا وعظيما .

الشرائع ـ الاشتراع ترس تحمله الحكومة في كل مكان يتهجمون فيه على ثروة الجمهور .

الشرائع التي تكون من الوجهة النظرية مثالا للصراحة تصبح في غالب الاحيان باعثا على الابهام حين توضع موضع الاجراء فالفساد يتسرب الى كل ما يمسه الناس وتتمرس به الشهوات

للناس قلوب تؤثر فيها الشفقة أما الشرائع فلا قلب لها .

وجودنا يرتكز على الشريعة فالذي يبتغي تقلد الامر والنهي واختلاس مناصب لا تخوله اياها لا يكون صديقا لشعبه

سر المشترع معرفته الاستفادة من مخالفات الذين يزعم انه متسلط عليهم .

تقضي مصلحة الامة بالا يجعلوا الهيئة الاشتراعية سلسة المقادة واذا كانت هذه الهيئة ذات قوة للتسلط علينا اخنت عليها الحكومة أو اخنت هي على الحكومة .

القضاة — من الحماقة ان يكون القاضي في وقت واحد قاضيا في الفعل وفي الحق

الجنود الجبناء والضعفاء يفقدون استقلال الامم أما القضاة الجبناء فيهدمون قوة الشرائع وحقوق العرش والنظام الاجتماعي .

الوراثة غير منطبقة على العقل في القضاء لانها تجعل القضاء ملكا لصاحبه وهي غير منطبقة ايضا على سيادة الامة .

المولى — خير للامة ان تجاذف لاصابة مولى واحد من ان يكون لها الف مولى .

النكبات — ان حظ استيانا كس اسير اليونانيين ظهر لي دائما انه اشأم حظ عرف في التاريخ .

للنكبات بطولة ومجد

الشعوب التي تعودت نيل الانتصارات الكبيرة لاتستطيع في غالب الاحيان ان تطيق يوماً من الايام التي تنزل فيها النكبات

الزواج — الزواج حالة من حالات الكمال الادبي

ان شكل زهرة المديسيس لايعد في الزواج الا من الصفات الاضافية

يجب أن نقرر فكرنا على الزواج بامرأة متخذين قاعدة لعملنا صفاتها الادبية كاللطف والاقتصاد وحسن الادارة مما تجيء به الى بيت زوجها .

الموت وحده يفصم عرى الزواج التي عقدت بالميل الودي والعواطف والحب .

يجب على الانسان ان يكون شديد الحزم لكي يكون بعد زواجه صاحب الامر والنهي في بيته

لايتزوج الذي يخصص نفسه للتعليم الا بعد قطع الدرجات الاولى من مهنته

لافائدة من الزواج للمنتظمين في سلك الجندية

الوزراء — يجب ان يكون فكر الوزير أسرع من يده فليس له وقت الا لوضع الرسوم فلا بد له من أن يصوغ الكلمات في حروفه والعبارات في كلامه

اذا سقط الوزراء بقيت الامم واقفة

الاعتدال — الاعتدال يطبع الحكومات بطابع محمود كما يطبع الشعوب وهو رفيق القوة وكيان الانظمة الاجتماعية

الانصاب — ان فكرة اقامة الانصاب للذين افادوا الشعوب مكرمة في الامم ولكن يترك للقرون الآتية امر الاهتمام بتشييدها بعد ان يتأيد الرأي الذي يبرزونه عن الابطال .

الموت — نحن جميعنا مقضي علينا بالموت ولكن هل تساوي بضعة ايام نعيشها لذة الموت في سبيل بلادنا

أفضل أنواع الموت موت الجندي في ساحة الشرف هذا اذا لم يكن افضل منه موت القاضي في سبيل الدفاع عن مليكه والعرش والشرائع .

الموت يفاجىء النذل ولكنه لا يفاجىء الشجاع وهذا لايموت إلا حينما تأتي ساعته .

في الحياة مصاعب شتى تكون سببا لشرور عظيمة بحيث لا يعتبر الموت اعظمها .

الامم — يستطاع قتل شعب عظيم ولكن لايستطاع تصييره جبانا

أيتها الشعوب انك تستحقين العبودية والعار

احترموا الشعوب التي تنقذونها

الرأي العام — الذي لا يعلق أهمية على الرأي العام يدل على أنه غير جدير بالاصوات في الاقتراع .

الرأي العام في قبضة الذي يعرف كيف يتصرف به

الرأي العام يمنح القوى حقا والقضية التي تفوز تعتبر قضيته

ماهي الحكومة ؟ لاشيء اذا لم يكن الرأي العام من ورائها .

المعارضة — الفرق عظيم بين المناقشة في بلاد مضى عهد طويل على تنظيمها والمعارضة في بلاد حديثة العهد بالتنظيم

التنظيم — خير للشعب أن يكون له تنظيم شيء من أن يكون بلا تنظيم

الكبرياء — لاشيء من الكبرياء يعادل الضعف الذي يشعر المرء به بتحرره من نير القوة

السلام — السلام هو أول حاجة للانسان وأول مجد له

لاينبغي أن يعقد الصلح بلا ضمان لان مكارم الاخلاق تخدع السياسة

السلام المبني على استقلال جميع الشعوب معدود من الخيالات التي يتخيلها الاغرار ويؤيد ذلك الاختبار .

الكلام — الكلام يزول والاعمال تبقى

الوطن — الوطنية كلمة تعبر عن فكرة سامية

ليس للملوك والقضاة والجنود والوطنيين في حياتهم سوى غرض واحد وهو مصلحة الوطن .

حينما يزول الوطن يجب على الوطني الحقيقي ان يموت

الفساد ـ يكون الفساد دائماً فرديا ولا يكون على التقريب أبداً عاما فاخوة يوسف لم يقر رأيهم على قتله أما يهوذا الاسخريوطي فانه أسلم سيده الى العذاب ببرودة وخبث وحسبان دنيء .

الشعب والغوغاء ـ إن سيادة الشعب لا يجوز المجازفة بها

إن أول واجب على الملك هو ولا مراء أن يفعل ما يريده الشعب ولكن الشعب لا يعرف على التقريب ما يريد فان مشيئته وحاجته في قلب الملك أكثر مما هما في فيه .

في الامة العظيمة تكون الاكثرية عاجزة عن إبراز الاحكام الصائبة على الاشياء

يجب أن يخدم الشعب بكرامة وأن يعرض عن إبهاجه فأفضل وسيلة لاستمالته هو الاحسان اليه .

يقتضي ثبات الحكومة أن يكون للشعب ضلع كبير في الانتخابات

لاينبغي أن يعول على الشعب فالشعب يصيح على السواء · « فليعش الملك » « فليعش الاعتصاب » بل يجب ان يختط منهج له وأن يكون لذلك أدوات .

الجمهور الذي ينظر الي باعجاب ينظر الي بالعين نفسها وانا صاعد الى النطع .

الشعوب والملوك أعداء الداء .

ليس مجموع الهيئة الاجتماعية شريرا لانه لو كانت الاكثرية الساحقة تريد أن تعبث بالشرائع البشرية فمن يجرؤ على صد تيارها أو تحويله .

لاتتمرس الغوغاء بأحد حين تبصر أمامها حراب الجند

يحتقر اللئام بقدر الامكان وحين لا يبقى هذا الاحتقار ممكنا يجب الضرب على ايديهم بيد من حديد

النهب ـ من حسن الحظ أن تكون السياسة متفقة مع المبدأ الادبي لمعارضة النهب

المناصب ـ حينما يطمع الانسان باحراز منصب يكون مبيعا الغيره قبل احرازمنصبه

المحافظة على النظام ـ لكي يحسن الانسان المحافظة على النظام لا بد له من أن يكون خاليا من العواطف

تقتضي المحافظة على النظام الثبات ولاسيما السرعة .
في المحافظة على النظام ابتداع يفوق ما فيها من الاكتشاف .
السياسة — أفضل سياسة هي البساطة والحقيقة
لايستطيع الانسان أن يوفق بين السياسةوالعواطف
الاعتبارات العائلية أمر بليد في السياسة
الاسباب السياسية تفوق جميع الاسباب الاخرى :
يجب على الانسان أن يخضع منهاجه السياسي لمقتضيات الحوادث وألا يخضع الحوادث لمنهاجه السياسي
في السياسة كل ماهو ضار ـ ولو كان في القواعد ـ لايعذر أحد عليه لانه من الضرورات اللازمة وكل ماتجاوز ذلك عد جريمة .
النصب الذي له علاقة بالسياسة يجب أن يسرعوا في اقامته
في السياسة بون شاسع بين الوعود وتتميمها
تتسلط السياسة على الحوادث ولاتتسلط الحوادث على السياسة
لايستطيع أحد أن يعرف نتائج المفاوضات السياسية الخاضعة لتأثير الحوادث العسكرية
ليس من حوادث صغيرة للامم والملوك فهم متسلطون على حظهم
الكهنة ـ لاتبقى مؤسسة مدة طويلة من دون أن تكون مؤيدة بهيئة قسوس أو هيئة مدنية
يجب على الكهنة أن يحصروا اعمالهم في ادارة شؤون الديانة
لاينبغي للكاهن أن ينزع ثوبه ابدا ويجب عليه الا يخبىء اخلاقه دقيقة واحدة .
ابتدأ الانحطاط في ايطاليا منذ الحين الذي اراد الكهنة فيه ان يديروا شؤون المالية والمحافظة على النظام والجيش .
الملوك — ان الملوك هم أول الوطنيين في الدول
يقرن الملك حظه بحظ وطنه ليتمثل به
يجب على الملك أن يكون راجح الحصاة على عرشه
الذي يبتغي التأثير في الملوك ومقاصدهم يجرح عواطفهم

كل امة مهما صغر شأنها يحق لها أن تنفض عنهـا غبار الصغارة بخضوعها لملك يجلسه على عرشها عدو ينتصر عليها انتصارا وقتيا

حينما يظهر الملك الثقة في اعماله يجعل للناس ثقة به

تفنى ارادة الملوك في بعض الاحيان فالحوادث تسلط عليهم ويتوقعون كل شيءمن نتيجتها

الاحتمال والترجيح — حينما يكون الانسان في حالة الاحتمال أو الترجيح لايستطيع تقرير فكره على شيء

التقدم ـ يسرع الانسان حينما يسير وحده .

التملك ـ الحرية المدنية الحقيقية منوطة بسلامة التملك .

البسيكولوجيا ـ ليست البسيكولوجيا من خصائص قواد الجيش البري ولا من خصائص قواد الجيش البحري فليس لهؤلاء القواد سلطة الا على الجسم الانساني أما ماينطوي عليه هذا الجسم فهو من خصائص الفلاسفة .

التجديد ـ من يجرؤ على التفكير بتجديد شعب بين عشية وضحاها يعد احمق .

الملكات ـ يجب على الملكة أن تتسلط على نفسها وان تكون ذات كياسة في الحب .

يجب أن يظل كيس الملكة مفتوحا لتغمر بعوارفها النساء والاولاد .

الدين ـ لاغنى للحكومة عن الدين في جميع البلدان ولا بد من التعويل عليه في التسلط على الناس .

أرى في الدين سر النظام الاجتماعي

الاديان جميعها وليدة البشر وهي العضد الحقيقي للآداب الحقة والمبادىء الصادقة والاخلاق النبيلة

يجب على رجال الدين أن يقتصروا على خدمة السماء .

لاشيء كالاستبداد الديني يحقر من مقام الامة

العواطف الدينية تعزي قلب الانسان فمن يحرزها ينل نعمة من السماء

كل شيء في الدين يجب أن يكون مجانيا للشعب ولاينبغي أن يحرم المساكين مايعزيهم في فاقتهم وذلك لكونهم مساكين .

تصوروا عذاب الآخرة متمما للاشياء الجذابة الناقصة التي يعرضونها علينا .

لا أحب أصحاب الافـكار القوية فالحمقي وحدهم لايكترثون للمجهول

يجب على كل انسان ان يبقى في الدين الذي ولد فيه

ان تغيير الدين — وقد لا يعذر الانسان عليه — لمصالح خاصة يستطاع فهمه من وراء عظم نتائجه السياسية

يجب أن يكون الدين كله في الدولة في قبضة صاحب السلطة كما تكون قوة الشحنة في يده

النتائج — تنتهي الاشياء البشرية بسفك الدم الغزير والقيام باعمال عظيمة كثيرة وبانتصارات واعمال ومواظبة

كل شجرة تأتي بثمرها ولا يحصد الانسان الا مازرعه

يقضي الانسان بالحكم على أشياء جمة لانه لايدرك نتيجتها

التردد والفوضى في المحركات يفضيان الى الضعف والفوضى في النتائج

أصغر الاسباب ينتج أعظم الحوادث

لاتثمر الامور إلا حين توضع في محلها .

لايكون شيء قد تم مادامت اشياء باقية بغير اتمام

الثورات — الثورة ضربة سوط قوية تضرب بها الامة .

الثورات كالسماد القذر تساعد على نمو اخضر النبات .

الثورات المبنية على قاعدة تتلف كل شيء في الحال ولا تستبدل به الا في المستقبل

ان زمان الثورات هو زمان الاجرام والدهاء فكلاهما يلقيان مادة يمتازان بها

لاينبغي للجندي أن يقنط من شيء في آونة الثورة فعليه أن يتدرع بالثبات والشجاعة .

في الثورات لايلتقي النقيضان

الثورة ضربة شديدة تنزلها السماء بالارض فهي تغني الفقير من دون أن ترضيه وتفقر الغني من دون أن ينساها وهي تقلب كل شيء ظهرا لبطن وتجر البلاء على الجميع ولا تمنح أحدا هناء العيش .

الشك — الشك فضيلة في التاريخ والفلسفة

العواطف — يجب أن لايكون قلب رجل الدولة إلا في رأسه

معظم العواطف متسلسل عن التقليد ولذلك نشعر بها لانها تقدمتنا

تعظم الانسان بقلبه يوليه مجداً وقوة حقيقية

الشدة ـ تتلاقى الشدة الهفوات أكثر مما تمنع وقوعها

حينما يعزم الملك على الضرب يجب عليه أن يضرب كثيرين في وقت واحد فتستتب الامور بعد ذلك فيقلل حينئذ من العقوبة ويكثر من نيل نتيجة من دون أن يجرو يلا

حينما يعرف الملك الاشخاص الذين يبتغون التخلص منه يجب عليه أن يبادر الى التخلص منهم

يجب على الانسان أن يضرب أو أن يضرب

العذاب ـ الحياة عذاب والرجل الكريم لايني عن الجهاد ليظل مالكا ناصية نفسه .

قد يتمزق الفؤاد وتبقى النفس غير متزعزعة .

للالم حدود لا ينبغي أن يتخطوها .

الملوك ـ ليست سيادة الملوك في لقبهم ولا العرش في مظهره الخارجي .

لقد تقرر في كل مكان أن الملوك لا يوجدون إلا للشعوب

ان وجود العرش وما يحيط بالملوك من البهاء والقوة واستمرار السلطة والوراثة أنظمة وضعت لخدمة الشعوب وتنظيمها .

لا تكون الثقة التي يصيبها الملك متينة الاركان إلا حينما يقرها انتخاب الشعب الذي قلده السلطة العليا

ليس في العالم ملوك عراة فالملوك متشحون بالاردية وليس الملوك في الطبيعة بل في التمدن .

الملك يجعل شعوبه سعيدة بسيرته المستقيمة الصادقة البسيطة وهو نفسه يتمتع بهذا الهناء .

لا يكون الملوك بلا أموال ولا وسائل لحشد العساكر وتهيئة الاساطيل .

لا ينبغي للملك أن يضع يده إلا على أشخاص يصلحون لأن يعملوا عملا :

حينما يكون عند الملك أشخاص ممتازون لا ينبغي له أن يكل الاعمال الى المغفلين وأصحاب الدسائس

يجب على الملك أن يضحي باعذب عواطف قلبه في سبيل الدولة ولاينبغي أن تكون ضحيته مافوق شجاعته

لاينبغي أن يكون شرف الملك معارضا لهناء بلاده .

لايكون الملوك الشرعيون بين الجيوش الاجنبية

انقضى عهد الملوك الكسالى

يجب على الملك أن يفتح طريقا واسعا في وجه شعبه وان يحمي الذي يسير في الصراط المستقيم ويعاقب الذي يحيد عنه يمنة أو يسرة

أول فكرة للملوك يجب أن تكون موجهة الى الاذهان لاماني جميع الشعوب وحاجاتها والبحث في آفة السلم عن علاج للمصائب التي تثقل في آونة الحرب كاهل جميع الامم.

يندر أن يكون في حياة الذين ينتدبون لتولي شؤون البشر اوقات هناء

يجب على الملك ان يرغب في الموت اذا قضي عليه بأن يُصبح موضوعا لشفقة الناس عليه .

قليل عدد الملوك الذين لم يستحقوا الخلع عن العرش

العروش مصدرها الله واكبر جريمة في عينه تعالى هو زعزعة دعائم الاحترام والحب الواجب على الانسان اظهارهما نحو الملوك .

الملك الذي تختاره الامة يكون في نظر الشعوب ملكا شرعيا

في المملكة لاينفصل شخص الملك عن العرش .

اذا نزع من الملكية اقدامها على العمل نزعت منها قوتها الادبية

يجب أن تميز اعمال الملك الذي يتصرف بمعونة غيره عن اعمال الفرد الذي لا يثبطه شيء عن اظهار عواطفه فالسياسة توافق وتأمر ايضا على عمل الواحد ما يكون بلا مسوغ في عمل الآخر

ليس الملوك ملائكة بل هم اناس ويكونون في بعض الاحيان معرضين اكثر من غيرهم للخطأ والغضب

حينما يمدح الخادم مليكه ولا يكون هذا الملك مستحقا للمدح لا يحسن خدمته .

خير للانسان أن يعيش ملـكا من أن يعيش اميراً .
الاحصاء — الاحصاء «ميزانية» الاشياء
النجاح — يتعلق نجاح الوسائل بوجدة العمل
يتعلق نجاح المسعى بلا شيء كـكلب أو جرذ مثلا
الانتحار — الاستسلام الى الحزن بلا مقاومة والانتحار للتخلص من ذلك هما مغادرة ساحة القتال قبل الانتصار
هل يستطيع الانسان ان ينتحر وهل يجب عليـه أن يفعل ذلك . يجاوب بعضهم على ذلك بقوله « نعم » وهذا حينما يقنط ولـكن من يقنط ومتى يقنط وكيف يقنط في معترك هـذه الحياة حيث يكون موت رجل موتا طبيعيا او عنيفا باعثا في الحال على تغيير حالة الامور ووجوهها
لاشيء اعظم لصرم حبال الحياة من عمل الانسان الذي يفقد كل ثروته في اللعب فلديه مجال واسع للشجاعة للتغلب على مصيبته التي لم يستحقها
المائدة — يكون للمائدة قسم كبير في اصابة السيادة
الزمان — كل ساعة من الزمان تفقد تدني من الشقاء في المستقبل .
المعاهدات — المعاهدات اعمال مقدسة يعد اجراؤها اول ضمان تعول عليه الامم .
المعاهدة التي لاتبرم في الوقت المعين لاتعتبر معاهدة حقيقية .
ان ابرام معاهدة الصلح يجب أن يكون دائما خالصا وبسيطا من دون تنقيح ولا تعديل .
يجب أن يكون الـكلام في المعاهدة واضحا وخاليا من المواربة
لا يحسن أن تعرض المعاهـدة المعقودة بين حكومتين على اهواء وآراء مجلس اشتراعي .
العمل — العمل يضمن راحة الهيئة الاجتماعية وهناء الفرد معا
العرش — العرش قطعة من خشب تغشيه القطيفة
الوحدة — قوة الائتلاف والوحدة تؤثر في آخر شخص عادي
الحقيقة — ان اختراع الطباعة وانتشار النور في ايامنا هذه يقلل من مضار الوشاية التاريخية وتظهر الحقيقة في آخر الامر ولـكن ما ابطأ ظهورها

لا تحتاج السلطة المطلقة الى الكذب فهي تصمت أما الحكومة المسؤولة المضطرة الى الكلام فانها تستر الحقيقة وتكذب بوقاحة

الفضيلة — خسرا للذين لايؤمنون بالحقيقة

في احترام الجمهور مكافأة لاهل الصلاح .

يفعل احدهم فعلا منكرا ويكون هذا الرجل كريما وذلك لان الانسان لايفعل مايفعله وهو مسير بخلقه بل بعاطفة وقتية سرية مكتوبة في طيات فؤاده

من خصائص كرام القوم ارشاد السلطة الى الحقيقة

الرذائل — يوجد رذائل وفضائل وقتية

الشجاعة والفضائل تحفظان الدول والرذائل تدمرها

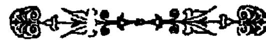
الانتصارات — لاينبغي أن يتقلدوا السلاح لاجل مشروعات العظمة الباطلة ولا للانقياد لمطامع الفتوح

الفتوح الوحيدة التي لاتبقي تأسفا بعدها هي فتوح قلعة الجهل

يحتاج الملوك في بعض الاحيان أن يصيبوا انتصارا لكي يباشروا مشروعا جديدا

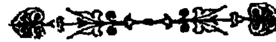
انتهاك العرض — الذي ينتهك العرض يعد وحشا في جميع البلدان

خرق حرمة القوانين — ان فضح أسرار الرسائل قد يفضي الى فقد الملك افضل اصدقائه .



خاتمة الكتاب

قذفت بنا الاقدار الى جزيرة كورسيكا في أواخر صيف سنة ١٩٢٠ — ولامجال الآن لبيان الاسباب التي أوصلتنا الى تلك الجزيرة — وقد قضينا ستة أشهر في مدينة اجاكسيو مسقط رأس نابوليون الكبير فكانت تلك الفرصة من أحسن الفرص لدرس حياة ذلك الرجل العظيم في عقر بيته ولذلك سننشر خلاصة ما وفقنا الى جمعه عن كورسيكا وسكانها ويرى المطالع ان لجميع هذه الامور علاقة باخلاق نابوليون وعاداته وقد بقي اثرها فيه كل حياته ونكتفي بهذا التمهيد الموجز ففي سياقة الاخبار مايغنينا الآن عن زيادة الاسهاب :



جزيرة كورسيكا

وصلت الباخرة « كورسيكا » التي اقلتنا من مرسيليا الى مرفأ اجاكسيو في الساعة التاسعة من صباح الجمعة في ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٠ والمسافة بين مرسيليا واجاكسيو ٣٣٠ كيلومترا تقطعها الباخرة في اثنتي عشرة ساعة وخمس واربعين دقيقة . وحالما تجتاز السفينة جزائر سنغينار تقع العين على خليج اجاكسيو وهو مشهد بديع يروق الناظر اليه فالى الغرب ترى بساتين بريكايا وجبانة اجاكسيو وكنيسة الاغريقيين والى الشرق بيانا ورأس ستي نافي ورأس بورتيكيو وعند آخر الخليج برج كابيتلو وسهول كبودل اورو وقمم جبل أورو المكللة بالثلج .

وصعدنا الى البر واجتزنا الرصيف المسمى رصيف نابوليون حتى انتهينا الى ساحة النخل المنصوب في وسطها تمثال يمثل نابوليون حينما كان قنصلا اول ثم سرنا في شارع فراتفال حتى وصلنا الى نزل اجاكسيو الكبير اونزل الكنتيننتال فوضعنا امتعتنا فيه وبعد الغداء نزلنا الى المدينة لنتفرج عليها وزرنا البيت الذي ولد فيه نابوليون الكبير وسنعود الى وصفه عند الكلام عن اجاكسيو

ولما كان من الغد نهضنا باكرا وركبنا القطار المنطلق الى مدينة كورتي وقبل الكلام عن هذه المدينة يحسن بنا أن ننشر لمحة عامة عن جزيرة كورسيكا وقد قل من عرف شيئا عنها من الناس في بلادنا غير مولد داهية فرنسا نابوليون الاول فيها وبزر القز المعروف باسمها :

كورسيكا جزيرة جميلة في البحر الرومي كان يسميها الاغارقة سرنوس والرومان كورسيكا والفرنسويون كورس وهي اكبر جزائر البحر المذكور بعد جزيرتي صقلية وسردينيا وموقعها بين الدرجتين ٤١ و٤٣ من العرض الشمالي والدرجتين ٦ و٨ من الطول الشرقي وهي ذات شكل بيضي غير متناسق يمر محوره الاكبر وطوله ١٨٣ كيلومترا من الشمال الى الجنوب ويبلغ طول المحور الاصغر الممتد من الشرق الى الغرب ٨٤ كيلومترا ويبلغ محيط الجزيرة ٤٩٠ كيلومترا فتكون مساحتها ٨٧٧٨ كيلومترا مربعا ويبلغ عدد سكانها نحو ثلاث مئة الف

نفس واقرب مكان اليها في فرنسا يبعد عنها ١٧٠ كيلومترا وفي ايطاليا٨٥ كيلومترا ويفصلها عن سردينيا بوغاز بونيفاسيو وعرضه ١٢ كيلو مترا .

وتقطع الجزيرة من الشمال الى الجنوب سلسلة جبال طويلة تقسمها الى منحدرين يكادان يكونان متساويين ويتفرع من هذه السلسلة سلاسل جبال أخرى بحيث أن ارض الجزيرة تعد جبلية واعلى تلك الجبال جبل شنتو ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٢٧١٠ امتار فجبل روتندو وعلوه ٢٦٢٥ مترا فجبل باليوربا وعلوه ٢٥٢٥ مترا فجبل بادرو وارتفاعه ٢٣٩٣ مترا فجبل اورو وارتفاعه ٢٣٩١ مترا فجبل رينوزو وعلوه ٢٣٥٧ مترا وغير ذلك من الجبال التي يزيد ارتفاعها على الفي متر.

ويتخلل تلك الجبال اودية عميقة يتصل بعضها ببعض بمعابر ضيقة ناشئة عن انخفاض طارىء على السلسلة الاصلية ومتفرعاتها ومن تلك المعابر ما يبلغ ارتفاعه ٣٦١ مترا كمعبر السيرا ومنها ما يبلغ ١٤٦٤ مترا كمعبر فرجيو .

والشواطىء الغربية في الجزيرة تتخللها خلجان واخوار كثيرة والشواطىء الشرقية يتصل بعضها ببعض الا في بعض الجهات .

وفي كورسيكا تنحدر الجداول والانهار من مرتفعات عالية جدا وتقطع مسافة قصيرة قبل ان تدفع ماءها الى البحر فهي والحالة هـذه اشبه بالغدران منها بالانهر واهمها نهر غولو في المنحدر الشرقي فطوله اربعة وثمانون كيلو مترا ويتلوه نهر تافينيانو وطوله ثمانون كيلو مترا . وفي المنحدر الغربي نهر ليامونى وطوله اربعون كيلو مترا ونهر غرافونا ونهر طارافو .

وفيها بحيرات اهمها بحيرة جبل روتندو ومساحتها سبعة هكتارات وبحيرة نينو ومساحتها ستة هكتارات ونصف هكتار أما المستنقعات فتكثر في السواحل الشرقية واهمهـا مستنقع بيغوليا فان مساحته الف هكتار وخمس مئة هكتار ومستنقع ديانا ومساحته خمس مئة هكتار وسبعون هكتارا .

وفيها احراج مساحتها مئة وتسعة واربعون الف هكتار منها خمسة واربعون الفاً للحكومة وسبعـة وسبعون الفاً للبلديات وسبعة وعشرون الفاً للافراد

وفيها مياه معدنية غزيرة تستعمل في معالجة فقر الدم (الانيميا) ويكثر فيها الحديد والغازات وهي تضاهي المياه التي من نوعها في فرنسا وفي سبا بيلجيكا وفيها ايضا المياه الكبريتية السوداوية الجزيلة المنفعة .

وقسم فولني كورسيكا الى ثلاث مناطق باعتبار احوالها الجوية : الاولى من ارتفاع متر واحد الى ٥٨٥ مترا عن مستوى البحر وهذه المنطقة تحاكي درجة حرارتها درجة الحرارة في سواحل إيطاليا واسبانيا . والثانية من علو ٥٨٥ مترا الى ١٨٠٠ متر وهي تماثل الانحاء البالغ علوها مثل هذا العلو في مقاطعة البروفانس بفرنسا من جهة احوالها الجوية . والثالثة من ارتفاع ١٨٠٠ متر فما فوق وهي باردة كالبلاد النروجية .

ويقال بالاجمال ان الاحوال الجوية في كورسيكا تلائم الصحة إلا في بعض الانحاء في السواحل حيث تنتشر الوبالة (الملاريا) في الصيف . وحيث ان كورسيكا مجاورة للبروفانس وبلاد الجزائر فكان يجب أن يكون هواؤها حارا الا ان وفرة الجبال فيها واتساعها وارتفاعها تجعل الهواء باردا في هضابها في معظم ايام السنة وهنالك ايضا منطقة متوسطة تتميز فيها فصول السنة ويكون الشتاء والصيف فيها معتدلي درجة الحرارة وهذه المنطقة تفضل غيرها في اعتدال احوالها الجوية ويكثر فيها عدد السكان وزراعة اراضيها متقنة .

وفي كورسيكا ثلاث مناطق زراعية المنطقة السهلية وهي شديدة الحر في الصيف ومعتدلة الهواء في الشتاء وهي ملائمة لزراعة الكباد والليمون واللوز والحنطة والكرمة . والمنطقة المتوسطة وهي معتدلة الهواء وصحية تنمو فيها الاشجار المثمرة والكستناء والجوز . والمنطقة الجبلية وفيها يشتد البرد في فصل الشتاء وتتلطف درجة الحرارة في الصيف وتكثر فيها الاحراج والنباتات العطرية الارج والمراعي الممرعة .

أما التجارة والصناعة في تلك الجزيرة فسنخصص لها فصلا مستقلا نضمنه كل مايحسن الاطلاع عليه . ولايزال تاريخ كورسيكا في العصور المتوغلة في القدم محفوفا بالغموض فيزعم بعض المؤرخين ان تيرانيي ليديا هم أول من استوطن الجزيرة واختلط مع سكانها الاصليين المجهولي الاصل والفصل وفيما بعد انشأ فيها الفينيقيون عدة مدن واطلقوا عليها اسم سرنوس ولاتزال معروفة بهذا الاسم الى يومنا هذا . ويزعم علماء أصول اللغة واشتقاقها أن اسم سرنوس او كرنوس مشتق من « كير » وهي لفظة فينيقية معناها قرن أو رأس وهو يدل على شكل الجزيرة . ولفظة كورس مشتقة من كورسايي وهي لفظة سورية

معناها مكان تغطيه الاحراج . ومن هذه اللفظة المحولة الى اللغة اللاتينية اشتقت كلمة كورسيكا أو كورس كما يسميها الفرنسويون .

وفر الفوسيون من وجه الفرس حوالي سنة ٥٥٦ قبل المسيح فغادروا بلادهم ونزلوا في سواحل كورسيكا الشرقية وأنشأوا فيها مدينة ألاليا (اليريا) ولكنهم ماعتموا ان هربوا من الاتروسكيين والقرطاجيين المتألبين فاستولى هؤلاء على الجزيرة ولبثوا اصحاب الامر والنهي فيها الى سنة ٢٣٨ قبل المسيح حينما احتلها الرومانيون .

ولم يكن احتلال الرومانيين لكورسيكا بالامر السهل فقد اقتضى فتحها عدة بعثات متوالية وانكسر فيها قناصل مشهورون ككرنيليوس سيبيون وفاروس وغيرهما وهلكت فيها كتائب برمتها ولم يتم للرومانيين تدويخها الا في سنة ١٦٢ قبل المسيح على يد سيبون نازيكا .

ودخل الجزيرة مع الرومانيين عهد رخاء واقبال فانشئت المدن العظيمة وازهرت المدن القديمة ورمم سيلا مدينة اليريا وأسس ماريوس مدينة ماريانا في سنة ١٠٤ قبل المسيح ويزعم بطولماوس ان عدد سكان الجزيرة في ذلك العهد زاد على مليون نفس واستمرت سيادة رومية على كورسيكا الى سنة ٤٥٨ بعد المسيح أي الى عهد غزوات البربر فكان الفندال والغوطيون والمباردیون والبيزنطيون يتعاقبون على الولاية عليها . وحوالي سنة ١٧١٣ بعد المسيح طرد مسلمو اسبانيا البيزنطيين منها وحلوا محلهم وكان بعد ذلك ان العاهل الكبير شارلمان ارسل لمقاتلتهم الكونت ادهمار ثم ابنه شارل فانهزم المسلمون واضطروا الى مغادرة الجزيرة ولم يعودوا اليها الا بعد وفاة ذلك العاهل المصور فحينئذ عهد لويس الحليم الى الكونت بونيفاس التسكاني في اخراجهم منها فصمد هذا الى البر من الجهة الجنوبية وأسس مدينة بونيفاسيو وتسلط على الجزيرة كلها الا ان خلفاءه لم يحسنوا السيرة مع الرعية فكان من وراء تصلفهم ومظالمهم قيام الناس عليهم وكان في ذلك الحين رجل هام من سكان الجزيرة يدعى سامبوكوسيو والندو رأس تلك الحركة في سنة ١٠٠٢ وظفر بالاعيان المتألبين وسن نظاما جمهوريا لنصف الجزيرة الشمالي ولكن لما حضرته الوفاة في سنة ١٠١٢ ثارت الفتنة من مربضها واعترف الكورسيكيون بالكونت مالاسبينا التسكاني زعيما للاقليم

الذي حرره سامبوكوسيو فاعاد هذا الكونت النظام الى نصابه وأحسن تدبير بلاده الصغيرة ولما تخرمته المنية في سنة ١٠٧٠ خلف الحكم لاسرته .

وبسط البابا غريغوريوس السابع لواء سيادته على جزيرة كورسيكا في سنة ١٠٧٧ فاقطعها لندلف مطران بيزا ثم انتقلت السيادة عليها من يد المطارنة الى يد جمهورية بيزا ودامت نحو قرن من الزمان تجدد في اثنائه عهد الرخاء والاقبال الذي مر عليها لما كانت خاضعة للدولة الرومانية فانشئت الطرق وبنيت المدن واقيمت آثار كثيرة لايزال بعضها قائما الى اليوم ككنيسة مار ميخائيل في موراتو وكنيسة القديسة كاترين في سرفيوني . واحتل الجنويون خصوم البيزويين مدينة بونيفاسيو في أواخر القرن الثاني عشر وحصنوها ونقلوا اليها أسرا كثيرة من جنوى وكانت بين بيزا وجنوى حرب عوان فاقامت بيزا قائدا على جنودها رجلا شجاعا من أهل الجزيرة يدعى جوديشي دلا روكا إلا أن ابنه الطبيعي سالنيسي غدر به واسلمه الى الجنويين فمات في السجن في سنة ١٢١٢ .

وتحطم في ملوريا بايطاليا في سنة ١٢٨٤ اسطول بيزا وكان بقيادة الكونت فازيو فسقطت جميع المدن الساحلية في حيازة الجنويين واستولوا بمعونة فريق من اعيان الجزيرة على جميع انحائها . وأتى الجنويون من ضروب الارهاق والاعتساف ما اطلق الفتنة من عقالها وأسال غدران الدماء في خلال اربعة قرون متوالية وكان في مقدمة الزعماء الذين اوقدوا لظى الفتن اريغو دلا روكا في سنة ١٣٧٠ وفنشنتلو دستريا في سنة ١٤١٤ .

وخيم الفونس الخامس الاراغوني في الجزيرة في سنة ١٤٢٠ وحاصر بونيفاسيو ولكنه اضطر الى الرجوع الى نابولي للاستيلاء على ميراث الملكة حنة وأصار الى فنشنتلو دستريا استئناف الحصار ومنحه لقب نائب ملك . وحدث ان فنشنتلو قتل فقام بولو دلا روكا ورينو تشيودي ليكا بانجاز مهمته ولكن كان من نصيبهما الانخذال .

وبعد سنوات طلب انطون دلا روكا من الفونس الاراغوني ملك نابولي أن يؤيد حقوقه على الجزيرة فأرسل الملك حاكما على الجزيرة رجلا يقال له جاك اميزورا فأساء التصرف وحرك موجدة القوم عليه فنفروا منه ودفعتهم الجهالة على الاستظلال بكنف مصرف القديس جرجس الجنوي في سنة ١٤٥٣ .

وارهق مصرف القديس جرجس جزيرة كورسيكا بما فرضه عليها من الضرائب

الفادحة وانزل شديد العقوبة بالمعارضين المتمردين ففتحت أبواب الفتن واضطر المصرف الى اقفالها بالالتجاء الى ضروب من العنف لم يسبق لها نظير .

وظل رينوتشيو دلا روكا زعيم الثائرين يجاهد جهادا متواصلا اثني عشرة سنة ولـكنه خانه الجد فنشب في احبولة نصبت له فآثر الموت على الوقوع في قبضة اعدائه ولقي حمامه في سنة ١٥١١ بقذفه نفسه من اعلى قصر روكابينا .

وحدث بعد ذلك أن سمبيارو من بستليكا وقد لقب فيما بعد بسمبيارو الـكورسيكي كان قائدا في فرقة حرس الملك هنري الثاني الفرنسوي فاقنع الملك بان يسير الى كورسيكا جيشا لطرد الطغاة منها فسقطت الجزيرة في يده ماعدا مدينة كلفي فانها فضلت البقاء خاضعة لجنوى . وعلى باب من أبواب كلفي كتابة باحرف ذهبية تدل على ماتم عليه سكان المدينة من أسرار الشجاعة في أثناء حصارها . ودامت نيران القتال مضطرمة وظفر سمبيارو مرتين بالجنرال سبينولا وفـكر في ضم الجزيرة الى فرنسا ولـكن حالت دون ابراز ذلك الفـكر الى حيز العمل معاهدة كاتو كمبريزيس المعقودة سنة ١٥٥٩ وقد نصت على إعادة الجزيرة الى جنوى على ان سمبيارو مع فقد الاعضاد والانصار لم يبلغ منه القنوط بل ثابر على الجهاد وكانت وطنيته وهمته وشجاعته خير محرك لبسالة اصحابه وجرأتهم ولما أعيت الحيل جنوى وقنطت من تقليم اظفار عزيمته استمالت اليه حاجبه فقتله فى سنة ١٥٦٧ .

وكان لسمبيارو ولد اسمه الفونس درنانو حارب جنوى سنتين ولـكن كان قد نفد صبر كورسيكا فعد نفسه سعيدا لعقده معهـا صلحا مؤاتيا لمصلحته وغادر الجزيرة ميمماً فرنسا وهناك انعم عليه برتبة المارشالية .

وتولى اندره دوريا الجنوي الحـكم في الجزيرة فادار الشؤون بحنكة ودهاء ولـكنهم استقدموه الى جنوى فعاد الاضطراب الى كورسيكا وتفاقمت فيهـا الخطوب . وانقسمت البلاد الى حزبين حزب الجنويين وكان افراده يتمتعون بجميع الامتيازات فـكانوا ينهبون ويقتلون وهم آمنون من وصول يد العقاب اليهم وحزب الوطنيين وكان افراده يرزحون تحت اعباء الضرائب الباهظة ويدفعون لنبال العقوبات الشديدة عند ادنى هفوة يأتونها وهذا هو أصل ... (فندتا) الذي اشتهر به الـكورسيكيون فيما بعد .

واضطرمت الثورة في قرية بوستانيكو في سنة ١٧٢٩ وما لبثت أن عمت الجزيرة كلها واستولى الكورسيكيون على سان فلوران بمعونة جافيري وسيكالدي. ولما وجدت جنوى نفسها مغلوبة على امرها استنجدت بعاهل المانيا فانجد بثمانية آلاف محارب وتقوى الجنويون بالالمانيين وزحفوا بقيادة كاميل دوريا واجبروا الكورسيكيين على رفع الحصار عن باستيا ولكنهم غلبوا في كالنزانا وقتل ثلاثة آلاف من المقاتلين المأجورين الذين كانوا معهم وكان ذلك في سنة ١٧٣٢ واتلف جافيري الجيش الالماني في اثناء ذلك في سارتين .

ولما نضب معين قوى الكورسيكيين في سنة ١٧٣٦ ساقت اليهم الاقدار عيارا وستفاليا يدعى البارون تيودور دي نوهوف فملكوه عليهم باسم تيودور الاول فنظم مناهج الدفاع وقهر الجنويين في بورتوفكيو وسارتين ولكنه انطلق لجلب المدد ولم يعد بعد ذلك .

وكان فيما بعد ان غافوري وهياسنت باولي اضرما نار الحماسة في قلوب الوطنيين فاضطرت جنوى الى الاستنجاد بفرنسا فسيرت هذه خمس كتائب بقيادة الكونت دي بواسيو في ١٧٣٨ لنجدتها فأنهزم هذا الكونت من وجه الثائرين عدة مرات فاديل بالكونت دي مايلبوى وهذا عامل الكورسيكيين بالعدالة والحسنى وعرف كيف يعيد الامن والسكينة الى الجزيرة . ولما برحها في سنة ١٧٤٢ عادت اليها الفوضى فعادت جنوى الى الاستنجاد بفرنسا فانفذت هذه جنودا جددا اليها بقيادة المركيز دي كورساي في سنة ١٧٤٢ وعاد الامن الى نصابه الا ان دي كورساي كان قد اغلظ الكلام عن الجنويين في احدى رسائله فرأوا ان يطلبوا مزايلته للجزيرة فهب غافوري الى امتشاق الحسام واستولى على مدينة كورتي . ولما رأت جنوى أن غافوري يعيد تمثيل دور سبميارو اغرت احد السفاحين بقتله فبطش به غدرا في سنة ١٧٥٥

وعاد بسكال باولي نجل هياسنت باولي من نابولي في هذه السنة عينها وكانت اسرته قد التجأت اليها فسن للبلاد دستورا بناه على قواعد الحكمة والحزم وخدم مصلحة الزراعة والصناعة وانشأ المدارس وبنى اسطولا وعبأ جيشا رغبة في الوصول الى مناهضة الجنويين ومكافحتهم . ولجأت جنوى الى فرنسا في هذه

المرة أيضا وباعت منها ما لها من الحقوق المزعومة على الجزيرة بوثيقة أبرمت أسبابها في فرسايل في سنة ١٧٦٨ .

وكان الكورسيكيون شديدي التحذر فلم يشاؤوا القاء حريتهم بين يدي ملك مطلق اليد في التصرف برعيته على هواه . وكان ان المركيز دي شوفلان والكونت دي مربوف والكونت دي فوخذلوا في بورغو ونبيو في سنة ١٧٦٨ ودحر بسكال باولي في بني نوفو في ٩ مايو سنة ١٧٦٩ واضطر على أثر ذلك الى مغادرة الجزيرة والشخوص الى انكلترا وكان ذلك خاتمة الجهاد الوطني .

وأعلن ضم كورسيكا الى فرنسا في ١٥ اغسطس من السنة عينها ولكن لم يعترف رسميا بسيادة فرنسا عليها إلا في سنة ١٧٧٤ وولد نابوليون بونابرت في اليوم نفسه الذي أعلن فيه ذلك الضم . وتولى الجنرال الكونت دي مربوف الحكم في الجزيرة من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٨٦ وهي السنة التي حضرته فيها الوفاة .

ولما انتهى خبر الثورة الفرنسوية الكبرى الى كورسيكا في سنة ١٧٨٩ كبر له القوم وهللوا وعاد باولي اليها وسمي نائبا عاما في الجزيرة في سنة ١٧٩٠ بعد ما جعلت كورسيكا مقاطعة على اثر تقسيم البلاد الفرنسوية الى مقاطعات وانتدب باولي لتنظيم حملة للزحف بها الى سردينيا وكان في جملة أعضاء تلك الحملة بونابرت الحدث ضابط المدفعية فخبطت تلك الحملة في سنة ١٧٩٣ واتهم باولي بالخيانة ودعي الى المثول امام مجلس الكنفسيون في ٢ ابريل سنة ١٧٩٣ ولكنه آثر دفع الجزيرة الى بريطانيا العظمى على تلبية الدعوة فحكم السر جورج اليوت جزيرة كورسيكا بصفة كونه نائب ملك سنتين . وبعد ما نال الجنرال بونابرت ما ناله من النصر في ايطاليا طرد البريطانيين من الجزيرة في سنة ١٧٩٦ وارسل الجنرال ميو الى كورسيكا مندوبا من لدن السلطة الاجرائية لتعزيز الشرائع الفرنسوية فيها . وكان بعد ذلك ان ضمت الجزيرة ضما نهائيا الى فرنسا بعد فتنة ١٨ برومير (٩ نوفمبر ١٧٩٩) عند ارتقاء الجنرال بونابرت الى رتبة قنصل أول .

وأرسل القنصل الاول الجنرال ميو الى كورسيكا مرة ثانية بلقب حاكم اداري عام . وحفظ الكورسيكيون ذكرا جميلا لميو فانه عزز الزراعة والتجارة

والصناعة في الجزيرة وعالج توسيع نطاق العلوم والآداب فيها (١٨٠٠-١٨٠٢)
وشكت كورسيكا في عهدي القنصلية والامبراطورية من عنف الحكام العسكريين كالجنرال موران (١٨٠٢ - ١٨١١) خلف ميو والجنرال قيصر برتيه (١٨١١ - ١٨١٤) مما بعث فريقا من اهالي بستيا على فتح ابواب قلعة باستيا في وجه الجنود البريطانيين لما بلغهم خبر تنازل نابوليون عن العرش في فنتنبلو في سنة ١٨١٤ ولما جلس الملك لويس الثامن عشر على العرش رفعت الراية البيضاء على قلعة اجا كسيو

ولم يبق لكورسيكا تاريخ خاص تمتاز به بعد حركة القائد باولي في فيو موربو وقيامه على المركيز دي ريفيار قائد الجند في الجزيرة (١٨١٥ - ١٨١٦) بل اصبح تاريخها من ذلك العهد مندغما بتاريخ فرنسا . وقد كان قبل ذلك سلسلة حروب متواصلة . ومن وقف على خصب تربتها وعجائبها الطبيعية ولاسيما اهمية موقعها الحربي سهل عليه ادراك السبب الذي من اجله طمحت اليها ابصار الشعوب التي كانت تطمع بنيل السيادة في البحر الرومي .

وأخطأ كثيرون من الفرنسويين وغيرهم باتهام الكورسيكيين بتهم كثيرة هم براء منها فهم يصمونهم بوصمة الكسل والنزق وحب الاثئار ويتوهمون ان هذه الصفات الثلاث لاصقة بهم وملازمة لهم اجل ان ارضهم الموصوفة بخصب عجيب لم تحسن حراثتها ولايزال في الجزيرة اراض واسعة تغطيها الاحراج ولكن لابد من القول ان الكورسيكي قنوع يكفيه اليسير من العيش وعلاوة على ذلك لاتكفي الطرق والمنافذ لنقل المحصولات الزراعية وسد الحاجة ثم أن الافتقار الى رؤوس الاموال يحول دون استثمار اراض كثيرة . ومما هو شر من هذا كله هو ان الاراضي مقسمة الى قطع صغيرة تجري كل قطعة منها على ملك شخص معلوم وكثيرون هم الاشخاص الذين يملك الواحد منهم مثلا عشر قطع من الارض تبعد الواحدة منها عن الاخرى عدة كيلومترات . وهنالك كثيرون من الفلاحين يضطرون الى تحصيل رزقهم بشق النفس لجهلهم فن الزراعة ونقصان الادوات الزراعية عندهم وهذا ماجعل الناس يتهمون الكورسيكيين بالميل الى تقلد مناصب الحكومة والانصراف الى السعي وراء احرازها .

ومن طبع الكورسيكي شدة النزق والحدة ولايمكن تعليل ذلك الا بمعرفة

طباعه الشخصية الموروثة عن آبائه والمؤثرة فيها احوال الجزيرة الجوية وتاريخها فقد ظل الكورسيكيون قرونا طويلة مشهورين بما يأتونه من ضروب الانتقام أو اخذ الثأر وذلك بقتل من يكون قد نالهم منه اساءة أو بقتل واحد من ذوي قرباه ويمكن القول بالاجمال ان اسباب أخذ الثأر مرجعها الاهانة التي تحدث جهارا كترك فتاة مغتصبة أو خطيبة وحوادث انهاك العرض مع ندورة وقوع مثل تلك الحوادث وشهادة الزور ودين الدم . فاخلاف الوعد وشهادة الزور المسبب عنها الحكم بالموت على بريء يعاقب عليهما بغير شفقة من تنشأ تلك المساوىء بسببه وان تلك العداوات الشديدة وقد انقضت عليها عدة اجيال متعاقبة وكان من عواقبها انقراض الاسر المتعادية لم يكن لها في غالب الاحيان الا اسباب تافهة .

والشعب الكورسيكي شعب قديم فهو يواصل في القرن العشرين التقاليد التي كان يجري عليها في العصر الاغريقي اللاتيني ففي جزيرته يأوي رجع المدنية السائدة اقاليم البحر الرومي : وقد حلت النصرانية بين ظهرانيه وتسربت مبادئها الى اخلاقه الا أن تلك الاخلاق لاتزال حافظة انعكاس انظمته القديمة .

ويرجحون ان الشعب الكورسيكي الاصل ينتمي الى الايبريين ولكن تعاقبت في الجزيرة نحل أمتها من بلاد فينيقية وقرطاجة وليغوريا واليونان ورومية على ان السكان مع مادخل عروقهم من الدم الايطالي لايزالون محافظين على طباعهم القديمة فالكورسيكي بهي الطلعة وهو على مثال ابطال هوميروس ورعاة اركاديا وجنود زركسيس وانصار قيصر وهو ايضا على مثال الآباء ذوي اللحى المحترمة والكلام القاطع والهيئات الجليلة والخطى المتثاقلة والنظر الحاد وهو موصوف بالحنكة والعفاف والقناعة وهو لايسرف في الضحك والمزاح ولا يتكلم الا في الامور الجدية ولا يفوه بالهراء وليس هو شاعرا ولكنه فيلسوف وهو لايحلم بل يتروى . واكبر مدح يوجه الى الكورسيكي يحصر بهذه العبارة « يظل قاعداً يفتكر وهو قليل الكلام »

وكل شيء فيه شريف : من انفته المتوحشة الى كبريائه الشديدة الى طموحه المتناهي لنيل التسلط الى تحفظه المقرون بالاحتقار . وهو يحترم نفسه احتراما شديدا ويحتقر غيره احتقارا ماوراءه من مزيد . وليس فيه شيء مبتذل فيداه

ناعمتان ورجلاه صغيرتان وحركاته لطيفة وهو لا يدع الخفة تستهويه ولا الاعجاب يتسلط عليه . وهو حر الضمير ثابت على الصداقة وهو سيد كريم الاخلاق أبي النفس له ثقة كبرى بتفوق شخصه على سواه فيرى ادنى راع مثلا في كورسيكا يعتبر نفسه مساويا لاي كان من كرام الناس ووارثا لعصور الحرية والاستقلال ولا يخفى أن الشعب الكورسيكي نجا في العصور الغابرة ولاسيما في القرون المتوسطة من معرة الاستعباد ونير أصحاب الاقطاعات . ومن ثم وصل الشعب الكورسيكي الى عصر الحرية الفردية مع محافظته على العادات الحرة المتصلة اليه من الحضارة الاغريقية اللاتينية .

والمرأة في عين الكورسيكي كائن حقير فهو يكل اليها الاعمال البيتية ولا يجالسها على المائدة ولا يفاوضها في شؤون البيت ولا يرافقها في الحفلات العامة في أيام الاعياد وهو يعدها أمة له . وقبل أن يصيبها يكثر من مجاملتها وكثيرا ما تكون تلك المجاملة سرية وهو يخجل ان وقف أحد على سر غرامه ولكن يأتي يوم يختطفها ويمضي بها الى مسكنه فيتعجب والداه في بدء الامر لجهلهما ما كان نجلهما يدبره من هذا القبيل ولكنهما لا يلبثان ان يكرما وفادة القادمة عليهما وكل ما يفعلانه انهما يعطيان العروسين فراشا وفي الغد يعلم الناس في القرية انه عقد فيها زواج حينما يرون في الاسرة امرأة جديدة تشاطرها الاشغال البيتية فلا العروسان ولا الوالدان يخبرون أحدا عن ذلك القران .

أما المعاملات القانونية عند عمدة القرية وفي الكنيسة فتتم فيما بعد عند سنوح الفرصة فليست هي الشيء المهم في الزواج عندهم ولكنهم لا يهملونها لان العادة تقضي عليهم بمراعاتها فالزواج عندهم يتم على العادة القديمة البسيطة بلا رتبة ولا طقس .

ولا ينبغي لنا أن نبحث من وراء العادات الكورسيكية عن آثار النصرانية أو صدى الانظمة التي كانوا يسيرون عليها في القرون المتوسطة فالاولى بنا أن نعود الى ما قبل ذلك أي الى عهد الرومانيين او الى عهد اليونانيين الاقدمين فالكورسيكي يحتقر الحياة البشرية احتقارا شديدا ولا فرق عنده من هذا القبيل بين حياته وحياة غيره من الناس . وقد نصت النصرانية على أن القتل جريمة وكان المسيحيون يمتنعون عنه ولكن الاعيان كانوا قد احتفظوا به لانفسهم

ولذلك اصبح من امتيازاتهم وكان سوقة الناس ينهون خصوماتهم بضرب العصي وكانت تلك السوقة تؤلف الشعب وما لبثت أن انتحلت مبادىء النصرانيـة الديمقراطية بسهولة على أن الاعيان المباهين بمحافظة جدودهم على الانظمة القديمة حافظوا في القرون المتوسطة على تقاليد التمدن القديم فيتقاتلون في كورسيكا لان القتل عندهم من عداد امتيازات الارسطقراطية وكل كورسيكي في بلاده حر وسيد . والمبارزة غير مألوفة بين ظهرانيهم لانها من نوع القتل الموضوع له قانون ولـكن عندهم اخذ الثأر وهو من بقايا الخصومات الدموية القديمة . ولعمر الحق أن حرب طروادة المشهورة في التاريخ ليست سوى ضرب من ضروب اخذ الثأر فثمة امرأة مختطفة ينهض ذووها باجمعهم ويتقلدون السلاح ويحشدون رجال قبيلتهم واحلافهم لاستخلاصها والانتقام من مختطفيها ومن أمثال هذا الحادث حوادث كثيرة حدثت في الديار المـكسيكية وعند العرب أيضا حوادث كثيرة من هذا النوع وليست الحرب التي دامت اربعين سنة بين بني تغلب وبني بكر إلا لاخذ الثأر لمقتل كليب .

وحينما تقع عندهم جريمة قتل تقتضي الحال أخذ الثأر وهـذا الثأر يأخذه نسيب للقتيل من القاتل نفسه اذا امكن والا فمن أحد ذوي قرابته ولا يعد هذا الامر انتقاما بسيطا وانما هو حرب حقيقية بين قبيلة وأخرى وكانت هذه المادة جارية عند الاسلنديين في القرون المتوسطة وقد كان الاسلنديون من أشرف قبائل البلدان الاسكنديناوية فاضطرتهم مظالم الملك هارولد النروجي الى الازعاج عن وطنهم وكانوا احرارا يدينون بالنصرانية ولـكنهم كانوا محافظين على ذكرى آلهتهم القديمة .

هذه هي اخلاق عامة للشعب الـكورسيكي ولـكن يحسن بنا ان نبين ما يمتاز به سكان كل اقليم من اقاليم تلك الجزيرة فالـكورسيكي المقيم ما وراء الجبال والمدعو بومنتنكو موصوف بالانفة والدعوى والاستبداد والحركة ولا ينبغي أن نذهل عن ان نابوليون بونابرت الذي ولد في اجاكسيو كان بومنتنكو

وكان أيضا من هذا الاقليم اولئك الزعماء الاقدمون الذين كانوا قبل ضم كورسيكا الى فرنسا يقلبونها رأسا على عقب وظهرا على بطن كشيتاركا ودستريا ودلا روكا ودي ليكا ودرنانو وبوتزو دي بورغو وابا توشي وعمنوئيل آرين .

ومن المشهور أيضا أن البومنتنكو ينفر من الزراعة والتجارة والفاسفة ولا يطمح إلا الى السيادة والسلطة وهو من أصحاب الانانية المتطرفة وقد اشتهر عنه أنه رجل جد واقدام وانه يؤثر قبل كل شيء الاشتغال بالسياسة والميل الى الحرية ومزاولة الامر والنهي . وحينما يتقلد الحكم يعامل خصومه بمنتهى العنف ويكون شديد الوطأة عليهم ويجود بالعوارف على اصدقائه ومريديه . واذا قيض له الاندفاع في الحياة الحديثة في القارة الاوربية جاهد جهادا حسنا للمحافظة على كيانه واستطاع الانتهاء الى الغاية التي يؤمها . فهو لاتثبطه العقبات المتصدية له وهو بما أوتيه من مضاء العزيمة وعلو الهمة لايثنيه شيء عن ادراك ضالته المنشودة فالمعالي تليق به واذا أصاب البومنتنكو منصبا صح أن يقال عنه أنه ابن بجدته وأنه نازل في المكان الملائم له ولاسيما حينما يكون ذلك المكان من الدرجة الاولى فالمنصب يتجسم فيه وكأن الواحد منهما خلق للآخر . ولايخفى أن البومنتنكو الذي ادهش كورسيكا في ما غبر من العصور ادهش في دوره العالم برمته وقد رسمت ماثره بحروف خالدة على صفحات تاريخ الانسانية .

أما الكورسيكي النازل في ماقبل الجبال والمدعو كاستا نيشياجو فهو ارصن من البومنتنكو وارجح حصاة وهو يزاول الزراعة والصناعة وقد اكثر من غرس أشجار الكستناء في الهضاب والبطاح وبطون الاودية وعالج زراعة السهول المنبسطة عند السواحل الشرقية وانشأ مصانع لصب الحديد أخنت عليها الايام ودمرتها واستعمل الطريقة الكورسيكية المشهورة في الكيمياء وهي تحويل حديد جزيرة البا الى فولاذ (صلب) وهو اغنى جميع الكورسيكيين وقد انتحل مذهب الديمقراطية في السياسة وغالى فيه وهو الذي تحرر في القرن الرابع عشر من نير سلطة التشينار كيزيين ووضع أساس الحكومة الشعبية . وقد اصبحت من ذلك الحين الارض التي يأوي اليها تدعى أرض العموم وهو من طبعه ميال الى الطريقة الجمهورية الاشتراكية ففي ماضي الحين قام واحد من الكاستانيشياجو يدعى بيو بتاو ورفع عن وطنييه ضريبة جائرة فرضها عليهم ارسو المانو صاحب قصر منتالتو . وقام أيضا في ذلك الاقليم في القرن الرابع عشر أفراد من أسرة جوفانالي واتفقوا على اعلان الشيوعية بينهم في الاموال والنساء ولاتزال طائفة منهم الى

يومنا هذا في مزرعة صوربلو بوادي اليزانو تحذو حذوهم . ومن سكان ذلك الاقليم عمد القري الذين كان أهلها ينتخبونهم في القرن الخامس عشر ومن مشاهير الرجال الذين نبغوا فيهم ماترا وغافوري وباولي الحكيم .

واما كورسيكي البالانيني المسمى بالانينو فارق طباعاً من الكاستانيشياجو وهو يعنى بامر الزراعة ويجني — حتى في ايامنا هذه — كثيراً من المال من احراجه الواسعة المغروسة زيتوناً وهو مستقل في بلاده وقد تعود البالانينو من أزمان متوغلة في القدم ان يطوف البلاد ببغاله الموقرة زيتاً وهو ينادي الناس لابتياع زيته بلهجة أصبحت مشهورة عند الجميع ولا يخفى ان سكان البالانيني وسكان نيولو (وادي غولو العليا) هم التجار الوحيدون في كورسيكا فالنيوليني يتنقلون من مزرعة الى مزرعة لبيع جبنهم . وسكان البالانيني حذاق ودهاة ولينو العريكة وهم يفوقون جميع الكورسيكيين في مزاولة الاعمال وتعاطي الاشغال ولم يكن للحروب الاهلية شأن كبير بين ظهرانيهم كما كان لها عند غيرهم من سكان الجزيرة ومعلوم أن لسكينة البلاد انعكاساً على اخلاق اهلها . ولا ينزع البالانينو الى المهاجرة لان مطامعه محدودة فهو لا يطمع بتسنم ذرى المناصب العالية او المنازل الرفيعة بين قومه ولكنه معروف ببعد نظره وطول اناته وصبره على المكاره وقد طاف الجزيرة عدة مرات فهو والنيولينو يعرفانها قرية فقرية واسرة فأسرة . ولا يذهب عنه ماينجم من المضار عن الخصومات والعداوات والانتقامات . وكانت له الحوادث التي شاهدها والملاحظات التي اصابها خير مهذب لاخلاقه وافضل مقوم لما تأود من طباعه . وقد تحقق بذاته ان بلاده تفضل جميع البلدان التي جول فيها فنشأ فيه الاحتقار لسائر انحاء الجزيرة وآثر المقام بعيداً عن معاشر البشر في حقوله المغروسة زيتوناً .

واما كورسيكي الرأس المدعو كاب كورسينو فيقرب بطباعه من البالانينو ولكنه يقيم في اقليم هو دون البالانيني في الخصب وغزارة الموارد وهو ميال الى الاسفار وبحار جريء وخاضع لسلطان الطمع المتسلط عليه وحيث انه لاشيء عنده يبيعه في بلاده فانه يفصل عنها ليجوب البلدان ساعياً وراء احراز المال، وحيث أن النفوذ الجنوي استفحل امره مدة طويلة في ذلك الصقع فقد نشأ عنه

وعن تمرس سكان رأس كورسيكا بالجنويين ميل شديد الى التجارة مما اقصى عن الناس هناك مايشعر به غيرهم من ابناء الجزيرة من العجب الفارغ والمباهاة بالمجد التليد وبالتالي يسهل عليهم تصير ابناء الهيئة الاجتماعية الحديثة ومن طبع الكاب كورسينو التحيل والمخادعة وعدم الاعتداد بشخصيته فلا يأنف من مزاولة اي عمل كان وهذا ماجعله يطمح ببصره الى العالم الجديد ليتخذه ميداناً تجري فيه جياد نشاطه وجردهمته العالية وقد آثر الارتحال الى قارة اميركا الجنوبية وهو يلقى فيها الاسبانيين الذين يتكلمون بلغة يسهل عليه فهمها ولا يلبث أن يتفوق على سكان تلك البلاد الذين يفت في عضدهم التعب والكسل فيحتل مكانة رفيعة بين ظهرانيهم ويحوز ثروة طائلة . فكم من فتى كورسيكي لم يكن في بلاده يملك شروى نقير وكان يسير في قريته حافي القدمين اصبح في مهجره رب غنى واسع وصاحب قصر شاهق . وكثيرون من الكورسيكيين هاجروا الى العالم الجديد في حداثتهم وبعدماقضوا فيه ردحاً من الدهر يزاولون جميع المهن والحرف مع بقائهم محافظين على سنن الآداب ومكارم الاخلاق عادوا الى مسقط رأسهم حاملين مئات الالوف من الدنانير التي كسبوها بجدهم واجتهادهم .والكاب كورسينو داهية يتبين المنهاج الواجب عليه السير عليه لينتهي الى الغاية التي يسعى اليها اي اصابة الثروة حينما يقرن ماتصل اليه من الاخلاق الكورسيكية الى رقة الجانب التي اقتبسها من الجنويين وهو اقرب من جميع الكورسيكيين الى انتحال الافكار المصرية

ويقال بالاجمال أن البومنتنكو حينما يبسم له ثغر الدهر ويقبل عليه الاقبال يصبح سيدا كريما ولا يبقى له هم الا ترميم ماتدعى من صرح سؤدده والكاستانيتشياجو حينما تقبل عليه الدنيا يشعر بان الحظ رد له ما كان جدوده قد زرعوه والبالانيانو حينما تؤاتيه الاقدار يعتقد أن ما أصابه هو ثمرة توفير الاموال . ويزعم كلا هذين الرجلين أن الغنى الذي أصاباه أمر متحتم لهما فلا ياتيان شيئا يجعل الناس يقضون العجب من يسارهما ولا يدهشان من الحالة التي صارا اليها والكاب كورسينو يختلف عنهما من هذه الجهة فتبطره النعمة لأن ماضيه لم يمده الى المعالي فيبهر ببصره حينما يحتل بغتة ذري المقامات العالية في هيئة اجتماعية يرتكز الاكرام فيها على المال ويشبه من هذا القبيل كثيرين من أصحاب الملايين في عصرنا الحاضر فانهم مع كونهم أولياء لتلك الملايين لا يعتبرهم

الناس إلا أوصياء عليها فلابد من أن تنقضي عدة أجيال متعاقبة حتى تصبح الثروة لائقة بهم .

اذا سمنت كلاب الحي يوما   فهل نلقى لها لحما شهيا
وان يسكب بكأس التبر خل   فهل نلقى له طعم الحميا

وأما كورسيكي بونيفاسيو المدعو بونيفاتزينو فلا يسهل له مقامه في طرف الجزيرة الجنوبي مخالطة باقي اخوانه المقيمين بعيدا عنه في سائر انحاء الجزيرة وسكان تلك الناحية قليلو العدد اباة النفوس محبو الاحتشام ويمكن القول عنهم بالاجمال أنهم يحبون المقام في كسر بيوتهم . والمرأة عندهم أشد استعبادا منها عند غيرهم فلاتبرز للانظار إلا نادراً ولا سيما لانظار الغريب وقد انقضت عليها ازمان طويلة لم تكن تخرج فيها إلا مقنعة على مثال المغربيات . ولا يزال البونيفاتزينو يشعر بما كان للاراغوني من السيادة عليه فبينه وبين الاسباني شيء من النسابة .

ويتكلمون في كورسيكا باللغة الايطالية ولايند عن أحد أن لهـذه اللغة لهجات كثيرة ولـكن لم يسد منها في علم الادب إلا اللغة التسكانية وقد لطفها اللفظ الروماني . وبعد ما تألفت المملـكة الايطالية من اشتات المقاطعات المختلفة واندغمت العناصر المتألفة منها بعضها ببعض نشأت لغة وطنية عامة قاعدتها اللهجة التسكانية الرومانية واستعانت باللهجات الاخرى أيضا وعليه فتكون اللغة الايطاليه من هذا القبيل في دور التحول واللغة الـكورسيكية لهجة إيطالية مهذبة لـكنها تختلف باختلاف اقاليم الجزيرة وكانت الاسر الـكورسيكية الـكريمة تستعمل اللغة الايطالية الفصحى من نحو سبعين سنة أما الفلاحون فـكانوا يتـكلمون باللغة العامية وكانوا يلقون الدروس في المدارس بالايطالية ولـكنهم صاروا الآن يلقونها بالفرنسوية وبالتالي أصبحت اللهجة العامية عينها آخذة بالانحطاط وتدل قرائن الاحوال على أنها سيخلفها لهجة جديدة مشتركة بين الفرنسوية والـكورسيكية واذا القى الـكهنة المواعظ باللغة الايطالية فـكثيرون من الـكورسيكيين لايفهمونها وان انحطاط تلك اللهجة دليل على قرب انقراضها . ومعلوم أنه حينما تفقد البلاد لغتها لاتلبث أن تفقد أخلاقها وطبائعها وحينما تفسد لغة شعب من الشعوب فأنذره بقرب زوال تقاليده التي يفاخر بها . فالفتيان والفتيات في كورسيكا ولاسيما في المدن يعتبرون أن التـكلم

بالفرنسوية دليل على الرقي عندهم ويندران يسمع في المجتمعات العامة أحدهم يتكلم بغير الفرنسوية .

والديانة الكاثوليكية هي الديانة الوحيدة في كورسيكا إلا أنه تقيم في كرغيزي نحلة صغيرة من الروم الارثوذكس ولذلك ليس في الجزيرة مسألة دينية تشغل خواطر القوم . والكورسيكي يزاول فروض دينه على طريقة خاصة به أي أن الدين عند كثيرين من سكان تلك البلاد هو من نوع العادة وليس من نوع العبادة وهذا ما نراه جاريا في بعض انحاء لبنان

وينقسم الكورسيكيون بالنظر الى حالتهم الاجتماعية الى أربعة اقسام : أهل المدن وأصحاب الاملاك والفلاحون والرعاة . فاهل المدن يقطنون المدينتين الكبيرتين اجا كسيو وباستيا وغيرها من المدن . فاهل اجا كسيو موصوفون بالذكاء والبطالة فهم يعيشون في اقليم تخلب مناظره الالباب ولاهم لهم الا الاجتماعات في الاندية لتجاذب أطراف الاحاديث من الصباح الى المساء وبعضهم من المساء الى الصباح في الميدان المعروف بميدان الالماس وسنفيض في الكلام عن هذا الموضوع عند الكلام على اجا كسيو بالتفصيل .

وأهل باستيا منهمكون في الاعمال فباستيا مدينة تجارية والجميع يعملون فيها وهم لايتنزهون في ميدان القديس نقولا إلا في يوم الاحد . وباستيا دون اجا كسيو في حسن الموقع واعتدال الهواء فدرجة الحرارة فيها ملطفة في الشتاء ولكنها ترتفع في الصيف ارتفاعا شديدا يضيق معه الصدر وتهب فيها الرياح العاصفة في ايام من السنة . والمدينة مبنية على شاطىء البحر تتخللها أزقة ضيقة بين انحدار وصعود تكتنفها بيوت عالية ليس عليها شيء من الهندسة ولا يبدو على الافق شيء من الجمال الخالب الالباب وتحيط بالمدينة هضاب وعرة المرتقى . ولايذهب الانسان الى باستيا إلا لقضاء اشغاله ولايقيم فيها إلا لمزاولة تجارته والباستيون لينو العريكة لطفاء وهم يكثرون من العلاقات بعضهم مع بعض ويتزاورون ويزاولون جميع انواع الملاهي وهم لمجاورتهم لايطاليا متخلقون باخلاق الايطاليين : وباستيا غنية انيقة شديدة الاعجاب بكل جديد وهي وان لم تكن مثابة للعلماء وأصحاب الادمغة المفكرة والاحلام الراجحة عليها مسحة من الفنون الجميلة . واذا كانت اجا كسيو لموقعها في البومنتي محافظة على الكورسيكية الحقيقية ومتخلقة باخلاق عامة لاختلاط

أهلها بالغرباء فباستيا أقرب منها تخلقا باخلاق سكان القارة ولولا امتداد جراثيم النفوذ الايطالي الموروث فيها لكانت أشد تفرنسا من غيرها في الجزيرة . وعلاوة على ذلك اذا كانت اجا كسيو قد نشرت اسم كورسيكا في جميع انحاء المعمورة فباستيا أصابت ثروة طائلة لأن الواحد من سكان باستيا يؤثر المال على المجد وكل يدري أن الواحد منهما يعادل الآخر في هذا العصر .

أما سكان المدن الصغيرة فهم اتعس حظا من سواهم لان تلك المدن ليست سوى قرى كبيرة رديئة الهواء حقيرة المنازل تنحصر الحركة كلها فيها حول ميدان عام أو في شارع ويكون سكان تلك المدن في غالب الاحيان من صغار الملاكين و بعض صغار التجار المختلطين بالفلاحين الحقيقيين وهم يقضون حياتهم في الخصومات السياسية ولا يفكرون إلا في المهاجرة فجميعهم يرشحون انفسهم لمناصب الحكومة وهم يلقون مشقة لتحصيل رزقهم ولا أموال لهم يستثمرونها بل لهم اراض لايدرون كيف يستغلونها فالريع اليسير الذي يجنونه من تلك الاراضي يقتضي استيفاؤه اهتماما عظيما ولهم منزلة يعنون بالمحافظة عليها . على أن رؤيتهم أصحاب المناصب يقبضون مرتباتهم من دون أن يعملوا شيئا مذ كورا هاج فيهم حب المناصب على ماهي عليه الحال في بلادالشام ولبنان والقطر المصري وهذا الميل الى المناصب خلة موروثة فيهم فقد كان الكورسيكي في عهد دولة الجنويين يسعى وراء المنصب كبيرا كان أم صغيرا وهو يبتغي من احرازه أن يكون بمأمن من المظالم التي يحاذر نزولها به وقد كان الاعيان في لبنان في عهد حكومة المتصرفية يسعون وراء المناصب كمنصب مدير أو قائمقام مثلا لينجوا من انتقام زيد أو غطرسة عمرو .

قلنا ان سكان المدن الصغيرة اتعس حظا من غيرهم في تلك الجزيرة فليس لهم الجرأة الادبية الكافية لمزاولة الزراعة ولا يدرون كيف يتعاطون التجارة فهم اما ان يعيشوا في الخمول او يهاجروا وكثيراً مايقضون معظم وقتهم في اللعب او انتياب الملاهي وليس عندهم ملاعب او مراقص اومنتديات عالمية وكل ماعندهم من الملاهي هي القهوات القذرة المنبعثة منها الروائح الكريهة وهم يجتمعون فيها للتحدث في الشؤون السياسية العقيمة . وفي غالب الاحيان تكون المدينة الصغيرة منقسمة بين اسرتين او ثلاث اسر تتنازع فيها النفوذ . وجميعهم يعلمون ان الواحد

منهم اذا لم ترفعه منزلته الى المقام الاول في مدينته فلا يستطيع ان يكون فيها شخصاً يشار اليه بالبنان وان علمه لايجديه نفعاً مع أن السواد الاعظم منهم يكونون قد درسوا وحذقوا في الحقوق او الطب او غير ذلك من العلوم والفنون وان لم يكن للواحد منهم أنصار يعضدونه فلا يدرك ماتطمح اليه نفسه فالانصار لامندوحة عنهم في كورسيكا لنيل الفوز في الانتخابات . والانسان وان يكن داهية في تلك البلاد لايغني دهاؤه شيئا ومن كان اقل منه دهاء وكان له حزب يسانده يصيب ولا مراء ضالته المنشودة . وللحصول على انصار شروط لا يستغنى عنها فاما أن يكون من أصحاب المجد التليد أو من اصحاب المجد الطارف وفي كلتا الحالين لابد له من انفاق المال عن سخاء . وفضلا عن ذلك له في دهائه ومقدرته السياسية خير واسطة للنجاح وهو يداري الحزب الكثير العدد المسموع الكلمة .

واصحاب الاملاك هم الذين يكون للواحد منهم ارض يزيد دخلها على حاجته أما الذين لا يكون للواحد منهم ارض يكفي دخلها حاجته فيقال لهم الفلاحين ولا يخفى ان كل انسان في كورسيكا يملك شيئا فليس فيها فقير معوز أي لابد من أن يكون للواحد بيت أو بستان أو حظيرة أو حقل مغروس كستناء أو زيتونا أو غير ذلك من الارض. والمساقاة غير معروفة عندهم ولكن لاينبغي أن نظن أن البيت أو الارض المرادين بهذا التعبير هما كالبيوت والاراضي التي يعينها الجباة فيكون البيت في غالب الاحيان مؤلفا من غرفة واحدة أو من قسم من غرفة لان حب المشاركة في كورسيكا لايقف عند قسمة البيت الواحد بين عدة أشخاص بل يكون بقسمة الغرفة الواحدة بين أشخاص كثيرين . ففي اجا كسيو وباستيا والمدن الصغيرة يشتري الواحد دورا من بيت على مثال مايشتري الواحد بيتا كاملا في مكان آخر . وفي القرى يملك الواحد غرفة أو نصف غرفة أو ربعها أو خمسها ولكن لايتوهمن أحد ان في هذا الامر مايبعث على الاختلافات المتواصلة فهم يسوون الخلافات بينهم واذا كان اثنان علمكان غرفة واحدة مثلا فانهما يتفقان على أن يشغلها واحد منهما فقط من دون أن يتقاضاه الآخر أجرة ما وهذا يقيم في منزل آخر أو يشخص الى القارة وهذا من جملة الاسباب التي تحمل الكورسيكيين على المهاجرة ويدوم هذه الاتفاق

بين المالكين حتى يطرأ بينهما خلاف على أمر من الامور فحينئذ تنفتح بينهما أبواب القضايا في المحاكم ويستنفد فيها رجال القانون كل ماعندهم من البراعة وحينما يصدر الحكم في تلك القضايا يصدر بحسب مقتضيات السياسة لا بحسب نص القانون وروح العدالة .

وقد تصير الكورسيكيون الجنويين في بناء منازلهم أي انهم جعلوها مؤلفة من عدة أدوار ولكن الجنويين لهم عذرهم في بناء مساكنهم من عدة أدوار لان موقع مدينتهم لايمكنهم من التبسط والامتداد خلافا للكورسيكيين فان ارضهم منبسطة متسعة وحيث أن الكورسيكي ليس من أهل اليسار لينفق غير الضروري فلم يفكر قط في تزيين بيته بالاشياء الثمينة والتحف الفنية فجميع البيوت في كورسيكا تشبه البيوت المعدة للايجار فلا يهتمون بأسباب الزينة والراحة فيها فالنوافذ فيها صغيرة والابواب ضيقة والادراج مظلمة وليس فيها من الاثاث الكثير القيمة الا ما كان باقيا من عهد الامبراطوريتين الاولى والثانية مما جاء به الضباط أو الموظفون في ذلك العهد .

ويمكن القول بالاجمال أن المستراحات لاوجود لها في دور كبار القوم واغنيائهم وهي والحق يقال مسألة خطيرة دقيقة ولكن الكورسيكيين لايكترثون لها وهم يأنفون من وجود تلك المستراحات في ضمن مساكنهم واضطروا في المدة الاخيرة في اجاكسيو وباستيا وغيرها الى انشاء شرفات جديدة خارج المنازل القديمة لبناء المستراحات فيها . أما البيوت الجديدة فيبنونها على الهندسة الجديدة ويجعلون فيها جميع أسباب الراحة الحديثة .

ويعتبر الملاك الكورسيكي زعيم القبيلة الحقيقي فيلتف حوله حزبه المؤلف من ذوي قرابته ثم من فريق من الفلاحين ولا يكون هؤلاء مخلصين له الا بقدر مايستفيدون من عوارفه واياديه وهو والحالة هذه يبيح لهم التصرف في أراضيه على أهوائهم فالرعاة يطلقون مواشيهم فيها والفلاحون يستعملون حظائره والحطابون يقطعون أشجاره والغلمان الرعاع ينهبون ثماره . ونقول بالايجاز ان جيشا من الطفيليين يزدحم حوله ويعيش من خيراته وهو مقضي عليه بان يعيش ويربي أولاده ويهذبهم ويدفع الضرائب ويعد القيام بهذه الامور معجزة من المعجزات اذ انه يجب عليه الا يفكر بأن يعقد القروض لتعذر هذا الامر عليه

فمثل اراضي كورسيكا لا يرضى الدائن بأن يسلف عليها مالا ولكن انصاره يؤلفون القوة التي يستند اليها وتقاس اهميته بقدر عدد رجاله في الانتخابات ففي كورسيكا يساوي الرجل مثلا عدد كذا من الاصوات كما يساوي الرجل في اميركا عدد كذا من الدولارات .

وجميع اصحاب الاراضي في كورسيكا يشتغلون في السياسة فهي ضرورية لجميعهم بلا استثناء وان هم انفوا من التدخل في المناظرات والتحزبات السياسية شاهدوا اموراً كثيرة يسوؤهم حدوثها من دون أن يتمكنوا من دفعها عنهم فيكثر ارهاقهم بالضرائب لان موزعيها يسرون بأن يثقلوا كواهل الذين لايكونون من حزبهم بتلك الضرائب الباهظة فالسواد الاعظم من اصحاب المناصب في كورسيكا كورسيكيون ولكل منهم حزب وهم يبذلون ما في الوسع لمداراة حزبهم وحزب اصدقائهم فالملاك السياسي الذي ينفض يده من السياسة يجري الى خرابه التام وكأنه لا يكفيه أن ينهب الفلاحون امواله على الصورة التي بسطناها فيضطر في يوم الانتخاب الى ان يدور على ابواب اصحاب الاصوات لالتماس اصواتهم وان الفلاح وان يكن من رجاله ويعيش من خيره لاينتخبه مالم يتذلل له ويستنتج مما تقدم بيانه ان اصحاب الاراضي في كورسيكا ارقاء مساكين تعبث بهم اهواء الفلاحين ويرهقهم جباة الضرائب وتستذلهم السياسة وبناء عليه تنقضي الحياة في تلك البلاد في الصغارة واذا حدث مثلا ان فرسا قضم الكلأ باطراف اسنانه في مرج كان ذلك الامر فاتحة قضية طويلة عريضة اذا كان ذلك الفرس لغير رجل من انصار صاحب المرج .

أما قضاة الصلح في كورسيكا — وجميعهم كورسيكيون — فلا يجرون الشرائع إلا والسياسة تحرك عوامل عواطفهم فلا يصح أن يطلق عليهم اسم قضاة صلح بل قضاة حرب ومن هذا القبيل يعتبرون أن كورسيكا الحالية لا تزال على ما كانت عليه في القرن السابع عشر وقت ما كانت تحت سيادة الجنويين أي حينما كان الكورسيكي يؤثر حمل بندقيته لاخذ الثار على رفع أمره الى القاضي والآن يترافع الكورسيكيون الى القضاء إلا أن أنظمة الجمهورية الثالثة تسوغ لكل منهم أن يندفع وراء سياسة لاحد لها . ففي الجزيرة اثنان وستون قاضيا من قضاة الصلح وهذا العدد يساوي ضعفي عدد القضاء في أي مقاطعة من المقاطعات الفرنسوية اي ان متوسط قضاة الصلح واحد لكل أربعة آلاف نفس وفي المقاطعات

الفرنسوية واحد لكل ثلاثة عشر ألف نسمة أو اربعة عشر ألف نسمة ويمكن القول بالايجاز أن هنالك اثنين وستين موظفا للانتخاب يتصرفون بالعدالة على ما توحيه اليهم الاهواء السياسية ومما يزيد في الطين بلة ويسهل على الناس اقامة القضايا هو ان المرافعات معفاة من الرسوم التي تتقاضاها المحاكم. فحيث تكون في فرنسا الفا قضية مثلا في السنة يقابلها في كورسيكا خمسة عشر الف قضية لقطعة من الارض فيها مثل ما في تلك من السكان. وفي كورسيكا وحدها عمل لرجال الشحنة بمقدار ما لهم من العمل في جميع المقاطعات الفرنسوية الخمس والثمانين وما قلناه عن المحاكم الصلحية من جهة تدخل السياسة فيها نقوله عن المحكمة البدائية والمحكمة الاستئنافية في باستيا ففي كلتيهما قضاة كورسيكيون يجعلون من وكدهم الاشتغال في السياسة. وفي هذا المعترك السياسي لايلتقي المالك مندحة عن نزوله اليه فيسعى لاصابة مركز عمدة بلدة أو مستشار ناحية أو عضو في مجلس عمومي وحينئذ يعمد الى استمالة أصوات الناخبين للذي لا يراه هو أفضل من سواه لخدمة آرائه أو مذهبه السياسي بل لكونه ذا كلمة مسموعة في الادارة العامة. ويرى القارىء مما تقدم بيانه ان العدالة في تلك الجزيرة لاتجري على السنن المرسوم لها بل على ماتقتضيه اهواء السياسة.

هذه حالة المالك الكورسيكي فهو لايقوى وحده على مقاومة التيار بل تضطره الاحوال الى تأليف حزب يقوم بنصره عند الحاجة. ولقائل أن يقول وما باله لايشترك مع غيره من أصحاب الاراضي ويؤلف عصبة فالكان يتحدان يؤلفان قوة وثلاثة يؤلفون جمعية فنقول له انك ياهذا تذهل عن طبيعة البلاد ففيها تقوم العقبات في وجه أصحاب الارادة الحسنة وتذهل أيضا عن تاريخ كورسيكا فيتبين منه أن الكورسيكي شديد التمسك بالشخصيات ولم يسبق أن تألفت شركة في الجزيرة بين الاهلين وحدهم وكل ماسعوا اليه من هذا القبيل اخفق فاذا الفت من الكورسيكيين جمعية فلا تلبث تلك الجمعية أن ينتثر عقدها وقد نظم المسيو كليمنصو تقريرا في سنة ١٩٠٨ حينما كان رئيس الوزارة ووزير الداخلية ادار رحى الكلام فيه على الحالة الحاضرة في كورسيكا فنقتطف منه مايلي مما يتعلق بالموضوع الذي نحن في صدد الكلام عنه :

« ليس للكورسيكي ما لاهل القارة من روح الاجتماع فهو يظل منفردا

مع شعوره بضعفه في معترك الالفة الاجتماعية ولا يتوسل بما له من الوسائل لضم متفرق شمله واصلاح ما فسد من شؤونه وتأليف النقابات فالجمعيات على اختلاف انواعها تكاد تكون مفقودة من الجزيرة ولا نقابة للعمال في غير باستيا ولكن ثمة نقابات زراعية في جميع انحاء الجزيرة . »

أما الفلاح فيستطيع تذليل مايتصدى له من المصاعب لحياته لاتكتنفها المشكلات المتكنفة لحياة المالك فهو يقنع بالقليل ويكتفي بقطعة من شحم الخنزير ورغيف من الخبز أو من الكستناء ويلبس ثوبا من الخمل المرفؤ ولا تتأنق زوجته في الملبس واولاده يكفيهم قميص وسراويل لان درجة الحرارة في الجزيرة تكفيهم مؤونة لبس القبعات والاحذية . وليس للفلاح مطامع لانه ليس له حرفة يحترفها فهو يحصر عمله في حراثة الارض ولا يعالج إلا الارض الجارية على ملكه فيستغل منها الملفوف والبطاطس واللوبياء وهي البقول التي لايفتكر بغيرها وهو يصنع منها مايلذ له من الحساء ويسمن خنزيرا بفضلات الطعام أو بقايا البقول اذا لم يكن عنده كستناء وينحره في عيد الميلاد ويملحه ويأكل منه على مدار السنة .

واذا اشتغل عند المالك في حراثة الارض أو غرس الكرمة أخذ في مقابل عمله شيئا من الحنطة او الخمر وبذلك يصيب مايحتاج اليه من الخبز والخمر وكان الملاك في غابر الحين يدفعون للعملة عينا ولكن جرت شيئا فشيئا عادة دفع اجورهم نقدا إلا أن المال نادر عند المالك ويكون عنده نقود حينما يكون نسيباً لموظف عامل او لموظف متقاعد أو حينما يبيع غاب الكستناء .

ويكون الفلاح ايضا اسكافا أو نجارا أو بناء فهذه ثلاث مهن ضرورية ولكنها لاتعود على مزاولها بكسب كثير لان حاجات القوم من هذه الجهة محدودة في تلك الديار فالاسكاف دون سواه يلقى عملا يستغرق وقته كله لان الطرق كلها صخرية تتلف الاحذية بيد أن ذلك الصانع المسكين لا يقبض دائما ثمن الاحذية التي يصنعها فله ديون عند جميع الاسر وكثيرا ما تذهب ديونه ضياعا لان من ليس عنده شيء لايستطيع أن يعطي شيئا . والاسكاف ينتظر بنافد الصبر زمان الانتخاب لان زبائنه يكسبون المال من وراء الانتخابات فحينئذ يدور على زبائنه ويطلب منهم ما له عندهم ولا يعود الا بعد أن يعدوه بالدفع

وليس النجار أسعد حظا من الاسكاف ولـكنه لا يشتغل الا عند المـالك وهذا يدفع له اجرته نقداً أو عينا ولـكنه لا يشتغل الا الضروري وهو شيء يسير تدعو اليه الضرورة القصوى .

والبناء يقوم بجميع الاشغال التي يقتضيها بناء البيت فهو المهندس والبناء والمبلط وليس البناء عندهم بالامر الصعب فجميعهم يسيرون على خطة واحـدة مبتذلة ويبني البناء جدرانا سميكة كأنها جدران قلعة ويصنع روافد من الخشب غليظة ثقيلة ويغطيهـا بقطع من الواح الحجر ثقيلة وغـير منحوتة نحتا محكما . ويأتي بعده النجار لصنع السلم والابواب والنوافذ ووضع الاقفال ويكون البناء عارفا انه حينما يشتغل يكسب شيئا من المـال لانهم لا يباشرون البناء عادة في تلك البـلاد الا حينما يكون عندهم مال ولـكن يندر ان يكون عندهم مال في كورسيكا ويقضي البناؤون معظم وقتهم على الغالب في البطالة . وهم لا يمهدون سبل الوصول الى بيوتهم فلا يخطر لهم ابدا انهم بتمهيد الارض أمام بيوتهم يسهلون دخول مسا كنهم ولا يهمهم اتقان معيشتهم فيصرفون جل همهم في الخصومات السياسية بحيث لا يبقى عندهم شيء من الجهد ينفقونه في سبيل تنظيم معايشهم وما الاهمال المشهور في الشؤون الادارية سوى صدى الاهمال عندهم في الشؤون البيتية .

ويعيشون في القرى الـكورسيكية بلا ترتيب فتترك الحيوانات هائمة على وجهها في الميادين العامة وأمام المنازل الملاصق بعضها لبعض مع اتساع فسحة الارض عنـدهم وتقعد النساء في كورسيكا على الشرفات المتداعية للخياطة أو التوشية ويلعب الرجال بالورق أو يدخنون أو يرقدون على أخشاب تشبه المقاعد وتكون الدجاج في أثناء ذلك تنق والخنازير تصيء والحمير تنهق والـكلاب تنبح والقطط تموء فهذا مشهد من مشاهد المعيشة في القرى الـكورسيكية .

وتبين علامات التعس والـكسل على أولئك السكان فلا يتغذون بالغذاء الـكافي ولذلك لا حول لهم ولا طول وقد عبثت بهم الامراض الفتاكة كالتدرن الرئوي والوبالة وفقر الدم والفالج اما الاحداث فتفتك بهم الامراض القتالة كالحصبة والحمى القرمزية والجدري والتيفوئيد فتكا ذريعا ولم تنظم الحكومة احصاء للوفيات بينهم ولـكن المسيو كليمنصو جاء على ذكر هـذا الامر في

تقريره الآنف الذكر وقال ان الامراض الوبائية تنتشر في القرى الكورسيكية بجهل القوم ونبذهم اتخاذ اسباب الوقاية والعناية بالمصابين وعدم تجنب مخالطتهم وتطهير منازلهم وامتعتهم . ويكاد الاطباء في كورسيكا يكونون غير موجودين او هم قليلون جدا . وقد احصى الاطباء هنالك فكانوا ستة وستين طبيباً قانونياً وواحد وخمسين موظفاً صحيا فيكون مجموعهم مئة وسبعة عشر طبيباً منهم تسعون يزاولون الطبابة وعليه يكون المعدل طبيباً واحدا لكل ثلاثة آلاف نفس على التقريب . ومتى علمنا ان في اجاكسيو وباستيا واحد وثلاثين طبيباً وجدنا أنه يبقي نحو ستين طبيباً لخدمة شعب يبلغ عدده نحو مئتين وتسعين الف نسمة في أقليم تبلغ مساحته نحو ثماني مئة وسبعين الف هكتار على أن الاطباء الستين الذين تقدم بيانهم يقيمون في المدن الاخرى الصغيرة ككورتي وسرتين وكالفي وايل روس وغيرها بحيث يندر وجود طبيب في الانحاء الجبلية التي يأوي اليها الفقراء وفي فرنسا شريعة سنت في سنة ١٩٠٢ تقضي بانشاء مستوصفات طبية مجانية الا أن السياسة تدخلت في مسألة التطبيب في كورسيكا وجعلتها اداة للانتخاب فنظمت جداول باسماء اصحاب الكلمة المسموعة ودفعت الى اماكن الاعانات العامة ليتمكن اولئك الانصار من التطبب مجاناً

وانه ليسهل ان ينسب الكسل الى الفلاح الكورسيكي ولكن يصعب ايجاد شغل له اما اصحاب المهن كالاساكفة والنجارين والبنائين فلا يجدونهم في كل قرية لقلة الحاجة اليهم . واصحاب الاملاك يهملون امر الزراعة وليس هنالك من صناعة فكيف يكون العمل والحالة هذه .

ان الشبان يهاجرون فبعد اتمام الخدمة الجندية ينتظمون في سلك العسكرية ويصبحون جنوداً اشداء وضباطاً اباسل وقد اشتهروا بالحرص على النظام العسكري والاخلاص لدولتهم وكثيراً ما يجدون عند خروجهم من سلك الجندية مركزاً بسيطاً في الدوائر الخاصة أو العامة فمنهم من يدخل الدوائر المالية أو تسند اليه المحافظة على السجون ومنهم من يدخل دوائر الشحنة او غير ذلك من الخطط التي يقدرون على تولي شؤونها ويكونون في أي مركز يشغلونه كرام الاخلاق ذوي جد وعمل وصبر على الشدائد فمن الكورسيكيين مئتا الف نفس منتشرون في جهات فرنسا الاربع وفي جملتهم نحو عشرين الفاً في باريس ونحو هذا العدد

في مرسيليا ومثله ايضا في طولون ونحو ثلاثين الفاً في الانطيل ونحو خمسين الفاً في فنزويلا والبرازيل والجمهورية الفضية وكثيرون من المتقلدين لمناصب الحكومة وخططها يعودون الى قراهم حينما يحالون الى المعاش وهم يحملون ما امكنهم توفيره للاستعانة به على معيشتهم حينما لايبقى لهم مقدرة على مزاولة العمل ولكنهم لايعتمون ان تهب عليهم نكباوات السياسة أو نكباتها فيندفعوا مع تيارها وبعد أن يكون كثيرون منهم قد قضوا حياة ماشابتها شائبة يلطخون بردفضيلتهم بما تضطرهم الى اتيانه مقتضيات السياسة الخرقاء السائدة في تلك الجزيرة المنكودة الطالع .

ويكون الكورسيكي في خارج بلاده على جانب عظيم من الشمم والانفة وعلو الهمة ولكنه يعود عند عودته اليها الى نهج منهج وطنييه على ماهو مشهور عنهم من الاشتغال بالسياسة التي تفسد كل غاية شريفة والمهاجرة والحالة هذه بدلا من أن تجلب على الجزيرة مع ابنائها العائدين اليها تحولا في الاخلاق ونجاحاً في التجارة والصناعة والزراعة تفقرها بحرمانها اياها نشاط اولئك الابناء فكورسيكا والحالة هذه باقية على ما كانت عليه من الجمود والخمول وجميع البلدان المجاورة لها تجد بخطى واسعة سريعة في جادة المدنية والحضارة .

والراعي الكورسيكي يعيش ناعم البال قرير العين وقد ادرك دون سواه كيف يعيش في بلاد تداعت فيها صروح الانظمة والثروات وهو يقتني أقل مايمكن اقتناؤه وهو بين الملاك يعد اغنى من جميعهم وهو متناه في الذكاء ويكون في غالب الاحيان أميا وهذا مايجعله قوي المنكب شديد الصريمة لان التعليم لم يفسد اخلاقه فهو لايعرف الكتابة ولا القراءة ولكنه يحسن الحساب العقلية فكم من الرعاة الكورسيكيين يستطيعون أن يعملوا في بضع ثوان عملية قسمة عقلية تتألف من خمسة أرقام في كل من المقسومين مثلا أو عملية نسبة أو عملية كسر وكثيرون منهم يبهجون في أثناء قيامهم على مواشيهم في عزلتهم بهج بأشكال حينما كان حدث وهم لايعرفون شيئا من مبادئ الهندسة أي أنهم يبحثون عن خواص الخطوط وما للصور الهندسية من العلاقة بعضها ببعض ويعجز طلبة المدارس عن حل المسائل التي يعالجون حلها بطريقتهم العقلية البسيطة . والراعي الكورسيكي ورث مهنته أبا عن جد ولم يتعلم تعليما غير التأمل في الصمت على

قمم الجبال في الشتاء وفي الادغال والآجام في الصيف ولا يسند ما أوتيه من الدهاء الى وراثة هذبها التعليم وليس استعداده موروثا عن اسلافه ولكنه مكتسب بما طرأ عليه من التحول وهو في اطواره يشبه البشر الاولين فيعيش وحده مع حيواناته ويستـ ـــــ تصور عن العالم بما يبدو له من الخط والعدد ومن يبحث في اخلاقه واطواره عن كثب يعلم كيف كانت الشعوب في الازمنة القديمة تدرك بعض المبادىء العامة مع جهلها لكل شيء ومن ثم نرى الراعي الكورسيكي يحتقر المالك ويزدري بالفلاح وهو عارف كل المعرفة بموقف كليهما المحفوف بالاضطراب والعراقيل فيتخذ لنفسه عبرة زاجرة . وقد حل مسألة اقتصادية معقدة تفوق في الغموض جميع المسائل الرياضية وهي أنه ارتأى ألا يملك شيئا وان يصيب كل شيء فالراعي يقيم على حراسة قطيع من الغنم أو الماعز ففي الاصل يخص هذا القطيع المالك ويظل مبدئيا ملكه ولا يحتاج الراعي الى دفع رأس مال ما وينمو القطيع ويكثر عدده وبحسب الاصول التي يجرون عليها من جهة الانعام يجب أن يظل العدد المسلم الى الراعي كاملا وانما يقسم النتاج بين المالك والراعي والى هنا يظهر كل شيء موافقا للقانون والعدالة ولكن ثمة تصفية الحساب فحينئذ يظهر دهاء الراعي الرياضي بكل مظهره فكم كان مقدار اللبن المحلوب من النعاج يقول الراعي ان اللبن المحلوب يكاد لا يذكر لان السنة كانت عاطلة جدا . وكم كان مقدار الصوف المجزوز منها ؟ لم يكن شيئا مذكورا والكلام في هذا الشأن يعد من باب العبث . وكم حمل انتجت؟ ان عدد الحملان قليل جدا وان نعاج المالك كانت جميعها على التقريب عاقرا . ولقائل أن يقول أو ليست جميع النعاج المالك؟ فنقول له انك مخطىء ياهذا فالمالك دفع عدداً معلوماً من النعاج الى الراعي فعبثت بها الامراض وتلف جانب كبير منها وبات الجانب الآخر فريسة للثعالب ونفق غيره بالحوادث بحيث انه لم تمض اشهر حتى كاد القطيع يفنى عن آخره وقد حصل الراعي على نعاج اخرى (ولا يعني احدا أن يعرف كيف حصل عليها وقد شاءت الاقدار أن تنتج هـذه النعاج وحدها فالقطيع الذي كان مؤلفا في الاصل من خمس وعشرين نعجة مثلا ونقص عدده الآن حتى اصبح خمسة عشر لم يجن منه بحسب زعم الراعي الا ثلاث جبنات وكيلو غرام واحد من الصوف واربعة حملان — ولكن هذه سرقة فكل مايزعمه الراعي كذب محض ولكن

عفوا فان علم الرياضيات يقيم عليه الدليل فالراعي مصيب رياضيا ولـكن كيف العمل ؟ ان تصديق حسابه يعد من باب البساطة والبلاهة وان اقامة قضية عليه يكون مدرجة الى مرافعات ومماحكات لانهاية لها ومن اراد الحصول على حقه وجب عليه ان يحرك عوامل التفوق السياسي وهب اصاب وطره من القضية المقامة فيبقى الحكم الصادر على الراعي حبرا على ورق لان الراعي يبقى حراً كالهواء ولا سبيل الى القبض عليه ولا يستطيع صاحب القضية انيحجز مقتنياته لانه لايملك شيئا فالنعاج التي يزعم المالك أنها له لاتلبث أن تتوارى ولايبقى لها أثر ولا تتمكن الحكومة من اعتقاله لانه يقيم على قمم الجبال وفي صدوع الارض وكهوفها وبطون الاودية أو في الادغال التي لايهتدي أحد الى مسالـكها وليس للمالك سوى وسيلة واحدة يستطيع أن يتوسل بها ليتخلص من شر الرعاة واستبدادهم ومكرهم وهي أن يغيرهم من حين الى آخر قبل ان يستوسق لهم الامر ويستأثروا بجميع المنافع الناجمة عن القطيع المسلم اليهم ولـكن لايتوهمن أحد ان ذلك التغيير من شأنه أن يجعل المالك حاصلا على المنفعة التي يتوخاها من مواشيه فجميع الرعاة مقدودون من أديم واحد ومفرغون في قالب واحد ويكونون في غالب الاحيان أقوى من الملاك .

ولهم علاوة على ذلك حق الانتخاب واصواتهم يقام لها وزن وان المالك الذي يهمه أن يكون له انصار كثيرون لايلقى له منتدحاً عن مداراتهم فيظهر الراعي في ذلك الحين بمظهر السيد المطاع لانه حالما يعين موعد الانتخاب يتوارى الرعاة ويكونون اما في الادغال في السهول واما على ذرى الهضاب والجبال فيضطرون الى البحث عنهم واللحاق بهم والرجاء منهم أن يحضروا الى دائرة الانتخاب للاقتراع وحينئذ يبدو دهاؤهم فيماالنون المالك بالاعتصام بغرزحزبه ويخاطبونه بلهجة عذبة مزوقة وكلام يسحر الالباب مؤكدين له انهم لايميلون إلا الى فوزه ولا هم لهم سواه ولـكن يكون برقهم خلبا ومواعيدهم عرقوبية فهم يفوهون بهذا الـكلام ويبقون في اماكنهم ولا يجعلهم يزايلونها الى الاماكن المعينة للانتخاب الابريق الاصفر الرنان فالراعي الـكورسيكي والحالة هـذه لايدع فرصة تمر من دون أن يحرز ما يستطيع احرازه فيها من المنافع فهو السيد في كورسيكا

ويستنتج مما بسطناه أن الشعب الـكورسيكي يتألف من أمة متحدة في

مجموعها مختلفة بطبيعة أقاليمها الجغرافية وتنقسم الى فئات اجتماعية تتميز الواحدة منها عن الاخرى . فهذا الشعب يتألم الآن من حالة التقهقر الباقي هو فيها ويطلب مد يد المساعدة اليه وهو يكفر الآن عن الخصومات الداخلية التي كانت باعثاً على تطاحنه في غابر الايام وعن المنازعات السياسية التي تفت في عضده في أيامنا هـذه ولما ضم الى فرنسا خيل اليه انه ينجو من غوائل الحول الجنوي ولكنه اخطأ ظنه المرمى فلم يكن حظه في عهد الفرنسويين افضل منه في عهد الجنويين وقد أصبحت كورسيكا فرنسوية حينما كانت الافكار في فرنسا تستعد لتلك الثورة الهائلة فنشأت هيئة اجتماعية جديدة كان من وكدها هدم الانظمـة الارسطقراطية القديمة واقامة انظمة ديمقراطية جديدة على انقاضها ففرنسا الكامنة فيها قوى عجيبة غريبة وهمة لا يثلم حدها وحياة لا يدنو منها الوهن نهضت مما اصابها من العثار في تلك الثورة الـكبرى وفي حروب الامبراطورية الطاحنة فاستقامت امورها واتسع نطاق اليسر فيها وتمكنت من الخروج من الحرب السبعينية الوبيلة غير مهيضة الجناح او مثلومة الحد . وبعد الحرب العالمية الـكبرى هبت وحركت عوامل نشاطها وعملت على ما افسدته يد الالمان في بلادها واصبح لها المقام الاول في القارة الاوربية وباتت لها الكلمة المسموعة في المؤتمرات الدولية التي توالى عقدها وحسبها أن يكون فيها داهية كالمسيو رايمون بوانكاره يعرف من أين تؤكل الكتف حتى يعزز مركزها في العالم وبعد ما كان الناس يتوهمون ان احوالها الاقتصادية والمالية تضعضعت نشطت الى اصلاح شؤونها الصناعية والتجارية وتوطيد اركان نقدها فانهال عليها الذهب من جميع الانحاء حتى اصبح لها المكانة الاولى في اوربا من جهة خزن الذهب وقد ساد القلق الدول الاخرى من جراء ذلك الامر فاخذن ينظرن في تلك المسألة نظرة جدية تلافياً لما قد يجر عليهن ذلك من الخراب .

والكورسيكيون يأملون أن فرنسا لا تظل في المستقبل مهملة لامورهم كما كانت الحال في الماضي بل تنظر اليهم بمقلة العناية والاهتمام ولم يخف عليهم أن جميع الحكومات التي تعاقبت على الحكم في فرنسا من الثورة الفرنسوية الـكبرى الى عهدنا الحاضر لم تكترث لحالة بلادهم ولم تعمل على ترقية شؤونهم وتحسين احوال وطنهم ولم تساعدها في حالة التحول التي مرت عليها وخيل للفرنسويين انه يكفيهم

أن ينشروا في كورسيكا الشرائع الجديدة والقوانين الحديثة وقد ذهلوا عن حقيقة تاريخها الخاص واخلاق أهليها المتفردين بها فعاملوها معاملتهم للمقاطعات الفرنسوية الاخرى ودمجوها بالاقاليم التي كانت خاضعة من اجيال متوالية وقرون كثيرة للحكومة الملكية المطلقة وجرى في وهمهم ان تلك الجزيرة غنية وان خيراتها لاتكفي فقط للقيام باودها بل يستطاع تخصيص قسم منها لنفقات الدولة العامة وظنوا ان الشعب يزاول الاقتراع العام مع احترامه لانظمة الارسطقراطية الادبية والتجارية على ما كانت عليه الحال في فرنسا الا ان كورسيكا الغنية بطبيعة تربتها لم تعرف من القرن السابع عشر ما هو اليسر الحقيقي فقد كانت محتاجة الى أن يمدوها بالمساعدة ولا أن يطلبوا منها مساعدة ولا يخفى ان الامة الكورسيكية التي نشأت في مهد الحرية من عهد بعيد لم يكن فيها اثر للارسطقراطية فكل فرد من ابنائها يعتبر نفسه حراً من ولادته وكان بالتالي يعتبر ان له الحق بان يصير صاحب الامر والنهي في بلاده وهذا هو السبب الذي من اجله كان الاقتراع العام باعثاً على الخصومات الدموية بين الكورسيكيين ويمكن القول بالايجاز ان نتيجة تلك الحركات افضت الى حصر السيادة في الجزيرة في أيد معروفة فعادوا الى تمثيل الدور الذي كان يمثله في القرون المتوسطة امثال تشينارشيزي واوبرتنغي وفريغوزي وبقيت المظالم تعبث بالقوم على أوجه مختلفة وصور شتى فالاحوال لاتزال عندهم على ما كانت عليه في القرن الثاني عشر .

وتنحصر المصائب الحالة بكورسيكا في الآونة الحاضرة في ثلاثة أمور . الفقر وخلل الادارة والسياسة فمقر الشعب ينجم عنه العذاب والاضطراب . وخلل الادارة يغل الايدي ويخلق الضعف وينشيء اضطراب حبل الامن . والسياسة العامة تبلبل الافكار وتفسد الضمائر وتخيم على نشاط الامة وتكون من أقوى العوامل لانتشار الفقر وازدياد الخلل في الادارة .

فمصيبة كورسيكا شديدة ومزمنة : شديدة لانها تعم البلاد في جميع قواها وتفسد جميع انظمتها وقوانينها وعناصرها . ومزمنة لانها مذ وجدت لم يتقلص ظلها دقيقة واحدة فهي تعمل على مهل جارة تلك الديار الى مهاوي الدمار . ومما يساعد على استفحال أمرها هو الاخلاق الموروثة عند تلك الاقوام

وطبيعة البلاد المقيمين فيها فافضل الاخلاق المتصف بها الشعب الكورسيكي يصبح من أشد الذرائع لجلب الشر فالانانية تحول دون تأليف الجمعيات والانفة تجعل الواحد منهم يتخلق باخلاق بالية والمحافظة على التقاليد القديمة تقف حاجزا في وجه العادات الحديثة والروح الديمقراطية تزيد في طين الغليان السياسي بلة. ويتسلسل عن ذلك أمور اقتصادية تجعل محاسن تلك البلاد عقيمة فوعورة الجبال تصير انشاء طرق المواصلات صعبا . وخصب التربة يساعد النباتات الطفيلية على النمو ويضطر الزارع الى جهاد متواصل لأن الاحوال الجوية في تلك البلاد تختلف باختلاف موقع مناطقها فهي كثيرة الرطوبة في المرتفعات وشديدة الجفاف في السهول وأفضل الاراضي الملائمة للزراعة وبيلة الهواء ونقول أخيرا أن موقع الجزيرة الجغرافي يقضي باعتزالها فكان كل شيء يعمل على معاكستها من اخلاق القوم الى موقع بلادهم الجغرافي فكورسيكا لاتزال بعيدة عن المدنية العصرية ولم تحسن إدارتها ولا استخراج دفائن خيراتها وهي دريئة لسهام المنازعات السياسية .

ومن أشد النكبات وقعا على الكورسيكيين الوبالة فهي تهددهم بالانقراض وهذا المرض هو غير خطير بحد نفسه فالمعالجة تقضي عليه واذا أخذت الكينا بجرعات قوية استأصلت شأفته . ولكن هل يشفى المصاب به شفاء تاما . يقولون أن من تنتابه الوبالة تترك فيه جراثيمها مادام حيا فعند أقل تعب يلم به وعند ادنى حركة عنيفة تنوب الجسم تهب الوبالة من مربضها وان هم لم يقطعوا دابرها من البدء تمكنت وشائجها في الجسم بسرعة غريبة واشتدساعدها. فالوبالة منتشرة في كورسيكا انتشارا يوصف بانه آفة وخيمة المغبة عليها ومن نتائجها السيئة ان سكانها يتناقص عددهم يوما فيوما من جراء ذلك الداء الوبيل فهو يقصر الآجال ويسوق العقم الى المتزوجين ويدفع معظم القوم الى المهاجرة ويقال بالاجمال أن سكان الجزيرة بجملتهم مصابون بالوبالة على التقريب والاطباء في كورسيكا يصفون للوطنيين الناقهين من أي مرض كان ان يستعملوا املاح الكينا لأن كل مرض عند الكورسيكيين ينتهي في غالب الاحيان بالاشتراك مع الوبالة

واذا نظرنا الى علاقة الوبالة بكورسيكا وجدنا ثلاثة أقاليم في تلك البلاد : الاقليم الذي تصيب فيه الوبالة الناس والاقليم الذي يتداوون فيه منها والاقليم الذي لاوجود لها فيه .

فتنشأ الوبالة في السواحل ولاسيا السواحل المنخفضة المتصلة بسهول تمتد الى سفوح الجبال كسهول بيغوليا ومارانا وكامبو يورو وبرافوني والبريا وفيو موربو وسولنزارا أي من ابواب باستيا الى مصب نهر سولنزارا وهنالك مصاب الانهر الكبيرة والصغيرة وتنتشر مياه هذه الانهر في مستنقعات كبيرة قريبة الغور يكثر فيها القصب والبردي ويتولد فيها البعوض من نوع « انوفيل » وهي تنقل جراثيم ذلك الداء الوبيل .

وهنالك ماعدا هذا الاقليم الشرقي اقالم أخرى أصغر منه تمتد عند مصاب مجاري المياه في الجزيرة وتتصل بها سهول فسيحة رديئة الهواء وحينما يكون الانسان في تلك السهول يصاب بالوبالة فيعود الى قريته للتداوي فيها . ومن عادة الكورسيكيين أن يقضوا أشهر الصيف من يوليو الى نوفمبر في القرى المبنية على قمم الجبال ويأخذوا في اجتناء ثمار الكستناء في نوفمبر ثم يهبطوا الى السهول فيحرثوا ويزرعوا ويعزقوا الكرمة ويعنوا بامر الاشجار المثمرة في الشتاء والربيع ويحصدوا محصولاتهم في أواخر يونيو ثم يصعدوا الى قراهم قبل ظهور الوبالة وكثيرا مايحدث ان الحال تقضي عليهم بالبقاء في السهول الى أواسط شهر يوليو ويضطرهم رش الكرمة بالكبريت الى الرجوع الى السهول عدة مرات في خلال الصيف ويعودون في شهري سبتمبر واكتوبر الى السهول لقطاف العنب ولكن الوبالة لا تشتد وطأتها الامن نصف يونيو الى اواخر اكتوبر

ومن أهم الوسائل لمناهضة الوبالة اتلاف البعوض ولا يتم هذا إلا بتجفيف المستنقعات وقد ارممت الحكومة اجراءه ولكن هل يتسنى لها ذلك والمشروع يقتضي انفاق عشرة ملايين على الاقل وهي تشكو من العجز في موازنتها والجزيرة معروفة بفقرها وقلة مواردها .

أما التجارة فكاسدة في الجزيرة وليس في البلاد مصارف إلا في اجاكسيو وباستيا ولا تقام فيها أسواق ولا معارض عامة وليس في باستيا سوق للحنطة والعلف . ولا يعقل أن يهتم الملاك في السواحل الشرقية بمحصولات الحنطة اذا لم يجدوا لها اماكن يبيعونها فيها . وهم الآن يهملون أمر الحنطة التي كانوا يستغلونها من ارضهم ويجلبون الدقيق من القارة . ومن أهم الاسباب لتقهقر التجارة وكسادها افتقار البلاد الى طرق المواصلات .

وتزعم الحكومة الفرنسوية أنها عملت كل شيء لجزيرة كورسيكا بتعيينها معلمين للزراعة وأساتذة لالقاء الدروس ورجالا للجندية وجباة للضرائب وموظفين لادارة خطط الادارة على اختلاف أنواعها وبانشائها طرقاً وسكة حديد . ومثلها في ذلك مثل رجل يدعوك الى تناول الغداء عنده فيعلمك لماذا تأكل وكيف يجب أن تأكل ويجلسك على الخوان ولا يضع أمامك إلا ملعقة فللكورسيكي الملعقة ولكن ليس له شيء من الطعام فعنده سكة حديد وطرق وإن تكن قليلة ولكن ليس عنده تجارة .

ولا يطيق الفلاح الكورسيكي سكة الحديد فهو يكرهها كرهاً شديداً لانه لم يجن منها فائدة ما فهي لا تؤدي الى أي سوق كانت أو الى أي بلد تجاري وهو يعتقد أنها سبب لتقهقر بلاده والحق يقال إنه بعد إنشاء سكة الحديد أقفلت الخانات التي كانت على الطرق العامة وبطلت تربية الخيل والبغال والحمير فالكورسيكي ينام في ظل شجرة وينشد ما ألفه أصحاب الخانات في هذا الصدد واليك تعريبه :

« إن مخترع سكة الحديد وغد لئيم فليصب رأسه بالقرعة ولتحل به الفيلوكسيرا كما حلت بكرومنا . فالاسبوع ينقضي ولا نبيع كأساً واحدة من الخمر . يا انجلو خطر لي خاطر وهو أن نقذف ببطارياتنا القطار عند مروره . »

ولا يخفى أن بناء سكة الحديد في كورسيكا استغرق مبالغ طائلة من المال فالكيلو متر الواحد من السكة بين اجاكسيو وباستيا كلف ٣٤٦ الف فرنك ومن سكة بالانيي اكثر من مئة الف فرنك ومن سكة السواحل الشرقية نحو ١٥٥ الف فرنك . اجل ان البلاد وعرة المسالك وقد اقتضى بناء سكة الحديد فيها عناء شديدا واشغالا فنية خطيرة الا ان الجانب الاكبر من المبالغ الكبيرة التي انفقت عليها انفقت على شراء الارض التي يمر فيها الخط الحديدي وكان من وراء شراء تلك الارض قيل وقال في ذلك العهد فان السياسة لعبت دورا خطيرا في شرائها وقد استفرغ كل واحد منهم ما عنده من الدهاء لبيع ارضه من لجنة الاستملاك بثمن غال مع ضيق مساحتها فالهكتار الواحد من الارض الصخرية بيع بخمسة وسبعين الف فرنك مع أن قيمته الحقيقية لاتساوي عشرين سنتيما ولا بد من القول ايضا أن الذين كسبوا من وراء بيع أرضهم بتلك

الاثمان الفاحشة كانوا من ذوي الـكلمة المسموعة ومن المشتغلين في السياسـة . ولما كثر تحدث الناس في هذا الموضوع لم تلق الحـكومة بدا من تعيين لجنة جديدة لاعادة تخمين تلك الارض باثمان معقولة مقبولة ولـكن لم يتغير شيء في الحقيقة فاللجنة الثانية تسلطت عليهـا عوامل السياسة كما تسلطت على اللجنة الاولى من قبل وكان كل ماعملته انها خفضت اثمان اراض جارية على ملك اشخاص لم تكن كفة النفوذ السياسي راجحة نحوهم في ذلك الحين ورفعت اثمان اراض تخص اصحاب مقامات عالية وكلمة مسموعة وما قلناه عن بناء سكة الحديد يمكننا أن نقوله ايضا عن بناء الطرق الاخرى لحينما يلتزم الـكورسيكي انشاء طريق مثلا يقوم على مراقبة اعماله موظفون كورسيكيون تنتدبهم وزارة الاشغال العامة للاشراف عليها ومع انه مقضي عليه بان يتمم تلك الاعمال طبقا لوثيقة منظمة بينه وبين مصلحة الاشغال العامة فلا شيء يثبطه عن تضييق ذل الطريق وجدران الدعم وعضائد الجسور ولا يستعمل من مواد البناء لتلك الاعمال الا ما كان منها رخيص الثمن رديء الجنس فلا ينقضي ثلاثة اشهر على انشاء تلك الطريق حتى يصبح المرور عليهـا متعسرا فالالتزام للملتزم كسب سياسي لا يسهل حرمانهم اياه ثم انه اذا نهض أحـدهم وشكا من سوء حال الطريق كان كلامه كصرخة في واد أو كنفخة في رماد لان الملتزم يكون مظللا بكنف أحد المتنفذين السياسيين ولمـا انشيء الخط الحـديدي بين اجا كسيو وباستيا انهار التراب في مكان بين كورتي وفيفاريو ويقال أن ذلك الانهيار كان مدبراً بالاتفاق مع مفتشي الطرق والجسور وكان من نتيجته وضع خمس مئة الف فرنك في جيوب المقاولين من باب النفقات غـير المقررة . وبقي الآن تحت العمل نحو ١٤٨ كيلو مترا من سكة الحـديد يقتضي بناؤها ثلاثين مليونا ذهبا على ما جاء في تخمين خمن قبل الحرب

ولنذكر الآن بالايجاز ما أجراه نابوليون الاول في كورسيكا وما كان ينوي اجراءه فيها من الاصلاح وما تقلب عليها من الحوادث بعد سقوطه عن عرش الامبراطورية الفرنسوية :

لم يكن نابوليون يني عن الافتـكار بمنبت شعبته . وفي رسائله مايدل على شدة اهتمامه بتلك الجزيرة فقد وجه عنايته الى جميع الخطط الادارية فيها كالعدلية

والمالية والجندية برا وبحرا والتجارة والنافعة والزراعـة وتنظيم الشحنة وكان مزمعاً أن يضع على رأس تلك الخطط أشخاصا خبيرين بشؤون البلاد وعارفين بلغتهـا وسعى لينشىء في اجا كسيو مصنعاً للآجر والفخار يشتغل فيـه صغار العملة ليتمكن الناس فيهـا من الاستغناء عن جنوى في جلب الآجر والفخار منها . وصرف همامة النفس ايضا الى توسيع دوائر الاقتصاديات في الجزيرة وكان يفكر في هذه الامور وهو في باريس وفنتبلو وكمبيانيه وسان كلود وفي طريقه عند زحفه الى ستراسبورغ وبتسدام وشنبرن ودرسد وشجع الـكورسيكيين على زراعة القطن وعني بانشاء المسابك لمعالجة حـديد جزيرة البا وصرف جل اهتمامه من سنة ١٨١٠ الى تنظيم أحوال الجزيرة مالياً واستثمار احراجها الا أن الوقت لم يفسح له لانجاز ما كان يفـكر في عمله في جزيرة كورسيكا من تلك الاعمال الـكبيرة وكثيرا ما كانت تعوزه مناصرة رؤساء الخطط مناصرة مقرونة بالنزاهة والنشاط فـكثيرون منهم كانوا يلقون فى جيوبهم الاموال المخصصة لتحسين أحوال الجزيرة وتنمية اقتصادياتها أو ينفقونها في غير وجوهها .

وعلاوة على ذلك لم يكن الشعب الـكورسيكي مخلصا له فوقت ما انتهى الى كورسيكا نبأ تنازله عن العرش في فنتنبلو لم يخطر لاحد أن يهب للانتصار له وانحاز اريغي والي ليامونى الى البوربون في ٢٨ ابريل سنة ١٨١٤ ورفع فرنسوى ليفي عمـدة البلدة راية زهرة الزنبق الملـكية فوق قبة الـكنيسة وزينت دار البلدية احتفاء بعودة « الملـكية الشرعية » وتجمهر الشعب حول تمثال نصفي للامبراطور قدمه الـكردينال فش لمدينة اجا كسيو في سنة ١٨٠٦ وألقوه في البحر وهم يقـذفون صاحبه بالـكلام البذيء ويوسعونه سبابا وتحقيرا ويجاهرون بوجوب نسخ ذكره من الاذهان واطلقوا على الشوارع اسماء ملـكية وفتحت باستيا أبوابها في وجه البريطانيين ولـكنهم لم يطيلوا مكثهم في الجزيرة لان معاهدة باريس قضت عليهم بمغادرتها وارجاعها الى فرنسا

واذا نظرنا الى حالة جزيرة كورسيكا في القرن التاسع عشر واستقصينا في البحث عنها أمكننا ان نعبر عن حقيقة تلك الحالة بالـكلمات التالية :

« حالة سياسية مضطربة وعقيمة وتقهقر في الاقتصاديات واهمال الحكومة الفرنسوية لتلك الجزيرة وخمول الكورسيكيين »

ولما توارى نابوليون عن ملعب السياسة تألف حزب البونابرتيين الا أن المركيز دي ريفيار نائب الملك في كورسيكا ادخل الخوف على السكان بما أجراه بين ظهرانيهم من ضروب الارهاب فنشبت حينئذ حرب فيومورديو المشهورة وقد استطاع في اثنائها القائد بولي صهر مرضع نابوليون ورفيقه في جزيرة البا ان يواقع جنود الملك عدة أشهر وكان قد اتخذ الادغال والآجام ملجأ له واشتركت نساء كورسيكا مع بولي منتصرات له ومع ذلك رسخت أقدام الملكية في الجزيرة وأعلن فيها العفو العام .

وتفاقم الخلاف بين سكان الجزيرة وتألف عندهم حزبان : الاول انضمت اليه جميع الاسر القديمة الموالية للبوربون والثاني انتظمت في سلكه الاسر الحديثة العهد التي اصابت سؤددها ومكانتها في عهدي الثورة والامبراطورية ولم يكن التوفيق بين ذينك الحزبين مستطاعاً وذهبت سدى مساعي عقلاء الجزيرة لاصلاح ذات البين بينهما . اما الحكام الفرنسويون ففكروا من البدء في الجري على منهاج سياسة واحدة وهي مناصرة حزب لكبت الحزب الآخر وبالتالي تمديد أجل الفوضى والنسج على منوال الجنويين الذين كانوا يجنحون عن الطريقة المثلى .

ومن أهم الامور في كورسيكا الانتخابات ولم يكن لها قبلا ممثلون في البرلمان الفرنسوي ولكن صدر مرسوم ملكي في ١٣ يوليو سنة ١٨١٥ يخول كورسيكا انتخاب اربعة نواب فتدخلت الحكومة في الانتخاب تدخلا غير قانوني وانتخبت اشخاصا من غير الاكثرية . ومما يجعل الكورسيكيين شديدي الميل الى احراز عضوية البرلمان هو اعتقادهم انه يكفي أن يغشى ذلك العضو مدينة باريس حتى يتمكن من نيل أفضل المناصب وأسماها لذوي قرباه

وعني بعد ذلك والي الجزيرة بتحسين حالتها من الوجهتين الادبية والمادية فرأى أن الشرائع الفرنسوية لاتلائم الا الاغنياء فيها اما عامة القوم فيلزمهم انظمة أهلية مبنية على أساس الاستبداد المقرون بالعطف واللين وشاء أن ينشىء

مجالس صلحية مجانية في اجا كسيو وباستيا وأن يرسل الجناة الى القارة ليحاكموا فيها من دون أن يكون للسياسة تأثير ما في وجدان القضاة

وكانت حالة رجال الدين في كورسيكا مما يرثى لها فكان عددهم فيها ١٨٤٤ قسا ومعظمهم موصوفون بشكاسة الاخلاق والعنف في تصرفهم ويكاد السواد الاعظم منهم لا يحسنون الكتابة ولذلك اقتضت الحالة انشاء مدارس اكليريكية واستقدام رهبان من رهبنة اخوة المدارس المسيحية . وكانت حالة التعليم متقهقرة في الجزيرة فكانت الفوضى منتشرة في مدارس اجاكسيو وباستيا ولم يكن المعلمون يقبضون مرتباتهم في مواقيتها ولم تكن تلك المرتبات المدفوعة من صناديق البلديات تصل الى اصحابها لان جباة الضرائب كانوا يسرقون الامة والحكومة معاً .

ولفتت الحالة الزراعية أنظاره فطلب من الحكومة أن تساعده على تعزيز زراعة البطاطس والكستناء والفوة وإنشاء المشاتل لشجر التوت ونبههم الى المضار الناجمة عن إرسال المواشي في الحقول وتركها تعيث فيها فساداً وطلب إنشاء الاهراء لادخار الحنطة التي تزيد على حاجات القوم في سني الخصب واستغلال الاحراج وتحسين حالة الطرق ولكنه لم يكن متفقاً مع المسيو دي فيو الحاكم العسكري فاضطر الى الاستقالة في سنة ١٨١٨ . فعادت الاحزاب الى التطاحن والتضاغن وأصبحت أسرة بوتزو دي بورغو ذات كلمة مسموعة في البلاد إلا أن فتنة سنة ١٨٣٠ التي كانت مدرجة لتسود الحزب الحر جعلت أسرة سباستياني تتفوق على أسرة بوتزو دي بورغو وتصيب المقام الاول بين الكورسيكيين وقد تقلب الكونت هوراس دي سباستياني في عدة مناصب عالية فكان مرشالا فوزيراً فسفيراً فميناً من الاعيان في فرنسا وجعل أخوه الفيكونت تيبورس حاكما عسكريا لباريس وأصبحت كورسيكا بمثابة اقطاعة لهم فكانوا يوزعون فيها الرتب والنياشين على من يشاؤون .

ونال الكورسيكيون من حكومة لويس فيليب ما لم تكن حكومة سلفيه تجرؤ على منحهم إياه فنظم القضاء في بلادهم على الطراز الحديث واهتم الملك بانشاء الطرق الكثيرة عندهم وتكثير علاقات الجزيرة بالقارة وقد وصلت أول باخرة الى اجاكسيو في ١٨ يونيو سنة ١٨٣٠ ووسع مرفأي اجاكسيو وباستيا

وبنى في اجاكسيو دار البلدية ودار المحافظة والمسرح ويمكن القول بالايجاز انه عني بتحسين حالة الجزيرة من جميع الوجوه على ان كورسيكا ـ وكان الموظفون المرسلون اليها من القارة يعتبرون أن مقامهم فيها بمثابة التخرج في مدرسة المناصب أو بمثابة منفى — لم تصل الى الغاية التي كان يجب أن تصل اليها . ونظم بلانكي تقريراً في سنة ١٨٤٠ وقدمه الى ندوة العلوم الأدبية والسياسية واليك ملخص ذلك التقرير .

« ما هو السبب الذي من أجله لاتشبه كورسيكا البلدان المجاورة لها مع أنها جيدة الهواء خصيبة التربة غزيرة الماء وهي في وسط البحر الرومي على مسافات متقاربة من فرنسا وايطاليا واسبانيا . ولماذا لايغشى السياح أوديتها البديعة المناظر ولاترسو السفن في موانيها الجميلة . ولماذا يذهب البناؤون الى كندا وروسيا لجلب أخشاب البناء منهما وفي كورسيكا كثير من شجر السنديان المختلف الانواع وشجر الصنوبر وغيره . ولماذا قل عدد سكان الجزيرة واصبح غير كاف لمعالجة تربتها وفي وسعها أن تأتي بغلال تكفي مليونا من البشر . »

وقال وزير المالية الفرنسوية في سنة ١٨٣٩ أن في كورسيكا مئة الف هكتار من الاحراج إلا أن افتقار تلك البلاد الى الطرق ووسائل النقل حالا دون انتفاع الحكومة منها . وقال مالت برون في كتابه « الجغرافية العامة » :حينما ينال الحكومات الاوربية التبرم من الاهتمام بشؤون طوارئها ـ وقد كان ماجنته من الخزايا فيها اكثر مما جنته منها من الفوائد ـ تلقي فرنسا مورد غنى لاينضب في كورسيكا المشهورة بجودة هوائها الملائم لاستغلال المحصولات المجلوبة من الطوارىء على شريطة أن تصرف عنايتها الى زراعة الاصناف المستغلة منها تلك المحصولات وتبليدها في الجزيرة .

وكتب الدكتور دوناي مقالة في جريدة الديبا في سنة ١٨٥٢ خصصها لمسقط رأسه وقال فيها ما يأتي : تتأثر وطنيتي حينما اري الجهل أو العادة يدفعان فرنسا على انتجاع غير كورسيكا لاصابة ماتجده فيها وارتياد البلدان الاجنبية فى طلب اشياء تجد مايماثلها أو مايفضلها في اقاليمها . . . فأي بلاد تفضل كورسيكا في احوالها الجوية ولاسيما الاحوال الجوية في اجاكسيو .

وانتخب الامير لويس نابوليون رئيسا لنواب كورسيكا في الجمعية الدستورية

في سنة ١٨٤٨ واستطاع بدهائه أن يستعيد تاج فرنسا الى الاسرة البونابرتية ولكن هل استطاع أن يؤدي الى وطنه الاصلي ما كان يبتغي تأديته اليه من الخدم . وهل تسنّى له أن يعنى بشؤون الجزيرة على ما كان يبتغي اجراءه . أجل أنهم جففوا مستنقعات كلفي وسان فلوران وباستيا ووسعوا مرفأي اجا كسيو وباستيا ولكن لم تكن تلك الاعمال كافية لزيادة موارد البلاد وإسعادها حينما كانت فرنسا تسير سيرا حثيثا في طريق الرقي والعمران ويزعمون أن تاريخ اهمال الشؤون الادارية في كورسيكا يرتقي الى عهد الامبراطورية الثانية ولهذا الاهمال أسباب شتى روحية واجتماعية يعزي معظمها الى الاحوال الداخلية فقد كانت الاسر ذات الشأن في الجزيرة تتسابق على نيل الزلفى لدى الامبراطور وكان من وراء تلك المناظرات والانقياد الى المطامع واستفحال أمر الخصومات بين الاحزاب أن المصلحة الوطنية العامة كانت يضحى بها على مذبح الانانية والاغراض الشخصية .

وشخص نابوليون الثالث الى اجا كسيو في سنة ١٨٦٠ لفتح المعبد الذي بناه لدفن اعضاء أسرته وارسل اليها ابن عمه البرنس نابوليون جيروم في سنة ١٨٦٥ لازاحة الستار عن التماثيل المنصوبة في ساحة الالماس وزارت الامبراطورة وولي العهد الجزيرة في نوبتهما في سنة ١٨٦٩ وكان الكورسيكيون في المرات الثلاث ينمون على دخائل اخلاصهم وموالاتهم للاسرة الامبراطورية وقد تجسم هذا الاخلاص في مدينة بوردو في الجمعية الوطنية التي عقدت في أول مارس سنة ١٨٧١ لاعلان سقوط نابوليون الثالث عن العرش فان نائبين رسيكيين وهما كونتي وغافيني تسنما منبر الخطابة ودافعا بلهجة شديدة عن لاسرة البونابرتية .

ولا يخفى أن اخلاص الكورسيكيين لفرنسا أمر مشهور فان ثلاثين الفاً منهم خفوا الى الذود عن حياض فرنسا حينما كانت المتالف ادنى من قاب قوسين منها وانكر الكورسيكيون شكل الحكم الجمهوري في بدء الامر ولكنهم مالبثوا ان ألفوه وامتثلوا لاوامره ونواهيه لان زعماء الاحزاب غمرتهم حكومة العاصمة بنعمها في مقابل أصواتهم واصوات الذين يلفون لفهم في الانتخابات فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت في الجزيرة اخلاق سياسية تحاكي الاخلاق

السياسية البالية وهـذه هفوة ارتـكبتها الحكومة الفرنسوية فما عدا بوتزو دي بورغو الذي لم يدخر شيئاً لاظهار مايكنه فؤاده من القلى للبونابرتيين بتشييده على ربوة فوق اجاكسيو قصر البونتا بمواد مجلوبة من انقاض قصر التويلري (وقد زرت ذلك القصر وهو الآن متحف معروضة فيه تحف فاخرة وجميع ماله علاقة باسرة بوتزو دي بورغو) هناك عمنوئيل آرين وقد جر على بلاده نكبات وويلات فادحة لان الكورسيكيين فقدوا في عهده غيرتهم على المصلحة الوطنية العامة .

وقبل أن نختم هذا الفصل يحسن بنا أن نذكر شيئاً عن عادات الكورسيكيين من جهة الضيافة فانه اذا دخل الليل وكان مسافر سائراً في الطريق في مكان يجهله دخل أول بيت يصل اليه فيكرم صاحب البيت مثواه ويرحب به ويبالغ في الاحتفاء به واذا شاء المسافر ان يظل مكرماً عنده فليتجنب عرض المال عليه لئلا يسوق اليه الاهانة بذلك الامر وكل ما يمكنه ان يفعله لاظهار عرفان الجميل هو أن يرسل هدية صغيرة تذكارا الى مضيفه من أقرب مدينة يصل اليها فتكون خير صلة تربطه بضيفه الى ماشاء الله .

وعند الكورسيكيين عادة تشبه العادة المألوفة عند العرب في المناحات اي الندب على الميت فالنساء يحطن بالجثة وهن محلولات الشعور ويذرفن الدمع ويرتجلن الندب بين الشهيق والعويل على أن هـذه العادة بطلت في أكثر انحاء الجزيرة وقد تكون متصلة اليهم من العرب الذين احتلوا بعض الجهات فيها وخالطوا سكانها

هذا ما رأيت أن اكتبه بالاختصار عن تلك الجزيرة الجميلة ولو شئت اشباع الكلام في كل موضوع من الموضوعات التي طرقتها لاقتضى ذلك مجلدات ضخمة ولـكن مالا يدرك كله لا يترك جله . والفت انظار ابناء وطني الكرام الى عادات الشعب الكورسيكي وأخلاقه السياسية والادبية واطلب منهم أن يقابلوها بعادات شعبنا اللبناني واخلاقه فكأنما نحن واياهم مقدودون من اديم واحـد وهنالك فضلا عن ذلك تشابه شديد في السحنة بينهم وبيننا وكثيرا ما كنت ابصر شخصا كورسيكيا اظنه شقيقا لشخص لبناني اعرفه .

وحيث أننا قضينا المدة التي قضيناها في جزيرة كورسيكا في مدينتي كورتي

واجاكسيو وقد خالطنا سكانهما وتعرفنا على كثيرين منهم فرأينا أن نفرد لكل منهما فصلاً خاصاً نذكر فيه أهم مانعرفه عنهما فان ذلك لايخلو من التفكهة والفائدة

كورتي

ركبنا القطار من اجاكسيو الى كورتي في الساعة ٣٠ : ٦ من صباح السبت في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وكان النهار جميلا والمسافة بين تينك المدينتين تقطع بسكة الحديد باربع ساعات وتقع العين في اثناء الطريق على مناظر بديعة متنوعة . والطريق كثير التعاريج وفيه اكثر من اربعين نفقا بين كبير وصغير واكبرها نفق فنزافونا فان طوله يبلغ اربعة كيلومترات ويقطعه القطار بعشر دقائق . وتبعد فنزافونا ٥١ كيلو مترا عن اجاكسيو وترتفع عن سطح البحر ١١٦٢ مترا أما موقف سكة الحديد في فنزافونا فارتفاعه ٩٠٦ أمتار عن سطح البحر واتخذ الموسرون في الجزيرة فنزافونا مصيفا لهم فهي كصوفر في لبنان وفيها فنادق كبيرة كثيرة وتحيط بها متنزهات جميلة .

ويأخذ الطريق في الانحدار من فنزافونا حتى ينتهي الى كورتي على علو ٤١٠ أمتار عن سطح البحر والى جانبي الطريق آجام وادغال يكثر فيها شجر السكستناء وقلما تقع العين على جبال جرداء كجبال لبنان وتبعد كورتي عن اجاكسيو اربعة وثمانين كيلو مترا .

وكورتي حاضرة الناحية ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف وخمس مئة وكانت في خالي الحين موقعا حصينا في وسط الجزيرة على التقريب بين اجاكسيو وباستيا وتقسم مدينة كورتي الى قسمين ظاهرين للعيان : الاول كورتي القديمة وهي الى الجهة الغربية القبلية من المدينة والثاني كورتي الحديثة وهي الى الجهة الشرقية الشمالية منها وتمتد الى جهاتها الثلاث الشرقية والشمالية والجنوبية . وكورتي القديمة مبنية على هضبة وعرة المرتقى عند عدوة نهر تافينيانو اليسرى وفيها قلعة قديمة بناها فنشنتلو دستريا في سنة ١٤١٩ وحولها ثكنات اقامها لويس الخامس عشر ملك فرنسا بعد ضم الجزيرة الى مملكته وهي على الهندسة التي كانت معروفة في القرون المتوسطة .

وكانت كورتي في غابر الايام مهد الحركة الثورية في حروب الاستقلال وكانت

في القرن التاسع موقعا حصينا منيع الجانب وقد احتلها على التعاقب فنشنتلو دستريا في سنة ١٤١٩ فجانوس كمبيو فريغوزو في سنة ١٤٤٠ ففرسان القديس جرجس في سنة ١٤٥٦ فالفرنسويون في سنة ١٥٥٣ فالوطنيون الكورسيكيون من سنة ١٧٤٦ الى سنة ١٧٦٩

وعقدت مجالس ومؤتمرات خطيرة في كورتي في السنوات ١٧٣٥ و ١٧٤٦ و١٧٥٣ و١٧٦٢ وأخيرا في ٢٦ مايو سنة ١٧٩٣ لاعلان حرب الاستقلال

وكانت كورتي عاصمة جزيرة كورسيكا في أيام الجنرال بسكال باولي (١٧٥٥ — ١٧٦٩) فأنشأ فيها مدرسة جامعة ومطبعة وطنية في سنة ١٧٦٤ ولاتزال المدرسة والمطبعة باقيتين الى يومنا هذا .

ونصب تمثال الجنرال بسكال باولي في ميدان باولي في أول الشارع المسمى باسمه وقد صنعه المثال فكتور هوغنان من النحاس وهو مركز على قاعدة من رخام أسود يخالطه شيء من البياض وثمة صحيفة كتب عليها ما يأتي :
« الى الجنرال بسكال باولي من كورسيكا المعترفة بالجميل في سنة ١٨٤٤ . »
وفي ميدان اريغي عند الطرف الآخر من شارع باولي تمثال للجنرال اريغي دي كازانوفا دوق بادو (١٧٧٨ — ١٨٥٣) صنعه المثال برتولدي من البرنز .
وفي ميدان الكنيسة الكاتدرائية تمثال للجنرال غافوري صنعه المثال الديبير من البرونز ونصب في سنة ١٩٠١ وغافوري هذا يعد من أشهر الرجال الذين ظهروا في كورسيكا فبعد انطلاق تيودور دي نوهوف ملك كورسيكا وعدم رجوعه اليها تبرم الناس من الحروب الداخلية المشتعلة نارها في الجزيرة فسموا غافوري حامي الوطن وأشركوا معه في الزعامة الاب فنتوريني والبريوس ماترا واستولى على قلعة كورتي في ٧ يونيو سنة ١٧٤٦ بعد ما حاصرها عدة أيام وتعطل بيت غافوري بقنابل الجنويين المطلقة من القلعة ولا تزال آثار التعطيل بادية الى اليوم على ذلك البيت التاريخي المبني على مقربة من تمثال غافوري ووضع الحاكم الجنوي ابناً لغافوري في أثناء الحصار في الموضع المصوبة اليه نيران الحاصرين وكان معتقلا عنده رهينة ولما سقطت القلعة كان الغلام باقياً حيا يرزق .

وبعد استيلاء غافوري على قلعة كورتي عقد مجلسا عاما أعلن فيه استقلال

كورسيكا فاستنجد الجنويون بملك فرنسا فارسل اليهم ١٩٠٠ رجل بقيادة الجنرال دي كورساي فاحتل الجزيرة من سنة ١٧٤٨ الى سنة ١٧٥٣ . ومن ذلك الحين ادخل ذلك الزعيم الذعر على افئدة الجنويين فكان روح سامبيارو تقمصت فيه فأخذ كورتي واضطر الجنويين الى التقهقر الى السواحل وجعل الجنويون يدبرون الدسائس لاغتيال غافوري فنسجت المكيدة في بيت روماي وقتل غافوري في كمين نصبوه له في ٣ اكتوبر سنة ١٧٥٥ وكان بين القتلة انطون فرنسيس شقيق غافوري وقد القي القبض عليه بعد أيام ومثل به تمثيلا أما أسرة روماي فتمكنت من الفرار والنجاة ولكن بسكال باولي هدم بيتهم الى اساساته ونصب عمودا في المكان الذي كان قائما عليه وحفر عليه كتابة محقرة تدل على ما كان من خيانة اصحابه . ولما جاؤوا بجثة غافوري الى زوجته فوستينا قبضت بيدها على ذراع ابنها ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره وادنته من قميص والده الملطخ بالدم ولقنته القسم الآتي : « احلف على رأس والدي القتيل وحزن والدتي الاليم بألا أصفح ابدا عن القاتلين . » ومما يذكر عن هذه المرأة الموصوفة بالشجاعة والجرأة انها كانت محصورة في بيتها في سنة ١٨٥٠ وكان زوجها غائبا وكان الحاصرون من الجنود الجنويين فشعرت بان بعض رجالها سئمت نفوسهم من تلك الحال وانهم ينوون الاستسلام فوقفت الى جانب برميل البارود وبيدها ذبالة موقدة وهددتهم بان تنسف البيت ان هم اظهروا ضعفا وميلا الى التسليم فلم ير اولئك الرجال بدا من الاستمرار على القتال وكانت تلك الحركة من فوستينا غافوري سببا لنجاتهم لانها فسحت للجنرال غافوري في الاجل بحيث تمكن من الوصول في الحين الملائم لانقاذ ذويه .

وسكن شارل بونابرت ولاتيسيا رامولينو بيت غافوري من سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٦٩ حينما كان والد نابوليون وزيرا لباولي وولد يوسف بونابرت في هذا البيت في ٧ يناير سنة ١٧٦٨ وفيه ايضا حبل بنابوليون .

وقد رأينا أن نذكر شيئا من العادات المستحسنة والعادات المستهجنة في المدينة فمن محاسن عاداتهم السكينة السائدة بين ظهراني القوم فلا تتمزق آذان الناس بالضجة والضوضاء على ماهي عليه الحال في البلاد الشرقية ولا تنتج هذه السكينة عن عدم ضجيج الناس فقط بل يساعدها على ذلك عدم قرقعة المركبات

والسيارات وغير ذلك من وسائط النقل وذلك لقلة وجودها في تلك المدينة .
وقضينا في كورتي ثلاثة وستين يوما لم نشاهد خصاما بين أهلها في اثناء تلك المدة ولكنهم يكتفون بالخصومات الحزبية السلمية أي انهم يقضون معظم وقتهم في الاشتغال بالسياسة ولا سيما السياسة المحلية الحزبية وحينما وقفنا على تلك الحالة وعلمنا أن القوم في تلك المدينة منقسمون الى حزبين ولا هم لهم الا التما كس والتشا كس ناجينا النفس قائلين : ما اغرب الصدف التي قذفت بنا الى هذه البلدة فان سكانها منصرفون كل الانصراف الى الاشتغال بالسياسة والتحزب على مثل ما نحن عليه في ديارنا اللبنانية على أن تلك التحزبات تجر ضررا كبيرا على المدينة من حيث تفرق الكلمة وافتقارهم الى الاتفاق على القيام بما فيه المصلحة العامة كتنظيف المدينة لان الاقذار تظل متراكمة متكدسة في الطرق والشوارع والمنعطفات وعرصات البيوت ولو لم تكن تلك البلدة جيدة الهواء لوقوعها في الجبال لما كانت الامراض الوبائية تفارقها يوما واحدا ولكن لها من جودة هوائها وعذوبة مائها ما يدفع عنها غوائل الامراض القتالة والاوبئة الوبيلة فالهواء فيها نقي والمياه صافية عذبة وهي مجرورة من ينابيع في الجبل المبنية هي عند سفحه ومحفوظة من كل ما يكدرها على مسافة كيلو مترين وقد جرها اليها البريطانيون في أواخر القرن الثامن عشر لما احتلوها بالاتفاق مع بسكال باولي على ما مر بنا بيانه واقاموا فيها نحو اربع سنوات . وقد سألت احد شيوخ المدينة وعقلائها عن أسباب الاهمال الداعية الى تقهقرها فاجابني هي التحزبات التي تقضي على البلدان بالخراب . فسألته أما عندكم مجلس بلدي . فأجابني بلى ولكنه موجود بالاسم فقط وغير موجود في الحقيقة لان اعضاءه لا يعملون عملا وهم يغمضون عيونهم عن رؤية الاشياء التي يقضي عليهم موقفهم بان يروها وما ذلك الا لتخوفهم من إسخاط بطرس وإغضاب بولس .

ولا هم للرجال في كورتي الا الاشتغال بالسياسة العقيمة اما الاعمال التجارية والاشغال البيتية والزراعية فقضاؤها من اختصاص النساء وهؤلاء شديدات المنكب صبورات على التعب لا يضيعن دقيقة ما من الوقت وكثيرات منهن يحملن احمالا ثقيلة جدا على رؤوسهن وقد سمعت أن منهن من تحمل نحو مئة كيلو على رأسها اي ما يعادل تسعة وثلاثين رطلا من اوزان بلادنا (لبنان)

اما اسباب المعيشة المهمة في كورتي فهي التجارة وفي تلك المدينة مخازن كبيرة كثيرة فيها جميع أصناف السلع والبضاعة على اختلاف انواعها ولوكانت تلك الاصناف تباع لاهل كورتي وحدهم لـكان مافيها ـ لما رأيناها ـ يكفيهم ا كثر من عشر سنوات ولـكن كورتي معدودة حاضرة لتلك الناحية يؤمها الناس من جميع القرى المجاورة ومن القرى التي في وسط الجزيرة

وحول كورتي اراض واسعة مزروعة بيد انها مهملة لنقص اليد العاملة فيها وافتقار القوم الى مثل النشاط اللبناني الذي يعز وجود نظيره في جميع انحاء المعمورة فلو كانت تلك الاراضي في حيازة اللبنانيين لصيروها تدر لبناً وعسلاً ولاستخرجوا من تربها تبراولاصبحوا بالتالي من أرباب اليسار والثروة . وجميع الوسائل الزراعية ميسورة لهم ولا سيما الماء الغزير فهم لاينتفعون به انتفاعا يذكر وتحيط بكورتي جبال جرداء تشبه جبال لبنان والسبب في ذلك هو أنها كانت قبلا مغروسة كستناء فاصيبت تلك الاشجار بضربة أودت بها فباتت الارض جرداء ولم يعودوا الى غرسها لقلة اليد العاملة عندهم .

وعندهم الـكرمة ولـكنهم لاينتفعون بها الا باستقطار الخمور وهم مع وفرة العنب عندهم يجلبون الزبيب من الخارج وصناعة الدبس غيرمعروفة عندهم ومتى حان قطاف الـكرمة وذلك في النصف الاول من شهر ا كتوبر يذهبون زرافات زرافات الى الـكروم ويقيمون فيها المراقص والافراح ويتغنون بالاناشيد المطربة ويأخذ فريق منهم في القطاف والفريق الآخر في نقل العناقيد بسلال الى آخر الـكرم فيعصرونهـا بالآت على شكل اسطوانة تدار باليد فوق العنب فتعصره وينزل العصير الى أوعية موضوعة تحتهاثم ينقلون العصير بضروف وقرب الى المدينة ويضعونه في الاقبية ليختمر.

وعندهم كثير من شجر الـكباد والاجاص (الـكمثرى) والتفاح ولا تنمو هـذه الاشجار في كورتي وحدها بل هي مغروسـة في ا كثر انحاء الجزيرة فيصدرون الى القارةمقادير كبيرةمن ثمارهاباثمان غالية وهم يقطفونها في اواخر فصل الصيف ويحفظونها عندهم بطرقمعروفةويخرجونها من مخابئها في فصل

الشتاء ويشحنونها . وكنا نجد كثيرا من التفاح الفاخر الكبير الحجم اللذيذ الطعم الذكي الرائحة في اجاكسيو في شهر مايو

وعندهم ايضا كثير من شجر الزيتون يستخرجون الزيت من ثمره ومنه جانب كبير يشبه ثمره ثمر الزيتون في بلادنا بكبره وجودة نوعه اما الجانب الآخر فثمره صغير كثمر الزيتون البري عندنا

ويزرعون في كورتي بقولا كالبقول التي نزرعها في بلادنا وعلى الطريقة نفسها التي نسير عليها في زراعتها في بلادنا ومنها الطماطم والخيار واللوبياء والباذنجان وهم يعنون بامر انتخاب البذار من أجود الاجناس

وعادات سكان تلك البلاد مخالفة لعاداتنا من جهة الضيافة واستقبال الضيوف ولاترى في جميع المنازل ردهات لاستقبال الزائرين فالقهوات والشوارع هي الاماكن التي يجتمع فيها الاصدقاء واصحاب الاعمال للمفاوضة في شؤونهم الخاصة والعامة . ويخرج الكورتيون في مساء كل يوم للتنزه في الشارع الكبير الوحيد في تلك المدينة وهو شارع باولي ويشقها من أولها الى آخرها ويأخذون رجالا ونساء يسيرون فيه ذهابا وإيابا نحو ساعتين ولايحول إلا المطر دون تنزههم فيه ويستطيع الانسان أن يتعرف بجميع أهل كورتي في ذلك الشارع لانه يندر أن يبقى احد في بيته في مثل ذلك الوقت . ومما يزيد الازدحام هو خروج العاملات من المخازن في ذلك الحين لترويح النفس قبل دخول مساكنهم وفي الاعياد الوطنية الكبيرة وأيام المرافع يقضون هزيعا من الليل في الشارع ويلبس بعضهم كمامات ويتراشقون بورق صغير الحجم مستديره يقال له « كنفتي » والسيدة التي ترشقها به لاتستاء منك بل بعكس ذلك تلتفت اليك وتشكر لك ذلك اللطف الذي خصصتها به .

وعلى مقربة من كورتي مقالع تقطع منها حجارة الرخام وهي كثيرة في تلك الناحية فالشوارع وارصفتها مرصوفة بها وهم يصدرون مقادير كبيرة منها الى الخارج

وفي ظاهر كورتي جبانة كبيرة عامة ولكن كيفما التفت الانسان الى الحقول المحيطة بالمدينة ابصر فيها رموسا محكمة البناء بالرخام الناصع البياض وقد غرس حولها شجر السرو فكأنها عادة جارية عند الاسر الموسرة وهي أن تبني الاسرة ضريحا في الارض التي تخصها . وينجم عن ذلك أمران يأنف منهما الانسان الاول

تشويه مناظر الحقول بتلك الرموس التي تجعل صدر الناظر اليها ينقبض والثاني ابتذال كرامة الاموات بدفنهم في غير المكان المخصص لمواراتهم في الثرى .

وعندهم عادة مستهجنة في الجلوس في الكنائس فانهم يدخلون المعبد ويجلس الواحد منهم على كرسي ثم يضع الرجل الواحدة فوق الاخرى كأنه جالس في ملعب أو في ملهى وهذه العادة جارية عند كلا الجنسين وليست من قبيل عدم الاحترام بل هي عادة الفوها من دون أن يروا فيهـا شيئا يستوجب الانتقاد وهذا الامر لاينفرد به أهل كورتي بل هو جار في اجاكسيو وغيرها وفي باريس وجميع البلدان الاوربية وقد امتدت هـذه العادة المستهجنة الى بلاد الشرق مع الاوربيين واقتدى بهم الشرقيون فيها لانهم سريعو الاقتباس لعادات غيرهم .

ويحرصون على المحافظة على العرض في كورتي فهم على مثال البدو من هذا القبيل وقلما تحدث فيها ريبة علنية واذا حدث فيها شيء من ذلك فلا يلبث ان ينتشر بين الجميع في وقت قصير فهم من هذه الجهة يشبهون سكان الجبال البعيدة عن المدن الكبيرة في بلادنا ويمكن القول بالاجمال ان المحافظة على العرض أمر عام في الجزيرة وهو أمر محمود ومن أهم أسباب « الفندتا » أي أخـذ الثأر والانتقام المشهورة عندهم .

والمدينة منارة بالكهرباء المتولدة في نهر تافينيانو وهنالك أيضا مصنع للجليد الصناعي . وفي المدينة دار سينما واحدة وليس فيها ملعب لتمثيل الروايات وليس في منازلها القديمة مستراحات فهي من هذا القبيل مماثلة لجميع مدن الجزيرة وقراها وعندهم عادة مستهجنة شاهدناها ايضا في اجاكسيو وباريس نفسها وهي أنهم ينفضون الطنافس وغيرها من اثاث البيت من النوافذ والشرفات فيسقط الغبار والاقذار من الاعلى على الادنى ومن كليهما على الشوارع والطرق على أن هنالك قانونا يمنعهم من نفض تلك الحوائج بعد ساعة معينة من النهار ولكنهم قلما يتقيدون بمنطوق ذلك القانون .

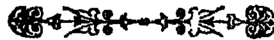
وبعد وصولنا الى كورتي بثلاثة أيام أي في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ استقال المسيو بول دشانل رئيس الجمهورية الفرنسوية من منصبه لاسباب صحية فانتخب المسيو الكسندر ميلران خلفا له في ٢٣ منه

واحتفل في يوم الخميس في ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٠ احتفالا باهرا لانقضاء خمسين سنة على تأليف الجمهورية الفرنسوية الثالثة فاقيم مهرجان كبير اشترك فيه جميع سكان المدينة واستمروا الى ساعة متأخرة من الليل يتنزهون في شارع باولي ويتراشقون بالكنفتي وقد جعل ايضا اليوم الحادي عشر من نوفمبر عيدا للهدنة أي تذكارا لاخماد نار الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) واصبح ذلك اليوم عيدا رسميا يحتفلون به في جميع بلدان الحلفاء

ولما اشتد البرد في كورتي اشتداداً يحاكي البرد الذي يشعر به سكان قرى الصرود في لبنان غادرنا كورتي في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونحن حاملون ذكرا حسنا لتلك المدينة التي توفرت لنا فيها أسباب الراحة والسكينة واللطف من جانب سكانها . فركبنا القطار في يوم اشتد زمهريره وغشي الجمد وجه الارض . وكانت اشجار الكستناء التي شاهدناها مرتدية حلة من السندس الاخضر وقت ما توجهنا الى كورتي في شهر سبتمبر قد خلعت تلك المطارف وباتت عارية من كل زينة .

ووصلنا الى اجاكسيو عند الظهيرة فوجدنا فرقا ظاهرا بين درجة الحرارة فيها ودرجة الحرارة في كورتي وكانت الشمس ترسل اشعتها المنعشة على تلك الارجاء .

والآن نذكر لمحة تاريخية عما تهم معرفته عن أحوال مدينة اجاكسيو وعن حالتها الاقتصادية بوجه عام :



اجاكسيو

اجاكسيو حاضرة مقاطعة كورسيكا وفيها من السكان نحو ٢٣ الف نفس وموقعها على شاطىء البحر الرومي في أقصى الخليج المسمى باسمها وهي ممتدة عند سفح آكام تغطيها الاشجار من جهتها الشمالية وتفصل تلك الآكام بسلسلة جبال تعمم الثلوج قممها . واعلى تلك الجبال جبل اورو البالغ ارتفاعه ٢٣٩١ مترا والناظر الى المدينة من البحر يراها على شكل نعل الفرس المزدوج يلتقي طرفاه الداخليان عند القلعة ويمتد طرفاه الخارجيان بانفراج بحيث أن احدهما يسير الى ناحية الغرب والآخر الى جهة الشمال فالطرف الغربي يشتمل على شارع لنتيفي وشارع غرانفال وتتخللها جادة الاجانب وفيها ابنية فخمة ورياض غناء لاتنقطع منها الازهار على مدار السنة . والطرف الشمالي تمتد فيه جادة الملك جيروم على شاطىء البحر وهذه الجادة واسعة وقد غرست اشجار الدلب على جانبيها كما غرست ايضا على جانبي شارع غرانفال . ووراء هذه الجادة شارع فش وهو يمتد محاذياً لها وهو قديم طويل ضيق قذر كثير التعاريج وفوقه الى الجهة الغربية جادة نابوليون وهي اجمل جادة في المدينة .

وفي وسط اجاكسيو وحول قلعتها المدينة القديمة فبيوتها واطية وشوارعها قصيرة وضيقة ولا تكثر فيها الحركة وازدحام الاقدام وفيها البيوتات القديمة كمنزل بوتزو دي بورغو ودار الاسقفية وبيت بونابرت والكاتدرائية ويأوي اليها جمهور غفير من العمال والبحارة . أما المدينة الحديثة المحيطة بالمدينة القديمة فتختلف عنها اختلافا ظاهرا في الهندسة والترتيب ولا يخفي أن زرقة ماء البحر وتنوع اشكال الاراضي المحدقة بالمدينة وصفاء جوها وبياض جدران المنازل المرسلة عليها اشعة الشمس الساطعة تؤلف صورة فتانة تخلب فؤاد السائح عند اطلاعه على تلك المدينة . أجل ان في العالم مدناً كثيرة تفضل اجاكسيو في سعة مساحتها ووفرة غناها وكثرة سكانها وتعدد معاهدها ومتاحفها وغير ذلك من الاشياء التي تدل على العظمة والفخامة ولكن قلما نرى مدينة تفوقها في الجمال والسكينة والراحة .

ولم يكن خارج اسوار المدينة القديمة في القرن الثامن عشر الا بعض اكواخ

للصيادين في المكان المبني فيه الآن شارع فش . وكانت بوابة المدينة في اسفل برج ضخم يدعى برج الساعة عند مدخل شارع نابوليون ونصب تمثال سيدة الرحمة شفيعة اجاكسيو فوق تلك البوابة في سنة ١٧٦٤ ولكن ذلك التمثال نقل في سنة ١٨٠٣ الى طاقة بصدد بيت كاتانيو القديم وهو اليوم في رقم ٧ من ميدان النخل وباشروا في سنة ١٨٠٢ هدم اسوار اجاكسيو بأمر القنصل الاول ولم ينتهوا من هدم الجانب المشرف على ميدان الالماس الا في سنة١٨٢٦

ويزعم جوفاني دلا غروسا المؤرخ الكورسيكي في القرن الرابع عشر ان مدينة اجاكسيو بناها اجاكس او اياس عند رجوعه من حرب طروادة الا ان هـذا الزعم ليس له نصيب من الصحة لانه لم يغش الجزيرة واحد من الاجاكسين المشهورين . ويروي المؤرخ بيانرو سيرنيـو الحريص على اكتشاف اصل الكورسيكيين أن منفيا رومانيا يقال له كورسوس اطلق اسمه على الجزيرة وبنى اجاكسيو وسماها ادجاسيو ومعناها استريح . ويؤخذ من كلام جوفاني دلا غروسا الآنف الذكر ان المدينة كانت قائمة في المكان المدعو كاستل فكيو أي القصر القديم وقد نكبت مرات كثيرة من جراء الحروب المتوالية التي اضرمت كورسيكا نارها في سبيل الذود عن استقلالها . ودكها المسلمون المغاربة دكا في القرن العاشر ولكن الجنويين رمموها فيما بعد على اكمة مار يوحنا في الجهة الشمالية من المدينة الحالية وانتقلت بعد ذلك من الجنويين الى امراء تشينار كا ثم الى اسرة ليكا . واحرقها الاشراف المجاورون في القرن الخامس عشر فهجرها الجنويون ورممت جمهورية جنوى الجانب الذي كان قائما في مكان المدينة القديمة حوالي سنة ١٤٩٥ واحاطته بالحصون المنيعة . وانتزع سامبيارو كورسو مدينة اجاكسيو من الجنويين في سنة ١٥٥٣ ودفعها الى الفرنسويين وكان المرشال دي ترم يتولى قيادتهم فبنى ذلك المرشال القلعة الباقية الى يومنا هـذا وتركت اجاكسيو لجمهورية جنوى في ١٥ يناير سنة ١٥٧٥ لرداءة هوائها والحروب الدموية التي اغتالت سكانها .

ويعود الفضل في معرفة الناس لتاريخ انشاء مدينة اجاكسيو الحديثة الى البحاثة الجنرال اوغو اسبريتو فقال ان فرسان القديس جرجس بعد ما ناهضوا التشينار شيزيين مناهضة شديدة وبعد ما دكوا قصري جوفان باولوليكا ورينوتشيو

دلا روكا الحصينين وضعوا اساسات اجا كسيو الحديثة على بعد ميل عن المدينة القديمة من جهتها الجنوبية على رأس يسمى كابودي بولو وشيدوا حصناً منيعاً عند طرفه وبنوا حولها من جهة البر سوراً شيدوا فوقه أبراجاً .

ووصل دومنيكو نيغروني الشريف الى اجا كسيو في ١٤ ابريل سنة ١٤٩٢ ومعه الشريف غريغوريو دي غريمالدي ودميانو لوكساردو وفوضت اليهم مهمة الشروع في اعمال البناء واختيار المكان الملائم فاختاروا في ١٦ ابريل مكانا لتشييد قلعة يبعد عن انقاض المدينة القديمة لاعتقادهم أن الموضع الذي كانت تلك المدينة مبنية فيه وبيء الهواء يصعب الدفاع عنه ونظم صك بواقع الحال على متن السفينة التي قدموا فيها ووضع أول حجر لبناء اجا كسيو في حفلة كبيرة في يوم الاثنين الاول بعد عيد الفصح في ٣٠ ابريل سنة ١٤٩٢ في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة العشرين بعد ما استخار المنجمون الوقت الملائم لذلك المشروع ونظم كرستوفارو دي غاندينو المهندس الميلاني رسم مدينة اجا كسيو وكان قد وصل مع البعثة في ١٤ ابريل سنة ١٤٩٢ وأقام هناك الى اليوم الثالث عشر من شهر دسمبر من تلك السنة وخلفه المعلم بياترو دي نوفاريو مهندس البناء وبنوا كنيسة جديدة في المدينة على اسم الصليب المقدس ويزعمون أن مواد البناء جلبت من انقاض المدينة القديمة . ولم يبق من آثارها في أواخر القرن الثاني عشر إلا سبيل الماء المسمى سبيل ماريوحنا وانقاض مبعثرة من كاتدرائية ماريوحنا ودهاليز فيها قبور .

وكان بعض الملاك في اجا كسيو – وفي جملتهم المسيو نويل بوليازي – في أوائل القرن التاسع عشر يحفرون خنادق في وادي ماريوحنا فعثروا على نقود رومانية ومدافن قديمة واقبية معقودة بالآجر وتحتها آنية من الفخار ذات لون أحمر قان فيها هيا كل عظام للاولاد . ووقت ما كانوا يشتغلون في ذلك المكان بتوسيع الطريق العام اكتشفوا انواطا رومانية وعظاما بشرية . واكتشف جوسان الصيدلي وهو من أعضاء بعثة مايلبوى في سنة ١٧٩٣ قبور ملوك المغاربة في كروم ماريوحنا القديمة وكانت معقودة وقائمة على اعمدة من الحجر ولكن ذلك الأمر مفتقر الى الاثبات .

ولما انشئت مدينة اجا كسيو الحديثة استقدم فرسان القديس جرجس مئة

أسرة اليها من لنجيانا لاستعمارها ولم يكن عدد سكانها في ذلك العهد يزيد على سبع مئة نفس .

وكانت مدينة اجا كسيو الحديثة مقر المندوب الجنوي واستولى عليها سمبيارو في سنة ١٥٥٣ باسم هنري الثاني ملك فرنسا بعد انشائها بستين سنة قبلما انجزت وسائل الدفاع عنها فاحتلها جنود الملك من سنة ١٥٥٣ الى سنة ١٥٥٩ ومن ذلك الحين أخذ كورسيكيو الداخلية يغشونها وكانت قبلا معدودة طارئة جنوية . وكانت اجا كسيو عاصمة الجزيرة في اثناء الاحتلال الفرنسوي وجعل فيها اقامته جوردان دزورسان نائب الملك هنري الثاني وحاكم الجزيرة العام . ووجد الجنرال دي ترم قائد البعثة الفرنسوية القلعة التي شيدها الجنويون غير كافية لحماية المدينة فبنى في سنة ١٥٥٤ القلعة التي لاتزال باقية فيها على التقريب على مثل ما كانت عليه في ذلك العهد . واضطر الفرنسويون بعد عقد وثيقة كاتوكمبريزيس الى ترك كورسيكا لجنوى فاخلوا اجا كسيو في ٩ سبتمبر سنة ١٥٥٩ على ان جوردان دزورسان وان يكن قد فقد زوجته دونا اميليا سلزي في اجا كسيو في سنة ١٥٥٨ لم يترك تلك المدينة غير مأسوف عليها فما كان يجعله ميالا الى البقاء فيها اعتدال هوائها وجمال مناظر الاراضي المحيطة بها وشوارعها المستقيمة والواسعة وخصب تربتها وحدائقها الغناء .

وبعد انطلاق الفرنسويين من اجا كسيو ارسلت جنوى اليها في سنة ١٥٦٢ المهندس جا كوبو فراتينو فاضاف الى القلعة برجا الى جهة البحر وحفر حولها الخندق الكبير الذي يفصلها عن المدينة . وانجز الفرنسويون بناء تلك القلعة في سنة ١٧٧٥ بتشييد برج من الحجارة المنحوتة لجهة المرفأ واكتشفوا في سنة ١٧٧٧ صفيحة في مسكن السيدات باليني كتب عليها مايلي :

« هنري الثاني ملك فرنسا وسيد جزيرة كورسيكا سنة ١٥٥٤ »

ووضعت تلك الصفيحة في سنة ١٧٧٨ على الجانب الغربي من برج سانت بارب في القلعة ولا تزال في مكانها الى يومنا هذا .

وحيث إن مدينة اجا كسيو كانت خاضعة لحكومة جنوى فكان يتولى إدارة الشؤون فيها مجلس مؤلف من ٢٧ عضواً وفي جملتهم مجلس شيوخ يتألف من ستة أعضاء يعنون بأمر النظر في شؤون المدينة .

وكان القرصان المغاربة يوالون غزواتهم لخليج اجا كسيو في خلال القرن السادس عشر والى ذلك العهد يعزى تشييد الابراج على الشواطىء فبرج السنغينار بي في سنة ١٥٥٠ وبرج كابيتلو في سنة ١٥٥٣ وبرج كاستانيا في سنة ١٥٨٠ وبرج كابو دي مورو في سنة ١٥٨٤ وبرج لاباراتا في سنة ١٦٠٨ وكانوا عند ظهور أولئك القرصان يوقدون النار على تلك الابراج تحذيراً لسكان السواحل من شر الغزاة ولا يزال بعض تلك الابراج في حالة حسنة الى هـذا اليوم وكان عددها يبلغ ٨٥ برجاً على شواطىء البحر في جميع أنحاء الجزيرة وكانت جميعها على التقريب مستديرة الشـكل ويتفاوت ارتفاعها بين ١٢ متراً و ١٧ متراً وقطر البرج عشرة أمتار عند قاعدته وسبعة أمتار عند سطحه ويتألف من طبقتين معقودتين وكانوا يصعدون بسلم نقالة الى الباب المفتوح من جهة البر وكانت في البرج نافذة من جهة البحر . وأخذت اجا كسيو توسع الخطى في جادة الرقي من أواخر القرن السادس عشر ويرتقي معظم المعاهد الدينية والمدارس والملاجىء الخيرية الى ذلك العصر .

وظهر الطاعون في اقليم ليغوريا من أعمال ايطاليا في سنة ١٦٥٦ فدخل الخوف على الاجا كسيين من ذلك الوباء الجارف والتأم المجلس في المدينة في ١٦ نوفمبر سنة ١٦٥٦ وأصـدر قراراً رسمياً بحضور كاتب العدل باتخاذ سيدة الرحمة حامية للمدينة وجدد مجلس الشيوخ ذلك القرار في ١٨ مارس سنة ١٦٦٠ في الـكاتدرائية أمام السيد ارديتزوني مطران اجا كسيو . وصاروا من ذلك الحين يقيمون في اجا كسيو حفلة عامة في ١٨ مارس في كل سنة لوقوع عيد سيدة الرحمة في مثل ذلك اليوم . وشهدنا تلك الحفلة في ١٨ مارس سنة ١٩٢١ وكان ذلك اليوم عيداً عاما عند جميع الاجا كسيين فاجتمع جمهور غفير منهم في المساء في ميدان النخل أمام تمثال السيدة العـذراء المنصوب في صدد بيت كانانيو الآنف الذكر . وقسمت كورسيكا في ٣ دسمبر سنة ١٧١٥ الى حكومتين بمقتضى قرار أصدره مجلس شيوخ جنوى وعينت اجا كسيو مقرا لحاكم الانحاء التي ما وراء الجبال وخولت السلطة نفسها التي خولتها باستيا وامتدت ولايتها الى أقاليم اجا كسيو وفيكو وسارتين .

واحتل الفرنسويون اجا كسيو في سنة ١٧٣٩ مع البعثة التي تولى قيادتها الجنرال

دي مايلبوى ومع بعثة دي كورساي في سنة ١٧٤٨ وبعثات كستري وشوفلان (١٧٥٦ — ١٧٥٩) وماربوف في سنة ١٧٦٤ وحاول المحامي ماسيريا ونجله الاستيلاء على قلعة اجا كسيوفي شهر نوفبر ١٧٦٣ في عهد حكومة باولي ولكنهما لقيا حمامهما أمام تلك القلعة .

ودغمت كورسيكا بالدولة الفرنسوية بعد اندحار الكورسيكيين امام الفرنسويين في باتينوفو في ٨ مايو سنة ١٧٦٩ وكان مقر الكونت دي ماربوف القائد العام في باستيا ومقر اركان حرب الجنرال الكونت دي ناربون القائد الثاني في الجزيرة في اجا كسيو .

وقسمت حكومة الديركتوار جزيرة كورسيكا الى مقاطعتين في ١١ اغسطس سنة ١٧٩٧ وجعلت اجا كسيو حاضرة لياموني احدى تينك المقاطعتين ولكن ضمت تانك المقاطعتان وجعلتا مقاطعة واحدة في ١٩ ابريل سنة ١٨١١ وعينت اجا كسيو حاضرة لها .

وهواء اجا كسيو في غاية الاعتدال فهو مماثل لهواء الاقاليم الجنوبية في فرنسا والبلدان المشرقية معا فقد كان متوسط الحرارة فيها في الشتاء من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٦ ثلاث عشرة درجة سنتغراد وكان في نيس في المدة نفسها ٨ درجات ونصف درجة وفي هيار منتون ٩ درجات وفي بوليو ١١ درجة ولا تحدث فيها تغيرات فجائية شديدة في الطقس ويكون جوها صافيا في غالب الاحيان .

ويحيط بالمدينة نطاق من التلال والجبال يقيها من نفحات الريح الشمالية والهواء في السواحل نقي منعش لا يخالطه الغبار لان تربة ارضها صوانية وهو جاف يلائم جميع المصابين بالامراض البدنية والروحية في دور النقاهة وقال الدكتور دوناي مدير المجمع العلمي في منبلياي ان التنزه في اجا كسيو على شاطىء البحر واستنشاق الهواء والاستدفاء بالشمس نافع للمرضى . ويصفون هواء اجا كسيو للمصابين بالتدرن الرئوي في جميع ادواره وانواعه وللذين يشكون من الرئية المزمنة والامراض القلبية والبول السكري والضعف العصبي العام .

وتفضل مدينة اجا كسيو سواها لقضاء فصل الشتاء فيها فالبريطانيون

والنمسويون والروس والبلجيكيون والاسكنديناويون يؤمونها للمشتية فيها ويبتدىء فصل الشتاء فيها في شهر اكتوبر وينتهي في أواخر شهر مايو وهي تلائم الذين ينشدون السكينة والراحة ويبتعدون عن اسباب الملاهي والملاذ التي تؤذيهم وهم يلقون في تلك المدينة جميع مايحتاجون اليه من هذا القبيل

وحيث أن اكبر شهرة نالتها اجا كسيو تعزى الى كونها مسقط رأس نابوليون الكبير فقد رأينا أن نذكر شيئا عن حداثة نابوليون ايام كان فيها وعما كان له من الاعمال فيها في أبان شبيبته وقد حفظت له مدينة اجاكسيو ذكرا مجيدا في تاريخها فلا يكاد الانسان يخطو فيها خطوة واحدة من دون أن يعثر على أثر من آثاره يدل على ما كان عليه ذلك الرجل العظيم من الدهاء من حداثته . ويروى عنه أنه كان وهو ناعم الظفر يقضي معظم وقته في شوارع المدينة مع لداته وبعد ما اخذه والده الى باريس وعلمه على نفقة حكومة لويس السادس عشر وادخله في بدء الامر مدرسة اوتان لاتقان اللغة الفرنسوية ثم مدرسة بريان والمدرسة الحربية في باريس على ماجاء في سياقة الكلام في تاريخ قدم نابوليون امتحانا عند خروجه من المدرسة الحربية في شهر اغسطس سنة ١٧٨٥ ونال الرقم ٤٢ بين ٥٨ فعين ،لازما ثانيا في أول سبتمبر في فرقة المدفعيين في بلنسية وشخص الى كورسيكا في شهر فبراير سنة ١٧٨٧ ثم عاد الى باريس وبعد ذلك وافى فرقته في اوكسون في اواخر شهر مايو سنة ١٧٨٨ وتوجه منها بالاجازة الى كورسيكا في شهر سبتمبر سنة ١٧٨٩

وكان نابوليون الى ذلك العهد مكبا على الدراسة والتنقيب عن تاريخ كورسيكا فلما وصل الى اجاكسيو وجد الافكار فيها تغلي غليانا من تأثير الثورة الفرنسوية الكبرى وحينئذ أخذ ينم على مايكنه صدره من اسرار الدهاء والجرأة فنظم الحركات الثورية لمقاومة انصار طريقة الاحكام القديمة واذاع نشرة في ٢٣ فبراير سنة ١٧٩١ انتقد فيها انتقاداً مرا ماتيو بوتافوكو النائب الكورسيكي في الجمعية الوطنية .

وبعد ما قضى اشهرا في اوكسون(من فبراير سنة ١٧٩١ الى سبتمبر من السنة نفسها) ورقي الى درجة ملازم أول في فرقة المدفعية الرابعة ببلنسية رجع الى اجاكسيو فانتخب قائداً للحرس الوطني في كورسيكا واخبرني احد شيوخ مدينة

اجاكسيو ان ذلك الانتخاب تم بطريقة تدل على ما كان عليه ذلك الشاب الداهية من جرأة المقدم وتحرير الخبر ان وفداً من حزب البونابرتيين ذهب لمقابلة نابوليون واخبره بما كان متى بوتزو دي بورغو وجان بيرالدي يدبرانه لاستمالة الناخبين اليهما . وعلم أن الاكثرية مائلة ولامراء اليهما اذا لم تقف في وجههما قوة تفسد عليهما تدبيرهما فدفعه دهاؤه في الحال الى ركوب مركب الجرأة والتهديد فتقلد سيفه وذهب في المساء الى منزل جان بيرالدي ولما اجتمع به قطب جبينه وقال له بلهجة جافية : انهي الي انك تسعى لاستماله الناخبين اليك فانا انذرك من الآن بانك اذا لم ترعو عن غيك وتتنحى عن الانتخاب تموت موتاً بحد هذا السيف . قال هذا الكلام واشار الى حسامه ثم انصرف من دون أن ينتظر ليرى مايكون من جواب جان بيرالدي على انذاره له وكانت النتيجة أن جان بيرالدي وبوتزو دي بورغو عدلا عن الترشح للانتخاب فانتخب الاهلون في اجاكسيو نابوليون بونابرت وكنزا بدلا منهما . ولا يخفى ان جان بيرالدي ومتى بوتزو دي بورغو كانا شقيقي ماريو بيرالدي وشارل بوتزو دي بورغو النائبين عن كورسيكا في الجمعية الاشتراعية وكان بين اسرتيهما واسرة بونابرت عداوة قديمة شديدة . وفعل بونابرت ذلك الفعل الدال على الجرأة والشجاعة وهو في الثالثة والعشرين من عمره .

وروى لي ذلك الشيخ حادثة اخرى تلقاها من ابيه وهذا تلقاها من جده عن نابوليون فان نابوليون لما كان غلاماً كان جميع أترابه يخافون منه ويحاذرون شره وكان يقضي معظم وقته في التجويل في شوارع اجاكسيو فحدث ذات يوم أن احد رفاقه من الغلمان وهو جد الذي روي لي ذلك الخبر — وكان اكبر من نابوليون في السن — كان يلبس ثوباً جديداً نظيفا في يوم عيد الفصح فتشاجر هو ونابوليون فصرعه نابوليون على الارض واوسعه لكما وضرباً وتلوثت ثيابه بالوحل فاسرع الغلام الى والدة نابوليون ليخبرها عما فعله ابنها به وكان نابوليون يخاف من والدته كثيرا فلم يجرؤ على اللحاق به الى البيت بل اختبأ وراء جدار يبصر منه الناس ولا يبصرونه وانتظر نتيجة شكوى الغلام . فلما رأت والدة نابوليون ما فعله ابنها بذلك الغلام رقت لحاله وطيبت خاطره وقالت له : إن ابني نابوليون مجنون فلا تعتب عليه . وبعد ما نظفت ثوبه من الوحل ملأت

جيبه لوزاً وقالت له إياك أن تدع نابوليون يبصرك فانه ينتزع منك اللوز غصباً منك . وخرج الغلام وهو يطفر فرحاً ويتلفت يميناً وشمالا خوفاً من نابوليون ولما وقعت عينه عليه من بعيد أطلق ساقيه للريح ونجا منه .

وكان نابوليون مشهورا بقوة ادراكه لعواقب الامور من أول نظرة تبدر منه وقد باح بأسرار تلك القوة في خلال الاضطرابات التي وقعت في اجاكسيو من ٨ ابريل الى ١٢ منه في سنة ١٧٩٢ لما كان قد وقع بين الاجاكسيين والحرس الوطني فعالج خصومه أن يحطموه تحطيما ولكنه شخص الى باريس وعاد الى الانخراط في سلك الجيش ورقي الى درجة كابيتان في ٣٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ وبعد ذلك عاد الى اجاكسيو واشترك في حملة مادّاليا بصفة كونه قائداً للمدفعية ولكن كان الخذلان من نصيب تلك الحملة في شهر فبراير سنة ١٧٩٣ .

وحدث في غضون ذلك أن باولي رفع راية العصيان وخرج على الحكومة الفرنسوية ففر نابوليون من وجهه وسار بأسرته الى مرسيليا في شهر يونيو سنة ١٧٩٣ وكان بعد ذلك إنه امتاز على غيره في حصار طولون . فكان ذلك فاتحة تلك الملحمة الكبرى التي اشتهرت في مشارق الارض ومغاربها وقد أسهبنا في الكلام عن سيرة ذلك العاهل الداهية فليراجع ذلك في محله .

والآن نأتي على بيان وصف أهم الآثار والمعاهد في مدينة اجاكسيو .

بيت بونابرت – زرنا بيت بونابرت مرات كثيرة وزيارته ميسورة لكل انسان في كل يوم ولكن يجب أن يطلب الزائر من حاجب البيت أن يدخله اليه وذلك الحاجب مقيم في منزل خاص على مقربة من البيت وأخبرني أن والده كان مقيما قبله على خفارة ذلك البيت وقال لي إن جده ووالدة نابوليون رضعا من لبان واحد ولذلك ظلت تلك الاسرة مشمولة بأنظار الاسرة البونابرتية الى يومنا هذا . ومن شاء زيارة ذلك البيت التاريخي يدخل شارع نابوليون ثم يميل الى اليمين ويدخل شارعاً ضيقاً يدعى شارع القديس شارل فيلاقي هنالك منزلا مؤلفاً من ثلاثة أدوار لا يمتاز بشيء عن المنازل المجاورة إلا بصفيحة من الرخام فوق الرتاج حفرت عليها هذه الكتابة :

« نابوليون الاول ولد في هذا البيت في ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ »

وحفر شعار الاسرة البونابرتية فوق الصفيحة على حجر رمادي اللون كانوا

كانوا قد نزعوه من مكانه عند وضع تلك الصفيحة ولكنهم ارجعوه اليه في ٢٠ دقمبر سنة ١٨٨٩ بمناسبة انقضاء مئة سنة على انشاء القنصلية .

ويرتقي عهد بناء بيت بونابرت الى مفتتح القرن السابع عشر وكان مؤلفا من دورين في ذلك الحين ولكن لما ولد فيه نابوليون كان مؤلفا من ثلاثة ادوار على ماهو عليه الآن . وصدر مرسوم من الديركتوار في ٢٩ يونيو سنة ١٧٩٨ يقضي بالتعويض على سكان اجاكسيو عما نكبوا به من الخسارة الفادحة في اثناء فتنة باولي والاحتلال البريطاني فدفع الى السيدة لاتيسيا راموليتو (والدة نابوليون) تعويض قدره ستة عشرة الف فرنك عن بيتها الذي في شارع بونابرت وهو مؤلف من اربعة ادوار مع الدور الارضي لانهم نهبوا جميع مافيه من الاثاث واحدثوا فيه بعض التخريب . ويرى من هنا أنه لاصحة لما نسب الى رجال باولي بانهم حرقوا بيت بونابرت في سنة ١٧٩٣ او ان يوسف بونابرت زاد عليه دورا رابعا في سنة ١٧٩٧ .

وكان شارل بونابرت قد بنى سطحا على بيته في سنة ١٧٧٤ واجرى اصلاحا في الغرفة التي ينام فيها في سنة ١٧٨٠ . وكانت اسرته تشغل دورين من البيت في حداثة نابوليون. أما الطبقة الثالثة فكان فيها أنطون ماري بوتزو دي بورغو نسيب البونابرتيين من جهة زوجته ماري جوستين بوتزي ابنة فيرجيني بونابرت واقترن اغناطيوس بيانلي باتيليا ماريا بوتزو دي بورغو وسكن في بيت حمية ومثلت اسرتا بيانلي وبونابرت أمام المحكمة في سنة ١٧٨٢ لان السيدة جوستينا بوتزي صبت على شارل بونابرت اقذارا من وعاء اصابت ثيابه . واشترى يوسف بونابرت الدور الثالث من بيت بونابرت في سنة ١٧٩٥

وكانت السيدة لاتيسيا وابنتها اليزا قد هجرتا كورسيكا في سنة ١٧٩٣ فعادتا الى اجاكسيو في ربيع سنة ١٧٩٧ وكتب الجنرال بونابرت من ايطاليا الى والدته انه يرغب في أن يرى بيته مرمما بحيث يعود الى ما كان عليه فباشرت السيدة لاتيسيا في الحال اصلاح البيت وكتبت في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٧ الى صديقتها عقيلة كلاري في مرسيليا ترجو منها أن ترسل اليها لوازم السطح والواح زجاج وثمانية كراسي كبيرة وغير ذلك من الاشياء اللازمة لترميم البيت وتجديد رياشه وانتهوا من اعمال الترميم في شهر ابريل سنة ١٧٩٨

ولما رجع نابوليون من مصر قضى سبعة أيام في بيته باجاكسيو من ٢٩ سبتمبر الى ٥ اكتوبر سنة ١٧٩٩ وقدم لوالدته هدية مذودا مصنوعا من العاج وخشب الابنوس وهو باق في البيت الى يومنا هذا ويراه الزائر فيه .

ووهب نابوليون اندريا راموليبنو ابن عم والدته بيت بونابرت في ٢٢ مارس سنة ١٨٠٤ وتوفي اندريا راموليبنو في سنة ١٨٣١ بلاعقب فانتقل ارثه الى ابن أخيه لاوي راموليبنو إلا أن والدة نابوليون طلبت الاستيلاء على البيت في سنة ١٨٣٤ بصفة كونها وارثة لحفيدها الدوق دي ريشتادت وكرر يوسف بونابرت طلب الاستيلاء على البيت وأجريت تسوية بين الفريقين في سنة ١٨٤٣ فوضع يوسف بونابرت يده على البيت في شهر يونيو سنه ١٨٤٤ ثم ان ابنته الاميرة زنابيد ورثته منه وقدمته لابن عمها الامبراطور نابوليون الثالث وقت مازار كورسيكا في سنة ١٨٦٠ ولم يكن في ذلك العهد شيء من الاثاث في البيت لان جميع اثاث الاسرة البونابرتية كان في حيازة اسرة لاوي راموليبنو فاشترى نابوليون الثالث جميع ذلك الاثاث بخمسة وستين الف فرنك ونقله الى بيت بونابرت في ١٥ اغسطس سنة ١٨٦٩ بمناسبة انقضاء مئة سنة على ولادة عمه نابوليون الاول .

وورثت الامبراطورة اوجيني ام نابوليون الثالث بيت بونابرت وانتقلت ملكية البيت بعد وفاتها في ١١ يوليو سنة ١٩٢٠ الى البرنس جيروم بونابرت كبير الاسرة البونابرتية فقدمه للحكومة الفرنسوية في سنة ١٩٢٣ وهو الآن ملك للحكومة وقد جعلته متحفا . أما الدور الثالث من ذلك البيت فقد سكنت فيه الاميرة ماريان بونابرت حتى وفاتها في سنة ١٨٩١ .

اما الاثاث الذي في بيت بونابرت فيقال ان يوسف بونابرت جدده عند رجوعه من ايطاليا وكان عين فيها مفوضاً حربيا ولكن يمكن القول ان الجانب الاكبر من ذلك الاثاث كان لاسرة بونابرت والداخل الى بيت بونابرت يشاهد فيه الغرفة التي كانت والدة نابوليون تنام فيها والسرير الذي كانت ترقد عليه والكرسي الذي نقلوها عليه من الكنيسة الى البيت لما شعرت بابتداء المخاض قبلما ولدت نابوليون . وردهة الاستقبال والغرفة التي كان يشتغل فيها والد نابوليون وغرفة نابوليون الخاصة وفي ارض هـذه الغرفة كوة ينحدرون بها

الى دهليز هرب منه نابوليون في ذات يوم من وجه رجال باولي وكانوا يتعقبونه طالبين هلاكه

وعند مدخل البيت سجل يكتب فيه الزائر اسمه وتاريخ زيارته ويستطيع الزائر ان يطلب من الحاجب ان يريه التاج الذهبي الذي صنعه فاليزي ليقدمه الاجا كسيون بمناسبة انقضاء مئة سنة على انشاء القنصلية

وكان امام بيت بونابرت في القرن الثامن عشر منزل انجال ماري بياترا ساننا والدة لاتيسيا رامولينو فهدم ذلك المنزل في سنة ١٧٩٧ وجعل مكانه ميدان صغير يدعى ميدان لاتيسيا وهو لايزال باقيا الى اليوم . والى يسار هذا الميدان شجرة صغيرة من الاشجار المعروفة باسم شجر العاشق وعليها كتابة على لوحة صغيرة تدل على انها جيء بها من مدفن نابوليون الثالث في تشيزلهرست بانكلترا

هذه خلاصة ما تهم القارىء معرفته عن البيت التاريخي الذي ولد فيه رجل داهية من اعظم الرجال الذين ظهروا في العالم .

ميدان الالماس — هو ميدان مربع الشكل مستطيله تبلغ مساحته هكتارين اي عشرين الف متر مربع وقد انشأه في سنة ١٨٠٢ المستشار ميو الذي ارسله القنصل الاول الى كورسيكا لتنظيم شؤونها العامة . ويحد هذا الميدان شمالا جادة القنصل الاول وشرقا شارع بونابرت وغربا المستشفى العسكري وثكنة فو وجنوبا البحر . وعند طرف الميدان من هذه الجهة قاعدة عالية من الحجر تعلوها تماثيل نابوليون وأخوته الاربعة وجميعهم متزيون بالزي الروماني فهو وحده راكب على جواده .واخوته واقفون على الزوايا الاربع وتلك التماثيل مصنوعة من النحاس وقد ازاح البرنس نابوليون جيروم الستار عن ذلك الاثر في ١٥ مايو سنة ١٨٦٥ في حفلة شائقة شهدها جمهور غفير لايقل عن اربعين الفاً تقاطروا الى اجاكسيو من جميع انحاء الجزيرة فالقى البرنس نابوليون جيروم خطاباً رنانا في تلك الحفلة قام له الامبراطور نابوليون الثالث وقعد لان ذلك البرنس اورد باسهاب ما كان من اعمال نابوليون الكبير ايام كان قنصلا اول وهو يريد ان يبين ما كان في تلك الاعمال والاعمال التي تمت في عهد الامبراطورية من الفروق

من الفروق وعلى ذلك الأثر صفيحة من النحاس وضعت الى جهته القبلية وحفرت عليها الكتابة الآتية :

« لتذكار نابوليون الاول وإخوته الاربعة يوسف ولوسيان ولويس وجيروم من كورسيكا المعترفة بالجميل في عهد الامبراطور نابوليون الثالث وقد اقيم هـذا الأثر بعناية البرنس نابوليون جيروم وبالتبرعات الاختيارية في ١٥ مايو سنة ١٨٦٥ »

اما ميدان الالماس فمحاط بجهاته الثلاث بثلاثة صفوف من شجر الدلب وفي وسطه دكة عالية تعزف فيها موسيقى البلدية بالحانها المطربة ويعتبر هذا الميدان مجتمعاً للاجاكسيين وهو مقسوم الى قسمين الجنوبي وفيه تتنزه الطبقة العالية والشمالي وهو مختص بطبقة الشعب . وفي الاعياد الكبيرة وايام المرافع يقيمون في ذلك الميدان الالعاب المختلفة نهاراً وليلا .

ميدان النخل — هو ميدان لطيف غرست على جوانبه اشجار النخل واشجار الدلب وهو يمتد شرقا الى رصيف المرفأ وغربا الى جادة القنصل الاول ويتصل جنوبا بالمساكن المؤلفة منها المدينة القديمة وشمالا بشارع الملك جيروم وشارع فش . وفي وسط ذلك الميدان تمثال من الرخام الابيض للقنصل الاول من صنع النحات مكسيميليان لابورور يبلغ ارتفاعه مترين و٦٥ سنتيمترا وهو على قاعدة يحيط بها اربعة أسود من الرخام تنفث الماء من أفواهها وقد أزيح الستار عن هـذا التمثال في ٥ مايو سنة ١٨٥٠ وهو هدية من الكردينال فش خال نابوليون الاول .

الكاتدرائية — لما بنى الجنرال بولس دي ترم قلعة اجاكسيو في سنة ١٥٥٤ هدمت كاتدرائية الصليب المقدس التي كانت في وسطها فصحت عزيمة الاجاكسيين على تشييد كاتدرائية جديدة وقبل أن ترتفع الجدران عن سطح الارض متراً وخمسة وعشرين سنتيمترا اوقفوا الاشغال لافتقارهم الى المال اللازم لانجازها ولما تخرمت المنية السيد غيديشيوني مطران اجاكسيو في سنة ١٥٨٢ اجتمع شيوخ المدينة وكانوا يذكرون أن البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي كان جالسا على كرسي مار بطرس في ذلك العهد كان قد زار مدينتهم حينما كان اسمه الكردينال بونكمبانيو

وهو منطلق الى مدريد سفيرا للبابا بيوس الرابع وكانوا قد اكرموا وفادته اتفقت كلمتهم على أن يرسلوا اليه وفدا يرجو منه ارجاء سيامة اسقف عليهم كي يخصص ريع الاسقفية لاكمال بناء الكاتدرائية فبادر قداسته الى اجابة طلب الاجاكسيين الموصوفين بالتدين وارسل اليهم نائبا رسوليا يدعى يوسف سكاردي وفوض اليه اتمام تشييد كاتدرائية اجاكسيو ولما كانت تسمية سكاردي اسقفا على اجاكسيو متعلقة باكمال بناء تلك الكاتدرائية صغر حجم تلك البناية لكي يعجل في ترقيه الى المقام الاسقفي وكان عمله هذا باعثا على ادخال شيء من الخلل على هندستها ولكنه قضى نحبه قبل قضاء لبانته. واختير بعد ذلك جوليو جوستنياني اسقفا على اجاكسيو في ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٨٧ وهو اغريقي الاصل من جزيرة خيو وتقلد منصبه الجديد في سنة ١٥٨٨ فاقبل على العمل بهمة لا يدنو منها الملل وقد تيسر له انجاز بناء الكاتدرائية في سنة ١٥٩٣ . وفوق رتاج الكنيسة صفيحة من الرخام حفرت عليها الكتابة الآتية ترجمتها :

« بنيت هذه الكنيسة من دخل الكرسي الاسقفي وقد ظل ذلك الكرسي فارغا خمس سنوات وذلك بطلب شعب اجاكسيو المتدين وموافقة مجلس شيوخ جنوى والبابا غريغوريوس الثالث عشر ووضع آخر حجر فيها في سنة ١٥٩٣ جوليو جوستنياني الذي سامه البابا سكستوس الخامس اسقفا وياليته وفق الى وضع الحجر الاول فيها . »

ويروي أحد المؤرخين ان المطران جوليو جوستنياني اشترى الرخام اللازم للرتاج ثلاث مرات ففقد ذلك الرخام في المرة الاولى في عاصفة هبت على البحر واغرقت المركب المشحون فيه . ووقع الرخام المجلوب في ايدي القرصان في المرة الثانية وعرف المكان الذي اخذوه اليه بعد ثلاث مئة سنة فقد وجدوه في أحد الجوامع في تونس وهذا ما جعل السيد لافيجري يزعم خطأ انه كان في القرن السادس عشر طارئة اجاكسية في تونس وانها كان لها كنيسة فيها . اما في المرة الثالثة فوصل الرخام وبني فيه رتاج الكاتدرائية .

وكاتدرائية اجاكسيو على هندسة مأخوذة عن هندسة كانت مألوفة في عهد النهضة العلمية وهي على شكل صليب يوناني وتعلوها قبة نخمة . وسقف الكنيسة معقود بالحجارة . وفي الكنيسة ستة معابد أو مذابح فالكبير منها مصنوع من الرخام وقد تبرعت به الاميرة اليزا شقيقة نابوليون الاول وغراندوقة لوك

وبيومبينو في سنة ١٨١١ وهو مجلوب من كنيسة الموتى في لوك وقد كتب على أحد جوانبه إن الكردينال جوليو اسبينولا اسقف لوك كرسه في ٢٨ يناير سنة ١٦٨٠ .

والى يمين مدخل الكنيسة جرن المعمودية وفي هذا الجرن تلقى نابوليون سر العماد في ٢ يوليو سنة ١٧٧١ وهو مركز على اسطوانة حفر عليها شعار المطران جوستنياني . وعلى عمود الى يسار الداخل الى الكنيسة صفيحة من الرخام الفرنسوي الاحمر نقشت عليها باحرف ذهبية الكلمات المؤثرة التي فاه بها نابوليون الاول في جزيرة القديسة هيلانة واليك ترجمتها :

« اذا قضوا بابعاد جثماني عن باريس كما قضوا بابعاد شخصي عنها فارغب في أن يدفنوني الى جانب آبائي في كاتدرائية اجا كسيو بكورسيكا .عن جزيرة القديسة هيلانة في ٢٩ ابريل سنة ١٨٢١ .»

وكان للاسرة البونابرتية مدفن في تلك الكاتدرائية عند مذبح سيدة الوردية وهو المذبح الذي يناوح المحل الموضوع فيه الانجيل على المذبح الكبير

وفي كاتدرائية اجا كسيو تحف كنائسية ثمينة وفي جملتها جرن المعمودية وقد تقدم بيانه وهو من الرخام الابيض البديع الصنع وقد جاء به المطران جوستنياني من ايطاليا وكان يعتبر في ذلك العهد تحفة ثمينة . وفيها أيضا شمعدانان من الفضة عليهما نقوش جميلة وشعار جوستنياني . وكأس من الذهب وهي هدية من البابا غريغوريوس السادس عشر . وبدلة للتقديس بنفسجية اللون ويقال انها مأخوذة من رداء فاخر كان أحد ملوك الشرقيين يلبسه وهي هبة من الكردينال فش

تمثال الكردينال فش — نصب تمثال الكردينال فش في فناء مدرسة اجا كسيو وهو من صنع فكتور دوبراي وقد ازيح الستار عنه في ١٥ اغسطس سنة ١٨٥٦ وكانت له الايادي البيضاء على اجا كسيو فانشأ فيها المدارس المسيحية للاخوة ومدرسة راهبات ماريوسف والمدرسة الداخلية ووقف على المدينة جميع املاكه وقسما من الصور والتماثيل والتحف التي في داره ومكتبته واثاث بيته وملابسه الكهنوتية عينها وله الفضل الاكبر في انشاء مكتبة اجا كسيو ومتحفها

مغارة نابوليون — عند طرف جادة غرانفال للجهة الغربية ميدان كازوني

وهو مربع الشكل كبيره تتكنفه اشجار الدلب وعند طرفه الغربي صخران كبيران يدعيان مغارة نابوليون والناظر اليهما عن بعد يرى فيهما شكل القبعة التي كان نابوليون الاول يلبسها .وهم يزعمون أن نابوليون لما كان غلاما كان يعتزل في تلك المغارة للتأمل ولكن يتعذر تصديق تلك الحكاية لان نابوليون لما كان له من العمر تسع سنوات دخل مدرسة بريان . والمغارة علاوة على ذلك لم تكن في مكان يجري على ملك أسرة بونابرت .

وحول اجاكسيو مناظر بديعة ومتنزهات جميلة من جهة البحر ومن جهة الجبل ونكتفي بقصر البونتا أو قصر بوتزو دي بورغو فهذا القصر يبعد عن اجاكسيو ثلاثة عشر كيلومترا ونصف كيلومتر ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٦٥٠ مترا وهو مبني على يفاع منبسط يشرف على البحر وعلى جميع الانحاء المحيطة بالمدينة وقد شرعوا في بنائه في سنة ١٨٨٦ وكتب على صفيحة يعلوها شعار أسرة بوتزو دي بورغو ماتأتي ترجمته :

« بنى جيروم دوق بوتزو دي بورغو ونجله شارل هذا القصر بحجارة مجلوبة من قصر التويلري وكانت النار قد اتلفته فى باريس في سنة ١٨٧١ لكي يحفظا للوطن الكورسيكي ذكرا ثمينا من الوطن الفرنسوي وذلك في سنة ١٨٩١ مسيحية »

وهذا القصر متحف فيه كثير من الآثار النفيسة ذات القيمة التاريخية . ولايخفى انه كان بين أسرة بونابرت واسرة بوتزو دي بورغو عداوة قديمة العهد ومناظرة على نيل التفوق في الجزيرة إلا أن ما أصابه نابوليون الكبير من العظمة كسف شمس بوتزو دي بورغو من دون أن يجعله يلين مجسته للاقدام أو يطأطىء رأسه أمام ذلك الداهية الجبار .

وفي اجاكسيو ماعدا الكاتدرائية كنيسة مار روكز وهي مبنية فى جادة نابوليون على هندسة حديثة ويمكن القول انه لاتخلو مدينة أو بلدة في كورسيكا من كنيسة على اسم القديس روكز والسبب في ذلك هو ان توالي ظهور الطاعون المخوف في الجزيرة في غابر الايام جعل القوم يلتجئون الى مار روكز شفيع المطعونين ويقيمون له المعابد تيمنا باسمه واستشفاعا به .

وفي اجاكسيو انزال مرتبة أهمها نزل كنتيننتال بجادة غرانفال فنزل

بلفيدير على طريق سالاريو فنزل اوربا بجادة غرانفال فنزل الاجانب بجادة غرانفال فنزل فرنسا عند ميدان الالماس فنزل سولفيرينو بجادة نابوليون وغير ذلك من الانزال المهمة .

وفيها ثلاثة مصارف (بنوك) مصرف فرنسا بشارع الولاية ومصرف لانزي بجادة الملك جيروم ومصرف بوتزو كوستا بجادة الملك جيروم أيضا .

وفيها كثير من القهوات والملاهي المتقنة المرتبة كقهوة اجاكسيو بجادة القنصل الاول وقهوة التجارة بجادة غرانفال وقهوة فرنسا بجادة نابوليون وقهوة نابوليون بجادة نابوليون وقهوة سولفيرينو بجادة نابوليون وقهوة الملك جيروم بجادة غرانفال .

وفيها جرائد يومية واسبوعية كجريدة كورسيكا الفتاة وجريدة الكورسيكي الصغير وجريدة الكولومبو وغير ذلك من الجرائد

وفيها من الاطباء نحو عشرين ومن الصيادلة نحو عشرة

وفيها نحو خمسة من مصوري الشمس

وفيها مركز للبريد والتلغراف بشارع الولاية

وفيها ملعب واحد لتمثيل الروايات وثلاث دور لعرض الصور المتحركة (السينما)

وليس فيها تراموای كهربائي وقلما يلقى الانسان فيها سيارة ولكن فيها بضع عشرات من المركبات تجرها الخيل وقد اتخذت موقفاً لها في أول جادة غرانفال شمال ميدان الالماس .

والمدينة غير منارة بالكهرباء بل بالغاز في بعض جهاتها ويولدون الكهربائية بواسطة محرك في بعض الانزال الكبيرة .

الانتخابات في كورسيكا — ذكرت في عرض الكلام عن كورسيكا بالاجمال أن السياسة هي القطب التي تدور عليه رحى الاعمال في تلك الجزيرة وان الانتخابات هي المحرك لتلك الرحى وحيث انه جرى انتخاب أعضاء لمجلس الشيوخ في اثناء اقامتنا في الجزيرة فقد رأيت أن اذكر شيئا عن ذلك الانتخاب :

ان لكورسيكا الحق بانتخاب ثلاثة اعضاء لمجلس الشيوخ وخمسة اعضاء لمجلس النواب وقد كان اعضاء مجلس الشيوخ في اثناء اقامتنا في الجزيرة

المسيو بول دومر والمسيو تاداي غبريالي والمسيو فرنسوى غاليني . وكان اعضاء مجلس النواب المسيو دي مورو جافيري والمسيو ادولف لاندري والمسيو انطوان غافيني والمسيو مرقس سلستان كايتوكولي والمسيو هنري بيارمجلي

وكانت قد انتهت مدة عضوية المسيو دومر والمسيو غبريالي فعين اليوم التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٢١ موعداً للانتخاب وعينت مدينة اجا كسيو مكانا لاجتماع الناخبين كالعادة الجارية . وحدث ولا حرج عن تزاحم الاقدام وتناظر الاحزاب وتنافسها وقد فاز من بين المرشحين المسيو دومر العضو السابق ووزير المالية في وزارة المسيو بريان في ذلك العهد وليس المسيو دومر من سكان كورسيكا بل من سكان القارة . وفاز ايضا الدكتور ساري رئيس بلدية باستيا أما المسيو كوتي صاحب معامل الروائح العطرية المشهور في باريس فانه مع مابذله من المال الوافر لم ينل الاكثرية . ومع كل ما أبداه الاحزاب ورؤساؤها من التظاهرات الشديدة لم يقع ادنى حادث يكدر حياض السكينة بل كان الجميع يحركون عوامل دهائهم لاستمالة اصحاب الاصوات من دون أن يلجأوا الى القوة الوحشية كما هي الحال في لبنان في معظم الانتخابات على التقريب واحتشدت الجماهير في ميدان الالماس بعد الانتخاب وكان كل فريق على حدة فحاول رؤساء الاحزاب أن يخطبوا في الجمهور ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك لان الاحزاب المعاكسة للخطيب كانت تضج وتصفر وتقطع كلامه ناسبة اليه كل فرية وملقية على منكبيه جميع أسباب التقهقر في الجزيرة وكان كل مافعلته الاحزاب التي لم تحرز الاكثرية في الانتخاب أنها وجهت انظارها الى باريس وأخذت تسعى من ذلك الحين لالغاء الانتخاب وتقرير مخالفته للقانون في المرجع الايجابي أي في المجلس عينه المنتخب ذانك الشخصان عضوين فيه ولكن المجلس المشار اليه نظر في الانتخاب وقرر قانونيته لانه لم يجد فيه مايخالف الانظمة الموضوعة .

الاحتفال بانقضاء مئة سنة على وفاة نابوليون الاول : — وكان أهم شيء شاهدته في اثناء اقامتي في جزيرة كورسيكا الاحتفال الكبير الذي اقيم في اجا كسيو بمناسبة انقضاء مئة سنة على وفاة نابوليون الكبير في جزيرة القديسة هيلانة وقبل اليوم المعين للاحتفال ببضعة أيام أخذت مدينة اجا كسيو مسقط

رأس ذلك العاهل العظيم تستعد لاقامة الاحتفالات المئوية اقامتها فزينت الشوارع والجادات والميادين والمعاهد والملاهي والاندية العامة والمنازل الخاصة بالاعلام الفرنسوية واعلام الحلفاء واقواس النصر المعقودة بالازهار والرياحين وكان الانسان يشاهد تماثيل نابوليون وصوره وشاراته وآثاره كيفما سار في جميع انحاء المدينة وكانوا يرون تحفا ثمينة واشياء كثيرة لنابوليون في واجهات المخازن وكانت باقية عند الناس كتذكار ثمين يحرصون عليه ويتباهون به. وعينت للاحتفال ثلاثة أيام متوالية وهي ٤ مايو و٥ و٦ منه.

وأرسلت الحكومة الفرنسوية من لدنها المرشال فرانشه دسبره ليرأس الاحتفالات فوصل الى اجا كسيو قادما من باستيا في يوم السبت في ٣٠ ابريل في الساعة ١٠ : ٥ بعد ظهر ذلك اليوم ولما انتهى الى موقف سكة الحديد أطلق احد عشر مدفعا من مركز البحرية اكراما له وهي التحية التي يحيى بها المرشال المفوضة اليه مهمة رسمية. وكانت هيئة الحكومة تنتظره في ميدان اباتوشي بجوار الموقف المذكور ومعها اعضاء مجلسي الشيوخ والنواب الذين يمثلون الجزيرة في البرلمان الفرنسوي وعمدة المدينة ووفود من قبل المجلس العمومي والمجلس البلدي ورجال الدين ووجوه المدينة واعيانها وجمهور غفير لايقل عدده عن خمسة عشر الف نفس.

وبعد ماحيته الجنود المصطفة التحية العسكرية تقدم رجال الحكومة واستقبلوه رسميا وخطب المسيو جيروم بيري عمدة المدينة خطابا ترحيبيا فشكر المرشال لهيئة الحكومة ولجميع المستقبلين ما أبدوه له من الحفاوة ثم توجه ومعه ذلك الجمع الغفير الى منزل الملازم مرشال لاتي رئيس لجنة الاحتفال الاجا كسية وقد آثر السير مشيا الى ذلك المنزل الذي لايبعد عن ميدان اباتوشي اقل من كيلومترين

ولما وصل امام التماثيل المنصوبة لنابوليون واخوته في ميدان الالماس وقف وحيا ذلك الرجل العظيم التحية العسكرية ثم واصل السير الى المحل المعد له وقضى غد ذلك اليوم عند مضيفه للاستراحة من وعثاء السفر

وقدم السيد ريفيار رئيس اساقفة اكس الخاضعة جزيرة كورسيكا لولايته

الدينية في يوم الاثنين في ٢ مايو الى اجاكسيو ليرأس الاحتفالات الدينية فاستقبل استقبالا حافلا .

ودخل المرشال فرنشه دسبره مدينة اجاكسيو دخولا رسميا في يوم الثلاثاء في ٣ منه في الساعة الخامسة بعد الظهر فبالغوا في الاحتفاء به .

وافتتحت الاحتفالات في صباح الاربعاء في ٤ منه فاقام السيد سيميوني مطران اجاكسيو قداساً وجنازا في المعبد الامبراطوري في الساعة التاسعة صباحا بحضور المرشال فرنشه دسبره ورئيس اساقفة اكس وجمهور كبير من علية القوم وكبار الموظفين وبعد ذلك زاروا المعبد الخاص المدفونة فيه والدة نابوليون وخاله الكردينال فش وافراد من الاسرة البونابرتية وهذا المعبد في شارع فش الى جانب المتحف والمكتبة والمدرسة

ثم ذهب المرشال ورئيس الاساقفة والمطران الى دار البلدية لاستقبال هيئة الحكومة واعيان المدينة استقبالا رسمياً ووضعت ثلاث صفائح من الرخام الابيض بمناسبة هذا الاحتفال في ثلاثة اماكن بالمدينة : الاولى بشارع فش وقد كتب عليها ماترجمته :

« هنا بيت بو . في ٢٣ يناير سنة ١٧٩١ وهي السنة الثانية للحرية قرأ »
« بونابرت الملازم في فرقة المدفعية باوكسون صورة الكتاب الذي كتبه »
« للمسيو ماتيو بوتو فاكو نائب كورسيكا ردا شديد اللهجة على الخطاب »
« الذي خطبه ضد باولي وانصاره في الجمعية الوطنية وكان ذلك في جلسة عقدها »
« النادي الوطني الاجاكسي الملحق بنادي اليعقوبيين الباريسي »

والثانية بازاء الكاتدرائية واليك ترجمة ما كتب عليها :

« كان نابوليون بونابرت الليوتنان كولونل من الدرجة الثانية في الفرقة »
« الثانية من الحرس الوطني بكورسيكا مهدداً بالقتل امام هذه الكاتدرائية »
« في مساء يوم الاثنين الذي بعد احد الفصح في ٨ ابريل سنة ١٧٩٢ في »
« اثناء الحوادث الدموية التي حدثت بين الاجاكسيين والحرس الوطني الا ان »
« الآنسة ماريان ترنانو نسيبته خلصته وادخلته بيتها فنجا بدهليز »
« يتصل من المنزل بالمدرسة الاكليريكية وكانت فرقته نازلة فيها »
« ووضعت الثالثة في شارع فش ايضا وقد عربنا ما كتب عليها بما يأتي : »

« كان رجال باولي والبريطانيون يتعقبون نابوليون بونابرت في الثالث »
« من شهر مايو فالتجأ الى هذا البيت الذي يخص جان جيروم لاوي عمدة »
« المدينة السابق وقد حشد في منزله فريقا من الجبليين المسلحين ولما جاء الجنود »
« للقبض على نابوليون بونابرت تمكن جان جيروم لاوي من ابعادهم عن البيت »
« بلا قتال وأنقذ بونابرت في تلك الليلة عينها وسيره الى كلفي بحراً وسار »
« منها الى سواحل البروفانس واستولى بونابرت على طولون بعد سبعة أشهر »
« (٢١ دسمبر) . »

وشاءت الحكومة الايطالية أن تشترك في حفلات اجاكسيو التي نحن في صدد الكلام عنها فأرسلت النسافة « لامازا » وفيها السنيور مالفرنو حاكم ساساري والجنرال زيكندي وحاشيتهما ولكن حدث في أثناء قدوم تلك النسافة انها حينما كانت على بعد خمسة عشر كيلومترا عن اجاكسيو اشتدت عليها الانواء فغطاها الماء وجذب ثلاثة من بحارتها الى البحر فغابوا عن الابصار وغاصوا في اللجنة من دون أن يتمكنوا من انقاذهم .

وافتتحت سلسلة الاحتفالات في يوم الخميس في ٥ مايو ١٩٢١ بقداس حافل اقامه رئيس اساقفة اكس في ميدان النخل على مذبح نصب أمام تمثال نابوليون بونابرت حينما كان قنصلا اول . وقبلما اخذوا في القداس هطل مطر مدرار ولكنه لم تطل مدة هطله فارجىء القداس الى الساعة العاشرة وكان الاجل المضروب له الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين ولم يكن عدد الجمع الحاضر يقدر بأقل من خمسة وعشرين الفاً . وصعد السيد سيميوني مطران اجاكسيو الى المنبر في خلال القداس وأبن نابوليون بونابرت تأبينا بليغا استفز حماسة الحاضرين فقاطعوه بالتصفيق رغما من مهابة المقام واستمرت تلك الحفلة الى الظهر .

واحتشدت الجماهير أمام دار البلدية في ميدان النخل في الساعة ١٥ : ٣ بعد الظهر فتألف موكب فخم سار بانتظام الى ميدان كازوني في ظاهر المدينة الى الجهة الغربية أمام مغارة نابوليون وقد نصبت منصة في وسط ذلك الميدان في المكان المعد لنصب تمثال للامبراطور نابوليون الاول فيه ولما أكتمل الترتيب نهض المرشال فرنشه دسبره ووضع بيده الحجر الاول للقاعدة المعدة لنصب التمثال عليها ثم تعاقب الخطباء متبارين في ميدان الفصاحة والبلاغة فتكلم المسيو مرسل

لارتي رئيس لجنة الاحتفال الاجاكسية فالمسيو جان دي بيرتي عمدة بلدة لافي فعمدة أجاكسيو فالمسيو لاندوي نائب كورسيكا في مجلس الشيوخ الفرنسوي ومن وزراء البحرية السابقين فالسنيور مالفرنو الايطالي حاكم ساساري فالجنرال زيكندي الايطالي فالمسيو بياتري المندوب من جمعية الاحتفال بالعيد المئوي في باريس فالشاعر الكورسيكي لوشياردي . ولما فرغ الخطباء من الكلام تكلم المرشال بلهجة حماسية مفصحا عن الغرض الذي من أجله شاءت الحكومة الفرنسوية أن تحتفل بذلك العيد لذكر الرجل العظيم المعدود أكبر قائد في فرنسا وفي العالم . وانتهت الحفلة المدنية بخطاب المرشال .

ولما ازف الحين المعين لاقامة الحفلة الدينية عادت الجماهير الى ميدان كازوني بعد ما كانت قد غادرته فتسنم رئيس اساقفة اكس منبر الخطابة وخطب خطابا مؤثرا عن نابوليون بونابرت ككورسيكي وانتقل من ذلك الى وصفه كفرنسوي وتليت بعد ذلك الصلوات المعتادة تلاوتها في مثل تلك الحفلات وبعد الخطب ارفض الجمع عند الساعة ٣٠ : ٦ مساء .

واجريت الالعاب النارية على رصيف الميناء في الليل وكانت النسافة كالاي الفرنسوية والنسافة لامازا الايطالية ترسلان الانوار الكهربائية وكان اجمل منظر في تلك الالعاب شخص نابوليون المرسوم بالانوار الكهربائية وعلوه ثمانية امتار

اما الحفلات التي احتفل بها في ٦ مايو فنكتفي بان نعددها من دون ان نسهب في وصفها لنكفي القارىء مؤونة التبرم :

١ — ذهاب الموكب في الساعة التاسعة صباحا الى البيت الذي ولد فيه نابوليون بونابرت لوضع باقة كبيرة من الازهار فيه

٢ — اقامة حفلة اكرامية للجنود الكورسيكيين الذين خروا صرعى في الحرب العالمية الاخيرة في سبيل وطنهم

٣ — احتفل بسباق الزوارق الشراعية في الساعة ٣٠ : ١٠ صباحا واجرى الغلمان العابا في ميدان النخل

٤ — احتفل بسباق الدراجات في الساعة الحادية عشرة صباحا

٥ — احتفل بسباق الزوارق بالمجاذيف في الساعة الثانية بعد الظهر

٦ — اقيمت العاب رياضية بدنية في ميدان الالماس في الساعة ٣٠ :٣ بعد الظهر
٧ — اقيم سباق للخيل في جادة غرانفال في الساعة الخامسة بعد الظهر .
٨ — اقيمت العاب نارية في الساعة التاسعة ليلا
٩ — اقيم مرقص عام في الساعة ٣٠ : ٩ ليلا

هذا مجمل وصف الحفلات التي اقيمت في مدينة اجا كسيو مسقط رأس ذلك الرجل العظيم الذي قال عنه احد الكتبة الفرنسويين : ان الحق سبحانه وتعالى كسر بعد ماخلقه القالب الذي افرغه فيه . وقالت عنه جريدة المورننج بوست الانكليزية ما يأتي في عرض الكلام عن الحفلات التي اقيمت له :

« لقد انقضت مئة سنة على وفاة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة ومن حسن الحظ ان الفرنسويين والبريطانيين الذين كانوا اعداء الداء في ذلك العهد قد اصبحوا الآن اصدقاء حميمين يتسنى لهم أن يتأملوا معا باعجاب مشترك رجلا لا يعد فقط من اكبر رجال فرنسا بل من اكبر رجال العالم . »

وكانت علامات التحمس بادية على جميع الوجوه ولا بدع اذا كان القوم في اجا كسيو يظهرون مثل ما اظهروه من تلك العلامات تذكارا لذلك الداهية الكبير فقد خلد ذكر مدينتهم ورفع شأنهم في جميع انحاء المعمورة ماسح خال ولاح بدر

ولما كان هذا الاحتفال تذكارا لانقضاء مئة سنة على مصرع ذلك العاهل العظيم احب أن ابين الفرق بين هذه الاحتفالات وما كان من عدم اكتراث القوم في فرنسا لوفاته لما انتهى اليهم نعيه في سنة ١٨٢١ .

لما انتهى نبأ مصرع نابوليون الكبير الى فرنسا لم يحدث فيها تأثيراً كبيراً ولم يصل ذلك النبأ الفاجع الا بعد وفاته بنحو شهرين وليس في ذلك شيء من الغرابة لان وصول الاخبار من مكان الى آخر في ذلك العهد لم يكن يحدث بمثل السرعة التي يحدث فيها في ايامنا هذه فلم يكونوا قد اخترعوا البواخر ولا الاسلاك البرقية او التلفونية ولا اللاسلكي بل كانوا يضطرون الى ركوب السفن وانتظار الريح المؤاتية لهم . ووصل نعي نابوليون في بدء الامر الى انكلترا ثم الى فرنسا ومعلوم أن نابوليون قضى ست سنوات في المنفى وكانوا في اثنائها يحاولون محو اسمه من الاذهان في فرنسا ولم يكن انصاره المخلصون له ولا

اصدقاؤه ولا خدامه يجرؤون على التلفظ باسمه جهاراً مخافة ان ينالهم الاذى من السلطة الغاشمة وكان شبح اسير جزيرة القديسة هيلانة ينتابها في المنام . والحق يقال أن نابوليون كان قد توارى عن ملعب السياسة قبل مصرعه بست سنوات بحيث ان نبأ موته الذي وصل الى باريس في يوم الجمعة ٦ يوليو سنة ١٨٢١ ولم ينتشر الا في صباح غد ذلك اليوم تلقاه الناس كما يتلقون خبراً عاديا . ونشرت صحيفة « الصاعقة » لسان حال الملاعب والفنون وعلم الادب نعيه في عددها الصادر في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢١ بالكلمات الآتية : « ان خبر موته الطبيعي كان كغيره من الاخبار العادية وقد تحدث الناس عنه يومين أو ثلاثة ايام على مثال تحدثهم عن المطر والصحو . واليوم لم يبق من يفتكر به . » وقد كتبت الكونتة دي بوانياي ما يأتي في مفكراتها : » سمعت باعة الجرائد يصيحون في الشوارع موت نابوليون بونابرت بصولديين . خطابه للجنرال برتران بصولديين بأس عقيلة برتران بصولديين . ولم يكن لتلك المناداة تأثير في الناس اشد من تأثير المناداة على كلب ضائع . » ثم كتبت تلك الكونتة بعد ذلك : « لاانتبى ما كان لقلة اكتراث القوم لذلك الحادث من التأثير في وفي الاشخاص المفكرين »

وجاء بوتزودي بورغو عدو نابوليون الشخصي المشهور الى تاليران ليرى ماكان من تأثير ذلك الخبر فيه فكان تاليران مدهوشا ثم انه حاول ان يتكلم برباطة جأش عن نابوليون كأنه يتكلم عن أمر عادي .

وكانت في باريس جريدة بونابرتية النزعة تدعى « جريدة التجارة » فبعد مانشرت هـذه الجريدة نعي نابوليون بكل تحفظ في ١٤ يوليو عقبت عليه بما يأتي : «لاتنتهي دائما بالموت حياة الرجال العظام فان حظ نابوليون كمل قبل ٥ مايو سنة ١٨٢١ وافل بدره في سهول واترلو ومع ذلك لم تكن الاجيال المستقبلة قد جاءت اليه بعد ونحن نشك الآن في دنو ساعة العدالة »

ولما رفع الدوق دي ريشليو خبر وفاة نابوليون الى مولاه الملك لويس الثامن عشر في سان كلود لم يتأثر الملك كثيرا من ذلك الخبر ولكن الجنرال راب الذي كان حاجبا لنابوليون ثم صار فيما بعد حاجبا للويس الثامن عشر لم يستطع كتمان حزنه بيد أن الملك لم ينقم عليه من جراء ذلك .

أما في انكلترا فقد كان لوفاة سجين هدصن لو تأثير شديد عام فاذيعت

اعلانات في الاسواق في ٧ يوليو تدعو جميع المعجبين بالدهاء والشجاعة العابثة بهما المصائب الى لبس الحداد على نابوليون بونابرت صريع المنية قبل حلول يومه فلبي تلك الدعوة كثيرون من أعيان البريطانيين وفي جملتهم السر روبرت ولسن وبعض الفرنسويين نزلاء لندن وحبرت جريدة المورننج كرونيكل مقالة مسهبة عن نابوليون وكان ذلك الحادث شغلا شاغلا لافكار القوم في الديار البريطانية . ولما اخبر رئيس مجلس الهند هيئة المجلس عن وفاة نابوليون قال أحد الاعضاء واسمه المستر لوندس : « فلنتبادل التهنئة يا حضرة الرئيس » فاستاء جميع الحاضرين من كلامه وقال له احدهم : « تأنف الانسانية والكرامة من الابتهاج بموت رجل لم يبق من عهد بعيد يمثل دوراً ما على ملعب السياسة »

ولم يكن لذلك الخبر الرسمي الخطير من الصدى في فرنسا بقدر ما كان له في بريطانيا العظمى ومع ذلك لم يكن حينئذ لتواري ذلك الرجل العظيم ما له اليوم من الاهمية في جميع أقطار المعمورة فلم تكن الحكاية الامبراطورية قد ابتدأت بعد بل كان يعوزها تقهقر التاريخ الى الوراء وقال السر جيمس ما كنتش أحد اعيان الانكليز في شهر يوليو سنة ١٨٢١ : « ما كان أشد وقع هذا الحادث لو وقع من تسع سنوات وما أشد ما سيكون له من التأثير ايضا بعد تسع مئة سنة »

وحرصت حكومة لويس الثامن عشر على منع الملاعب من تمثيل دور نابوليون لئلا يغتنم البونابرتيون الفرصة لقلب الحكومة . وتنكر طلما الممثل المشهور وصديق نابوليون الحميم وجعل هيئة رأسه كرأس نابوليون في تمثيل دور سيلا بمأساة جوي في الملعب الفرنسوي في ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٢١ وحينما كان ذلك الحاكم الروماني يجود بنفسه على مهل في الملعب كان النظارة يتمثلون أمامهم احتضار نابوليون الكبير في منفاه .

وأقام الفلاحون في المانيا الصلاة عن نفسه في أماكن كثيرة ولما ابصر غريلبارزر مؤلف الروايات التمثيلية النمسوي وكان شديد القلى لنابوليون ان نير مظالم مترنيخ اثقل من نير بونابرت نظم قصيدة عنوانها « موت الامبراطور » واليك خلاصتها معربة :

« لا استطيع أن أحبك ... فقد كانت مهمتك العنيفة في هذه الحياة الدنيا

ضربة من الله ... ولكن يجب أن يصدر الحكم الآن مستقلا عن العواطف فالحياة تعرف الحب والبغض ويعتبر مجد الاموات من خصائص التاريخ المقدسة

« ان ادنى غاية من بعثتك كانت ان تظهر بمظهر السناء وتكسو عريننا القبيح وتبين أنه يمكن أن توجد الخلائق الكاملة الشريفة والعظيمة في عالمنا حيث يكون كل شيء هباء منثورا وينحل بدونها ويعود الى العدم الذي خرج منه وتبين ايضا أن الجنس لايزال حيا اي ذلك الجنس المستد الساعد الذي غلب في كان وجاهد جهادا حسنا في ترمو بيل

« فاجلس على الكرسي المعد لك بين الابطال الذين لا يزالون أحياء في أفواه البشر أي اجلس الى جانب الاسكندر الذي دوخ الاقطار والى جانب قيصر الذي سمى بعد ما أخطأ في اختياره وراء التسلط على ضفة الروبيكون الاخرى . »

واطلعت ماري لويز أيم نابوليون وأميرة بارم على مصرع زوجها الامبراطور في جريدة « بيامونت » وانتهت اليها رسالة رسمية من البارون دي فنسان سفير النمسا في باريس في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢١ تثبت لها صحة الخبر الذي قرأته في تلك الجريدة فكتبت الى عقيلة دي كرنفيل ما يأتي :

« أصرح لك بأن هذا الخبر كسف بالي على أني وإن لم أ كن أشعر نحوه بأدنى عاطفة حبية من أي نوع كانت لا يمكنني أن أنسى إنه والد ابني وانه لم يكن يسيء معاملتي كما يتوهم بعض الناس بل كان يبدي لي كل رعاية وهذا كل ما يستطاع تقاضيه من الزواج السياسي وقد أدخل مصرعه الاغتمام الشديد علي ومع إن الانسان يجب أن يسر لانه أنهى حياته التاعسة بموت مسيحي فقد كنت أتمنى له حياة طويلة مقرونة بالهناء بشرط أن يكون بعيدا عني . »

ولبس بلاط بارم الحداد ثلاثة أشهر من ٢٥ يوليو الى ٢٤ اكتوبر واليك نص المرسوم القاضي بلبس الحداد والمدبج ببراعة نيبرغ من دون أن يكون محاطا باطار أسود وقد نشر في جريدة بارم في ٢٤ يوليو :« بناء على وفاة صاحب السموزوج أميرتنا المعظمة في الخامس من شهر مايو الماضي بجزيرة القديسة هيلانة تلبس جلالتها والسادة والسيدات المؤلف منهم بلاطها وجميع الاشخاص في القصر الدوقي ثياب الحداد ثلاثة أشهر من ٢٥ الجاري الى ٢٤ اكتوبر . »

وأمرت ماري لويز بان تقدم الف قداس عن نفسه في بارم ومثلها في فينه وحضرت ومعها جميع بلاطها صلاة عن نفس نابوليون في المعبد الخاص بقصرها في السالا ولكن لم يكن على النعش شارة ما من شارات الامبراطورية أو أي حرف يرمز به الى الفقيد

وكانت ماري لويز وهي جالسة على مقعدها الخاص مشردة الافكار وقد سدلت قناعا طويلا على رأسها ليغطي وجهها وجسمها عن الابصار ويحجب حبلها لانها ولدت غلاما من الكونت دي نيبرغ بعد تسعة أيام وهو ثاني الاولاد الثلاثة الذين ولدتهم ولادة غير شرعية

وابلغوا خبر مصرعه الى نجله ملك رومية السابق ودوق ريشتاد من دون أن يقدموا له التعزية لتخفيف لوعة ذلك المصاب عنه وكان الدوق في العاشرة من عمره فذرف دمعا سخينا على والده ولم يعن أحد بكفكفة تلك الدموع

وكان منزوني الشاعر الايطالي الكبير قد أهدى كورنر قصيدة ضمنها كثيرا من الاغراض للتنديد بنابوليون فلما انتهى اليه نبأ تخرم ذلك الداهية خشع طرفه وطلب من امرأته أن تعزف على البيانو يومين متواليين بلا انقطاع وأقام في منزله ذينك اليومين من دون أن يبرحه وألف منظومة عنوانها «٥ مايو» ومن يتدبر تلك المنظومة لا يجدها منسوجة على منوال القدح أو منظومة في سمط المدح لذلك الرجل العظيم بل يرى أنه يعتبره آية من آيات القدرة الالهية متجلية بمجالي الخير أو الشر .

وفي أثناء مقامنا في اجاكسيو ترجم الاستاذ بطرس بولي أحد أصدقائي مرثاة منزوني الى اللغة الفرنسوية فأطلعني عليها فراقتني كثيراً واستأذنته بترجمتها واليك تلك القصيدة

٥ مايو

قضى فغدا جثمانه الميت هامدا ... وفارقه الفكر الذي كان سائدا
قضى عجباً كل الورى وقت ما دروا ... بمصرع من أمسى له النجم حاسدا
قضى رجل الاقدار لما قضى القضا ... عليه واضحى للتصاريف ساجدا
قضى وهو لا يدري مقر رفاته ... ولا زمنا يلقاه فيه مطاردا
لقد ابصرته مقلتي فوق عرشه ... ولم اتوهم أن أرى العرش مائدا

وخيـل لي أن القضـاء بكفه لنيل الذي يبغيه قـد مد ساعـدا
فأطرقت والافكار تعبث بالنهى ومن فرط تأثيري غدا الصوت خامدا
وما عثم النسر المحلق ان هوى فاصبح مصطادا وقـد كان صائدا
وحينئذ هبت بصدري عواطف لانظم في سمط القريض قصائدا
وأسدي تكريماً لمن يستحقـه يظـل الى ما شاء ربك خالدا

* * *

من الالب للاهرام في كل بلدة رأيناه بند المجـد والعز عاقدا
وللرين من مدريد قد بات بأسه بكل فؤاد عسكر الذعر حاشـدا
وبين طنابيس وسـلا صواعق غدا عضبها اعمـار اعداه حاصدا
فهل كان ما ابداه مجداً لقد غدا بمؤتنف الايام ماكان شـاهدا
فحولك ياباري الانام بمثـله نرى لك فيه كل حين مقاصـدا

* * *

هنا جذل حفت به اليوم ضجة وروع الى الالباب نلقاه واخدا
سعى نحو قلب ميزته صريمة بها سهم احداث رأيناه صاردا
يميل الى ادراك غايات سؤدد ويركب كي يرقى اليهـا المناطدا
فهل ينثني عن نيل امر يريده وكل المنى القت اليه المقالدا
وهل فاته شيء بدنياه مذ غدا علي صهوة تدني من المجد قاعدا
واصبح ذا تاج تشع جواهر ترصعه فاقت بحسن فرائدا

* * *

ولـكنما الاقدار خانته مذ غدت لسؤدده السامي المقام حواسدا
فمن بعد ما نال انتصارا على العدي وامسي صروحا للمفاخر شائدا
رأى النفي مقضيا عليه به ولم يجد ندحة عنه ولم يلق ناجدا
وذي شيمة الدنيا ارتفاع وسقطة وذو العقل في دنياه يلقى شواهدا

* * *

فريقان كانا في اقتتال كلاهما وكل الى استنجاده كان قاصدا
فباتا على حبل انتظار قضاهما فجاء الى كل معينا مساعدا
وقال انظراني واتركا الحرب عاجلا فاغدو لـكل منكما اليوم رافدا

وبعد قليل قد نأى متوارياً ... واصبح من حوض المنية واردا
وقد زج مأسورا بأضيق مأزق ... وخلف ذا عطف وخاف حاقدا

* * *

طمت لجج فوق الغريق وثقلت ... عليه وفي قمر لها بات شاردا
تقاذفه التيار نحو شواطىء ... تشط مزارا نحوها كان رائدا
وقد كان يأتيها بجد مصمم ... وطرف يرى افق المجرة راصدا

* * *

تزاحم في نفس له ذكر مجده ... ولكن غدا ذيالك الذكر بائدا
وقد كان يبغي ان يقص حياته ... على الناس عما كان فيه مجاهدا
فأهوت على القرطاس منه يمينه ... وقد بات من جراء ذلك جامدا

* * *

فكم مرة واليوم بالصمت ينقضي ... ويمضي ولا يلقى لديه فوائدا
واصبح مكتوف اليدين وصوته ... غدا بعد اراق بعينيه راعدا
وساوره ذكر الزمان الذي مضى ... وبات وعنه لم يجد قط ذائدا
تذكر اسوارا تدك وحولها ... مضارب شتى لم يجدها جوامدا
وأبصر في ذاك العراء كتائبا ... تماثل اطوادا وتحكي جلامدا
رآها على الاعدا تشن إغارة ... وتنصب للقالي علاه مصايدا

* * *

كأني به للغم بات دريئة ... وبين حناياه أرى اليأس راقدا
وقد أشرعت باباً بأعلى السما يد ... ومدت اليه فاستقل المصاعدا
فطل بالآمال نفسا الى العلى ... جرت تبتغي اجرا لما فيه جاهدا
وأبصر في ليل من الصمت حالك ... نخار بني الانسان ملقى ورا كدا

* * *

فيا أيها الايمان ته وابق خالدا ... وفق في الورى مجدا طريفاً وتالدا
لجلجلة لم يجث في الناس سيد ... كرب العلى من بات للمثل فاقدا

فمن كلمات المجد وقر رفاته   ولا تك للفضل المؤثل جاحدا
وان الذي يبني الممالك والذي   يقوضها مازال في الكون واحدا

* * *

وبمناسبة الكلام عن وفاة نابوليون الكبير في جزيرة القديسة هيلانة نذكر شيئاً عن جغرافية تلك الجزيرة وتاريخها مأخوذا عن المجلد الثاني من مجلة الضياء لمنشئها فقيد اللغة العربية العلامة الكبير الشيخ ابراهيم اليازجي المشهور

جزيرة القديسة هيلانة : — ليس في سكان المعمور من لم يقرع سمعه ذكر هذه الجزيرة الحقيرة بل الصخرة الموحشة المنفردة في أطراف الاتلنتيك بما اتصل بها من الحادث الشهير وهو نفي نابوليون الاول اليها في أوائل القرن التاسع عشر بعد وقوعه في قبضة الدولة الانكليزية على مالا يجهله احد من تاريخه وقد تجدد ذكرها في هذه الايام بحادث آخر من مثله وهو نفي القائد كرنجي أحد ابطال البوير اليها على يد الانكليز أيضا فهي سجنهم الذي يتقون به كرة عدوهم فيحولون دونه ببعد المزار وأمواج البحار ويتركونه عرضة للمذلة والصغار الى ان يقضي نحبه وحيدا كمدا منقطعا عن النصير والانيس .

ولما كان كثير من القراء لا يعلمون من أمر هذه الجزيرة الا القليل رأينا ان نذكر شيئا من صفتها وتاريخها وبيان موقعها من الارض فلخصنا عنها هذا الفصل المختصر على قدر مايحتمله المقام .

أما موقع هذه الجزيرة فهي مايلي الشاطىء الغربي من افريقية على ٦° و ٩° من طول باريس غربا وبين ١٥° و١٦° من العرض الجنوبي وطولها نحو ١٧ كيلومترا في عرض ١٠ وهي جزيرة صخرية تبلغ حزونها البحرية في بعض الاماكن ٦٠٠ متر ارتفاعا واعلى قممها قمة ديانا وهي ترتفع ٨٥٥ مترا عن مستوى البحر وترى من هناك الجزيرة باسرها وما حولها من البحر

وفي هذه الجزيرة مدينة واحدة تسمى جمستون قائمة على الشاطىء الغربي منها على قارة من الصخر مثلثة الشكل والى غربي المدينة الجبل المسمى بجبل السلم لان فيه سلما مؤلفة من ٧٠٠ درجة يرتقى فيها الى المصانع الحربية المشرفة في قمة هذا الصخر والى شرقيها تل يقال له تل روبرت وعليه الطريق المؤدية الى

المنزل الذي اعتقل فيه نابوليون مدة وجوده في الجزيرة وقد ابتاع هذا المنزل الامبراطور نابوليون الثالث في سنة ١٨٥٨ .

اما تاريخ هذه الجزيرة فكان اكتشافها سنة ١٥٠٢ على يد ربان من البرتوغال يقال له جوان دنوفاكاك قد أضل سفينة له في تلك الناحية وكان اكتشافه لها في ١٨ اغسطس من تلك السنة وهو يوم عيد القديسة هيلانة فسماها باسمها . ولما كانت سنة ١٥١٣ نفى اليها البوكرك فاتح الهند الشرقية نفراً من عساكر البرتوغال كانوا قد فروا من الجند وفيهم جماعة من العبيد فكانوا أول من استوطن تلك الجزيرة فاقاموا بالوادي الذي فيه اليوم مدينة جمستون وشرعوا في الحرث . وفي سنة ١٦١٠ دخلت الجزيرة في حوزة الهولنديين فلبثت في ايديهم الى سنة ١٦٥٠ ومذ ذاك دخلت في حوزة انكلترا وبعد ذلك توارد اليها اناس من الهولنديين والعبيد وفلاحي الصين وملقا فنشأت هنالك سلالة ممتزجة من عناصر شتى فيها جمال وبأس أما جلودهم فسمراء الى السواد .

وكانت هذه الجزيرة فيما سلف مرسى للسفن الواردة من جهات الاتلنتيك والبحر الهندي فلما فتح خليج السويس تحولت السفن اليه فأهملت ومذ ذاك أخذ أهلها يهاجرون الى نواحي الرأس فقل عديد سكانها وكانوا سنة ١٨٦١ نحو سبعة آلاف نفس فاصبحوا بعد عشرين سنة خمسة آلاف .

وأصل هذه الجزيرة جبل ناري شخص في ذلك الموضع ولا تزال فوهته ظاهرة الى اليوم إلا أن مواضع منها قد تفتتت وانهارت وحولها جبال مختلفة الارتفاع وصخور ماثلة في الهواء يبلغ ارتفاع بعضها من ٧٠ الى ٩٠ متراً وبعضها قد تشكل باشكال غريبة ومنها اثنان يشبهان منظر انسانين قائمين سموا أحدهما لوطا والآخر امرأة لوط

واما هواء الجزيرة ففي غاية الاعتدال وحر الصيف فيها لايتجاوز حر انكلترا لكن يكثر فيها انتشار الضباب الرطب وهو الذي أضر كثيراً بصحة نابوليون وكانت عند اكتشافها مكسوة بغابات عظيمة ولكن هذه الغابات انقرضت شيئاً فشيئاً بتسليط المواشي عليها حتى اصبحت اليوم خمسة اسداس الجزيرة ارضا جرداء .

وقد كان نفي نابوليون اليها سنة ١٨١٥ فلبث فيها الى أن توفي سنة ١٨٢١

وبقيت رمته هناك الى سنة ١٨٤٠ حين نقلت الى باريس ودفنت في مدفنها المشهور تحت قبة الانفاليد حيث هي اليوم مزار الملوك والعظماء والسياح من اقاصي الارض

ومما يحسن ايراده هنا قصيدة ظفرنا بها من نظم حضرة الشاعر المجيد نقولا افندي الحداد وصف فيها أسر كرنجي ونفيه وما كان منه حين استقبل الجزيرة وتذكر اسر نابوليون فيها فتمثل له طيفه مطلا من اعلاها وكل ذلك من اختراع المخيلة والقصيدة طويلة تنيف على ثمانين بيتا فاقتصرنا منها على الابيات الآتية قال في مطلعها:

لا تسل اذ تلظت الهيجاء حينما غص بالجيوش الفضاء
حينما زلزل العجيج الروابي حين مادت باهلها الغبراء
وتوالى من البنادق برق أشعلت من وميضه البطحاء
ودوى في الفضاء قصف رعود زلزلت من هزيمها الارجاء
وتعالى من الدخان غمام فاكفهرت خوفا لذاك السماء
وهمى منه للقنابل سيل هو نار فوق الثرى لا ماء
فيلق اثر فيلق يترامى بالجيش ضاقت به البيداء
انكليز مثل البحار اندفاقا وبوير هم صخرة صماء
فرقة بالعرمرم الجم ترمى لم تفدها شجاعة ودهاء
صدت الكثرة الشجاعة حينا انما كان للثبات انقضاء
واخيرا غدا البوير محاطـين بسور جدرانه الاعداء
حين امسى تهوزاً كل م اقدام ولم يبق في النجاة رجاء
فانقضت نوبة الجهاد وصارت باطراح السلاح توقى الدماء

ومنها يصف اشراف كرنجي على الجزيرة وطيف نابوليون :

اقبل الليل غاشيا مثل بحر فوق بحر لستره إرخاء
بحر هم على الاسير خلا م فيه باوهامه فطال الخلاء
فرأى في الفضاء طيف خيال قد كساه الجلال والخيلاء
طيف جبار امتلا الافق منه وبيمناه مست الجرباء
وكرملين قيصر تحت رجليه م واهرام الجيزة القعساء

كلما ماد موطئا قدميه عضدته بكفها الجوزاء
حوله للملوك تيجان عز ألبستها غبارها الهيجاء
وسيوف هام العدي ثلمتها وكستها لون العقيق الدماء
واكاليل الغار تزهو عليه لم ينلها مع التمادي العفاء
مشهد هائل لطيف جليل زلزلت منه الصخرة الصماء
ينجلي كلما دنا الفلك منه وتزيد الجلالة الشماء

* * *

عم مساء ياذا الخيال المفدى ليت كل الملوك عنك فداء
لم تسع اوربا علاك فأنى تحتويها جزيرة جرداء
كم عروش تزعزعت تحت م رجليك فلم لايغوص هذا العراء
أنهاب البحار منك انهارا ووقارا يرتد عنه الماء
ليت شعري هل حيث امسيت تاج وسرير وصولة وبهاء
ومباني التويلري باذخات جلست في صروحها العلياء
وقضاء ودولة وجنود لك منها الاطاعة العمياء

* * *

ايها ذا النزيل أهلا وسهلا لايرعك السكون والادجاء
لك في الحي سلوة وعزاء لك فيه تجلة وسناء
لك معنا مقام مجد سني لك منا مودة واحتفاء
ليس ذنباً جهادك الحق لكن أصبح الحق ماله نصراء
سقطت دولة الضمير وولت وتولت مكانها الاهواء
لم تمد قوة تؤيد حقا فقضى الحق . للصحاب البقاء
طمع الناس في المنى قد تناهى ومآل الاطماع طبعاً عداء
فطغى الموسرون والاقوياء ومني بالمظالم الضعفاء
لايسؤك الهوان غدرا وظلما لك من راحة الضمير جزاء
ولك القيد حلية بك تزهو وبك السجن قد كساه البهاء

توسف الاسد في القيود ولكن يطلق الكلب والظبا والشاء
ك في الكتب مدحة وثناء ولذي الغدر سبة وهجاء

***

قد كفاني نفيي لمنفاك اجراً فقامي فيما اقمت علاء
لي من طيفك الجليل انيس وبنجواك بهجة وعزاء
ان سجناً فيه سجنت زمانا لي صرح ملاه منك السناء
والنسيم الذي تنفست منه لي حياة بها يطيب البقاء
وضريحاً فيه ثويت نعيم فيه اثوي حين الاله يشاء

* * *

رأيي في نابوليون بونابرت

لكل انسان كبيراً كان أم صغيراً عالما أم جاهلا صاحب منزلة رفيعة أم صاحب مقام عادي الحق في ابداء رأيه في الامور التي يبصرها أو يسمعها أو تتصل اليه اخبارها بالاستقراء بشرط ان يتوخى ايراد الحقيقة وأن يسترشد في ذلك بمشكاة النزاهة والتجرد عن الميل مع الهوى .

ولما كنت قد انفقت وقتا طويلا في دراسة تاريخ نابوليون الكبير وتعمقت فيه وتدبرت عدة مؤلفات كتبها عنه مؤلفون مختلفو الاجناس والنزعات السياسية والآراء الشخصية في أزمنة مختلفة في حياته وعلى اثر وفاته وفيما بعد ذلك حتى في أيامنا هذه وقد قيض لي ان استقي جانبا كبيرا من اخباره من مظانها في خلال ثمانية أشهر قضيتها في مسقط رأسه فلم أر بدا من ابداء رأيي في ذلك الرجل العظيم على نور التاريخ وسياقة ايراد حوادثه وبالاستنتاج المنطقي من دراسة حياته .

ان الاحكام الصادرة على نابوليون من مختلف المصادر يختلف مرماها باختلاف وجهة نظر الذين اصدروها وقد نشرنا طائفة منها فيما سبق من الكلام فلتراجع مفصلة في مواضعها .

ان تلستوي ينظر قبل كل شيء الى مصلحة بلاده ويبني حكمه على ماجره

عليها نابوليون من النكبات والارزاء فهو يصوره سفاحا مدمراً وضربة من ضربات الخالق ولا ينسب له فضلا ما في الاعمال العظيمة التي عملها بل يعزو ذلك كله الى صدفة او الى مجموع صدف من بدء حياته الى ختامها ويعريه من صفات سامية امتاز بها ويوشح الاسكندر الاول قيصر الروس ببرودها ولذلك يعتبر كلامه صادرا عن رجل تحرك الوطنية اوتار عواطفه ولاينبغي ان نعد رأيه كرأي مؤرخ نزيه يورد الحوادث على علاتها من دون أن يكون للميل مع الهوى شأن فيها فتلستوي ينظر الى نابوليون واعماله بمقلة واحدة ويغمض المقلة الاخرى وهو يرى مساوئه — وجل من لاعيب فيه — ويتجاوز عن التنويه بمحاسنه .

***

وتيارس السياسي الفرنسوي العظيم والمؤرخ الكبير انتقد شكل حكومة نابوليون زاعما أن ذلك الشكل لايضمن لها البقاء ولا لفرنسا المعيشة في السلم والهناء واتهمه بانه كان علة مصائب بلاده ولكنه لم يسعه الصمت عن القول ايضا انه كان في الوقت نفسه رفيق مآثرها الخطيرة وقد انصفه بالاعتراف بمقدرته على قيادة الجنود وادارة الممالك إلا انه ندد بافراطه وتجاوزه الحد وقال ان معاصريه اخطأوا بتفويضهم اليه حظوظ بلادهم تفويضا مطلقا ثم قال : ان اسناد السلطة اليه كان امرا محتوما بعد ما كان من فواجع تلك الثورة الجارفة وغوائلها الوبيلة وتطرف الذين قبضوا بايديهم على ازمة الاحكام في البلاد ولو ظهر شخص غير نابوليون في ذلك العهد وامتاز بشيء مما امتاز به نابوليون من الجرأة وسعة الحيلة وبعد النظر لعمل ماعمله نابوليون لان الامة الفرنسوية كانت قد نضب معين صبرها في الحالة التي صارت اليها وبلغ منها التبرم مبلغا عظيما ولاستسلمت هي اليه برمتها ليسكن الاضطراب الذي باتت تتخبط فيه . وقال تيارس ايضا: ان نابوليون انتشى بعد ذلك بخمرة الغرور وأخذ يسوق الفيالق الجرارة الى ساحات القتال فلم يقل عن مليون عدد الذين خروا صرعى فيها بسببه .فتألبت اوربا جمعاء على فرنسا وقهرتها وسلبتها ثمرة انتصارات متوالية اصابتها في عشرين سنة . وختم تيارس حكمه على نابوليون بقوله : لاينبغي ان تسلم ادارة الدولة الى فرد كيفما كان ذلك الفرد وكيفما كانت الاحوال . ولكن لا يحسن بنا ان نذهل عن ان تيارس كان قلبه مشربا بالمبادىء الجمهورية وكان نافرا من شكل

الحكومة الملكية المطلقة فلم ير في نابوليون الا طاغية يعمل لهدم تلك المبادىء ومع ذلك لم يحبس تيارس لسانه عن التنويه باعمال نابوليون الخطيرة الدالة على تفوقه بعد ماراى ان نابوليون لم يكن في حروبه مهاجما بل مدافعا وأن الدول كانت تتعمد القضاء عليه والتملص منه بشهرها الحرب عليه منفردة ومتحدة

***

واللورد روزبري السياسي البريطاني الداهية كان من اكبر المعجبين بنابوليون بونابرت واسرته وكان ذلك الاعجاب مبنياً على التروي والذكاء والفراسة وقد نشأ فيه منذ حداثته فانه بعد ما طالع جميع الاسانيد البريطانية والفرنسوية التي استند اليها المؤرخون الذين كتبوا تاريخ نابوليون والامبراطورية الاولى وتفهمها ومحصها كمؤرخ مدقق نظر اليها بعين السياسي المحنك الخبير باظهار دقائق الامور للعيان بايراده اعتبارات فلسفية اجتماعية يتصيدها القارىء من سرد حوادث تلك المأساة الاليمة الذكر وقد حاول اللورد روزبري ان يدفع معرة الغضاضة عن بني قومه ومع اعتقاده بأنهم أتوا عملا منكرا بمعاملة نابوليون بتلك المعاملة التي اشتهر امرها في مشارق الارض ومغاربها لم يشأ أن يدع وصمة الخزاية تلصق بهم وتعرضهم للتنديد فرأى أن يخفف شيئا من وطأتها بقدر الامكان وهانحن نورد كلاما موجزا يعبر عن حكمه قال :

« ان مؤتمر فينا يستحق اللوم على قضائه المبرم على نابوليون بالابعاد ولكن لم يكن بد من ذلك للتأمين العام وهذا ماجعل الحلفاء يقضون بحصر نابوليون حصرا غير محدود المدة مع انه لم يكن متمرداً ولا أسير حرب ولا جانيا حكمت عليه محكمة قانونية . وكانت ذمة البريطانيين بريئة من تهمة مقتل نابوليون لان تشريح جثمانه أثبت أنه لم يمت في جزيرة القديسة هيلانة بداء الكبد بل بالسرطان الذي ورثه عن ابيه . »

واستقبل البريطانيون بحماسة شديدة الكتاب الذي وضعه اللورد روزبري عن نابوليون لانه اماط لهم اللثام عن حقائق قاسية بكلام صريح وتلقاه الفرنسويون بارتياح لانه عبر عن عواطفهم الصادقة ومما قاله: ان انفراد الحكومة البريطانية بالقيام بخفارة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة جلببها بجلباب الصغارة ولا سيما اختيارها اشخاصا لاخلاق لهم لاجراء أوامرها فاذا كانت

ذكرى القديسة هيلانة تثير الاشجان في قلوب الفرنسويين فان ذلك الاسم يثير مالا يقل عن ذلك في قلوب البريطانيين

فيستنتج من كلام اللورد روزبري انه كان من اصحاب المبادىء الشريفة والوجدان الحي لايوارب ولا يحابي بالوجوه فقد انتقد نابوليون حينما وجد مسوغا للانتقاد ولم يوفر حكومته حينما رأى أنها جنحت عن الطريقة المثلى .

***

ثم ان دي بوريان رفيق نابوليون في حداثته وصباه وشبيبته وكاتب سره في عهد القنصلية كان اكثر اطلاعا من سواه على عجره وبجره وباديه وخافيه وفي المقالة التي أخذناها عنه بعنوان «نابوليون الحقيقي» ونشرناها في التاريخ مايبين خطأ الذين ينسبون الى نابوليون اموراً كثيرة تخالف الواقع سواء كان ذلك في المدح له او في القدح به . وعندي ان حكم دي بوريان عليه أسد من حكم غيره على أنه لايخلو في بعض الأحيان من التحامل عليه وقد بعثه على ذلك التشفي منه بعد مافصله من منصبه وجعله معرضا لضيق ذات اليد

***

ومنزوني شاعر ايطاليا المطبوع كان يقيم النكير على كثير من اعمال نابوليون وقد نظم لذلك قصائد طويلة ضمنها التنديد به ولكنه لما انتهى اليه نعيه خشع طرفه فأوصد بابه واختلى في منزله يومين كاملين متواليين وطلب من زوجته أن تعزف على البيانو عزفا متواصلا في خلال تلك المدة . ونسج برد منظومة جاءت تحفة في بابها ولم ينسجها على منوال القدح او المدح بل جعل موضوعها اعتبار نابوليون آية من آيات القدرة الالهية متجلية بمجالي الخير او الشر .

وقد ذكرتني تلك القصيدة بكلمة فاه بها نابوليون وهي « ان القبر يظهر فضل عظماء الرجال » وكأني بجميع الذين حملوا حملات شعواء على نابوليون في ابان حياته لم يسعهم بعد موته الا الاعتراف باعماله العظيمة وقد سلكوا طرقا مختلفة في التعبير عن تلك القضية التي لم يستطيعوا انكارها

***

ان نابوليون هو ابن نفسه ولم ينشأ في وسط كالوسط الذي ينشأ فيه اولاد الملوك الذين يتخرجون في مدرسة خاصة يتلقون فيها من نعومة أظفارهم مايحتاجون

اليه للقيام بالمهمة التي ينتدبون لها في مقتبل ايامهم ولذلك اضطر هو الى درس تلك المهمة وتجربتها بنفسه ليتسنى له الاضطلاع بهـا . وهذا هو السبب الذي من أجله يرى متدبر تاريخه اختلافا في افـكاره ومراميه في ادوار حيـاته فالثورة التي اتخذها مرقاة لنيل التقدم في معارج العلاء أصبحت — بعد وصوله الى منصة القنصلية — قذى في عينيه فجعل من وكده مكافحتهـا سراً ابتغاء تقليم اظفارها وتعفية آثارها لانه كان متأ كدا أن استمرار الغوغاء على العيث فسادا والعبث بالامن العام وركوب اهوائها يصير بالبلاد الى شر مصير . فامسى عدوا لدودا للثورة مع انه كان ابنها ولم يبق من هم بعـد ذلك لذلك الابن الا خنق أمه .

وا كبر خطأ ارتكبه نابوليون هو الابقاء على الملوك بعـد انتصاره عليهم مع مقدرته على دك عروشهم وتقويض سلطانهم وتصيير سؤددهم اثرا بعد عين وقد اعترف هو بخطأه من هذا القبيل — بعد فوات الفرصة — وكان يجاملهم طمعا باستمالتهم اليه لتوطيد اركان عرشه وتمهيد السبيل لمستقبل مجله

ومن الهفوات الـكبيرة التي اقترفها طلاقه لجوزفين فقـد كانت — بقطع النظر عن خفتها وطيشها واسرافها وتقول الناس عنهـا — معينة له ومرشدة ومشيرة عليه بالخير وقد صحبته في الضراء والسراء وكانت تحبه وتبتغي هناءه وراحته . وكان الفرنسويون يحبونها لفضلها وعطفها عليهم . ومما زاد في الطين بلة اقترانه بعد تطليقها بامرة نمسوية فضلهـا على شقيقة قيصر الروس بعد ما دارت المفاوضات بين باريس وبطرسبرج على اقترانه بالغرندوقة الروسية . وقد كان لذلك شأن كبير في حمل قيصر الروس على حمل الحقد عليه لاعتباره تفضيل كريمة امبراطور النمسا على شقيقته ماسا بكرامة اسرته .

وكانوا ينتقدون نابوليون على اكثاره من الـكلام في الحين الذي يجب عليه فيه أن يكون مقلا منه ولـكنه بعـد تقلده لمنصب القنصلية صار حريصا على كتمان مايكنه ضميره . واصبح يحاذر أن يعرب عن حقيقة افـكاره فـكان يفصح عما يريد هو أن يجعل الناس يتوهمون أن كلامه يترجم عن افـكاره

***

أما افكاره في مايتعلق بالدين فلم تكن صريحة من جميع وجوهها فكان يعتقد بوجود الله وينكر الوحي وتمادى به الغرور الى المجاهرة بانتحال حقوق دينية زعم أن منصبه السامي يخوله اياها . ويمكن القول بالاجمال انه كان يستعمل الدين ذريعة لنيل اغراضه وله في ذلك آراء سخيفة نضرب عنها صفحا الآن وقد اوردناها في التاريخ .

وفي الفصل الذي نشرناه بعنوان « أحاديث نابوليون » أمور غريبة عن ذلك الرجل تدل على كثير من المتناقضات في أقواله من وجهة الدين والدنيا : وكان الذين يعرفونه حق معرفة من المقربين اليه يستدرجونه في غالب الاحيان الى التصريح بامور تعود عليه بالخزي وتدل على ضعف آرائه وسخافتها في بعض الموضوعات .



أما من جهة علاقته بالنساء فقد كان في شبيبته خاضعاً لسلطان الهوى وقال هو عن نفسه انه كانت له سبع عشيقات . ولكنه لما جلس على عرش الامبراطورية أعرض عن معاشرة النساء لزعمه أنه كان يخشى من تسلطهن عليه وتأثيرهن فيه .

ولم يكن على شيء من الكياسة في معاملته للنساء بل كان يغلظ لهن في الكلام في بعض الاحيان أو يخاطبهن بكلام يستنن منه . وكان يزعم أن المرأة لم تخلق إلا لولادة الاولاد . وأظن انه لو بعث الآن وشاهد منهن الاعمال الكبيرة التي يزاحمن فيها الرجال مما يدل على أن فيهن استعداداً فطريا كامناً لا يقل عن استعدادهم له فهو كالنار الكامنة في الحجر يظهرها الاقتداح لغير اعتقاده فيهن ولأنصفهن حقهن .



ولم يكن نابوليون يعتقد بالصداقة ولذلك لم يكن يحب أحداً محبة صادقة وقد جاهر هو بذلك .



واشتهر نابوليون بالبخل وكان من أهم أسباب الخلاف بينه وبين جوزفين زوجته الاولى إسرافها ويقال إنه ورث تلك الخلة عن والدته على أن بعضهم عالج

أن يخفف عن والدته الملامة من هـذا القبيل وقال إن السبب في إمسا كها هو انها كانت في حياة زوجها وعلى اثر وفاته قد ذاقت طعم شظف المعيشة وضيق ذات اليد ولذلك كانت تميل الى الادخار ورأوا بعد سقوط دولة ابنها انها كانت مصيبة في الادخار لانها كانت تمـد أولادها بالمساعدة مما اقتصدته ولولا ذلك لعادوا الى ما كانوا عليه قبلا من الفاقة .

***

وكان نابوليون شديد العطف على إخوته وأخواته وضعيفاً معهم وقد سعى لاجلاسهم على العروش وإحلالهم في الهيئة الاجتماعية مكانة عالية ولـكنهم قابلوه بنـكران الجميـل ولم يكتفوا بما جاد به عليهم من الايادي والعوارف بل كانوا يطمعون بأ كثر من ذلك وكانت حماقتهم تزين لهم التآمر عليه .

***

وعندي ان من أ كبر الاغلاط السياسية التي ارتكبها نابوليون كانت حروبه في اسبانيا وتدخله في شؤونها فانها اضطرته الى تجريد البعوث وتجنيد الفيالق وإرسالها الى تلك البلاد وكان ذلك يقضي عليه بأن يترك خصومه الآخرين وشأنهم فكانوا يغتنمون الفرصة ويضمون متفرق شملهم ويعودون الى مواثبته وكان يجب عليه أن يتخذ من حروب لويس الرابع عشر في اسبانيا وتدخله في أحوالها وإجلاس حفيده على عرشها عبرة ومثالا فقـد كانت تلك الحروب شؤماً على ملك فرنسا وأفضت الى ضعضعة أركان حكومته .

***

من المشهور أن مدبري الثورة الفرنسوية لم يوقدوا نارها إلا على اثر استشراء الفساد في بلادهم واستبداد أصحاب السلطة فيها فان المظالم التي طفح كيلها أحرجت الشعب الفرنسوي فأخرجته وكان قد قام بين ظهرانيه طائفة من كبار الـكتاب الاجتماعيـين وبثوا في الامـة روح الحرية والنزوع الى الاستقلال وزرعوا بذورهما في الافئدة فافرخت ونمت واثمرت ولما حان قطاف الثمار هبت الامة وكان تمادي اصحاب السلطة في العسف والارهاق اكبر مساعد لهـا فانفجر مرجل الثورة انفجاراً هائلا لايزال ذكره يهز اوتار القلوب رعباً وهلعاً وانتشر الشقاء وعم البلاء وكادت البلاد تدمر تدميراً والتهمت نار الثورة

جميع مضرميها المتطرفين الواحد منهم بعد الآخر وقد طهرت الهيئة الاجتماعية الفرنسوية من ادران المخازي وبترت الاعضاء الفاسدة فيها وثاب من بقي من العقلاء الى رشدهم بعد ما نهكت قواهم واصبحوا ميالين الى السكينة والى رؤية الاحوال تعود الى مجاريها . وبعد التجربة على يد الكنفنسيون والديركتوار دبرت العناية الالهية ظهور شخص بعيد النظر حديد الفؤاد عالي الهمة اشد اعتدالا من سراه في مبادئه ومنازعه وهو الجنرال نابوليون بونابرت فاغتنم الفرصة من تضعضع أحوال الديركتوار والشقاق الشاجر بين أعضائه وافضت مساعيه الى التدابير التي تمت في ١٨ بروميير وكانت قضاء مبرماً على الجمهورية وفاتحة للملحمة الكبرى التي جرت وقائعها في عهد القنصلية والامبراطورية وانتهت في سهول واترلو . واخمدت نار الثورة التي اصبح لسانها المندلع يلتهم الاخضر واليابس في آخر الامر . وقد استوسق له الامر في بلاده وضرب على ايدي الاحزاب الطامعة بهدم صرح حكومته والقضاء على سؤدده ولكن لم تصف له الحياة من جهة الدول الاجنبية فان خوفها من تعاظم مجده وتفوق بلاده بعثها على تأليف المحالفات ومواصلة مقاتلته وقد كان لها ما ارادت في آخر الامر فاكرهته على القاء سلاحه والخروج اعزل من ميدان القتال والقت به على صخرة صماء في عرض المحيط الاطلسي فقضى عليها نحبه بعد ما ذاق اشكالا والواناً من العذاب المادي والادبي .



ويمكننا أن نحصر حكمنا على حسنات نابوليون بونابرت بالكلمات القليلة التي فاه بها دي شاتوبريان الكاتب الفرنسوي المشهور ولم يكن من محبيه :

« ليس بونابرت عظيما بكلامه وخطبه وكتاباته ومحبته للحرية ولم تكن فيه قط ولم يسع قط لتوطيد اركانها ولكنه عظيم لانشائه حكومة منظمة شديدة البأس ومجموعة قوانين يجرون بموجبها في بلدان كثيرة ومحاكم عدلية ومدارس وادارة قوية ونشيطة ومتنورة لا يزال الفرنسويون سائرين عليها الى يومنا هذا . وهو عظيم لانه بعث ايطاليا من موت الخمول وانارها بمشكاة الرقي والعمران وادارة شؤونها ادارة مقرونة بالحكمة والسداد . وهو عظيم لانه جعل النظام في فرنسا ينشأ من العدم ورمم المعابد وجعل أنصار ثورة الشعب وأحلاف

الهيج والعلماء المتعجرفين والادباء الفوضويين والجاحدين الفلتاريين وخطباء الشوارع والقتلة في السجون والسبل والثرثارين الذين يعلون المنابر ويتصدرون المجالس والمنتديات يسلسون قيادهم له ويأتمرون بأوامره . . . وهو عظيم لانه ابن نفسه ولانه عرف — وليس له من هاد سوى دهائه — كيف يجعل ستة وثلاثين مليونا من البشر يطيعونه في عصر لم تبق فيه العروش مكتنفة بالاوهام وهو عظيم لانه قهر جميع الملوك المماكسين له وكسر جميع الجيوش على اختلاف تدريبها وبسالتها وجعل الشعوب المتسكعة في ظلمات الهمجية تعرف اسمه كما تعرفه الشعوب الرائعة في رياض المدنية . وقد فاق جميع الفاتحين الذين تقدموه وملأ عشر سنوات اعمالا عجيبة يتعذر على الانسان فهمها الآن . »

***

وحسبنا أن نردد ما قاله الشاعر العربي « والفضل ما شهدت به الاعداء » بعد معرفتنا ما كان دي شاتوبريان يضمره من القلى لنابوليون بونابرت والنفور منه .

ولا نتوسع في الكلام في هذا الموضوع بل نترك القارىء يستنتج — بعد مطالعته لكتابنا هذا — مما يجده فيه من الحوادث العظيمة ان الانسان مهما عظم مقامه وسمت منزلته في الهيئة الاجتماعية لا يخلو من نقص في اعماله واخلاقه ومبادئه وجميع اطوار حياته وفي هذا ما يدل دلالة صريحة على أن الكمال لله وحده . فنابوليون بونابرت من الافراد الذين يندر وجودهم في العالم ويعدون من فلتات الطبيعة ولا يظهرون الا في فترات متباعدة كاسكندر المقدوني وقيصر الروماني وغيرهما من الذين حفظ التاريخ ذكرهم

واذا وضعنا في كفتي الميزان حسنات نابوليون وسيئاته رجحت كفة الحسنات لان السيئات ذهبت في حينها أما الحسنات فباقية الى ماشاء الله

ولا بد من قراءة تاريخ نابوليون بونابرت بتروٍ وتأمل ليرى القارىء ان ذلك الرجل كان آية من آياته تعالى في هذا العالم ؟

الياس طنوس الحويك

مصر في ٢٦ فبراير سنة ١٩٣١

جدول اسماء الاعلام فى الجزء الثالث

لما كانت ترجمة بعض اسماء الاعلام من اللغة الفرنسوية الى اللغة العربية تبعث على الابهام والالتباس في بعض الاحيان رأينا ان نضع جدولا لاسماء الاعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الاول وقد اتبعناالترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية :

اباتوشي	Abbattucci	اسكار	Oscar
الاباي آوبوى	L'abbaye-au-Bois	الاسكنديناوية	Scandinave
ابرفيه	Epervier	اسلندا	Islande
الاتوال	L'Etoile	اطالان	Athalin
اجاكس	Ajax	اغمون	Egmont
ادجاسيو	Adjacio	آفن	Avesnes
ادهمار	Adhmar	افيتي	Aviti
اربل	Arbelles	اكسفورد	Oxford
أرثور	Arthur	البوف	Elbeuf
ارديتزوني	Ardizzoni	البي	Albi
ارسس سوراوب	Arcis-sur-Aube	الدن	Eldon
ارشمبول	Archambauld	الديبير	Aldibert
ارنول	Arnoult	الفينزي	Alvinzi
اريغي	Arrighi	اليريا	Aleria
عمانوئيل آرين	Emmanuel Arène	اليزانو	Alezano
ازنكور	Azincourt	جورج اليوت	Gaorge Eliot
استراليا	Australie	جاك إمبيزورا	Jacques Ambizora
استروفنو	Ostroweno	اميري	Emery
استوكهلم	Stockholm	انجلو	Angelo

انجلورج	Ingelurge
أنجو	Anjou
اندنتد	Undaunted
انغوليم	Angoulème
انكنستان	Inconstant
انكونا	Ancone
اوبرا	Opéra
اوجيني	Eugénie
اودنبورغ	Oedenbourg
اودين	Udine
اورو	Oro
كمبو دلاورو	Campo del Oro
اوزوبو	Osopo
اوشر	Ussher
ايتون	Eton
ايزوب	Esope
ايشستاد	Eichstadt
ايل روس	Ile Rousse
اعلترود	Emiltrude

ب

باترست	Bathurst
بادرو	Padro
باستيا	Bastia
دي باصانو	De Bassano
بالانش	Ballanche
بالم	Palme
بالمرستين	Palmerston
باهيا	Bahia
بسكال باولي	Pascal Paoli
هياسنت باولي	Hyacinthe Paoli
بايار	Bayard
البنيار	La Pépinière
بتزو	Pezzo
بدلام	Bedlam
البرازيل	Le Brésil
بربيكايا	Berbikaja
برتو فراجو	Porto Ferrajo
برتولاي	Berthollet
برتولدي	Bertoldi
برتون	Burton
قيصر برتيه	César Berthier
دي برني	De Bernis
بريار	Briars
بريان	Briand
كوستادي بستليكا	Costa Di Bastelika
بطولماوس	Ptolémée
بكر	Becker
بلابرا	Pellaprat
البلاتينا	Le Palatinat
بلامبين	Palampin
مون بلان	Mont Blanc
بلانشار	Blanchard

البل بول	La Belle -Poule	بوستانيكو	Postanicho
بلفيدير	Belvédére	بوشه	Bouchet
بلانكي	Blanqui	بوفو	Beauvau
بلكب	Balcombe	ا ن بولن	Anne de Boleyn
بلوك	Block	بطرس بولتي	Pierre Poletti
بلوى	Blois	كابودي بولو	Capo di Polo
البليار	Le Billard	بولي	Poli
بليارد	Billiard	نويل بزليازي	Noël Pugliesi
البليروفون	Le Bellérophon	بومبار	Bompars
بليموث	Plymouth	ماريان بونابرت	Marianne Bonaparte
بنبري	Bonbury	بوناروتي	Buonarroti
بو	Pau	بونافيتا	Buonavita
بواسي	Poissy	بوناونتورا	Bonavanture
دي بواسيو	De Boissieu	بونيفاتزينو	Bonifatzino
راعون بوانكاره	Raymond Poincaré	بياتري	Pietri
		هنري بيارنجلي	Henri Biarengelli
بوبلتن	Poppleton	بيارون	Pierron
ماثيو بوتافوكو	Mathieu Bottafoco	بيانا	Piana
		اغناطيوس بيانلي	Ignace Pianelli
بوتزودي بورغو	Pozzo di Borgo	بيرالدي	Biraldi
اليزه بوربون	Elysée-Bourbon	بيرتي	Peretti
بورتسموث	Portsmouth	بيرنجه	Bérenger
بورتيسيولو	Porticciolo	بيرون	Biron
بورتيكيو	Portichio	جان بيري	Jean Piri
بورليه	Porlier	البيزنطيون	Les Byzanthins
المورننج بوست	Le Morning Post	بيسه	Beysser

بيغوليا	Bigolia	بينيارول	Pignerol
بيليه	Pillet	بينيون	Bignon

ت

تافينيانو	Tavignano	تشارنر	Tscharner
ترافو	Travot	تشرتشل	Churchill
ترستان	Tristan	تشسترفلد	Chesterfield
دي ترم	De Thermes	تشيزلهرست	Chiselhurst
ماريان ترنانو	Marianne Ternano	تور والدسن	Thorwaldsen
المجمع التريدنتيني	Le Concile de Trente	تولا	Toula
تشاتام	Chatham	تومينو	Tomino
		تيبورس	Tiburce
		تيرايني	Tyrrhéniens

ج

جافيري	Giafferi	جوكور	Jaucourt
الجزة الذهبية	La Toison d' Or	جوليا	Julie
جوان	Juan	جوليو جوستنياني	Julio Justiniani
دي جوانفيل	De Joinville	جيرار	Gérard
جوفانالي	Giovanalli	جيلي	Gilly

خ

خرطوش	Cartouche	خيو	Chio

د

دارفور	Darfour
دتفور	Deptfort
درطوى	D'Artois
جوردان دزورسان	Jourdan Desoursan
فنشنتلو دستريا	Vincentello d'Estria
بول دشانل	Paul Deschanel
دلبرغ	Delberg
دلمي	Dalmeny
دمبرتن	Dumbarton
دموريه	Dumouriez
دنوتز	Dennewitz
فكتور دوبراي	Victor Dubray
الدوراد	La Dorade
الفونس درنانو	Alphonse d'Ornano
دوره	Doret
اندره دوريا	André Doria
كاميل دوريا	Camille Doria
دوشاتل	Duchâtel
دوفر	Douvres
موتون دوفرنه	MoutonDuvernet
دوفو	Duphot
الدوفينيون	Les Dauphinois
بول دومر	Paul Doumer
دوناي	Donnay
ديانا	Diana
الديبا	Les Débats
ديني	Digne
ديون	Dillon

ر

رامل	Ramel
رامو	Rameau
حنة دي رتشيلد	Hanna de Rothschild
دي رشتاد	De Reichstadt
رمبويه	Rambouillet
الرملة	Ramleh
روايل	Rueil
روبيكون	Rubicon
روتندو	Rotondo
روسان	Roussin
بنتي نوفو دي روستينو	Ponti novo di Rostino

Rossi	روسي
Arrigo dellaRocca	اريغو دلاروكا
Polo della Rocca	بولو دلاروكا
Judici dellaRocca	جوديشي دلاروكا
Roccabina	روكابينا
Rogliano	روليانو
Romanowsky	رومانوفسكي
Romay	روماي
Romilly	روميلي
Réal	ريال
Thomas Reade	توماس ريد
Richard	ريشار
Rigozo	ريغوزو
Aimée Dubuc de	اءمه دي بوك
Rivery	دي ريفري
De Rivière	دي ريفيار
Rinozo	رينوزو

ز

Zénaïde	زنايد
Zikendi	زيكندي

س

Sartrouville	سارتروفيل
Sartène	سارتين
Sarry	ساري
Sassary	ساساري
Sacile	ساشيل
Salario	سالاريو
Saint Antoine	سان انطون
Angèle Marie	انجال ماري
Pietra Santa	بياترا سانتا
PontSaint-Esprit	بون سانت اسبري
Sainte Barbe	سانت بارب
Sainte- Croix d'Antin	سانت كروي دنطان
Saint Jean d'Ulloa	سان جان دولوى
Saint Jean de Losne	سان جان دي لون
Saint Germain en Laye	سان جرمان انلاي
Saint-Daniele	سان دانيالي
Saint-Denis	سان دني
Saint Sever	سان سيفر
Saint Gothard	سان غوتار
Saint Florent	سان فلوران
Saint Marceau	سان مرسو
Saint Weilh	سان ويله
Sahuc	ساهوك
Spa	سبا
Julio Spinola	جوليو سبينولا
Strati	ستراتي

Smorgoni	سمورغوني	Steingel	ستنجل
Cinna	سنا	Marie Stuart	ماري ستوارت
Santini	سنطيني	Stokœ	ستوكو
Sanguinaire	سنغينار	Servioni	سرفيوني
Senhouse	سهوس	Cernos	سرنوس
Superbe	سوروب	Szabad hegy	سزابا دهيجي
Soufflot	سوفلو	Sussex	سسكس
Solenzara	سولنزارا	Socrate	سقراط
Cornélius Scipion	كرنيليوس سيبيون	Scarambi	سكارامبي
Seras	سيراس	Skelton	سكلتن
Severoli	سيفيروله	Walter Scott	ولترسكوت
Sylla	سيلا	Dona Emilie-Salzi	دونا اميلي سلزي
Cicaldi	سيكالدي	Sempiaro	سمبيارو
Seymour	سيمور	Le Cimbre	السمبري
Simioni	سيميوني	Samanhoud	سمنود

ش

Chartran	شرتران	De Chabot	دي شابو
Cinto	شنتو	De Rohan-Chabot	دي روهان شابو
Chantereine	شنترين	Les Chartreux	ألشارتروز
Chandelier	شندليه	Charles XIII	شارل الثالث عشر
De Chauvelin	دي شوفلان	Chaptal	شبتال
Citarka	شيتاركا	Chebreis	شبريس
Ciretti	شيرتي	Cherbourg	شربورغ

ص

صموئيل	Samuel
صو	Sceaux
صوربلو	Sorbello

ط

طاراڤو	Taravo
طرغوفيا	Thurgovie
طروادة	Troie
طنريف	Ténériffe
طوبيا	Tobie
طورباي	Torbay
طورين	Turenne
طوشار	Touchard
جيمس طون	James-Town

ع

عبد الحميد الاول	Abd-ul-Hamid 1er
علي باشا	Ali-Pacha
عمانوئيل	Emmanuel

غ

غاب	Gap
غافوري	Gaffori
غافيني	Gavini
غاليانو	Gallieno
فرنسوى غاليني	François Gallini
غاند	Gand
تاداي غبريالي	Taday Gabriali
غراس	Grasse
غراسيني	Grassini
غرافونا	Gravone
الغراك	Les Gracques
غرانفال	Granval
غرانفيل	Granville
غراي	Grey
جوفاني دلا غروسا	Giovani della Grossa
غريغوريوس السابع	Grégoire VII

غريغوريوس غريمالدي	Grégoire Grimaldi
هنري غريفيل	Henri Greville
غرينوبل	Grenoble
غرينيه	Grenier
غستاف الرابع	Gustave IV
غلادستن	Gladstone
غنتز	Gantz
غوريكور	Gauricourt
الغوطيون	Les Goths
غولو	Goulo
دي غيكلان	Du Guesclin
غيلوى	Guillois
غيليار	Guillard
غيه	Guyet

ف

الفار	Le Var
فاروس	Pharos
فازيو	Vasio
فالفسكا	Walewska
فالفسكي	Walewski
فاليزي	Valézi
فاني	Fanny
فيزافونا	Vizzavona
جاكوبو فراتينو	Jacobo Ferratino
فران	Ferrand
فرانز	Franz
فرنسيس الاول	François 1er
فرنكفورت على الماين	Francfort-sur-le Mein
فرنون	Vernon
فريول	Frioul
فريغوزي	Frigozi
فكتوريا	Victoria
فكريون	Idéologues
بورتو فكيو	Yorto-Vechio
كاستل فكيو	Castel-Vechio
فلوروس	Fleurus
فنتوريني	Ventouriny
فنتوز	Ventôse
الفندال	Les Vandales
فنزويلا	Vénézuela
فوى	Foy
لاتور فواساك	Latour-Foissac
فوراس	Fourès
فورست	Forest
فورستي	Foresti
فوستينا	Fostina
الفوسيون	Les Phocéens
فوشان	Vauchamps
فولني	Volney
فيزيل	Vizille
فيفاريو	Vivario

دي فيلال	De Villèle
فيلمان	Villemain
فيلنا	Wilna
الفيلوس	Le Véloce
فيليب اوغسطس	Philippe-Auguste
الفيلوكسيرا	Le Phylloxera
فينيالي	Vignali
فيو	Vio
فيو موريو	Vio Morio

ق

القاهرة	Le Cairé
القصير	Le Cosseir
قيصر	César

ك

كاب كورسينو	Cap Corsino
كابيتلو	Capitello
كاتانيو	Catanio
كاتب عدل	Notaire
كاتو كمبريزيس	Cato Cambrizis
الكادورية	La Cadorique
كارنثيا	Carenthie
كاروسل	Carrousel
كازوني	Cazoni
كاستانيا	Castania
كاستري	Casterie
الكالابريون	Les Calabrais
كالبريا	Calabre
كالوغا	Kalouga
كالاي	Calais
كان	Cannes
مرقس سلستان	Mare—Celestin
كايتوكولي	Caïticuli
كاير	Cayres
الكبوشيون	Les capucins
كرغيزي	Corgheizi
كرنيليا	Cornelie
روبنصن كروزه	Robinson Crusoe
كروني	Kroni
المورننج كرونيكل	Le Morning Chronicle
كريزستوم	Chrysostome
جانوس كمبيو	Jous campio
كلانكرتي	Clancarty
كلبوف	Quillebouf
كلارندن	Clarendon
كلوزل	Clauzal
كلفي	Calve

كليمنصو	Clemen ceau
الكمامة الحديدية	Le Masque de Fer
كمبانيوني	Companioni
كنتربري	Canterbury
كناري	Canarie
كنزا	Kenza
كندا	Canada
كلستان	Constant
كنستانس	Constance
الكنكرد	La Concorde
كنتابل	Connétable
كنتنلتال	Continental
دسبان كوبيار	Déspan-Cobières
كوربفوى	Courbevoie
كورتو	Courtot
كورفو	Corfou
كوتى	Coti
كورسو	Coursot
دى كورساي	De Coursay
كورنر	Corner
الكوريه	Le Courrier
بوتزوكوستا	Pozzo Costa
كوستين	Custine
كوفين	Coffin
كوكبرن	Cockburn
كوكرو	Coquereau
متى كولن	Mathieu Collin
كولومبو	Colombo
كولونا	Colonna
كونتي	Conti
كيبرون	Quiberon
كيث	Keith
كينيت	Quinette

ل

لاباراتا	La Parata
لابالود	Lapalud
لابدويار	La Bédoyère
مكسيميليان لابورور	Maximilien Laboureur
لابي	Lapi
مرشال لاتي	Marchal Latti
دي لادروم	De la Drôme
بون دي لارش	Pont de l'Arche
بوندي لاروش	Pont de la Roche
مرسل لارتي	Marcel Laretti
لاروشفوكولد	La Rochefoucauld
لاسيديمون	Lacédémone
لافريت	Lafrète
لافيت	Laffitte
لافيجري	Lavigerie
لالمان	Lallemand

لامازا	La Maza
لامور	Lamure
ادولف لاندري	Adolphe Landry
لانزي	Lanzy
فال دي لاهاي	Val de La Haye
جيروم لاوي	Jérôme Levi
لاون الثاني عشر	Léon XII
لختمبرج	Leuchtemberg
لدفوكا	Ledvoka
ماري لكزنسكا	Marie Leczinska
لنتيفي	Lentivi
لندلف	Landolf
لوزان	Lauzun
لوشياردي	Luciardı
لوق	Luc
دميانو لوكساردو	Damiano Luxardo
لوفوى	Louvois
لوكنر	Lockner
لون ليسولنيه	Lons-le-saulnier
لوندش	Londes
لونود	Longwood
القديس لويس	Saint Louis
لويس الحليم	Louis le Débonnaire
لويس فيليب الاول	Louis—Philippe 1er
لياموني	Liamoni
جان دي ليبه	Jean de l'épée
ليبزيغ	Leipzig
ليتور	Letort
ليديا	Lydia
ليفربول	Liverpool
ليفنزا	Levinza
ليغوريا	Ligourie
ليفورن	Livourne
رينو آشيو دي ليكا	Rinuccio di Lega
ليكا	Lega
لميرسياي	Lemercier
ليني	Ligny

م

اليريوس ماترا	Alérius Matra
مادااليا	Madalia
ماديرا	Madère
ماره	Maret
مارس	Mars
مارلبورو	Marlborough
ماسون	Masson
ماسينايو	Massinajo
ماسيريا	Massyrie
ماريوبول	Maryoupol

ماريانا	Mariana
ما كون	Mâcon
مالفرنو	Malverno
ماليزيا	Malaisie
مالاسبينا	Malaspina
مانت	Mantes
مانويل	Manuel
مايتلاند	Maitland
دي مايلبوى	De Mailbois
متروسكي	Mettruski
متريدات	Mithridate
محمود الثاني	Mahmoud II
مدلمور	Middlemore
مرتمار	Mortemart
مرغريت	Marguerite
مس	Messe
مسكاردي	Muscardi
مصطفى	Mustapha
ملبورغتو	Malborghetto
ملكام او ملكولم	Malcolm
ملوريا	Melloria
منتيكو كولي	Montecuculli
منتالتو	Montaletto
منزوني	Manzoni
البستيد مورات	La Bastide-Murat
موارتو	Morato
موران	Morand
مورسيليا	Morsiglia
موسى	Moïse
موليطور	Molitor
موهيليف	Mohilew
مونج	Monge
مونشنو	Montchenu
ميجان	Méjan
ميري	Méri
ميلران	Millerand
ميو	Miot

ن

نابوليون الثالث	Napoléon III
سيتي نافي	Citi Navi
النرثمبرلاند	Le Northumberland
نرمنديا	Normandie
نروج	Norvège
دي نسلرود	De Nesselrode
نتزينتي	Nanzinetti
نوايل	Noailles
نوستاد	Neustadt
نوفار	Novarre

بياترودي نوفاريو	Pietro di Novaric
تيودوردي نوهوف	Théodore de Noheuf
نوفراز	Noverraz
نيبرغ	Niepperg
نيبو	Nippo
نيس	Nice
دومنيكو نيغروني	Domenico Nigroni
نينو	Nino
نيولو	Niolo
نيولينو	Niolino
نيومان	Newman



هاركور	Harcourt
هارولد	Harold
هام	Ham
هاملتن	Hamilton
هبهوس	Hobhouse
هدصن لو	HudsonLowe
هرنو	Hernoux
همبورغ	Hambourg
هنري الثامن	Henry VIII
هنري الرابع	Hrnri IV
هنريت	Henriette
هوثام	Hotham
هورماير	Hormayer
كارلتن هوس	Carlton-House
هوشار	Huchard
الهوغ	La Hogue
فكتور هوغنان	Victor Hughenins
هولاند	Holland
هيرودس	Hérode
هيوم	Hume



واردن	Warden
وسترمان	Westermann
وستمنستر	Westminster
ولس	Wells
روبرت ولسن	Robert Wilson
ولكس	Wilks
وليم الثالث	William III
وندسور	Windsor
ادورد ويليارد	Edward Wyniard

ى

يافا	Jaffa
يواكيم	Joachim
القديس يوحنا	Saint-Jean

شرعنا في اعداد تاريخ الامبراطور نابوليون الثالث وسيقع في مجلدين كبيرين يبلغ عدد صفحاتهما نحو ثماني مئة

فهرست الجزء الثالث

صفحة

ذيل الجزء الثالث

صفحة

فهرست الصور

الجزء الاول

الجزء الثانى

تجاه صفحة

الجزء الثالث

تجاه صفحة

